



عالمية الإسلام والعولمة

(مجموعة مقالات)

المؤتمر الدولي السادس عشر للوحدة الإسلامية

إعداد

السيد طه مرقاتي

کئثرانر بین المللی وحدت اسلامی اشانزدهمین: ۱۳۸۲
= تهران
تالمیه الاسلام والعولمه مجموعه مقالات:
اعداد طه مرقانی. - تهران: المجمع العالمی
للتقريب بين المذاهب الاسلامیه. اداره النشر و
المطبوعات. ۱۴۲۴ق=۲۰۰۳م=۱۳۸۲.
۴۸۸ س.

ISBN 964-7994-23-0

لیرستونویسی بر اساس اطلاعات نیپا .
عربی.

۱. وحدت اسلامی -- کئکرهها . ۲. اسلام -- جهانی
بودن -- کئکرهها . ۳. جهانی شدن -- جنبههای مذهبی
-- اسلام . الف. مجمع جهانی تقرب مذاهب اسلامی.
مدیریت انتشارات و مطبوعات. ب. مرقانی. طه -
کرد آورنده . ج. عنوان.

۲۹۷ ۴۸۲

BP۲۲۳۳/۵/ک.ع
ب۱۳۸۲

۱۰۲۲۵-۸۲م

کتابخانه ملی ایران



عالمية الإسلام والعولمة (مجموعة مقالات)

اسم الكتاب:

نخبة من الباحثين والمفكرين الإسلاميين

المؤلفون:

السيد طه مرقاني

إعداد:

عثمان يوسفی

مراجعة:

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - إدارة النشر والمطبوعات

الناشر:

الاولى - ۱۴۲۴ هـ.ق - ۲۰۰۳ م

الطبعة:

متكران للطبع

المطبعة:

۲۰۰۰ نسخة

الكمية:

ISBN: 964 - 7994 - 23 - 0

۰ - ۲۳ - ۷۹۹۴ - ۹۶۴

ردمك:

الجمهورية الإسلامية في إيران / طهران

العنوان:

ص . ب : ۶۹۹۵ - ۱۵۸۷۵

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المقدمة

إنعقد المؤتمر الدولي السادس عشر للوحدة الإسلامية تحت عنوان «عالية الإسلام والعولمة» والعراق يرزح تحت الإحتلال من قبل أميركا والمجترا رغم مخالفة مجلس الأمن في الأمم المتحدة وأكثر الشعوب.

هذا الواقع المرّ كشف عن واقع آخر هو أن ظاهرة العولمة وعلمية النظام الدولي في مجال الإقتصاد والثقافة والعلاقات ليس إلا أسطورة لاغير، وأن ما يضمه دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان ليس إلا علمية القدرة والظلم. وفي ظل هذه الفكرة يبعد أن تمتلك حدود الحرمة، وحقوق الشعوب أي موقع لها في العلاقات الدولية، إلا أن تقوم الشعوب المظلومة - خصوصاً المسلمون - بنفض غمار التفرقة - وكانت القوى الإستكبارية هي التي هيأت اجواءها - والتمسك بجبل الوحدة والتلاحم ورفع مستوى قدراتها وتطبيق اسلامها الذي يمتلك نظرية علمية وابلاغ هذه النظرة للعالم «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

وبعد وضوح السياسات الاستعمارية للقوى الكبرى، توضح واقع الشعارات المطروحة كالديمقراطية والرفاه لكل الناس والتمتع بالإمكانات.

وفي هذا الحال فإن الظروف المساعدة لتقبل الفكرة الجديدة القائمة على أساس العدالة والحرية متوفرة. وإذا درس العلماء في العالم الإسلامي الحاجات الإنسانية وحققوا في قدرة الإسلام الشامل والعالمي فإنه بإمكانهم أن يقدموا نموذجاً جديداً للعالمية ينسجم مع الفطرة الإنسانية ويشبع كل ما يحتاج إليه البشر.

السيد طه مرقاتي
أمين الهيئة العلمية للمؤتمر

عالمية الإسلام

خالد سيف الله الرحمانى

أمين عام المجمع الفقهي الإسلامي، الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

من أكبر خصائص الإسلام وميزاته، عليته وخلوده، فالإسلام دين عالمي خالد إلى قيام الساعة، إنه جاء بنظرية إله لا يخص ليهود أو نصارى أو لطائفة من الطوائف، وإنما هو إله الجميع ورب كل شيء ومليكه، وهو المتوحد في التصرف في الكون وتدبير الأمور، وإن كتاب الله القرآن أول ما شرع به من الآيات قد بلج هذه الحثيثة والمكانة للإله فيها، وقال: (الحمد لله رب العالمين) وجعل رسوله المصطفى محمد بن عبد الله (ص) رسولاً إلى كافة البشرية، قال تعالى:

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)^(١).

وقال: (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض)^(٢).

وإن رسالته (ص) ممتدة إلى كافة البشرية، ورسالته وسيلة للرحمات والبركات والخيرات والفضل لها، قال تعالى:

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(٣).

والكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى على هذا النبي (ص) لا يختصر على أمة دون أمة، ولا يخص بقوم دون قوم، أو بجيل دون جيل، أو كادر من الكوادر، وإنما هو منبع هداية ومصدر دلالة للبشرية جمعاء، وإن الله تبارك وتعالى يصف هذا الكتاب بعبارة سمقت في التعبير، وقال: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)^(٤).

وهذا يشعر بأن الكتاب المذكور منيع هداية لكل طالبي الحق، وفي مكان آخر أشار تعالى إلى هذه المعنى بعبارة أوضح من هذا فقال: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ^(٤٥).

ولا يوجد دين من أديان العالم ماجاهر بعالميته، مثل ماجاهر الإسلام بهذا القدر من الإيضاح والبيان، والنبي (ص) عبر هذه المطلب بعبارة هذه: (كان كل نبي يبعث إلى قوم خاصة، وأنا بعثت إلى كل أمة وأسود) ^(٤٦).

وفي أي موضع من مواضع الكتاب والسنة، لم يتم توجيه الخطاب إلى بني إسماعيل أو إلى العرب بالتخصيص والتعيين، مثل ماوجه الخطاب في التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية إلى الأمم والأقوام الخاصة، حيث وجه الخطاب فيها إلى إسرائيل وبنيه، وأما القرآن فإنه يوجه الخطاب إلى البشرية جمعاء، ويقول: (يا أيها الناس) وربما يخاطبهم بإعتبار إنتمائهم الديني وإنضمامهم إلى دين من الأديان بكلمات (المؤمنين) و(الكافرين) و(أهل الكتاب) ولم يخاطبهم أبداً بمنظور القومية والوطنية والعرقية، وهذا الجانب وحده يكفي لثبوت عالميته أو الاستدلال به عليها.

الشريعة الإسلامية وتناسقها مع الفطرة البشرية

والإسلام عدا عالميته يمتاز عن الأديان الأخرى بتناسقه وموافقته مع الفطرة البشرية، والمبدأ فيه أنه يجعل البشر أفضل خلق الله في الأرض وأشرفه وأكرمه، قال تعالى: (ولقد كرّمنا بني آدم وهملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ^(٤٧).

ومن الناحية الخلقية أيضاً جعل قالب البشر وبنيتها أنيق القوالب وأحسنها، قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ^(٤٨).

آية مكرمة وعز وشرف يتصور أعلى وأفضل من أن جعله الله خليفته في الأرض، قال تعالى: (وإذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة)^(١٠).

والقرآن جعل البشر أصحاب كافة الموجودات في هذا الكون، وأدل بأن المخلوقات برمتها لم يتم إحداثها وإيجادها إلا لخدمة البشر، قال تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا)^(١١).

وبناء على أنه خليفة الله في الأرض، يحق له أن يتصرف في هذه الموجودات في إطار الأحكام الإلهية وحدود الشريعة الإسلامية، قال تعالى: (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)^(١٢).

فلما أوجد الله جل شأنه هذا الكون بمحتوياته، وسخره لخدمة البشر وكلفه على اسداء خدماته نحوه، وأنزل عن طريق نبيه تعليمات وتوجيهات للعشرة وإمضاء الحياة، فيستدعي هذا بالطبع أن المنزل العليم الخبير قد راعى في أوامره وأحكامه انسجامها وتناسقها مع الفطرة البشرية، والواقع أن تعاليم الإسلام ووصاياه تتوافق في كل خطوة وكل منعطف مع الفطرة البشرية، تطابق مواصفاتها وتعادل معيارها، من أجل ذلك جعل الله تبارك وتعالى الإسلام دين الفطرة، وقل: (فطرة الله التي فطر الناس عليها)^(١٣).

ونفس هذه الفطرة قد عبرها القرآن في آياته بلفظه (الميزان) لأن الإيزان والوسطية التي اودعها الله تعالى في جميع موجودات هذا الكون، هي فطرة الكون الأصلية - المرأ عندما يبتعد عن الأحكام الشرعية وينعزل عنها فكأنه يطغى على ميزان الرب الذي أقامه، ويتمرد على مطالبه ويخرج عليها، قال تعالى: (إنا أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)^(١٤).

وميول الشريعة هذه، وصبغتها وطابعها الخاص هذا يبدو ويتلأأ في كل مكان وفي كل زاوية، مثل العقيدة والايمان والعبادة والمعاملات والقضايا الإجتماعية والحيوية، والقوانين الإجتماعية والمعيشية وما إلى ذلك من الجوانب.

وفي هذا الموطن يطيب لي أن أذكر بعض أمثلة يوضح هذا المعنى:

١- الأكل والشرب حاجة من حوائج الانسان الفطرية فلا يمكن أن يبقى حياً إلا بهما، وبعض مذاهب العالم جعل هذا المطلب الفطري أيضاً حاجزاً دون المراقى الروحية، وعائقا عن اجتياز مدارج الرقى والتطور الروحي، ففي الديانة الهندوسية يجب للتقرب إلى الإله والمعبود تحمل الجوع العطش، وعدم اتباع الوسائل لكسب المعاش على الأقل، وهي نظرية تتخذ بالغ الأهمية في هذه الديانة الهندوسية وتعم بين أفرادها، وعند النصارى لما غلبت الرهبانية على أهلها، فلم ير عندهم الأكل والشرب وكسب المعيشة بمنظار الاستحسان، وعلماء الديانة (بودها) يعولون حتى الآن على التكفف والتوسل أمام الناس، والنبي يعبر بكلمة (دكهشا) في مصطلحها الديني، لكن الأكل والشرب حاجة ملحة للبشر وليست لسدها وسيلة ذات شرف وعزوكرامة إلا وسيلة كسب المعاش، من أجل ذلك وإن نهى الإسلام عن الاسراف والتبذير لكن أذن للأكل والشرب يرغد العيش، وإتخاذ الوسائل لهما، بحرية وبساطة، قل تعالى: (كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) (١١).

وهكذا دعاهم وبعثهم على الإهتمام بكسب المعاش فقال تعالى: (إذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) (١٥).

والنبي المصطفى (ص) جعل كسب المعيشة من أهم الفرائض بعد تأدية حقوق الله، وقال:

(طلب الحلال فريضة بعد الفريضة) (١٦).

وحرص الناس على التجارة، وقال (ص): (الفاجر الصدوق الأمين مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين)^(١٣).

وبين فضل الزراعة والفلاحة وحرث الأرض لإنتاج ما يقتات به الناس، ثم
أحكام الحلال والحرام التي وضعها الإسلام، روعيت فيها تمام الرعاية مقتضيات
الفطرة البشرية، والجسم الإنساني يحتاج إلى الأغذية النباتية كما يحتاج إلى
اللحميات فروعت هذه الحوائج في الشريعة الإسلامية، والنباتات أو الحيوانات
التي بإمكانها أن تترك آثارا جانبية أو مضررات على الصحة البدنية أو على القوة
الفكرية والذهنية، وقدراتها الإدراكية، جعلتها الشريعة محرمة، والإفراط والتفريط
والمبالغة والتقصير الذي تنصف به الأديان الأخرى يمكن الشعور به حسياً،
وبطريقة واضحة.

فالديانة (الهندوسية) و(المجينية) ترى اقتنات اللحم من المحرمات، وحضارة
الغرب المعاصرة، والأمم العائشة تحت تأثيرها قد حلت الخمر والخنازير التي لها
أثر بالغ في كفيات دنانة الأخلاق وأوصاف الوحشية والحيوانية، وتترك آثارا
جانبية على الصحة البدنية والعدالة الفكرية والإتزان الذهني، فهما إفراط
ومبالغة أو تفريط وتقصير، وهما جميعا مبنيان على التمرد والخروج على الفطرة
الإنسانية والصرف عن مقتضياتها السليمة.

والملك الذي كان يرى منبع المفسد ومصدر الشرور والفتن ولا يرجى منه الخير
والصلاح والتنمية الروحية، قد عبر عنه القرآن بـ(الخير) و(الفضل) والكلمات
هذه ترمز الى أن الملك إن تم إكتسابه عن طريق حلال، ويصرف في مصارف الحلال
وسبيله، فلا يتصور شرا وإنما يتحقق خيرا، ولا يكون للإنسان دافع وزر وإنما
يكون دافع أجر، ولو سرحنا الأنظار إلى تعاليم أديان العالم السابقة المتعلقة بالملك

وكسبه، ثم قمنا بمقارنتها مع تعاليم الإسلام ليتجلى لنا أن الإسلام قد راعي فيه تمام الرعاية الفطرة الإنسانية والإنزان والعدالة.

٢- والجانب الآخر من جوانب رعاية الفطرة البشرية هي الأحكام التي عيَّنها الإسلام للنساء، فما زالت الأمم والأقوام في الإفراط والتفريط، والمبالغة والتقصير عن حقوق المرأة ومكانتها، وظلوا متجاوزين حدود العدالة والوسطية. والأديان التي مصنت قبل الإسلام جعلت المرأة بابا من أبواب المعاصي ومصدرا من مصادر المآثم، ورأي إلى وجودها بنظرة الإهانة والنزلة والإذلال، فلم تكن تستطيع أن تمتلك شيئا وتتولى على ممتلكات، ولم يكن لها نصيب في الميراث. ولا أن تعقد النكاح بنفسها، فكانت تتصور مدخلا من مداخل المآثم وتتصور مجموعة من المكر والخدعة والأكاذيب، حتى كانت النقاش دائرة بين علمائها عن أن الروح الموجودة فيها هي روح إنسانية أم روح حيوانية، أو روحها دون روح الانسان وفوق روح الحيوان، وإن هذه القسوة والعدوان لم تتحقق مراعاتها في قوانين البشر الوضعية فحسب وإنما كانت ديانات العالم المختلفة أيضا تحمل هذه التصورات والأفكار البالبة، فالإنجيل أيضا جعلت المرأة مبدأ كل المآثم، وكان هذا المآثم متأصلة إلى حد توارث جيلا بعد جيل، حتى أن عيسى - عليه السلام - حسب عقيدة الدين المسيحي، قد ألقى نفسه على الصليب تطهير للبشرية، وضحي نفسه شتقا للغرض نفسه، وكتب الديانة الهندوسية المقدسة المزعومة حافلة بمثل هذه الأوامر والوصايا بأسلوب أشد قساوة وغلظة جدير في هذا المكان بذكر البعض منها:

يجب على المرأة أن تظل في الطفولة تحت تصرف الأب، وفي الشباب تحت تصرف الزوج، وعقب وفاة الزوج تحت تصرف الأولاد، ولا يسع لها أن تستقل بنفسها^(١٨).

المرأة لا حاجة لها إلى العبادة، وخدمة الزوج هي أعظم عبادتها، وأكبر وسيلة لنجاتها، وليس لها (بيگيه) و(بوت) و(أياس) (أنواع العبادة في الديانة الهندوسية) وبمجرد خدمة الزوج تتلقى النجاة الأخرية وتحوز المراتب الروحية وتنال أعلى المراتب والدرجات^(١٩).

ولا تؤذن للزواج الثاني بعد وفاة الزوج، ويفرض عليها أن تستمر على ركب الحياة ومطية العيش مقتنعة بقدر الكفاف ماتسد به الجوع، بالعفاف والنزاهة. بعد وفاة الزوج لا تنوي بدا ولا تفكر في الزواج وتعيش وتبقى حتى الموت متعبة ومنزوية بهزلة الجسم^(٢٠).

وذكر في كتاب (حاكيه نقي) من كتب الديانة الهندوسية المقدسة، ومعناه: (ينبغي أن تتعلم الآداب والأخلاق والحضارة والثقافة من الأمراء وحلوس الكلام وعدوبته من العلماء، والكذب والزور من المقامرين، والمكر والمراوغة من النساء)^(٢١). وازاء هذه النظرية قد ثارت حركة تحرير المرأة في الغرب قبل مآتي عام، والحركة هذه وان نشأت في أوروبا ولكنها قد تلتقت بقبول عام في الولايات المتحدة جراء التطور العلمي، ويمكن أن يشعر اليوم بإمتداد مضاعفاتها وآثارها في كافة أرجاء العالم، وتهدف الحركة هذه الى تسوية النساء بالرجال في كافة الشؤون وجوانب الحياة، وأنها تقول بالمساواة الكاملة مع الرجل في جميع الحقوق والواجبات، والتفاوت القائم اليوم بين الرجال والنساء، إنما هو - في ما يظنون - بدافع العدوان الإجتماعي، والظلم والإعتداء والإستغلال من الأزواج، وإلا ففيها المواهب والمؤهلات والصلاحيات والقدرات والعقل مثل ما يتمتع به الرجل، ففي الدول الغربية قد تم توفير الحقوق العادلة المساوية بين الرجل والنساء في كافة شعب الحياة بالتشريع ووضع القوانين.

فكما أن ابقاء المرأة مقهورة مضطهدة عاجزة، وتصورها منخلاً من مداخل المعاصي والآثام، وإتخاذها مُلكاً للرجال وممتلكاً من ممتلكاته كان من الظلم والضيم والمعارض للفطرة البشرية، كذلك جعلها معادلة للرجل في الدرجات والمناصب والتسوية بينها وبين الرجال معاكس للفطرة البشرية ومنتهى التمرد والخروج عليها.

وإن هذه الحركة لا تزال تمارس منذ مأتين من الأعوام في الدول الغربية، واتيحت لها فرص أعلى التعاليم والدراسة وأرقامها، وهياً لها مجال العمل والوظيفة في كافة شعب الحياة، ولكن لو استقرينا رؤساء هذه الدول المتطورة والنامية، وقمنا باعداد قائمة الأسماء لهؤلاء القادة والرؤساء فلعل اسم المرأة لا يأتي فيها، ولو قمنا باستقراء رؤساء الوزراء في هذه الدول فالتسوية لا تتجاوز من واحد في المائة، أو أقل منه، وهكذا حالها في تولى المناصب التنفيذية، والمراتب ذات خطورة بالغة في مختلف الميادين والمجالات، ومعظم الشعب والواجبات، وهكذا وضعها في إحراز المستويات الرفيعة، وإستحقاق الجوائز والوسام في مجالات العلم والبحث والتحقيق والدراسة، مثل جائزة نوبل وغيرها، ونسبتها من بين الحائزين على هذه الجوائز والوسامات - ولو كان هذا إجراء الإستغلال الإجتماعي لما ظهرت هذه المضاعفات في مثل هذه الدول.

والهند دولة ديموقراطية تحتضن مختلف الأمم والأقوام والديانات، وقد تربع الجنس الناعم فيها على منصب رئاسة الوزراء لفترة طويلة، وحركة تحرير المرأة قد تلقت التشجيع والإستحسان وإلستنهاض في هذه الدولة، وبإمكان المرأة أن تحوز أعلى المناصب والرتب فيها مستخدمة المواهب والمؤهلات، ولكن ترى الوضع أن منظمات النساء وجمعياتهن ترفع الأصوات في البرلمان منذ أعوام لتحفظات وحجوزات (٣٣٪) ثلاثة وثلاثين في المائة، ولكن لم تحوز النجاح بعد في مطالبتها

رغم مواصلتها المساعي للإقناع، فتنشأ التساؤلات أن الرجل والنساء مادامت لا تتفاوتان في القدرات والمواهب والمؤهلات، فلماذا يضطرون للتكفف أمام الرجل ويسطن أيدي السؤال والإستجداء أمامهم للحجوزات والتحفظات؟ ولماذا لا يستجلي الرجل ويطالبون منهن هذه التحفظات لأنفسهم؟ والحاجة إلى هذا الحجز والتحفظ وبإمكان المرأة أن تنل حقوقها بالمنافسة والمساابقة والمقاومة، وتفوز بمساعيها في الإنتخابات، وحاجة الإستبقاء والإستحفاظ تلامس من يتصور من الضعفاء والعاجزين، وهذا أكبر دليل وأصرخ برهان على أن التفاوت الذي يشعر به، والفارق الذي يعتدل ليس هو الفارق والتفاوت الناجم عن إستغلال المجتمع، وإنما هو التفاوت الخلقى الناجم عن مكونات الفطرة، فتنكبا عن الأفراط والتفريط وابتعادا عنهما قدم الإسلام نظرية تتناسق تماما مع الفطرة الإنسانية، قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) (٣٣).

(ومن) في العربية للتبعيض، وهكذا يبين القرآن أن المرأة جزء من الرجل، ومكملة له، والمرء يألف إلى جزءه ويحبه، وينظر إليه بنظر التوقير والتكريم والإحترام، ومن المستحيل أن يحب الرجل جسمه ويبغض العين مثلا، وهذا مشعر بأنها تليق بالحب والتكريم والتوقير، وبدونها وجود المرأ غير مكتمل، وما قيل أنها مدخل من مداخل الآثام، وأنها مصدر من مصادر المعاصي والفساد، رد عليه القرآن وأوضح أن حواء لم تغو آدم وإن الشيطان هو الذي استغواهما، قال تعالى: (فأزلهما الشيطان) (٣٤).

وبناء على أن الرجل كان قوى الجشة شديد البنية من بينهما، ومسؤوليته تتضاحم في السلامة والابتعاد والابعاد عن الزلل والخطل، فأسند الخطأ إلى آدم - عليه السلام - قال تعالى: (لعصى آدم ربه) (٣٥).

وجعل الإسلام المرأة مستقلة بنفسها ومالها، وذات سيادة وتصرف في أموالها وممتلكاتها، واعطاها مكانة عز وشرف في المجتمع ومن ناحية أخرى يرى الإسلام أن التفاوت واقع بين قدراتها، فالرجل قوي صلب، والمرأة ناعمة ضعيفة، والرجل حام للمرأة، وهي في حاجة إلى من يحميها، فيفوض إلى الرجل الواجبات والمسؤوليات ذات مشقات ومتاعب، وتعفى عنها النساء، قال تعالى: (الرجال قوامون على النساء)^(٢٥).

وفي الجسم الإنساني أعضاء، منها الأيدي والأرجل، ومنها الأدمغة والأعين، فالأرجل والأيدي من الأعضاء التي تستطيع أن تتحمل ضربات الأحجار والأعواد والعصى، ويمكن اصلاح انكسارها، ولكن العين حساس بالغ الدقة في الشعور بالألام، وتبلبل المسأ بأدنى الشوكة والتبنة، ومن الممكن أن تعلمها الحصيت الصغيرة.

وإن كان المرض في الكرش والمعنة فبإمكان أي طبيب من أطباء الجراحة أن يقوم بعمليتها دون تروع وتردد، ولكن لو كان في المخ والدماغ فلا يقوم بعمليتها كل واحد الإخصائيين منهم والمهرة في الجراحة يهابون من اقتحامها واستلام مسؤوليتها، لأن مشكلة المخ وخلايا الدماغ حساس بالغ الحساسية، وهذا لا يعني أن العين لا يحسب لها حساب ازاء الأيدي والأرجل، والمخ لا يقدر له القدر بالنسبة إلى الكرش والأمعاء، وإنما هو اظهر نظام الفطرة، واشعار بأن الأعضاء كيت وكيت تحتاج إلى الصيانة والوقاية أقل، وأعضاء أخرى تحتاج إليها أكثر.

وحيثما يقال أن التفاوت واقع في القدرات والمواهب بين الرجل والنساء، ويفترق مجال عملهما، وللرجل مكانة زعامة الأسرة: (للرجال عليهن درجة)^(٢٦). وإن الفطرة الكونية قد خلق الرجل (قوامين) حمة وأمناء على إدارة الأمور، فإن هذا القول مناداة فطرة ترتد صداها من واقع الفطرة، والمجتمع الذي اوقفت

الأنث فيه متكاتفه للذكور هي غير مأمونة فيه، وتأن تحت وطأة الأعباء وعناء العمل وترزح من تضاحم الأشغال والمتاعب، وتواجه مطامع الرجل وشحهم، ونظام الأسرة مفكك ومدمر، والأسرة حمة لأفرادها، وكلما يتفكك نظام الأسرة تعود مضرته على فئة تحتاج للكفالة والحماية إلى الآخرين، من أجل ذلك نرى المرأة الأتيسة العليزة عن العمل عبأ على المجتمع والأسرة، في أوروبا حينما تظل في عهد شبابها وأيام جملها واناقتها أداة إشباع الهوى والأطماع للرجل.

٣- وأهم قانون من قوانين الإسلام العائلية والاجتماعية هو قانون الطلاق، وقد جعل الطلاق محظورا في الديانات القديمة وترتيب القوانين الوضعية، فلم يكن له مكان في الديانة الهندوسية، لأن المرأة فيها كانت تشبه بأداة خدمة وبصناعة مملوكة، حتى البعض منها كانت تحرق حيا مع جثة الزوج، وقد نقلت جملة أدبية ناصحة عن عيسى بن مريم - عليه السلام - قل فيه (من وصله الله، لا ينبغي لأحد أن يقطعه) فجعلها النصارى قانونا، واعطاها صيغة قانونية، ولم يفسح المجال للطلاق لكنه كان أمرا معاكسا للفطرة، لأن الخلاف والشقاق بين الزوجين ربما يتفاقم ويتصاعد إلى حد يستعصى المسيرة مع بعضها البعض في ركب الحياة، وبهذه المناسبة والفرص إن لم يوسع المجال للطلاق. ليضيق خناق الحياة عليهما وتصبح حياتهما جحيما يحترقان فيها معا، وفي هذا الوضع والحل لا بد أن يفسح المجال لإنهاء عقد النكاح وقطع الصلة والقراية الزوجية ليسعدا في حياتهما المتبقية، ويعيشا بالإرتياح وهدوء البال.

ففي العصر الراهن قد اعترفت الواقعية والجندية في العالم بأسره، أن جواز الطلاق حاجة اجتماعية، من أجل ذلك الديانات التي كانت لا تجوزه قد درج متبعوها على تشريع قانون يفسح مجاله، لكنهم اخطأوا في تسوية الأنث بالذكور واستزادوا في الخطأ عندما فوضوا سلطة الطلاق إلى المحاكم دون الأزواج كيلا

يستطيع الواحد منهما الحق الضرر بالآخر، ونسوا في هذا المكان وجهلوا عن جديدة تنم عن أن الزوج (الرجل) أقوى الطرفين، وأسباب الطلاق ربما تقتضي التستر وعدم المجاهرة، وبالتالي الزوج الذي يريد التخلص والتملص من زوجته، وتشق عليه المرافعات ومتابعة المحاكم والتردد الطويل إلى أبوابها، ويستعصي عليه توفرًا لشهادات، والحجج والبيّنات، فقد بحث عن أيسر طرق وأسهل وسيلة للتخلص منها، واختار له طريق اغتيال الزوجة أو احراقها، وتبرئة النفس بإلحاق الواقعة بالعملية الإنتحارية، وهكذا القضية التي قد تستغرق مدة طويلة وتستلزم المصارف الباهظة والنفقات الضخمة في تسويتها بالمحاكم، ينال غرضه هكذا بشمن بحس وبدون تعب وعناء، ومثل هذه الوقائع يكثر وقوعه في الهند خاصة، في الأيام الراهنة، ونظر إلى أن الطلاق في الدول الغربية سهل المنال وميسور الإرتضاح من المحاكم فقد عمت هناك ظامرة أخرى وبدأ كل يوقعه حتى في الأمور العادية الطفيفة وتصاعد أمر الطلاق إلى حد تجاوزت نسبه نسبة النكاح، وهذان الأمران كانا مغايرين للفطرة الإنسانية، والإسلام يكره الطلاق ويبغضه، والنبي (ص) جعله: (أبغض الحلال)^(٣٧).

ولكن بناء على أنه حاجة إجتماعية ملحة فقد سوغ المجال، وفوض سلطة الطلاق إلى الرجل كي يتم استخدامه في التخلص من المضايق عند حدوث أشد النفور النشوز، ولا تتعرض الزوجات لإرهاق النفس والمخاطرة أو تشرف حياتها على الهلاك، ويستعصى عليها ابقاء الحياة، نعم قد وسع المجال للمرأة أيضا حيث ان كان الظلم والضييم والعداوان ولفاً الحقوق من الزوج فلها أن تثبت دعواها في المحاكم وتفسخ النكاح من القضاة، ولم تفوض إليها سلطة التطلق من جانب متحيز؛ لأنها قد جبلت على العاطفية والإنفعالية وسرعة اليأس والقلق والمهموم،

ولو اسندت إليها هذه السلطة فكان من غالب الامكان أن تتضاحم نسبة الطلاق وتتضاعف الى غاية لا تتصور الآن.

فالإسلام لم يشد حبل الطلاق ولم يعقده إلى حد بدأ الأزواج يلعبون بحياتها، ولم يرخها إلى حد يتم إستبدالها وتغييرها كالملابس والبدلات، وهذا هو مقتضى الفطرة البشرية.

وقوانين الإسلام الجنائية والعقوبات، من أهم عناوينها قانون الحدود والقصاص، يعنى لو قتل أحد أحدًا عمدا، ولا يرضى ورثة المقتول بالعفو والصفح عن القاتل، فالقاتل يقتل في جريمته، ونطق القرآن بأن القصاص وإن يبدو منه قتل نفس وهلاك شخص لكن في واقع الأمر تكمن فيه حياة المجتمع برمته، قال تعالى: (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب)^(٣٥).

وهذا يعنى أن الإنسان لا يردع عن القتل إلا خشية القتل، فتحققت فيه حياة النفس.

وفي العصر الراهن قد كثرت المقتل والكتابات عن عقوبة الإعدام، ولكن تجارب العديد من الدول تشهد على عدالتها، فقد الغيت قوانين الإعدام فيها ثم لما ظهرت الجرائم الشنعاء والوقائع المرهقة للإنسانية، فاعادت تشريع هذا القانون وتطبيقه، ومن أصرخ أمثلتها مثل دولة (سيرى لنكا) حيث الغى برلمانها في عام ١٩٥٦م قانون الإعدام بإصدار قانون مكانه، ولكن لما اقتحم أحد من المجرمين منزل رئيس وزرائها المدعو / بندرانانكا في ٢٦/سبتمبر عام ١٩٥٩م واغتاله بضراوة وعنف، فبعد الفراغ من المراسم النهائية دعى انعقاد جلسة طارئة لأعضاء البرلمان، وعقب النقاش المستغرق أكثر من أربع ساعات اعيد قانون الإعدام، وتم الاتفاق على وضعه من جديد.

التناسق مع العقلانية والجدية

من أهم ميزات الإسلام وخصائصه إنسجامه مع العقل والمشاهدات، من أجل ذلك إتخذ العقل والتدبر والتفكير بالغ الأهمية والخطورة في الإسلام، وذكره القرآن في العديد من المواقع، وأرشد الناس إليه، وقال تعالى في أسلوب التمثيل: (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) (٣١).

وقال: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا، أفلا تذكرون) (٣٢).

وفي مكان آخر شبه العقلاء وعادته، بالنور والظلمة، فقال: (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) (٣٣).

(وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور) (٣٤).

وهكذا لفت الله أنظار المكلفين وأرشدهم إلى التدبر والخوض في غمارة التفكير والبحث في آيات الله المرصودة في هذا الكون المبعثرة في أرجائه، وقال: (ولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يصرون) (٣٥).

وكثر في القرآن استخدام كلمات (أفلا تعقلون) (لعلكم تعقلون) (إن كنتم تعقلون) (يتفكرون) (يتدبرون) وغيرها، وهذا الجميع دعوة عامة شاملة للإنسانية للتعقل والتفكير، ولم تتم مقارنة هذه الوصايا والتوجيهات مع أوامر الأديان الأخرى التي كانت لا تسمح أتباعها للتحقيق والدراسة والبحث والخوض في المسائل، والاعراب عن آرائهم ليبلغ وضوحاً أن الإسلام قام بتشجيع استخدام العقل وبالغ في إستحسان من تفكير وتدبر وباشر القدرات الفكرية في الإستنتاج والإستثمار، لأجل ذلك يبدو جلياً إنسجامه التام مع العقل والمشاهدات في جميع شعب الحياة وأحكامها من العقائد والأحكام الأصلية

والفرعية، وكانت للأمم والأقوام والقبائل نظريات مختلفة قبل الإسلام عن الكسوف والخسوف، فيرى أهل الصين أن الشمس يتلعها الثعبان عند الكسوف واحتجاج قرصها، فكانوا يحدثون الصرخات والويلات والحشرجات والصيحات ويزمجرون عندئذ، ولما تنجلي الشمس وزال عنها الكسوف يزعمون أن الثعبان قد إستقائها وقلفها، وكانت العرب تزعم أن الشمس لا يحدث بها الكسوف إلا بموت أحد من العظماء وكبار الشخصيات أو ولادته، ومن المصادفات أن الشمس قد كسفت يوم توفي ولده (ص) إبراهيم فزعم الأصحاب وهاجس في نفوسهم أنها كسفت بموت ولد نبي الله، وبلغ الخبر والشائع إلى النبي (ص) فجمع الناس في مسجده، وخطبهم وقل: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا علاقة لها بموت أحد أو حياته.^(٣١)

والإسلام قد عارض إتباع الأوهام ومساورة الظنون، فكان الناس قبل الإسلام يرون بعض الأيام والشهور نحسا ومشؤما، ويصدفون عن الزواج والصفقات والمعاملات فيها، ويتصورون الشؤم في بعض الطيور والحيوانات، وكان معظم أمم العالم والأقوام تزعم بتخبط الأرواح الخبيثة وتسكعها، فجاء النبي (ص) وطمس هله الأوهام والخرافات وعق معلمها وملاعها، وقل: (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة)^(٣٢).

وإن هذا التصور الإعتقادي قد ترك طابعا خاصا واثرا بالغيا على المسلمين، ونمت فيهم قدرات أدراك الحقائق والواقعية مكان إتباع الأوهام والخرافات، وقد اشتهر منها ما نقل معظم المؤرخين، فقل ابن كثير في تفسيره: (قل ابن لهيعة بن قيس بن حجاج عن حدثه قال: لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص وكان أميرا بها حين دخل يؤونه من أشهر العجم فقالوا: يا أيها الأمير إن لنيلنا هنا سنة لا يجري إلا بها، قل: وما زال قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من

هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بيد أبويها فارضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلبي والثياب وأفضل ما يكون، ثم القيناها في هذا النيل فقال هم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام، أن الإسلام يهدم ما كان قبله فأقاموا بؤونة، والنيل لا يجري حتى هموا بالجللاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فالفها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها:

(من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد فانك ان كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجري فنسأل الله أن يجريك، قل: فألقى البطاقة في النيل، فلصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم، رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب السنة له)^(٣).

ومثل هذه الوقائع قد حدثت في المناطق الساحلية بالهند أيضاً من التجار العرب، بما اعتنق الإسلام عدد لا بأس به من سكان هذه المناطق تأثراً بها. ولو ينظر إلى أبواب الاعتقاد والإيمان نفسها ليتجلى أن وحدانية الله، وحاجة الرسالة، وإقامة الجزاء والثواب هي أحكام أوثق الانسجام مع العقلانية والفطرة البشرية، وإزاء هذه النظرية، نظرية التثليث عند النصارى، وتصور الكفارات عندهم كم من بعيد عن العقل ومعارض له؟ وعدم معقوليته واضحة جلية لا حاجة إلى القاء الضوء عليه.

وعقيدة التوحيد التي هي عقيدة فطرية وطبيعية، ومنسجمة تماماً مع العقل البشري، قد لعبت دوراً بارزاً في تنشيط الحياة العلمية، وتطوير القدرات العلمية، والأمم التي كانت متصوكة بأوحل الشرك والضلال، قد جعلت كل موجودات هذا الكون لها ومعبوداً، والآله ياله إليه القلب ويألفه ويميل إليه حبا وتوقيراً

وتعظيماً، وما يكون معظماً ومحترماً يتحاشى عن البحث والتدقيق والتفتيش والغربة في ذاته، فلم تحرز العلوم الطبيعية تطوراً قبل الإسلام إلا قليلاً؛ لأن الشيء إذا سلم أنه فوق الدراسة والتحقيق، فكيف يمكن التطور والتقدم في رحلتها العلمية والبحثية؟

ولا يعترف اليوم أهل العلم من المسلمين فحسب، أو إنما خبراء العلوم الطبيعية أيضاً يتفقون معهم ويعترفون بأن المعلومات التي رصدت في القرآن بالتنصيص والتصريح أو بالإشارات والدلالات عن مراحل الخلقة الإنسانية وتطورات الجنيني المختلفة، التدريجية في المشيمة، وعن الحياتيات والطبعيات والفلكيات والأرضيات، تؤيدها العلوم الحديثة المعاصرة تائيداً يبهر العيون، ويذهل العقول.

وكتاب بورس بوكائي شهير في المقارنة بين العلوم الطبيعية والقرآن، ويحمل اسم (الانجيل والقرآن والعلوم) وغير خاف عن أعين أهل العلم والخبرة. وهكذا حل أحاديث الرسول (ص) الصحيحة المتعبرة الثابتة، فلحقائق والأسرار التي كشف اللثام من وجوها فيها عن الطب والمواضيع الأخرى، توافق العقل البشري وتزيد الواقعية، فقد خاص بعض العلماء في البحث في هذا الموضوع أيضاً، فسيهم مشكور ومحمود، ولكن النهضة باقية تمس الحاجة لمزيد العمل في هذا الجانب والجمال، وقد ابنى المحدثون علامة من علامات الأحاديث الموضوعية أن تغاير العقل وتضاد المشاهدة؛ لأن يعارض الواقع لا يمكن أن يكون منطوقاً من لسان النبي (ص) لأن مصدر علمه، هو الله وعلمه، ولا يمكن أن يتصور الخطأ في علم علام الغيوب.

نعم! كون الشيء خلاف العقل أمر، وكونه فوق مستوى العقل والإدراك شيء آخر، وإن يحاول لإفهام الأطفال وصغار السن المسائل المتعلقة بالكبار أو يحاول

لإفهام الفلاح وأهل الحرث اكتشافات الطب الحديث المعقدة، فبالطبع يعجز هذا الفلاح الأمي والطفل الصغير عن فهمها وإدراكها ولا يتمكن عقلهما من تحمل غوامضها وحقائقها، فهل تتصور هذه المسائل والاكتشافات خلاف العقل؟ كلا، ليس هي مضاد العقل، وإنما هي فوق مستوى عقله، هكذا عقول البشر قاصرة، وبدأ نطق الفهم والإدراك يتوسع الآن وماكان بعيد التصور والإدراك قبل مائة عام قد أصبح اليوم واقعا مشهودا وحقيقة ثابتة لا تنكر، فمن الممكن أن يوجد في الإسلام ما يكون فوق مستوى الإدراك، وخارج نطق المشاهدة، ولا يعني ذلك؛ بأنه خلاف العقل ومضاهه.

وعلى كل حال لا يمكن اليوم لأي دين من الأديان أن يعادل الإسلام في ميزان العلوم الحديثة ومواصفات ومقاييس العقل والاستدلال؛ لأن الغش والتزييف والشوائب قد اخفقت الحقائق واحجبت الصداقة، ولم يبق ملجأ لعقلاء العالم إلا الإسلام وحده.

النظرية العادلة للحقوق الأساسية

أهم الضرورات التي تتواجد اليوم وتقوم في عالم الإنسانية، منها (الأمن والسلام) وهو المحور الذي يدور عليه كافة التسهيلات ووسائل الترف والبلخ والتنعم والمتعة، من أجل ذلك ذكره الله تعالى مما امتن به على العبد، قال تعالى: (ولم يروا أنا جعلنا حرما منا يتخطف الناس) (٣٧).

والمتان اللتان ذكرهما الله جل شأنه في دعوة قريش مكة إلى التوحيد علاوة الإمتنان بهما على الموحدين هي الأمن من الخوف والجوع، قال تعالى: (فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٣٨).

ويجب لتحقيق الأمن أن يتمسك جميع أفراد المجتمع بأهداب العدل والإنصاف، ويقوموا بتأدية حقوق الآخرين، فالعدل تعليم من أهم تعليمات الإسلام وتوجيه

من أعظم توجيهاته الأساسية، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) (٣٧).

ثم يعلمنا القرآن أن التفريق في العدل بين المسلم والكافر، والصديق والعدو، والقريب والبعيد، لا يصبح البتة، قال تعالى: (لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ اقْرَبٌ لِلتَّقْوَىٰ) (٤٠).

وتفاصيل إقامة العدل في المجتمع الإنساني، ووضع القوانين واللوائح له، هي (الحقوق الإنسانية الأساسية) في الأمر الواقع والأصل، ويتصور عامة أن مبدأ هذه الحقوق هو القرار الذي تم الاتفاق عليه في الهيئة العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٤٨م، وأصدر مرسومها من رصيفها إلى أمم العالم، ويزعم بأنه إنتصار عظيم للقيم الإنسانية لكن المزاغم هذه إما نجمة عن الجهل بالتاريخ أو تجاهله، والإعراب عن مثل هذه الأقاويل بعيد عن العدالة أقصى البعد؛ لأن أول قائمة منظمة جامعة ومكتملة للحقوق الإنسانية هي الخطبة التي القاها النبي (ص) في التاسع من شهر ذي الحجة عام ١٠/ من الهجرة، المصادف لممارس عام ٦٣٢ الميلادي، بمناسبة حجة الوداع في عرفة، وقد تناولت الخطبة من الحقوق الإنسانية الآتية:

- ١- حق حفظ الأموال والأرواح والأعراض والأولاد.
- ٢- حق حفظ الممتلكات وأداء الأمانات والودائع.
- ٣- القضاء على استغلال الفقراء والمساكين عن طريق تحريم الربا.
- ٤- حق التعايش والمعايشة بالسلسلة والتعاون المتبادل.
- ٥- حق حفظ المناصب، وكرامة النفس، والتملك والتملك.
- ٦- المساواة في الدية والقصاص.
- ٧- حق حفظ حقوق النساء ورعايتها.

- ٨- حق حفظ حقوق الموالى.
 ٩- المساواة والمعادلة بين كافة الطبقات.
 ١٠- حق التعليم والتعلم والمدرسة.
 ١١- الضمان الإجتماعي.

والواقع أن الخطبة التي القاهها النبي (ص) في حجة الوداع، خطبة جامعة تستدعي للتفكير والتدبر، وتحققت نقطة تحول وإتجاه، وأثارت الوعي والصحوة الجديدة، ففيها الحلول الناجعة للقضايا الإنسانية، وإضافة إلى ذلك، قد جاءت في الكتاب والسنة أوامر وتوصيات، وبيانات وإيضاحات عن الحقوق الإنسانية، منها:

إن الله جل شاناه قد جعل نفوس كل فرد من أفراد البشر معصومة إلا في بعض الجرائم الخاصة التي دعت مجازاتها القتل أو الرجم، قال الله تعالى: (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)^(٤١).

ففي الآية هذه ورد قتل النفس مطلقا، وذلك يشمل المؤمن والكافر جميعا، من أجل ذلك لو قتل مسلم كافرا، يقتل المسلم قصاصا، وروى الإمام الشافعي - رحمه الله عليه - في مسنده: (أتى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - برجل من المسلمين، قتل رجلا من أهل النمة، قل: فقامت عليه البينة، فأمر بقتله، فجاء أخوه، فقل: قد عفوت، فقل: لعلهم فزعوك أو هددوك؟ قل: لا، ولكن قتل لا يرد على آخر وعوضوني، قل أنت اعرف، من كان له ذمتنا قدمه كدمنا وديته كيدتنا)^(٤٢).

وقد وردت روايات أخرى بهذا الصدد، يرتبط معظمها بعهد الخلفاء الراشدين^(٤٣).

والدية مثله، يستوى فيها المسلم والكافر، فما تكون دية المسلم تكون دية الكافر وأهل الذمة، وقد سبق قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه - أن كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا)^(١١١).

ووردت في بعض الروايات من أحاديث الرسول (ص) وأثار الخلفاء الثلاثة (أن دية المعاهد كدية المسلم الحر)^(١١٢).

يحق لكل شخص في الإسلام أن يمتلك مالا، ويحمى مافي حوزته من الممتلكات، ويتصرف فيه كما شاء، قال تعالى: (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)^(١١٣).

والنبي (ص) اذا اعطى الأمان كان يعطيها على ماله ونفسه كليهما^(١١٤).
وروي عن النبي (ص) قل: (الا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)^(١١٥).

وعرف من هذا أن حقوق امتلاك الأموال، والتصرف فيها، وحمايتها وصيانتها، يتمتع بها غير المسلم مثل ما يتمتع بها المسلم، من أجل ذلك جازت المتاجرة والمبايعه والمهاداة مع غير المسلمين، وتنتقل تركته إلى الورثة بعد وفاته، ويترتب الجزاء على سرقة ماله مثل ما يترتب على سرقة مال المسلم.

الإسلام يحمى أعراض البشر بأجمعه دون تفریق، قال تعالى: (يا ايها الذين امنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب)^(١١٦).

فإقرار حد القذف في الاتهام، والنهي عن الغيبة والنميمة، وتحريم الزنا والزام غض البصر، والأمر بصيانة الفرج والبصر، لم يقصد بجميع هذه الأحكام إلا الحفاظ على العصمة والأغراض، ولا فرق فيه بين المسلم والكافر، فما يترتب الجزاء على الزنا بالمرأة المسلمة يترتب نفسه إذا ارتكب مع الكافرة.

الإسلام لم يباشر توزيع الطبقات باعتبار المهنة والحرف مثلما بوشر في الديانة الهندوسية، حيث وزع النوع البشري فيها باعتبار المهنة إلى أربع طبقات، ومثلما وزعهم أفلاطون في كتابه (الجمهورية) إلى أن الحكام والولاة خلقوا من الذهب، والمستشارون للولاة ووزرائهم ومعاونوهم من الفضة، والفلاحون وأهل الحرف والمهنة من الحديد والنحاس.

وإنما الإسلام ينظر إلى البشر بأنهم جميعا سواء في أصلهم، ويحق لكل واحد منهم أن يختار ما يشاء من المهنة حسب رغباتهم وميولهم وقدراتهم ومواهبهم، ولا فارق فيه بين المسلم والكافر، ولجهد في عهد النبي (ص) وجود تجار، وفلاحين، والتجارين والحائكين وأصحاب صناعات الأقمشة وغيرها من غير المسلمين أيضا، ولم تكن في ذلك العهد وسيلة، لكسب المعاش إلا من هذه الوسائل المعتادة.

نعم إن كان أحد لا يتأهل لعمل، وبدأ يمتحن بمهنته، ويباشر العمل بدون تأهل، ويخشى منه حقوق الضرر بالناس، فالباشر والممتحن مسلما كان أو كافرا يحظر منه ويلزم عليه بتركه، وروى عن النبي (ص) أنه قال: (من تطيب ولم يعلم منه قبل ذلك الطب فهو ضامن)^(٥١).

والإسلام اعطى الجميع حق الدراسة وأخذ العلوم فقل (ص) (العلم فريضة على كل مسلم)^(٥٢).

وقال في حديث آخر (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن)^(٥٣).

وهذا الحكم عام يشمل الجميع، ويستوى فيه المسلم والكافر، والذكر والأنثى، والثرى والفقير، وكانت في المدينة مدرسة لليهود تحمل اسم (بيت المدارس) عابنها النبي (ص)! ودبر النبي (ص) تعليم الجيل المسلم وأطفال المسلمين، ووضع تراتبيه من أسارى بدر الشمركين، وجعله فدية لهم^(٥٤).

وتعلم زيد بن ثابت - رضي الله عنه - اللغة السريانية من اليهود بأمر من النبي - صلى الله عليه وسلم.^(٥٤)

وعرف من هذا أن غير المسلمين لا يتحررون في شؤونهم التعليمية فحسب وإنما لا يشين انعقاد الروابط العلمية المتبادلة بين المسلم والكافر.

الحرية الدينية، لاشك أن الكفر والشرك والاحاد معتقدات باطلة من الأباطيل، فمن أعرض عن عقيدة التوحيد يحرم من النجاة الأخروية، ولكن يحق لجميع أفراد العالم أن يظل على عقيدته ودينه الذي يدينه، قال تعالى: (لا اكسوا في الدين قد تبين الرشد من الغي)^(٥٥).

وقال تعالى مخاطبا نبينا عليه الصلاة والسلام: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)^(٥٦).

وكذلك يحق للجميع العمل بدينه، قال تعالى: (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)^(٥٧). حتى أن النبي (ص) أذن بعض غير المسلمين لتأدية عبادتهم في مسجده النبوي، قال: ابن القيم الجوزية: (وقد مكن النبي (ص) وفد نصارى نجران من صلاتهم في مسجده الى قبلتهم)^(٥٨).

وكذلك يحق لكافة الوحدات الدينية حماية معابدهم وصيانتها، قال تعالى: (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرون الله من ينصره ان الله لقوى عزيز)^(٥٩).

من أجل ذلك كان النبي (ص) إذا ابرم العهود مع غير المسلمين، يصرح فيها أن لا يتدخل في شؤونهم الدينية، والهدنة التي اتفق عليها النبي (ص) وابرمها مع أهل نجران وردت بالصيغة التالية: (ولنجران وحاشيتهم جوار الله تعالى وذمة محمد النبي (ص) على انفسهم وأموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم

وعماراتهم وبيعتهم وسلمهم ، ولا يغير أسقف من اسقفية، ولا راهبا من رهبانيتها^(١١).

ويبدو من تصريحات بعض الفقهاء، أن غير المسلمين أيضا يحق لهم اعمار معابدهم في أراضيهم المملوكة، قال الإمام محمد الشيباني: (ولا يمنعون أن يجعلوا بيعا في أراضيهم ولا صوامع ولا كنائس)^(١٢).

وكذلك يجب على أهل الديانات بأجمعها، أن يحترموا مشاعر الآخرين من الديانات، وليفكروا في أن اللوم والتنديد والادانة من يستحقها أكثر من معبودي الكفرة والمشركين الأباطيل، ولكن بناء على أن مشاعر الآخرين تجرح بإدانتها، نهى الله جل شأنه عن سبابها، قال تعالى: (لا تسبوا الذين يدعون من دون الله)^(١٣). ويحق لجميع المسلمين أن يقوموا بمهام الدعوة في جميع أفراد البشر، بل هي فريضة تعود عليهم، قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)^(١٤).

وكذلك أهل دين من الأديان الباطلة يحق لهم أن يدعوا الآخرين من أهل الديانات الأخرى الباطلة، ويقوموا بأمر دعوة دينهم فيهم، قال الامام مالك مفسرا لمفهوم حديث الارتداد: (ومعنى قول النبي(ص) فيما نرى والله اعلم من غير دينه، فاضربوا عنقه أنه من خرج عن الإسلام الى غيره مثل الزنادقة وأشباهم، ولم يعن بذلك فيما نرى، والله اعلم، من خرج من اليهودية الى النصرانية، ولا من النصرانية إلى اليهودية، ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها إلا الإسلام^(١٥)).

وبناء على أن الدولة الإسلامية تكون دولة دينية، وحكومة قائمة على الدين والشريعة الإسلامية، ولا يقتصر الإسلام فيها على عقيدة فردية وإنما يكون دستور الدولة تابعا لهذه العقيدة فلم يرض الإسلام بأن تقوم فئة كافرة بهمام الدعوة

فيما بين المسلمين، وتدعوهم إلى اعتناق دينها ومعتقداتها، وتدفعهم إلى الكفر من الإسلام حتى أن مسلماً لو ارتد في دار الإسلام، تعطى لهم المهلة للنظر في أمره فإن تاب خلال هذه المهلة، ولا يقتل؛ لأن النبي (ص) قال: (من بدل دينه فاخربوا عنقه)^(٦٥).

أما المرأة إن ارتدت عن دينها الإسلامي فلا تقتل عند الأحناف وإنما تحبس هي إلى أن تتوب وإن طل الأمد.

وجزاء الارتداد هذا، ليس إلا في دار الإسلام ولا يجري هذا الحكم في دار الكفر، لأن الارتداد في دار الإسلام يراد في الخروج على دستور الدولة، والتمرد والخروج على الدولة ودستورها، جزائه القتل في جميع قوانين العالم، والدولة التي لا يتكون إسلامية ويكون الإسلام فيها كدين فئة من الفئات المواطنة ولا يكون دستور الدولة، لا يكون القتل فيها جزاء الارتداد وإنما يعامل معهم معاملة الوعظ والنصح والارشاد، نعم! يحق لغير المسلمين الانتقال الرصين الجاد على الإسلام، وقد كانت اليهود في المدينة وأهلها ينتقدون حسب معتقداتهم ومزاعمهم على النبي (ص) ويعترضون على بعض الأحكام الإلهية الواردة في كتاب الله، فكم من آية نزلت في رد معتقداتهم هذه، ووردت في حسم شبهاتهم وانتقاداتهم ونصاري النجران لما وفدوا إلى جناب الرسول (ص) ناقشوا على أمور واجروا المباحثات واعربوا عن وجهات نظرهم بصراحة، حتى أنهم إذا لم يقبلوا القول العائد إلى الدليل والبرهان، فدعاهم النبي (ص) للمباهلة، ولكنهم بناء على ماكانوا على علم ومعرفة تامة بصنق دعوى نبوته لم يتجرأوا عليها وانهاروا وتخلفوا عنها، ولو يتم التفكير في هذه الواقعة، وامثالها من الوقائع لبلج أن غير المسلمين لهم حق توجيه الانتقاد الجاد الرزين إلى الإسلام حتى قال الفقهاء: (انهم إن انتقدوا على ذات النبي (ص) فلا ينقض به العهد الذي تم إبرامه معهم).

(ومن امتنع عن الجزية أو قتل مسلماً أو سب النبي (ص) أو زنى بمسلمة لم ينقض عهده).

ثم يستدل على هذا المرغيناني في كتابه بعبارة تالية: (ولنا أن سب النبي (ص) كفر منه، والكفر القارن لا يمنع، فالطاري لا يرفعه)^(١٧).

ومن الواضح أن هذا حكم لا انتقاد ليس فيه التنقيص أو الإهانة، فإن كانت فيه السائة والمساس بشانته (ص) فله حكم آخر، وقد روي عن عرفة بن الحارث أنه مر بنصراني من أهل مصر يسمى (متلقون) فدعاهم إلى الإسلام، والنصراني ذكر النبي (ص) وأساء إليه: (فذكر النبي (ص) فتناول).

فرفع الأمر إلى عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فطلب ابن عباس عرفة، وقال: (اعطيناهم العهد) فرد عليه عرفة، قائلاً:

(معاذ الله أن نكون أعطيناهم العهود والمواثيق على أن يؤذونا في الله ورسوله، إنا أعطيناهم على أن بينهم وبين كنايسهم يقولون فيها ما بدا لهم، وأن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وأن نقاتل من ورائهم، وأن يخلي بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتونا، فيحكم بينهم بما أنزل الله)^(١٨).

هذا حكم إذا كانت دعوتهم موجهة إلى المسلمين لصرفهم عن دينهم الإسلامي، إلى الدين المبني على الكفر، أما إذا كانت دعوتهم فيما بين أفراد الديانات الأخرى غير المسلمين، فالإسلام لا يفرض الحظر على ذلك، ولا يعترض على أن يعتنق أهل ديننا آخر، ويبدل دينه القديم، وقد سبق قول الإمام مالك - رحمه الله - في شرح حديث الارتداد:

والإسلام يعطي الجميع حرية مجاهرة الرأي، والانتقاد المتزن الرصين، ورفع الاحتجاج والعقيرة، قل تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً)^(١٩).

وهكذا الإسلام لم يأذن للقيام بهمام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب بل اثار المسلمين على هذا الواجب، وأمرهم بممارسته فعلا، وهذا الأمر والنهي، لا يعني إلا أن ما يتصوره الإنسان في ذهنه صوابا يدعو إليه، وما يراه خطأ يتكذب عنه، وماوسع مجال الإجتهد فيما لم يرد فيه النص من الشارع، يفتح أبواب حرية مجاهرة الرأي والفكر.

من أهم ضرورات الإنسان هي حماية حياته الذاتية وصيانتها، والإسلام يعترف هذه الضرورة كحق ثابت لكل فرد من أفراد البشر، فجاء النهي عن التجسس والتطلع إلى حياة الناس الشخصية^(٦٥).

والنبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الإطلال على البيوت واستراق النظر إليها.^(٦٦)

والقرآن نفسه يوصي ويقول: (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسألوا على أهلها)^(٦٧).

والمجتمع الإنساني لا يتأسس إلا على العدل والإنصاف في نظر الإسلام، ويستوى فيه جميع أفراد البشر، فيحق لكل واحد أن يتقاضى العدل ويتلقاه، قل تعالى: (وإذا حكمتم بين الناس فاحكمم بالعدل)^(٦٨).

ووجه إلى أن أمة إن كانت بينكم وبينها عداوة فلا ينبغي أن تكون العداوة هذه مانعة عن العدل، قل تعالى: (ولا يجرمتمكم شنتان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى)^(٦٩).

ويؤكد القرآن على أن كل فرد من أفراد البشر يكون بريئا عن عمل غيره، وجزاء جريمة واحد لا يلقي على الآخر، قل تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى)^(٧٠).

وقل تعالى: (وان ليس للإنسان الا ما سعى)^(٧١).

وقال تعالى: (من يعمل سوءً يجزيه)^(٣٧).

وقال تعالى: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها)^(٣٨).

وجزاء الظلم لا يتلقاه إلا المجرم:

قال تعالى: (لا عدوان إلا على الظالمين)^(٣٩).

ولو يعمن النظر لتبلور أن العامل الأساسي والسبب الأصلي لإغتصاب الحقوق الإنسانية والاجحاف بها، هو الفوارق والتمييزات التي ابيحت ولصبت بين فئام من البشر ودون مختلف الطبقات والطوائف، بأن تعلق الأهمية بفئة ويعار لها الإهتمام، والفئة الأخرى لا تقام لها الوزن ولا تؤخذ بعين الاعتبار ويعامل مع طائفة معاملة نظر ورعاية، والطائفة الأخرى تهمل شؤونها إهمالاً، أو يعامل معهما معاملة ظلم وعدوان.

فالإسلام يقضي على هذا المبدأ والأساس للظلم وعدم الإنصاف المتعلقة بالحقوق الإنسانية؛ لأن مغزى كافة توجيهات الإسلام وتعاليمه هي أمران:
(١) الاعتقاد بوحداية الله.

(٢) والوحدة الانسانية، أي الايقان بأن الله وحيد لا شريك له ولاند له، والإنس برمتهم قد تم تخليقهم من أب وأم واحدة، كما أشار إليه النبي (ص) في خطبته وقال: (ان الهكم اله واحد، وكلكم من آدم).

وهذا هو المبدأ والأساس الذي بإمكانه أن يحسم عاقبة أمر الحقوق الإنسانية ويقضي على النقائص المتواجدة فيها.

ولا تزال الفوارق العرقية والعنصرية والخلقية والتمييز بين الأسود والأبيض، وبين جيل وجيل، قائمة على أصولها وعلى ما اعرب عنه الفلاسفة والحكماء مثل أفلاطون الذي قرر أن مواد التخليق تختلف وتبين، فللحكام والولاء مادة، وللشعوب وعامة الجماهير مواد أخرى.

وهذه السطور التي رصدنا فيها فكرة الإسلام عن الحقوق الإنسانية ببالغ الإيجاز والإختصار يمكن القياس منها أن الإسلام قد درج على رجب الصدر والسلمة في هذا المجال، وفي كل خطوة ومرحلة راعي كرامة الإنسان وشرفه، ولا يقتصر دعت اخلاق الإسلام ومجاملته ونصحه على المسلمين فحسب. وإنما غير المسلمين أيضا استحقوا لحسن سلوكه ومجاملته وعدله، وبالإضافة الى هذا لو يتم التفكير والتدبر في الحقوق التي أدرها الإسلام على البشر عن النساء والأطفال والشيوخ والمهرم وكبار السن، والأجانب، والمحكومين والرعايا، وذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، وبينها النبي (ص) في أحاديثه الثابتة الصحيحة، وناولها الفقهاء في كتبهم، ليجلأ كل منصف إلى الإعتراف بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يستطيع المسيرة مع الزمان، ويتأهل لتلبية مقتضيات العصر، وتستطيع الإنسانية بحذافيرها أن تتنعم باحراز السعادة والحبور والفلاح في ظلها الوافرة اللطيفة البهية.

الكثرة الحضارية مع الوحدة الإعتقادية

أحكام في الشريعة الإسلامية بينت تفاصيل حدودها وقبورها وطريقة تلذيتها بكل صراحة وإيضاح، فهي عامة لجميع أفراد الأمة المسلمة، ويستوي فيها العامة والخاصة إلا ما هي الاجتهادية منها، فربما يقع فيها الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين، والعامة يختارون قول من يعتمدون عليه ويتقون برأيه. وهذه الأحكام هي أحكام تتعلق بالعقائد والعبادات والمأكل والمشرب، والمعاملات، والحلة والحرمة في النكاح، وحقوق مختلف الأقارب، وقوانين الأحوال الشخصية والعائلية، والحدود والقصاص، وما إلى ذلك. وجزء كبير من الأحكام ما عينت لها الشريعة القواعد والأصول، وتعتبر هي جهاتها الأربعة التي تحدها من الجوانب، ولم يتعرض فيها لبيان جزئياتها،

كتشكيلات الملابس والأزياء، ونوعية اللباس، وطريقة الأكل والشرب، والتنوع في الطبخات واعداد الأطعمة والمأكولات، وطرز انشاء المباني، وآداب المعاشرة والتلاقي، وأسلوب التحدث والكلام، ففي هذه المسائل والأحكام قد إتخذت الشريعة الفسحة والارتداح.

والحضارات علمة تتعلق بهذا النوع الآخر من المسائل والأحكام ، أكثر من خمسين دولة إسلامية توجد اليوم في العالم بين سكانها فوارق واختلافات متباينة كثيفة، في العادات والسلوكيات وطرق الحياة الإجتماعية وأساليب التخاطب والعشرة، فهم متوحدون في العقيدة، ومختلفون في الإجتماعية والحضارة كازهار الباقية، فقد راعى الإسلام أن يكون المسلمون حملة الحضارات والثقافات المتنوعة العديدة بعد اتحادهم في العقيدة والأعمل الدينية والمخضة.

والحضارات ترتبط بالأحوال والأوضاع الجغرافية والإستراتيجية، وعادات الأمم المجاورة، وتقاليد الأسرة الوراثية وأشباهاها فيجب لدين الإسلام العملي الألفق أن يقبل هذا التنوع في الحضارات.

تطور الحضارات والمجتمعات في ظلال الإسلام

كما سبق الآن أن عناصر المجتمع التي تتشكل منها الحضارات، قد عين لها الإسلام أصولاً وقواعد، ولم يتعرض لسرد تفاصيل جزئياتها وفروعها، ففيها المساغ للتغيير والتبديل والتطوير حسب تغير الزمان، والنقوش والآثار التي تركها المسلمون في فيافي العرب وصحرائها، والمسلمون الذين وصلوا من الشرق إلى سمرقند، وبخارى ، والهند وما أوقدت العرب نبراس حضارتهم في الأندلس، يمكن تلمس التطورات الحضارية والإجتماعية التدريجية في هذه التحولات.

فالإسلام يحتضن الفسحة لتطور الحضارة الإنسانية، على أن تبتني هذه الحضارة والمجتمع على العفاف والحياء، والورع والتقوى والعدل والمؤدّة.

والإسلام لا يسمح للخلاعة والمجون والدعارة والفساد وإتباع الهوى، وإستغلال النساء واهدار المقومات الخلقية والإنسانية على حساب الحضارة لأنها ليست التطور الحضاري وإنما هي انتحار الحضارة الإنسانية وشنقها.

فليس من حسن الإعتقاد، وإنما هو الأمر الواقع أن الأمن والسكينة والطمأنينة التي تضطرب الإنسانية للبحث عنها والعشور عليها، وتتعرض للتجرد عن العدل والإنصاف، لا توجد لها الحلول في أي دين من الأديان أو قانون من القوانين غير الإسلام، والقوانين الوضعية التي صاغها الإنسان تعجز عن إيجاد حلولها، لأنه لا يطلع حق الإطلاع على كافة قضايا الإنسانية، ويجهل عن عواطفها ومشاعرها ومشاكلها وحلول هذه المشاكل.

وبناء على أن كل فرد من أفراد البشر يرتبط بوحدة من الوحدات الإنسانية، فلا يرجى منه أن يباشروا العدل مع كافة الوحدات والفئات والطبقات الإنسانية، ولم تظهر الديانات إلا لسد هذه الضرورة والإقتضاء، ولكن الأديان الموجودة اليوم في العالم غير الإسلام، ليست على بنيتها الأصلية الحقيقية والتدخلات الانسانية وتحريفاتها ومزجاتها لم تتركها صالحة للقيام بواجب هداية البشر وإرشادهم وتوجيههم، فنهمة الإنسانية اليوم وهيامها لن تذهب الا من منهل الإسلام، وأي دين أو نظام حية لا يستطيع أن يسد بهله الحاجة، أو يحل محله، وقد صدق الله الذي يحق الحق بكلماته في قوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ).

الهوامش

- ١- النساء/ ٣ .
- ٢- الاعراف/ ٢٠ .
- ٣- انبياء/ ٧ .
- ٤- البقرة/ ٢ .
- ٥- البقرة/ ١٨٥ .
- ٦- كنز العمال، رقم الحديث: ٣٢٠٩٤ .
- ٧- الاسراء/ ٧ .
- ٨- التين/ ٩ .
- ٩- البقرة/ ٣٠ .
- ١٠- البقرة/ ٢٩ .
- ١١- الحديد/ ٧ .
- ١٢- الروم/ ٣٣ .
- ١٣- الحديد/ ٢٥ .
- ١٤- الاعراب/ ٣٦ .
- ١٥- الجمعة/ ١٠ .
- ١٦- كنز العمال، رقم الحديث: ٩٢٣٦ .
- ١٧- كنز العمال/ ٩٢١٧٠ .
- ١٨- ١٤٨/٥ .
- ١٩- أنظر: ١٥٥/٥ .
- ٢٠- ١٥٧/٥ - ١٥٨ .
- ٢١- ٨/١٣ .
- ٢٢- النساء/ ١ .
- ٢٣- البقرة/ ٣٦ .
- ٢٤- طه/ ١٣٦ .
- ٢٥- النساء/ ٣٤ .
- ٢٦- البقرة/ ٢٢٨ .
- ٢٧- انظر: مسند أبي داود، رقم: ٢١٨٢ .
- ٢٨- البقرة/ ١٧٩ .
- ٢٩- الأنعام: ٥٠ .
- ٣٠- هود/ ٢٤ .
- ٣١- الرعد/ ١٦ .

- ٣٢- فاطر/ ١٩ - ٢٠.
- ٣٣- السجدة/ ٢٧.
- ٣٤- انظر: نص الحديث في مجمع الزوائد: ٥ / ١٦٢ .
- ٣٥- سنن أبي داود، رقم: ٣٩١١.
- ٣٦- تفسير ابن كثير: ج ٤ ، ص ٤٦٤.
- ٣٧- العنكبوت/ ٦٧ .
- ٣٨- قريش/ ٣ - ٤.
- ٣٩- النحل/ ٩٠
- ٤٠- المائدة/ ٢ .
- ٤١- المائدة/ ٣٢.
- ٤٢- مسند الامام الشافعي، ص : ٣٤٤، وسنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٦ رقم الحديث: ١٦٣٦٣.
- ٤٣- انظر: سنن البيهقي ج ١٢، ص ٤٣، رقم الحديث: ١٦٣٥٧، والمصنف لعبد الرزاق: رقم: ١٨٥١٨ - ١٨٥١٥.
- ٤٤- نصب الراية/ ٣٣٧.
- ٤٥- انظر كتاب الآثار محمد بن الحسن الشيباني: رقم ٦٨٧.
- ٤٦- البقرة/ ١٨٨.
- ٤٧- انظر: مسند أبي داود، رقم: ٣٠٢٧، عن عامر بن شهر.
- ٤٨- سنن أبي داود، رقم: ٣٠٥٢.
- ٤٩- الحجرات/ ١١ .
- ٥٠- مسند أبي داود، ج ٢، ص ٦٢٠.
- ٥١- مجمع الزوائد، ١١٩١.
- ٥٢- كنز العمال، رقم: ٤٤٠٩٠.
- ٥٣- انظر: مسند الامام أحمد، ٣٠٧، رقم: ٢٢٦٥ عن عبد الله ابن عباس.
- ٥٤- انظر: أسد الغابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٢٣٢.
- ٥٥- البقرة/ ٩٩ .
- ٥٦- يونس/ ٩٩ .
- ٥٧- الشورى/ ١٥.
- ٥٨- أحكام أهل النعمة لابن القيم، ج ١، ص ٣٦٦.
- ٥٩- الحج: ٤٠.
- ٦٠- كتاب السير والخراج والعشر للشيباني، ص ٢٤٩.
- ٦١- كتاب السير والخراج والعشر، ص ٢٥٣.
- ٦٢- الأنعام/ ١٠٨.
- ٦٣- آل عمران/ ١١٠ .

- ٦٤- مؤطا الامام مالك، ص ٣٠٨، القضاء فيمن ارتد عن الإسلام.
- ٦٥- سنن أبي داود: ج ٢، ص ٥٩٨، باب الحكم فيمن ارتد، وسنن الترمذي: ج ١، ص ٢٧٠، باب ماجاء في المرتد.
- ٦٦- الهداية: ج ٤، ص ٣٣٦، باب الجزية ط كراتشي
- ٦٧- مجمع الزوائد: ٦/٣٩٧، رقم: ١٠٥٦٩.
- ٦٨- النساء/١٤٨.
- ٦٩- انظر: الحجرات/١٣ .
- ٧٠- انظر: مجمع الزوائد، كتاب الأدب، رقم ١٢٨٠٣.
- ٧١- النور/٢٧.
- ٧٢- بالنساء/٥٥ .
- ٧٣- المائة/٨ .
- ٧٤- الأنعام/١٦٤.
- ٧٥- النجم/٣٩.
- ٧٦- النساء/١٢٣.
- ٧٧- فصلت/٤٦ .
- ٧٨- البقرة/١٩٣ .

عالمية الإسلام

الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان

مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن للعالمية الإسلامية مدلولها المكاني، والزمني

مدلولها المكاني: كلا ما اتسع له الأفق على وجه البسيطة، أما مدلولها الزمني فهو اللامحدودية زماناً.

عالية الإسلام متمثلة في مبادئه، وقيمه المنسجمة مع الفطر السليمة، مبادئ ليست خاصة بأمة دون أخرى، ليست قاصرة على مكان معين، ولا على جيل من البشر.

لعالمية الإسلامية مرتكزاتها، وأسبابها، وشروطها

أما مرتكزاتها وعمودها الفقري فهو عقيدة الوجدانية، وهي خصوصية الباري جل وعلا، ليس للبشر تدخل أو اجتهاد فيما يتصل بها.

خصوصية هذه العقيدة الثابتة، لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، أما ما يتعلق بشؤون البشر، واستقامة حياتهم فقد تركت الشريعة الإسلامية مساحة واسعة لتدبيرها بما يتلاءم وعصورهم وبيئاتهم في إطار مبادئ وقواعد عامة تحترم كرامة الإنسان، وتصونها من الضياع. دون انغلاق، أو انفلات، فهي في هذا المجال مبنية على اعتبار الحكم والعلل التي هي من مدركات العقول، لا تختلف باختلاف الأمم والعوائد، وقد أجمع علماء الإسلام في سائر العصور - إلا الذين لا يعتد بمخالفتهم - على أن علماء الملة مأمورون بـ (الاعتبار) في أحكام الشريعة، وذلك هو اعتبار المقاصد والمآلات في استنباط الأحكام، وجعلوا من أدلة

ذلك قوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم)، وقوله: (فاعتبروا يا أولي الأبصار)، وهما دليان خطابين، وإننا نتمسك في هذا بالإجماع، وعمل الصحابة، وعلماء الأمة في سائر العصور.^(١)

فلماذا عالية الشريعة الإسلامية؟

اقتضت حكمة المولى جل وعلا ان يتدرج بخلقه في التشريع رحمة بهم، تدرجهم في حياتهم المعيشية ووجودهم الحضاري على سطح المعمورة. استخلف الله الإنسان في أرضه، فهبأ له كل الأسباب التي تضمن له الحياة وتطويرها لما يصلح حاله، فأمده بكل أسبابها المادية، وهبأ له أسباب الرقي الروحي الذي يميزه عن سائر المخلوقات فأرسل الرسل، وبعث الأنبياء. تتابع إرسال الرسل الى أممهم عبر عصور وأجيال عديدة، وأنبياء هم المثال والقُدوة في استقامة العقيدة والسلوك، (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير).^(٢)

عمت دعوة الله جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو عن بلغته، لأن آدم عليه السلام بعث لبنيه، ثم لم تنقطع النذارة الى وقت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم...^(٣) عبر قرون من السنين، وأجيال متعددة من الأمم تدرج بهم المولى جل وعلا في مدارج التشريع (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم).^(٤)

الناس كل الناس منذ بدء الخليقة أمة واحدة في خلوعهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق لولا من الله عليهم وتفضله بالرسل...^(٥)

أخذت الإنسانية تستكمل شهودها الحضاري مادة، وروحاً على سطح المعمورة، جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، توافرت لها الأسباب والشروط لأن تكون أمة واحدة، تحت راية دين واحد.

سار الجانبان المادي والروحي سيراً متوازناً، فلم يبق للشرائع السماوية لأن تستوفي رسالتها، ويكتمل بناؤها التشريعي إلا موضع لبنة فيها كما قل المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قل:

(إن مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه، وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون منه، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قل فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) رواه الإمام البخاري في صحيحه^(٦)، فمن ثم أصبحت رسالته صلى الله وسلم خاتمة الرسالات، وشريعته خاتمة الشرائع.

لم يكن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نكرة لدى الأمم السابقة، وبخاصة أهل الكتاب: أتباع موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كما لم تكن رسالته مجهولة منهم، بل كان أمل الأنبياء والرسل السابقين أن يلقوه، ويكونوا من أتباعه، يؤمنون به، يكونون من أنصاره، ينضون تحت رايته، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)^(٧).

إن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا.

قد اعترف بهذا المنصفون منهم، وأكدوه بما لا لبس فيه (روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام:

إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم، فكيف هذه المعرفة؟

فقال عبدالله بن سلام: نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أحري ما أحدثته أمه.^(٧)

بل قد أخذ العهد على الأنبياء والمرسلين السابقين الإيمان برسالته، والانضواء تحت لواء شريعته لو غشيهم زمانه:

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الخاسرون)^(٨)، ويقرر الإسلام حقيقة مهمة هي: أن الرسول صلى الله عليه وسلم من جملة رسالته أنه يكشف ما يخفيه رجال دينهم، ويبين ويفصل في كثير من اختلافاتهم التي ظلوا يخوضون فيها من قرون متطاولة، ولا يزيدون إلا خلافاً:

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفوا عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).^(٩)

فمن ثم جاء الإعلان الإلهي:

(إن الدين عند الله الإسلام)^(١٠)، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذ لا سبيل إلى الإيمان إلا من طريقه، وما بلغه لأمته من شريعته، فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين غير شريعته فليس بمتقبل).

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل آما بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

وما أوتي موسى وعيسى والنبون من رهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون *
ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين^(١٣).
أصبح توحيد العالم تحت دين واحد، شعاره الوحدانية، في ظل رسالة واحدة
قدراً كونياً، وضرورة تاريخية، تقدمت أسبابه، وتهيأت شروطه.

وصلت الإنسانية مرحلتها الأخيرة بالكمال والتمام بالإعلان الإلهي

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في
هذا لآياتاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(١٤). فهو صلى الله عليه
وسلم الرحمة المهداة، من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، وهو صلى الله عليه
وسلم رحمة لمن لم يتبعه إذ عوفي مما كان يبغى به سائر الأمم من الخسف، والمسح،
والقذف.

شعاره التوحيد الخالص لباري الكون وخالقه، مهمته إعادة الأمور إلى نصابها
عبادة، وعبودية، إعادة الكرامة الإنسانية كما أرادها المولى جل جلاله، ومن أسمى
غايته صلى الله عليه وسلم توحيد الأمة في إطار تلك المعاني والمبادئ.
دعوة تحمل الخير كل الخير للإنسانية، والسعادة كل السعادة، دعوة تحقق
عصمة الدماء، والأموال، والأعراض.

منهج الدعوة إلى عالمية الشريعة الإسلامية

وضع الإسلام قواعد المنهج الصحيح للدعوة، والأسلوب الأمثل لذيوعها
ونشرها بين أمم الأرض، قدم نماذج عملية تطبيقية متمثلة في سلوكه صلى الله
عليه وسلم، وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ضمن قاعدة علمية هي
الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بما هو أحسن، على كافة المستويات من

دون تخصيص: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن).^(١٤)

إن الإسلام يقيم في دعوته أهمية كبيرة للكلمة الطيبة في سبيل الدعوة له، ونبذ الخشونة في اللفظ، فضلاً عن العمل (وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن).^(١٥)

ويثني ثناء عاطفياً على من جعل الكلمة الطيبة منهجه في التعامل مع الآخرين، وبخاصة في الدعوة الى الله، قال تعالى:
(وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد).^(١٦)

(وحتى مع الطغاة العتاة قد تكون الكلمة الطيبة أوقع وأنفع بدلاً عن المبالغة بالشدّة والغلظة، والله سبحانه وتعالى خاطب سيدنا موسى وأخيه هارون بقوله:
(اذهب الى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى) رغم أن فرعون كان طاغية وداعية سوء....^(١٧)

هذا هو الأساس في الدعوة الى دين الله سواء على مستوى الفرد، او الجماعة، او الدول.

سلك النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيق هذه الأهداف النبيلة كل وسائل الإقناع والترغيب، وتأليف القلوب نابذاً القسر، والإكراه (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

هكذا يجد المتتبع للدعوة الإسلامية من حين بدايتها بمكة المكرمة، ويوم كان المسلمون قلة في العند، وضعفاً في الإمكانيات الى أن قويت شوكتهم، وقامت دولتهم، السلام شعارهم، والدفع بما هو أحسن مبدءاً راسخ في شريعتهم، فهو قيمة عملية في تكوين مجتمعاتهم، هم سلم لمن سألهم، حرب على من نصب العدا لدينهم وأمتهم.

لو أريد أن يكون للرسول صلوات الله وسلامه عليه عنوان وصفي يتطابق ومجريات سيرة حياته وسلوكه في الدعوة إلى الله عز وجل لكان أحق، وأوجب أن يدعى:

(رسول الرحمة)، فقد أرسل صلى الله عليه وسلم (رحمة للعالمين) بنص القرآن الكريم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(١٨)، والدين الإسلامي أحق، وأوجب بأن يدعى (دين الرحمة).

صفة الرحمة فيه صلى الله عليه وسلم أخص الصفات وأبرز الكمالات. ثبت هذا من خلال أقواله وأفعاله في أكثر المواقف حرجا وشدة عليه صلى الله عليه وسلم، من ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم من ثقيف لما حاصروهم بالطائف قال له أصحابه:

يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع عليهم، فقال:

اللهم اهد ثقيف، وانت بهم... برغم أنهم حاربوه، وقتلوه، وقتلوا جماعة من أصحابه، وقتلوا رسول رسول الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله دعا لهم، ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رأفته، ورحمته ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه:

رحمته صلى الله عليه وسلم ليست خاصة بالمؤمنين، وإنما هي عامة بالمؤمنين وغير المؤمنين، فهو صلى الله عليه وسلم حريص على صلاح أمة دينا ودينا، سواء من استجاب لدعوته، أم من لم يستجب لها، هذا النبي جاء تقريره، وتأكيده في آيات التنزيل:

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) الآية^(١٩). حريص على انقاذ الجميع من الضلال، ومن سوء المصير، حريص كل الحرص على صلاح أمة واستصلاحهم، وإبعادهم عن حدوث ضرر بهم في

بهم في الحياة الدنيا والآخرة، يعز عليه مشقتهم، وإعنتهم، مبالغ في رحمته وشفقته عليهم، شملت رحمته وشفقته الإنسان، والحيوان في عبارات صريحة:

(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، (في كل كبد حرى أجر)، وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المستفيضة يؤيدها سلوك، وتعامل صريح، ولأجل مثل هذه الأغراض النفسية رتب سبحانه هذين الوصفين^(٢١) (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، قل بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قل: (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، وقال (إن الله بالناس لرؤوف رحيم).^(٢٢)

تاريخ دعوته صلى الله عليه وسلم مشبع بالعطف والشفقة، لمن آمن به، ولمن لم يؤمن به، يدعوهم وإن عنفوا له القول، وأذوه بما لا يليق به، وهو المعروف بينهم أصلاً وأرومة، ومحتدأ، وأخلاقاً وسلوكاً. لم يمنع أهل الكتاب ماضياً وحاضراً من الإيمان برسالته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد:

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير).^(٢٣)

وما منع سواهم إلا المكابرة، وحب الاستعلاء (فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بما واستيفنتها أنفسهم ظلماً وعلواً).^(٢٤)

في وصف صادق ومكاشفة صريحة للفيلسوف المفكر رجا جاوردي لبني قومه بعد أن خلصه الله من داء أهل الكتاب، ونور بصيرته بالإسلام، متحدثاً عن علاقة الثقافة الغربية الحاضرة بالإسلام ونصحه أهلها بـ:

أنها اغلقت أبوابها ونوافذها الفعلية ما يزيد على الثلاثة عشر قرناً في وجه الإسلام، وبذلك حرمت من نوره الوهاج، ولو أنها تركت ابواب ونوافذ عقلها مفتوحة لاستنارت، واستراحت، واستطاعت أن تصل الى الفهم الصحيح لمعنى الوجود الإنساني، والى معرفة الله الواحد، الأحد، والعمل بمنهج الحية السليم، ولا استطاعت بذلك أن تجنب الملايين هذه الحية النافهة التي يعيشونها بلا معنى، ولا هدف، ولا أمل في الغرب من الانقراض والتلاشي إلا بأن يعي دور الحضارات الأخرى ويعترف أنه مدين لها، ويعمل على تغيير موقفه العنيد من الإسلام.^(٢١)

عالية الإسلام

خطابها. خصائصها

للعالية الإسلامية خطاب تتحدث به، وخصائص تتميز بها. خطاب العالمية الإسلامية خطاب شمول وعموم، لا يخص فئة دون أخرى، ولا جيلاً دون جيل، ولا مكاناً دون آخر، يخاطب البشرية أُنَى كانت، ومتى عاشت. العالمية الإسلامية تخاطب الذات الانسانية، تتعمق في طواياها، تخاطب ذاتها، تثير عناصر النبل والخير في داخلها وخارجها، وتقويها، تعالج جوانب الضعف فيها.

للعالية الإسلام مظاهر فأين تتجلى؟ وأين تصدق مظاهرها منه؟ سنجد هذه المظاهر مدونة في دستوره الأول المتمثل في الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، المصدران الرئيسان، والمرجع الأساس في كل ما يحكم له به، أو يحكم عليه؛ ذلك أن القرآن الكريم تعريفاً ومدلولاً هو:

(كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم منجماً حسب النوازل والوقائع).

أما السنة النبوية فهي: (كل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة).

من خلال هذين المصدرين الجليلين، وفي ضوء العالمية مدلولاً، وتعريفاً، وشروطاً تتبين عالمية الإسلام نصاً صريحاً، وديناً قيماً خالداً.

مظاهر هذه العالمية متعددة ومتنوعة تتجلى بوضوح فيما ورد في القرآن الكريم وصفاً لبداية الحياة الإنسانية وصفاً دقيقاً، خلقاً، وخلقاً، يحيط بتكوينه، وسلوكه، وصفاً لا يخص أمة، ولا يحد بزمان، وذلك في آيات عديدة منها:

قول الله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين).^(٢٥)

وقال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير).^(٢٦)

وغيرها الكثير من الآيات التي تقرر حقيقة خلق الإنسان وتطوره حتى يكتمل نموره الخلقي:

(والذين والزيتون وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين).^(٢٧)

الحديث عن خلق الإنسان وتكوينه حديث عام لا يخص فئة، في زمان، أو مكان.

هذا الحديث الصديق لإخبار الخالق، الموجد للخلق بقدرته يعني عالمية خلقه لبني البشر، الكل عباده، من عليهم بالخلق، والإيجاد فهم عباده، ليس تفاوتهم لوناً، أو جنساً، أو منصباً، أو جاهاً، أو ثراء بالذي يفاضل بينهم، الكل عيال الله، أكرمهم عنده أتقاهم، وأكثرهم نفعاً لعباده. تستوجب نعمة الخلق والإبداع الاستجابة لندائه، والإصغاء لأنبيائه، ورسله، ولما جاءوا به من عنده:

(يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً).^(٢٧)

خصائص عالمية الإسلام

لعالمية الإسلام خصائص تتميز به عن سائر الأديان، والأيدولوجيات القديمة والحديثة، من هذه الخصائص:

١- الوحدانية المطلقة لله عز وجل: فهي المظهر الأسمى لعاليته (وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله وهو العليم الحكيم)^(٢٨)، لا تختلف زماناً ومكاناً، كل الخلق يتجهون لإله واحد جل وعلا، ذي صفات واحدة تليق بجلاله وعظمته، يصرف الأمور كما يريد، يخلق ما يشاء ويختار، وكل شيء عنده بمقدار، يعبدونه لا يشركون به شيئاً.

هذا هو النبي قاد العقلاء قديماً وحديثاً إلى الاعتقاد بعالمية الإسلام، اكتشف هذه الحقيقة كل من أراد الله به خيراً، وشرح صدره للإسلام من أبناء الديانات، والأيدولوجيات الأخرى ممن عاشوا تجاربها، فعرفوا ثغراتها، بل أباطيلها، من هذه النماذج القريبة في عصرنا الحاضر - الذي تشاهد فيه القيم بل الديانات انتكاسة

كبيرة؛ حيث طغت الماديات - ما ورد اعترافاً صريحاً على لسان المفكر الفيلسوف رجاء جاروتي الذي عاش الايديولوجيات، والأديان الأخرى قائلاً:

بدأت إسلامي بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذا هو ركن الإسلام الأول، وفيه يسلم الإنسان قلبه، ويطوع عقله لإله واحد فوق الجميع، وهو الخالق، والمدبر، وإليه المصير، وهو الجدير بالعبادة وحده دون شريك (ذلك الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير).^(٣١)

٢- اعتراف الإسلام برسالات الانبياء والرسول السابقين، وأن الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة، وأبلغ التسليم مكتملة لتلك الرسائل ومصححة لما دخلها من تحريف، وانحراف (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً)^(٣٢).

٣- المقصد الأول الأصيل بعد إخلاص العبادة لله عز وجل اصلاح المجتمع الإنساني، وذلك بـ (تحصيل المصالح، واجتناب المفسد على حسب ما يتحقق به معنى المصلحة، والمفسدة .. فإن طريق المصالح هو أوسع طريق يسلكه الفقيه في تدبير أمور الأمة عند نوازها ونوائبها إذا التبست عليه المسالك، وأنه إن لم يتبع هذا المسلك الواضح، والمحجة البيضاء فقد عطل الإسلام عن أن يكون ديناً عاماً وبقياً).^(٣٣)

٤- ملاءمته للفطرة الإنسانية: تعاليمه منسجمة ومتوافقة مع الفطر السليمة، والمبادئ الإنسانية الكريمة، ومن أهم خصائص هذه الفطرة حبها الغريزي للمال، وإشباع الشهوات، هاتان الغريزتان لم يكتبهما الإسلام ولم يحصرهما، بل هذبهما أحسن تهذيب بما يكفل الخير والنماء للإنسانية في طهر وعفاف. لم يحرم الاستزادة المشروعة من المال، ولم يتنكر للغرائز الجسمية ومتطلباتها، أو يوجب

التخلص منها، بل سلك مسلكاً وسطاً، يحقق الرغبة الإنسانية في اعتدال، لم ير في هذا بأساً إذا أشبع المرء غريزته الجسمية والجنسية في حلال، وبطرق مشروعة تحفظ له كرامته، وتتحقق به إنسانيته.

بالنسبة للممل لاجرح عليه في جمعه إذا أدى الغني نسبة من ماله للفقراء إخوانه في الإنسانية، الذين لم يسعدهم الحظ أن يجدوا ما يسد عوزهم، نسبة لا ترهق الغني، وتسد حاجة الفقير، تلك هي ربع عشر الممل الخالص الصافي من الديون، وحقوق الأعمى الأخرى.

علاقة المسلم بالمال في نظر الإسلام ليست علاقة عبودية، وإشباع شهوات، وإنما هي علاقة إيجابية خاضعة بطبيعة الحال لإرادة الله تعالى الذي يقول في كتابه الكريم (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)، الإنسان هو سيد الموقف في الأرض باستخلاف المولى جل وعلا له، سخر لإرادته كل القوى المادية، ليس هو المسخر لإرادتها.

— المساواة بين جميع بني الإنسان دون تمييز بسبب اللون، أو الجنس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

مظاهر هذه المساواة تتجلى في الحقوق المتساوية لجميع أفراد المجتمع، حقوقاً، وواجبات، دون تمييز بسبب اللون، أو الجنس، سواء في هذا المعاملات بمعناها الواسع، والضيق، وفي شعائر العبادات، التمييز فقط هو بالتقوى، وبالتمسك بالمعاني والقيم، والمبادئ التي يحث عليها الإسلام كالعلم، واكتساب الفضائل، والأخلاق الرفيعة (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ^(٣٣)، (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). ^(٣٤)

الصلاة في الإسلام أعظم أمراً، وأشد خطراً بين أركان الإسلام بعد الشهادتين، الأولية في إمامتها لأفقه القوم وأحفظهم لكتاب الله، وليس لأي اعتبار آخر.

يحتل الصف الأول في الصلاة من أتى مبكراً إلى المسجد.

يلي الإمام في الصف أولوا الأحلام والنهي.

المبائت، والقيم هي المعيار في الموازين الإسلامية، وليس الأشخاص بوجاهتهم، وماليتهم.

شعيرة الحج تتجلى فيها المساواة بأبرز صورها؛ حيث (يجتمع المسلمون في صعيد واحد، وهيئة واحدة، وزمن واحد ليؤدوا مناسك واحدة وفق نظام واحد، لا فرق بين كبير وصغير، أمير وفقير، رعة ورعية، هذا يجعلهم يدركون أنهم متساوون متحدون بلا تمييز طبقي، وهو يشعرهم بعظمة دينهم، وقوته، ويعطيهم الإحساس بالترابط الوجداني والأمن).^(٣٥)

يؤكد القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فلا مجال لترفع إنسان على آخر بسبب الجنس، والعرق، والدم، كلهم لآدم، وآدم من تراب، إنما يتفاوتون بالمقاييس والمعايير الإسلامية السابقة.

٦- الحفاظ على كرامة الإنسان ومكتسباته:

تتضح عالمية الإسلام في تكريمه للجنس البشري من أبناء آدم عليه الصلاة والسلام، بصرف النظر عن أديانهم، ومعتقداتهم (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً).^(٣٦)

(فالتكريم منظور فيه الى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه الى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه، ودفع الأضرار عنه، وبأنواع المعارف والعلوم ..).

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى:

(إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها، ومن جزئياتها المستقرة، أن المهيمن عليها هو نوع الإنسان، ويشمل صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيشه فيه.

قل تعالى حكاية عن رسوله شعيب، وتنويهاً به: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله) فعلمنا أن الله أمر ذلك الرسول صلوات الله وسلامه عليه بإرادة الإصلاح بجمتهى الاستطاعة.

وقل: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) فعلمنا أن الصفات التي اجريت على فرعون كلها من الفساد وأن ذلك مضموم، وأن بعثة موسى كانت لإنقاذ بني اسرائيل من فساد فرعون، فعلمنا أن المراد من الفساد غير الكفر، وإنما هو فساد العمل في الأرض، لأن بني اسرائيل لم يتبعوا فرعون في كفره.

وقل حكاية عن شريعة شعيب لأهل مدين: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)...، وقل تعالى مخاطباً هذه الأمة: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)، وقل: (وإذا تولى سعي في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)، وقل: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم).

فهذه أدلة صريحة كلية دلت على أن مقصد الشريعة الإصلاح، وإزالة الفساد وذلك في تصاريف أعمال الناس ...

على أن صلاح الحال في هذا العالم مئة كبرى يمن الله بها على الصالحين من عباده جزاء لهم:

قال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبراهين لقوم عابدين)، وقال مخاطباً المسلمين: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم)...

فلولا أن صلاح هذا العالم مقصود للشارع ما امتن به على الصالحين من عباده...).

يضيف العلامة محمد الطاهر بن عاشور مؤكداً هذا المعنى بقوله:

(ولقد علمنا أن الشارع ما أراد من الإصلاح المنوه به مجرد صلاح العقيلة، وصلاح العمل كما قد يتوهم، بل أراد صلاح أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الاجتماعية، فإن قوله تعالى: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) أنبأنا بأن الفساد الخلد منه هنالك هو إفساد موجودات هذا العالم، وأن الذي أوجد هذا العالم، وأوجد فيه قانون بقائه لا يظن فعله ذلك عبثاً وهو يقول: (أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً)، ولولا إرادة انتظامه لما شرع الشرائع الجزئية الرادعة للناس عن الإفساد فقد شرع القصاص على إتلاف الأرواح، وعلى قطع الأطراف، وشرع غرم قيمة التلغات، والعقوبة على الذين يجرقون القرى ويغرقون السلع...)، ثم يستمر رحمه الله قائلاً: (فقد انتظم لنا الآن أن المقاصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح، ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان، ودفع فساد؛ فإنه لما كان هو المهيمن على هذا العالم كان في صلاحه

صلاح العالم وأحواله، ولذلك نرى الإسلام علاج صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعته وهو النوع كله...^(٣٧)

٧- الحفاظ على الإنسان خلقاً، وخلقاً، ديناً، وعرضاً، ومالا دون تمييز، جاءت نصاً في تراثنا الفقهي، تعبيراً صادقاً عن حقيقة الإسلام تجاه الإنسان أياً كان، يقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى:

(ومقصود الشرع من الخلق (هذه العبارة (من الخلق) لها مدلولها العام الشمولي) خمسة:

وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة، وهذه الأصول الخمسة وحفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح).^(٣٨)

لهذا أحاط الإسلام هذه المقاصد بقدسية كبيرة، فجعل التعدي عليها من أعظم الجنايات، بل جعل لكل واحدة منها نوعاً من العقوبة يختلف عما سواها ترسيخاً لمكانتها، وأهميتها.

القسم الثاني

العلاقات الدولية في الإسلام

جرى تعريف العلاقات الدولية بشكل عام أنها: (مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات بين الدول وتحدد حقوق كل منها، وواجباتها في حالتي السلم، والحرب)، وهو ما يسمى أيضاً بالقانون الدولي العام، حيث العلاقة هنا علاقة دولة بأخرى، وبشكل عام علاقة طرف بأخر ليس لأحدها نفوذ على الآخر.

لما أن الدين الإسلامي دين عللي لا يختص بفتة أو شعب معين فإن تعليماته، وخطوات قيادته الأولى المتمثلة في أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله تسير منذ البداية في اتجاه سياسة عالمية الإسلام: فكراً، واسلوباً، وتخطيطاً، وتحركاً بكل ما يتسجم مع هذا الهدف؛ ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الأمة الإسلامية مكلفة من الله تعالى بنشر الدعوة العالمية (الإسلام) ما اتسع لها الزمان والمكان بين الأفراد والأمم في جميع أصقاع المعمورة.

الإسلام ديناً وتشريعاً أمانة كل مسلم: الفرد المسلم، الجماعة المسلمة، السوالي المسلم: خليفة، أو ملكاً، أو رئيساً.

لوازم عالمية الإسلام إيجاد علاقات مع كافة أمم الأرض، ودولها؛ لتبلغ دعوته أطراف المعمورة، وهو مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية.

علاقة الدولة الإسلامية بسواها من الدول أصالة علاقة دعوة الى الله، تنشر مبائى الإسلام؛ لذلك ومنذ البداية، وبالتحديد منذ صلح الحديبية الذي - ابرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش آخر سنة ست من الهجرة النبوية الشريفة - يعد إسهاماً غير مسبوق في العلاقات الدولية، وذلك حين خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته الكرام يريدون زيارة البيت الحرام؛ لأداء مناسك العمرة، لا يريدون قتلاً.

فزعت قريش لقدمه صلى الله عليه وسلم، لبسوا آلات الحرب، واستعدوا لقتاله صلى الله عليه وسلم، عاهدوا الله ألا يدخلها عليهم أبداً، بعث إليهم من يطمئنهم أنهم لم يأتوا لقتال، وإنما جاؤوا عماراً، يدعوهم الى الله، والى الإسلام. لم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم مكة ذلك العام، بإصرار من قريش، وبعد محاولات ومشادات جدلية كلامية؛ وفاء لما أقسموا

عليه، وانتهت السفارات بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاملة صلح نصت على:

(وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامة ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدمها، وخلوا بينه وبين مكة، فأقام بها ثلاثاً، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نرده عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة^(٣٠)، وأنه لا إسلال، ولا إغلال).^(٣١)

تم العهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش وهو واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، بيد أن بنود المعاهدة وشروطها ليست متكافئة مما اثار حفيظة المسلمين، ودار فيما بينهم حوار وشجار، قبلوا ما قبلوا على مفضض طاعة الله ورسوله، لاجرم أن مستقبلات الأحداث ومآلاتها أثبتت أنها كانت هي الفتح والنصر للمسلمين؛ جاءت بشائر هذا النصر سريعة لدى مرجعه صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة في آيات خالدة تتلى على مر الزمان، لتعيد للمسلمين ثقتهم بنصر الله عز وجل:

(إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً).^(٣٢)

(فقد كانت مقدمة الفتح الأعظم النبي أعز الله به رسوله وجنسه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فكانت هذه الهدنة باباً له، وموذنأ بين يديه).

تبيين للمسلمين فيما بعد أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس آمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في ملة الهدنة من شاء الله أن يدخل، من أجل هذا سمى الله عز وجل

(فتحاً مبيناً)، تجلّى واضحاً بعد أن منّ الله على المسلمين بفتح مكة المكرمة، فمن ثم تحقق أصحاب رسول الله النتائج العظيمة، وثمار الكفاح المخلص المتواصل في سبيل إعلاء كلمة الله، فقد جاءت بعد هذا سريعة متلاحقة، فما أن (فرغ صلى الله عليه وسلم من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه صلى الله عليه وسلم الوفود من كل وجه ...

قال ابن اسحاق: وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عدوانه، فدخلوا في دين الله، كما قل عز وجل (أفواجاً) يضربون إليه من كل وجه ... فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود العرب.^(١٧)

وجدوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم التفهم الكامل لماضيهم، والصفح عما لحقه وصحابته من أذى من بعضهم، وأعلنها صريحة:

(أن الإسلام يجب ما قبله، وأن الهجرة تجب ما قبلها)، حينئذ توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخطابه العالمي الى أمم الأرض وملوكها لايجاد علاقات دولية مع الدول المجاورة لجزيرة العرب، فكثف من رسله وسفاراته الى أقطاب الدنيا وملوكها في عصره صلى الله عليه وسلم، ونشط في هذا الاتجاه، خصوصاً وأن الله عز وجل أوحى اليه بقرب أجله:

(فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتاباً الى الملوك يدعوهم فيها الى الإسلام، فبعث حذيفة بن خليفة الكلبي الى قيصر

ملك الروم، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي الى جيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي الى ثمامة بن أثل، وهونقة بن علي الى الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام.^(١٣)

حرص الإسلام كل الحرص أن تكون العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة أمن، وسلام دائم، خصوصاً وأن دعوته تقوم على أساس احترام كرامة الإنسان، وأنه خليفة الله في الأرض لإعلاء كلمته، وإخلاص عبادته، لتكتمل للإنسان الحياة الآمنة، والطمأنينة النفسية والروحية، بهذا يستكمل عمار الأرض التي استخلفه الله فيها، وهو في قمة اهتمام الشريعة الإسلامية.

لا جرم أن الإسلام بهذه المبادئ القوية يأمر بالأخذ بالأسباب التي تؤدي الى المحافظة على حياة الإنسان لتحقيق المقاصد الإسلامية النبيلة ألا وهي المحافظة على العنصر البشري، وتسخير كل ما خلقه المولى عز وجل لإيجاد حياة سعيدة حتى يتمكن من إقامة أوامر مولاه جل وعلا؛ لهذا نجد أن الأساس والأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم ممن لا يدينون بالإسلام هو: الدعوة الى اللخول في دين الله تعالى (الإسلام)، وهو ما استهل به رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله الى الملوك، فإنه بدأ رسائله صلى الله عليه وسلم بعد الديباجة:

(الى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ...

وإلى كسرى (من محمد رسول الله الى كسرى عظيم الفرس:

سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم ...).

وكتب الى النجاشي، وجاء بعد الديباجة:

(... وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له، والموالاته على طاعته، وأن تتبني وتؤمن بالنبي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى).^(١٠)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث رسله الى الأمم حوله في جزيرة العرب، يحملون كتبه، يدعونهم فيها الى الإسلام، يطلب منهم قبوله، يبشرهم بأنهم إن أطاعوه فلهم الأجر في الآخرة، واستقرار ملكهم في الدنيا من غير إكراه ولا إجبار، فمنهم من استقبل رسله استقبال السفراء والضيوف، فبش في وجوههم، وردهم بلجوائز والهدايا، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فردهم رداً شنيعاً، أو قتلهم، ومزق الكتب التي يحملونها.

(كانت رسائله صلى الله عليه وسلم كلها تدعو الى الخير، والرحمة، والسلام، والدعوة الى ما يسمى اليوم بالتعايش السلمي على أسس من قبول دعوة الإسلام، أو الكف عنها، وعدم الحيلولة بينها وبين الناس، حتى إن ملك الروم أخذ الكتاب ووضع في مسك تكريماً له، وأكرم الرسول، أما ملك الفرس الظالم فقد مزق الكتاب، فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: مزق الله ملكه، ...).^(١١)

هذا النمط الرفيع من المكاتبات والمراسلات التي قامت على أساسه الدعوة الإسلامية، وبنيت عليه علاقاتها مع أمم الأرض، فأصبح منهجاً مميزاً لها، أصبح

هذا النوع من التعامل في هذا المجال قانوناً وقاعدة شرعية ثابتة في السلم، لا يختلف الأمر عنه في المواجهة، والمناجزة.

الدعوة أولاً: ومحاولة إقناع الطرف الآخر بكل وسائل الإقناع ما أمكن حتى لا يترك سبيل، أو سبب لنشوب حرب، ومواجهة قتالية، هذا ما تم إعلانه قولاً، وجرى تطبيقه عملاً في نصوص لا تقبل التأويل:

(إذا لقي المسلمون المشركين فإن كانوا قوماً لم يبلغهم الإسلام فليس ينبغي لهم أن يقاتلوهم حتى يدعواهم؛ لقوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)،^(١٧) وبه أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراء الجيوش فقل:

(فادعواهم الى شهادة لا إله إلا الله؛ ولأنهم ربما يظنون أننا نقاتلهم طمعاً في أموالهم، وسبي ذراريهم، ولو علموا أننا نقاتلهم على الدين ربما أجابوا الى ذلك من غير أن تقع الحاجة الى القتل.

وفي تقدم عرض الإسلام عليهم دعاه الى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فيجب البداية به.

فإذا كان قد بلغهم الإسلام، ولكن لا يدرون أننا نقبل منهم الجزية فيبغي أن لا نقاتلهم حتى ندعواهم الى إعطاء الجزية.

به أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراء الجيوش، وهو آخر ما ينتهي به القتل؛ قال الله تعالى: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)^(١٨).

والذي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال:

ما قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً حتى يدعواهم.

وعن طلحة رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل

المشركين حتى يدعواهم.

وعن عطاء بن يسار أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علياً رضي الله عنه مبعثاً فقال: امض ولا تلتفت، أي لا تدع شيئاً مما أمرك به. قال يا رسول الله كيف اصنع؟

قال: إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلوهم حتى تريحهم إليه، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله؟

فإن قالوا نعم.

فقل لهم: هل لكم إلى أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم.

فقل لهم: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم الصدقة؟ فإن قالوا نعم فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهني الله على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ...

وعن عبدالرحمن بن عائد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث بعثاً قال: تألفوا الناس، وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم، ونسائهم، وتقتلوا رجالهم^(١٤). أصبحت هذه التوجيهات النبوية للرسول والسفراء قواعد ثابتة، وأصولاً وقوانين راسخة هي الأصل، والأساس في العلاقات الدولية في الإسلام مع غيرها من الأمم والشعوب في السلم، والحرب، لا يجوز خرقها، أو تجاوزها، والحيلة عنها، يتوخاها، ويتحرى التقيد بها الإمام، والقائد، وكل ذي نفوذ من المسلمين.

تتمثل هذه القيم، والمبادئ في الخصل الثلاثة الآتية على الترتيب بحيث لا يصح للخليفة، أو الملك، أو القائد، أو أي أحد ينتسب للإسلام الانتقال من

الأولى الى الثانية حتى يستفرغ جهده بالنسبة للأولى التي قبلها، ولا يجوز شرعاً أن يتقدم الى ما بعدها حتى يستنفد ما قبلها:

الخلاصة الأولى: إرسال الرسل لتبليغ الدعوة

انطلاقاً من عموم الرسالة، والأمر بتبليغ الدعوة الى كافة أنحاء المعمورة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكاتبة الملوك والرؤساء، ودعوتهم الى اعتناق العقيدة الإسلامية؛ عملاً بقوله سبحانه وتعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس)^(٤٩)، كان هذا جل قصد النبي صلى الله عليه وسلم؛ إشفافاً منه على أمته.

فإن لم تكن الاستجابة لدعوة الحق التي ترتفع بإنسانيتهم، وتقودهم الى السعادة الأبدية طوعاً، ولم يفتحوا قلوبهم للإسلام، ولم تنشرح له صدورهم، وحل الزعماء بين الإسلام وبين شعوبهم فالسبيل للمعايشة السلمية، وعصمة الدماء هو:

الخلاصة الثانية: إبرام المعاهدات التي تعصم الدماء والأرواح، وهي:

(العقد مع أهل الحرب على الكف عن القتل مدة، بعوض وبغير عوض)^(٥٠)
لتعرف كل دولة ما لها، وما عليها؛ حتى (يعيش المجتمع الدولي جمعياً في ربيع العصمة، عصمة الدماء، والأعراض، والأموال، والأوطان، لا تبغي دولة على أخرى...)^(٥١)

للمعاهدات بين المسلمين وغيرهم في الشريعة الإسلامية أهمية خاصة، تم عقد نظمها، وموادها من أصول شرعية قاطعة: من القرآن، والسنة النبوية المطهرة، ناهيك عن المعاهدات التي أبرمها الرسول عليه الصلاة وأزكى التسليم، وأكدها بأقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وسار الخلفاء من بعده على منوالها من أهمها:

أولاً: وجوب الوفاء بالعهد للعدو مهما كانت الظروف، مادام نعمة التزام به من قبله، وهو ما وردت به الآيات المحكمة منها:

قوله تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون).

وقوله تعالى: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً)^(٥٧)، وغيرهما من الآيات الكريمة التي تحث على الوفاء بالعهد، وتثني على الملتزمين به.

التزام النبي صلى الله عليه وسلم بالعهد في أقصى الظروف التي مرت به وبأصحابه رضوان الله عليهم دليل عملي تطبيقي على الالتزام بالعهد والمواثيق، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قل لأبي رافع وقد أرسلته قريش فأراد المقام عنده والبقاء بالمدينة، وأنه لا يريد الرجوع إليهم، فقل:

(إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن أرجع إلى قومك، فإن كان في نفسك الذي فيها الآن فارجع)، وقال صلى الله عليه وسلم (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يعلن عقداً، ولا يشدنه حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء).

ولما أسرت قريش حذيفة بن اليمان وأباه أطلقوهما، وعاهدوهما أن لا يقاتلاه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا خارجين إلى بدر، فقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: انصرفا، نفسي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)^(٥٨).

(وهناك مثل طريف لنوع من المواثيق والعهد لا نجده إلا في العصر الحديث، وهو ذلك العهد الذي أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران باليمن يلتزم لهم فيه بحرية عقيدتهم ماداموا مسلمين...)^(٥٩).

ثانياً: وجوب الالتزام والتمسك بمواثيق الأمان إذا عهد بها المسلمون لأعدائهم؛ ذلك أن الأمان معناه: (الكف عن التعرض للأعداء بالقتل والسبي حقاً لله تعالى، والله لا يعزب عنه مثقل ذرة، ولا يخفى عليه خافية).

ثالثاً: حرمة أموال المعاهدين كحرمة أموال المسلمين

قل محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله تعالى:

(وإذا أودع المسلمون قوماً من المشركين فليس يحل أن يأخذوا شيئاً من أموالهم إلا بطيب أنفسهم، للعهد الذي جرى بيننا وبينهم؛ فإن ذلك العهد في حرمة التعرض للأموال والنفوس بمنزلة الإسلام، فكما لا يحل شيء من أموال المسلمين إلا بطيب أنفسهم فكذلك لا يحل شيء من أموال المعاهدين، وهذا لأن في الأخذ بغير طيب أنفسهم معنى الغدر، وترك الوفاء بالعهد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (في العهود وفاء لا غدر فيه)...، ويستدل لهذا بحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن ناساً من اليهود يوم خيبر جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تمام العهود فقالوا: إن حظائر لنا وقع فيها أصحابك فأخذوا منها بقللاً، أو ثوماً، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فتلقى في الناس:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا أحل لكم شيئاً من أموال المعاهدين إلا بحق.^(٥٥)

فإذا نادى المسلمون أهل الحرب بالأمان فهم آمنون جميعاً إذا سمعوا أصواتهم بأي لسان نادوهم به؛ لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه كتب إلى جنوده بالعراق: إنكم إذا قلتم لا تخف، أو مترسي، أو لا تذهل فهو آمن؛ فإن الله تعالى يعرف الألسنة^(٥٦)، (ويحرم به قتل، وورق، وأخذ ملل) والتعرض لهم لعصمتهم به...^(٥٧).

رابعاً: (يصح الأمان من إمام، وأمير لأسير بعد الاستيلاء عليه، وليس ذلك لأحد الرعية إلا أن يجيزه الإمام؛ لأن أمر الأسير مفوض الى الإمام فلم يجز الافتيات عليه...، (ويصح أمان اجير، وتاجر في دار الحرب)؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم)، ومن صح أمانه صح اخباره... ولا ينقض الإمام أماناً إلا أن يخاف خيانة من أعطيه فينقضه لفوات شرطه...^(٥٨).

خامساً: إذا حاصر المسلمون حصناً في دار الحرب فناداهم رجل بالأمان بحيث يسمعون الكلام، وهو النداء، إلا أن العلم قد أحاط أنهم لم يسمعوا، بأن كانوا نياماً، أو متشاغلين بالحرب كان ذلك أماناً حتى لا يجعل قتالهم إلا بعد النبذ اليهم؛ لأن حقيقة سماعهم باطن يتعذر الوقوف عليه، وفي مثله إنما يتعلق الحكم بالسبب الظاهر الدال عليه، وهو أن يكون منه بحيث يسمعون نداءه، وإذا قام السبب الظاهر مقام المعنى باطن دار الحكم معه وجوداً وعدمًا، وهذا لأن التحرز عن الغرور واجب...^(٥٩).

سادساً: جواز ابتداء الإمام صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

سابعاً: جواز صلح أهل الحرب على وضع القتلى عشر سنين، وهل يجوز فوق ذلك؟

الصواب: أنه يجوز للحاجة والمصلحة الراجحة، كما إذا كان بالمسلمين ضعف، وعدوهم أقوى منهم، وفي العقد لما زاد عن العشر مصلحة للمسلمين.^(٦٠)

ثامناً: (يصح الأمان منجزاً، ومعلقاً بشرط كقوله: من فعل كذا فهو آمن؛ لقوله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)).^(١١)

تاسعاً: دعوة اعطاء الأمان مقلمة على دعوة القهر:

فإذا دخل العسكر دار الحرب فخرج اليهم مسلماً كان أسيراً، أو كان مستأمناً فيهم، أو كان أسلم منهم والتحق بجيش المسلمين ومعه حربية فقالت: جئت مستأمنة إليكم.

وقال المسلم: جئت بها قهراً، فهذا إنما يكون على ما جاءت عليه المرأة، فإن كانت غير مربوطة تمشي معه حتى إذا انتهت إلى أدنى مسلح المسلمين نادى بالأمان، أو لم تناد فبهي آمنة).^(١٢)

عاشراً: مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه أعلى المفسدتين باحتمال ادناهما.^(١٣)

حادي عشر: إذا طلب المشركون ...، أو البغاة، أو الظلمة أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى أجيئوا عليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمت الله تعالى ... فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى، مرض له، أجيب إلى ذلك كائناً من كان ...

ثاني عشر: يبعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أميناً، لا غرض له، ولا هوى، وإنما مراده مجرد مرضة الله ورسوله، ولا يشوبها غيرها، فهذا هو الأمين حق الأمين...^(١٤)

ثالث عشر: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله، وجفوته، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يقابل النبي صلى الله عليه وسلم عروة على أخذه بلحيته وقت خطابه، ... وكذلك لم يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم

رسولي مسيلمة حين قال: نشهد أنه رسول الله، وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما.

الخصلة الثالثة:

إن لم تكن استجابة لإحدى الخصلتين السابقتين: (قبول دعوة الإسلام، أو عقد معاهدة للصلح) فالسبيل إلى أمن الأمة، وعصمة بيضتها هو الذود والدفاع عن عقيدتها، وأمنها، ووجودها، وهذا يعني إرغامها على ما لا بد منه، وهو ما نصت عليه الآيات الكريمة:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير).^(٦٥)

(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين).^(٦٦)

إذا اقتضى الأمر ولزم ركوب متن الحرب، وأصبح الخيار الوحيد الذي لا بد منه، فإن الشريعة الإسلامية لم تترك هذا الأمر لروح التشفي، والانتقام، وأهواء الأفراد، بل وضعت من التشريعات ما يحفظ للإنسانية وجودها، ويعيد إليها كرامتها، فأضحى للحرب تشريعات، تعاليم، وآداب يفرضها الإسلام على المسلمين، من أهمها:

أولاً: يحرم استعمال الآلات النارية التي تؤدي إلى هلاك العدو، أو تحريقهم متى قدر عليهم؛ لحديث: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)، ولقوله صلى الله عليه وسلم (فإنه

لا يعذب بالنار إلا رب النار) رواه أبو داود، ومن باب أولى تحريم أسلحة الدمار الشامل، أو ما يسبب تشويه الإنسان، وإعاقة.

ثانياً: حرمة قتل الشيوخ، والرهبان، والصبيان، والنساء؛ لقول ابن عمر رضي الله عنهما: (إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل النساء والصبيان)، متفق عليه، كذلك يحرم قتل خنثى، وراهب، ولو خالط الناس؛ لقول عمر رضي الله عنه: (ستمرون على قوم في صوامع لهم، احتبسوا أنفسهم فيها، فدعوهم حتى بيعتهم الله على ضلالهم)، وشيخ فان؛ لأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن قتله، رواه أبو داود، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (ولا تعتدوا) بقوله (لا تقتلوا النساء والصبيان، والشيخ الكبير، وزمن، وأعمى، وعبد، ولا فلاح لا يقاتل؛ لقول عمر رضي الله عنه: اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب)؛ ولأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يقاتلوهم حين فتحوا البلاد؛ ولأنهم لا يقاتلون أشبهوا الشيوخ، والرهبان.

عدم التعرض لهذه الفئات من الأعداء حيث لا رأي لهم في تدبير الحرب والقتل، أما إذا كان واحد منهم ذا رأي ومشورة جاز قتله، (إلا أن يقاتلوا، أو يجرضوا عليه، فيجوز قتلهم بلا خلاف. ولا يقتل معتوه مثله لا يقاتل؛ لأنه لا نكايه فيه).

ثالثاً: لا يجوز قتل أسير حتى يؤتى به إلى الإمام إلا أن يمتنع من المسير مع من أسره.

رابعاً: لا يجوز التمثيل بالأسير، ولا تعذيبه لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث بريلة (ولا تعذبوا، ولا تمثلوا).

خامساً: يحرم التفريق بين أسير وبين نبي رجم محرم بيع، ولا غيره، ولو رضوا به؛ لعموم حديث أبي أيوب رضي الله عنه، قل: سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول: من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة، رواه الترمذي.

سادساً: إذا أسلم المحاصرون من الأعداء قبل القدرة عليهم أحرزوا ما لهم، وعصموا دماءهم.

سابعاً: يكره نقل رأس كافر من بلد إلى بلد، ورميه بالمنجنيق بلا مصلحة، لما روي عقبه بن عامر: (أنه قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه برأس بنيان البطريق، فأنكر ذلك، فقال يا خليفة رسول الله: فإنهم يفعلون ذلك بنا، قل فلذن بفارس والروم: لا يحمل إلي رأس، إنما يكفي الكتاب، والخبر).^(٧٧)

ثامناً: لا يجوز إحراق محل العدو ولا تغريقه لما روي مكحول أن النبي صلى الله عليه وسلم: أوصى أبا هريرة بأشياء قل:

(إذا غزوت فلا تحرق محلاً، ولا تغرقه)، وروى مالك أن أبا بكر قل ليزيد ابن أبي سفيان نحوه؛ ولأن قتله فساد فيدخل في عموم قوله تعالى: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها)، الآية؛ ولأنه حيوان ذو روح فلم يجوز إهلاكه ليغيظهم، كنسائهم، ويجوز أخذ شهله...

تاسعاً: لا يجوز عقر دواب العدو ولو شاة لتهيئه صلى الله عليه وسلم عن قتل الحيوان صبراً، وقول الصديق رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان في وصيته (ولا تعقرن شجراً مثمراً، ولا دابة عجماء، ولا شاة إلا لمأكله)، (أو من دواب قتالهم) فلا يجوز عقرها لما تقدم إلا حال قتالهم فيجوز بلا خلاف؛ لأن الحاجة تدعو إلى ذلك؛ إذ قتل بهائمهم مما يتوصل به إلى قتلهم وهزيمتهم، وهو المطلوب ...

عاشراً: يحرم قطع الشجر والزرع، وما يتضرر من إزالته (لكونه مما ينتفع به علفاً للدواب، أو استظللاً، أو أكلاً لثمره، أو تكون العادة لم تجر بينهم وبين العدو لما فيه من الإضرار، وما عدا هذا مما لا ضرر فيه، ولا نفع لهم به سوى غيظ الكفار، والإضرار بهم فيجوز إتلافه؛ لقوله تعالى: (ما قطعتم من لينة) الآية؛ ولما

روي ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي حرق لخل بني النضير، وقطع وهي البويرة، فأنزل الله الآية، ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

حادٍ عشر: حرم القرآن الكريم حروب التشفي والانتقام قل تعالى:

(ولا يجرمكم شتان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا).^(٦٧)

يقول العلامة أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي رحمه الله في بيان معناها وسبب نزولها: (نزلت عام الفتح حين أراد المؤمنون أن يستطيلوا على قريش، وألفافها من القبائل المتظاهرين على صد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية، وذلك سنة ست من الهجرة، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة للكفار، فقبل للمؤمنين عام الفتح، وهو سنة ثمان: لا يملككم ذلك البغض، أو أولئك البغضاء من أجل أن صدوكم على أن تعتدوا عليهم).

ثاني عشر: يستكر الإسلام الحروب التي لا تخدم غرضاً مشروعاً، وإنما هي من قبيل الإفساد في الأرض، وطلب العلو، والاستكبار، فقد صرح القرآن بالثناء على المؤمنين الذين ليس من طبيعتهم التعالي، والفساد في الأرض، قل تعالى:

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة

للمتقين).^(٦٨)

موجز القول: (إن تعاليم الإسلام في شأن نظام الحرب ... ينفذها المسلمون على أشد ما يكون التنفيذ دقة، فلا يخونون، ولا ينهبون، ولا يخربون عامراً، ولا يعذبون اسيراً، ولا يقتلون رهينة، ولا رسولاً، ولا يقابلون ذلك بالمثل، بوازع من تقوى الله، ولا يفرضون العقوبات، وطريقتهم في التنفيذ ورعاية هذه الحقوق، والحريات للأعداء إنما تنبع عن إيمانهم بوجوب اتباع أوامر الله، واجتناب نواهيه تخرجاً من الوقوع في الإثم ...).^(٦٩)

هذه نبذة مختارة تسلط بعض الأضواء على عالمية، وخصائصها، وعلى الجوانب المهمة في فقه العلاقات الدولية في الإسلام، قد كانت موضع التنفيذ، والتطبيق لدى القيادة الإسلامية أيام النصر والازدهار منذ قرون وأجيال، وقد كان الإسلام يمثل العالمية بحق وجدارة، والخير للإنسانية جمعاء، ليس قاصراً على أمة دون أمة، أو جيلاً دون آخر، أو سعياً وراء مصلحة ذاتية، أو اقليمية محدودة، وإنما الهدف الأول والأساس إخلاص العبادة لله جل وعلا، وإسعاد البشر، والاستمتاع بحياة آمنة مطمئنة في ظل عقيدة الوحدانية.

آخرأ وليس أخيراً:

يعقد علماء القانون الدولي مقارناتهم بين العلاقات الدولية في الإسلام وبين القانون الدولي الوضعي، مسجلين أولية القانون الدولي الإسلامي، وعالميته منذ إقامة الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أي قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً، يقول في هذا الصدد أستاذ القانون الدولي الأستاذ الدكتور مفيد شهاب في دراسة قيمة له في هذا المجال:

(إن القانون الدولي فرع حديث النشأة، وأنه لم يأخذ طابع العالمية إلا ابتداء من القرن العشرين، كما أنه مازال حتى اليوم ينمو، ويتطور تبعاً للظروف، والمستجدات التي تطرأ على العلاقات بين الدول، وأخيراً باعتباره قانوناً وضعياً، لا يهتم كثيراً بالتكوين الأخلاقي للدول - وبالتالي للشعوب - التي تطبق، أو ينطبق عليها أحكام هذا القانون.

فإذا استعدنا ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، أي قبل نشأة فكرة القانون الدولي بأحد عشر قرناً نجد قد جاء للإنسانية كلها بآخر سماوية، وبالتالي أكمل تشريع إلهي، وما أسرع أن تقبلته العقول، واطمأنت إليه النفوس، ووجدت فيه الشعوب نظاماً يحقق لها العدالة والمساواة، ويمنحها الأمن والاستقرار ...

والواقع أن القانون الدولي لم يصبح عالمياً بحق إلا بعد انشاء الأمم المتحدة، وبصفة خاصة بعد حسم مشكلة العضوية بها في سنة ١٩٥٦م؛ لذلك فإن النظام السياسي الذي أقامه المسلمون في المدينة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم اتسم منذ اللحظات الأولى بطابع العالمية، والدبلوماسية معاً، قد تجلّى ذلك واضحاً في الرسائل التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم الى رؤساء العالم حينئذ...

كذلك كان للمعاملات التي وقعها الرسول صلى الله عليه وسلم مع القبائل العربية، أو اليهود نماذج عالية من السياسة الحكيمة التي تحفظ لجماعة المسلمين حقوقها، وترد عنهم كيد المعتدين، وفي هذا المجال ينبغي أن نتأمل معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لمبعوثي أعدائه، وحاملي رسائلهم وممثليهم السياسيين، وهي معاملة يحق لنا أن نقول فيها: إنها سديدة ومستقيمة، فالإسلام فوق ما يكفله له من صيانة، وأمن على الأرواح يمنحهم نوعاً من الحصانة الاجتماعية التي تضمن لهم حرية العودة الى أوطانهم متى شاؤوا، ولا يدع سبيلاً الى احتجازهم في بلاد المسلمين بحجة أنهم من الأعداء...

يلي ذلك طريقته عليه الصلاة والسلام في الاستماع لهؤلاء المفاوضين، وحسن استعداده للتفاهم، أو التعاقد معهم، والقرآن الكريم يحض الرسول صلى الله عليه وسلم على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلاً إليه (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها)^(٨٦).

وفي مجال المقارنة بين القانون الدولي في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية: (ينبغي عند اجراء مثل هذه الدراسات أن نأخذ في الاعتبار:

أن مهمة الشريعة الإسلامية هي في الدرجة الأولى مهمة حضارية، أمرة وشاملة، في حين أن مهمة القانون الدولي مهمة تنظيمية، قائمة على الاتفاق، ولا يتعلّى أثرها نطق المتفقين، فالشريعة الإسلامية تتضمن أحكاماً مصدرها القرآن

الكريم ... والسنة النبوية المطهرة، كما تتضمن المصادر التي تكفل لها النمو، والتطور الدائمين كي تتلائم مع عنصري الزمان، والمكان، ... وهي تهدف - كما نعلم - الى إيجاد تنظيم يشمل المعمورة وشعوبها على أساس أخلاقي يتميز بالسمو والامتياز مما لم يتسن لأحكام القانون الدولي بلوغه حتى الآن.

ومن الجدير بالذكر أن الأحكام الإسلامية لم تكن غايتها على الإطلاق ان تنظيم مجتمعات مغلقة، بل إن أحكام الإسلام تهدف أساساً الى تنظيم العلاقات في مجتمع مفتوح الأبواب، يشمل كل شعوب الأرض دون تمييز ... يضاف الى ذلك أنها تهدف الى إيجاد تنظيم للجماعة الإنسانية كلها على أساس العدل والشورى، والمساواة في ظل حياة كريمة يسودها الأمن والاستقرار...^(٧٣)

إن الحديث عن خصائص القانون الدولي في الإسلام واسع جداً يضيق استيفاء الحديث عنه هنا، فضلاً عن المقارنة والمقابلة، وما اشتمل عليه من تسامح، ومعان أخلاقية وإنسانية رفيعة.

ما من شك أن قانون العلاقات الدولي في الإسلام مصدر عز وفخار، ورفعة للمسلمين، يتضاعف الشعور به لو كان المسلمون في موطن القوة والغلبة بين القوى العالمية؛ فإن تطبيق الشريعة الإسلامية في المحيط الدولي يتطلب عزاً، وكرامة، وهيبة، والهيبة اليوم للقوي المتسلح بسلاح العلم، والتقدم فكرياً، وامتلاكه إمكانات مادية، وقوى بشرية واعية، فإذا ما توافر هذا للأمة الإسلامية، ووحدت صفوفها، ومواقفها حينئذ يكون لمبادئها، وقيمها المتسلحة، المرنة حق الفخر والاعتزاز على الأمم بماض مجيد، وحاضر مشرف، ومن ثم يكون أثره الكبير في التأثير على الوسط الدولي، بدون ذلك فإن التحدث عن تلك القيم هو ضرب من التغبني بالماضي وأمجاده، لا مكان له اليوم في القاموس الحضاري الحديث؛ إذ لا يغني هذا عن واقع مهزوم، وروح متقاعسة عن اللحاق الجاد للأمم المتقدمة.^(٧٣)

الهوامش

- ١ - ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع)، ص ٨٩.
- ٢ - سورة فاطر/ آية ٢٤.
- ٣ - ابن عطية، أبو محمد عبدالحق الاندلسي، المخرر الوجيز، الطبعة الأولى، تحقيق عبد الله الأنصاري، والسيد عبدالعل السيد ابراهيم، (قطر: طبع على نفقة الشيخ خليفة آل ثاني عام ١٤٠٧ هـ)، ج ١٢، ص ٣٣٩.
- ٤ - سورة البقرة/ آية ٢١٣.
- ٥ - ابن عطية، المخرر الوجيز، ج ٢، ص ٢٠٨.
- ٦ - تقديم وتحقيق محمود النواوي ومحمد أبو الفضل، ومحمد خضاجي، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، عام ١٣٧٦ هـ) (باب خاتم النبيين) رقم ١٨، ج ٣، ص ١٤٨.
- ٧ - سورة البقرة/ آية ١٤٦.
- ٨ - ابن عطية، المخرر الوجيز، ج ٥، ص ١٥٥.
- ٩ - سورة آل عمران / آية ٨٢.
- ١٠ - سورة المائدة / آية ١٥ - ١٦.
- ١١ - سورة آل عمران / آية ١٩.
- ١٢ - سورة آل عمران / ٨٣ - ٨٥.
- ١٣ - سورة الأنبياء / آية ١٠٤ - ١٠٨.
- ١٤ - سورة النحل / آية ١٢٥.
- ١٥ - سورة الإسراء / آية ٥٢.
- ١٦ - سورة الحج / آية ٢٤.
- ١٧ - أحمد، محمود حسن، العلاقات الدولية في الإسلام، الطبعة الأولى، (دمشق: دار الثقافة العربية للنشر والترجمة والتوزيع، عام ١٩٩٦م)، ص ٢٠٠.
- ١٨ - سورة الأنبياء / آية ١٠٧.
- ١٩ - سورة التوبة / آية ١٢٨ - ١٢٩.
- ٢٠ - البقاعي، برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، عام ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م)، ج ٩، ص ٥٦.
- ٢١ - الطبرسي، أبو الفضل علي بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١م)، ج ١١، ص ١٧٠.

- ٢٢ - سورة البقرة / ١٠٩.
- ٢٣ - سورة النمل / ١٣ - ١٤.
- ٢٤ - الصاوي، أمينة، وعبدالعزیز شرف، جارودي والحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية، (جنت: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤٠٥ / ١٩٨٤م) ص ٤٢.
- ٢٥ - سورة المؤمنون / آية ١٢ - ١٧.
- ٢٦ - سورة الحجرات / آية ١٣.
- ٢٧ - سورة التين / آية ١ - ٨.
- ٢٨ - سورة النساء / آية ١٩.
- ٢٩ - سورة الزخرف / آية ٨٤.
- ٣٠ - سورة الأنعام / آية ١٠٢، الصاوي، أمينة، جارودي والحضارة الإسلامية، ص ٤٩.
- ٣١ - سورة النساء / آية ١٥٢.
- ٣٢ - ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص ٧٨، ٨٧.
- ٣٣ - سورة المجادلة / آية ١١.
- ٣٤ - سورة الزمر / آية ٩.
- ٣٥ - الصاوي، أمينة، وعبدالعزیز شرف، جارودي والحضارة الإسلامية، ص ٥٠.
- ٣٦ - سورة الاسراء / آية ٧٠.
- ٣٧ - مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٦٣ و ٦٤.
- ٣٨ - المستصفي من علم الأصول، وبذيله فواتح الرحموت، الطبعة الأولى، (مصر: المطبعة الأميرية، سنة ١٣٣٢ هـ) ج ١، ص ٢٨٧.
- ٣٩ - العيبة - ها هنا، مثل، والمعنى: أن بيننا صدوراً سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدته بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وموضع مكتون أمره لاعيبة التي يودعها متاعه، وصون ثيابه، وقوله (لا إسلال ولا إغلال) فإن الإسلال من السلة وهي السرقة، والإغلال: الخيانة، يقول: إن بعضنا يأمن بعضاً في نفسه، وماله فلا يتعرض لعمه، ولا لماله سراً، ولا جهراً، ولا يخونه في شيء من ذلك، تعليق الأرنؤوط، شعيب وعبدالقادر، زاد المعاد، ج ٣، ص ٢٩٩، هامش ١.
- ٤٠ - ابن القيم، شمس الدين أبو عبدالله محمد زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٣، ص ٢٩٩.
- ٤١ - سورة الفتح / ١ - ٣.
- ٤٢ - ابن هشام، أبو محمد عبدالمملك بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ٥٦٠.
- ٤٣ - ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٦٠٧.
- ٤٤ - ابن القيم، زاد المعاد، ج ٤، ص ٦٨٧، ٦٨٨.

- ٤٥ - الجعوان، محمد بن ناصر بن عبدالرحمن، القتل في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة، الطبعة الثانية، (الرياض: مطابع المدينة، عام ١٤٠٣ / ١٩٨٣م)، ص ٦٢.
- ٤٦ - سورة الإسراء / آية ١٥.
- ٤٧ - سورة التوبة / آية ٢٩.
- ٤٨ - السرخسي، محمد بن أحمد، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد (معلومات النشر: بدون) ج ١، ص ٧٥.
- ٤٩ - سورة المائدة / آية ٦٧.
- ٥٠ - العمراني، أبو الحسين يحيى بن أبي يحيى بن أبي الخير بن سالم الشافعي اليمني، البيان في مذهب الإمام الشافعي، الطبعة الأولى، اعتنى به قاسم محمد النوري، (جنت: دار المنهاج، عام...) ج ١٢، ص ٣٠١.
- ٥١ - الجميلي، خالد رشيد أحكام الأحلاف والمعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون، (بغداد: دار الحرية للطباعة، عام ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م) ص ٥.
- ٥٢ - سورة الإسراء / آية ٣٤.
- ٥٣ - ابن القيم، زاد المعاد ج ٥، ص ٨٨.
- ٥٤ - شهاب، مفيد القانون الدولي والشريعة الإسلامية (مقل من كتاب: الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري، أبحاث ووقائع)، (مصر: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عام ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م) ص ٣٣٤.
- ٥٥ - السرخسي، محمد بن أحمد، شرح كتاب السير الكبير، ج ١، ص ١٣٣.
- ٥٦ - السرخسي، شرح السير الكبير، ج ١، ص ٢٨٣.
- ٥٧ - البهوتي، منصور بن يونس، كشف القناع عن متن الإقناع، (الرياض: مكتبة النصر)، ج ٣، ص ١٠٤.
- ٥٨ - البهوتي، كشف القناع، ج ٣، ص ١٠٥.
- ٥٩ - السرخسي، شرح السير الكبير، ج ١، ص ٣٥٨.
- ٦٠ - ابن القيم، زاد المعاد ج ٣، ص ٤٢١.
- ٦١ - البهوتي، كشف القناع، ج ٣، ص ١٠٤.
- ٦٢ - الشيباني، شرح السير الكبير، ج ١، ص ٣٣٦.
- ٦٣ - ابن القيم، ج ٣، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.
- ٦٤ - ابن القيم، زاد المعاد ج ٣، ص ٦٤٤.
- ٦٥ - سورة الأنفل / آية ٣٩.
- ٦٦ - سورة البقرة / آية ١٩١ - ١٩٤.
- ٦٧ - انظر: البهوتي، كشف القناع، ج ٣، ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٧، ٦١.

- ٦٨ - سورة المائدة / آية ٢.
- ٦٩ - سورة القصص / آية ٨٣.
- ٧٠ - منصور، علي، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص ٣٤٢.
- ٧١ - سورة الأنفل / آية ٦١.
- ٧٢ - الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية المنعقد بالقاهرة، ص ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٥.
- ٧٣ - انظر: ضميرية، عثمان جمعة، (أصل العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين)، مجلة البيان، السنة السابعة عشرة، العدد ١٨٠، شعبان ١٤٢٣ هـ / أكتوبر - نوفمبر ٢٠٠٢، ص ١٣.

عالمية الإسلام

عيد الحق

خطيب المسجد الوطني بيت المكرم - دكا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد المبعوث رحمة
للعالمين وعلى آله وعترته هداة للمؤمنين.

جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة عالمية متممة لرسالة الأنبياء
السابقين من الدعوة الى وحدانية الله تعالى وتوحيد الأمة كما بين الله تعالى في
قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وإنما
يختلف الإسلام عما سبقه بعالميته وشموله وواقعيته وتنظيمه لمختلف شؤون الحياة
وهو بذلك قد اشتمل على الاقسام الرئيسية الأربعة:

- ١- وحدة العقائد ... في عالم الإسلام كله.
- ٢- وحدة العبادات ... في عالم الإسلام كله.
- ٣- وحدة الآداب ... في عالم الإسلام كله.
- ٤- وحدة القوانين العامة ... في عالم الإسلام كله.

١. فوحدة العقائد تقوم على الأسس المحكمة التالية:

الاول: الايمان بالله واحد كامل هو رب الكائنات جميعها (خالق كل شيء)
خلقها وأودع فيها من الاسرار ما يجب على الناس ان يحيطوا بها (قل انظروا ماذا
في السموات والأرض) وهي وحدها الدليل على وجوده ووحدانيته (ان في خلق
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب).

الثاني: وهذا الإله الذي خلق الكائنات وجعل الإنسان أكرم ما فيها ووهبه نعمة العقل ليهتدي به الى وجوده فيعرف مكانه من الحياة ومن الله هو الذي أرسل الرسل للناس ليدلوهم على ما لا يهتدون اليه بعقولهم أو ما تشبه فيه السبل أو تختلف فيه الآراء وتتباين المصالح (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) وانزل عليهم كتباً يصدق بعضها بعضاً ويتم المتأخر منها المتقدم، وهذه الكتب تدعو الى مبدأ واحد في الرسائل كلها (وما أمروا إلا ليعبدوا الهماً واحداً).

الثالث: ليس بين الإنسان وبين الله واسطة (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان) ولا يملك أحد إجبار أحد على عقيدة (لا إكراه في الدين) ولا يملك أحد أن يغفر الذنب إلا الله وحده (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً) حتى الرسل والأنبياء ليسوا إلا مبلغين رسالات الله (فإنما عليك البلاغ) وهم لا يملكون حق السيطرة على ضمائر الناس وعقولهم (ليس عليك هداهم) (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) ولا يملك أحد منهم حق مغفرة الذنب لمن لن يغفر الله ذنبه (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم أن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم).

وبذلك انكر الإسلام كل وظائف الكهانة والعرافة والرهينة، كما تفرد بأنه الدين الوحيد الذي ليس فيه رجال دين وإنما فيه علماء وفقهاء يبينون للناس حكم الله كما بين الله في كتابه (لا يملكون تحريم ما أحل الله ولا تحليل ما حرم الله).

٢. وحدة العبادات

ومظاهر عالمية الإسلام فيها ما بين النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً .. يجب على كافة

المؤمنين حفظ هذا البناء بلا امتياز بين طبقة عن طبقة وصنف عن صنف وهذه العبادات تهدف الى تحقيق الأمور التالية:

الأول: ربط الإنسان بربه دائماً حتى لا ينسى عبوديته له ورجوعه اليه واحتياجه الى عونه (إياك نعبد وإياك نستعين) وفي ذلك ما فيه من تحرير الانسان من عبوديته لقيم الحيلة الباطلة او شهواتها القاتلة، وما يصاب الناس في أموالهم وسعادتهم وكرامتهم إلا من هاتين الأفتين.

الثاني: تهذيب خلقه وتذكيره بواجبه نحو نفسه ونحو الناس وتقوية روابط الود والتعاون بينه وبين الناس في العالم كله، حتى لا ينسى أنه فرد من أمة وعضو في مجتمع له عليه حق النصح والعون - لذلك نرى القرآن حين يتحدث عن فوائد العبادات يذكر آثارها في النفس وفي المجتمع فيقول عن فوائد العبادات يذكر آثارها في النفس وفي المجتمع فيقول عن الصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ويقول عن الزكاة (تطهرهم وتركيهم ما) ويقول عن الصوم (لعلكم تتقون) ويقول عن الحج (ليشهدوا منافع لهم).

ويلاحظ في الألفاظ الواردة في الصلوات انها كلها في صيغة الجمع وان تلاها المصلي وحده في بيت أو على رأس جبل (إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم) (والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فالإسلام لا يرى العبادة مقبولة إلا إذا أدت الى اهدافها الاجتماعية لأنه دين عالمي يراقب في جميع مظاهره الوحنة الاجتماعية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).

الثالث: تدريبه على احتمال الشدة وشظف العيش وذلك واضح في الوضوء والقيام والركوع والسجود في الصلاة وفي السعي والطواف والوقوف بعرفات والمبيت بمزدلفة والإقامة بمنى في الحج وفي الجوع والعطش والسحور في الصيام.

٢. وحدة الآداب: فهي تدور حول المقاصد التالية

الأول: تقوية الشخصية الفردية حتى تنهض بعبأ الواجبات وتتحمّل مشق الحياة وتستلذّ طعام التضحية والجهاد في سبيل الحق والخير. وملاك هذه التربية ثلاثة أخلاق: الصبر والقوة والعزة. واما القوة: فلا صبر مع ضعف الجسم والحلال القوى ولذا قل عليه السلام: (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف)، وقد كره الإسلام الغلو في العبادة حتى تؤدي الى انهك الجسم واضعافه. اما العزة: فإن الإسلام لا يرى صبر الأذلاء فضيلة يحمّدون عليها ولكن يرى الفضيلة في صبر الأقوياء الاعزاء الذين يثبتون عند المحنة ويرفعون رؤوسهم أنفة من المهانة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (ولا تقنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلمون إن كنتم مؤمنين).

الثاني: تنمية الاجتماع والتعاون بين المواطنين والقضاء على روح الأثرة والانعزالية في الافراد (وتعاونوا على البر والتقوى) وقل صلى الله عليه وسلم: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)، (يد الله على الجماعة) ومن شدّ شدّ في النار (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) وإننا لنرى في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين وفي الوقوف بعرفة والإقامة بمنى تربية للمسلم على روح الاجتماع والتعاون ولقد قاوم الإسلام كل ما يؤدي الى التفرقة والخصام فحرم الغيبة والنميمة والكذب وبذاءة اللسان وفحش القول وشتّم الناس في أعراضهم فقل عليه السلام: لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً ورجب ما يؤدي الى المحبة والألفة من افشاء السلام وأداء حقوق الأخوة الإسلامية.

الثالث: تسامح الفرد في حق نفسه وتشدده في حق الجماعة (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)، (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور).

٤ وحدة القوانين العامة

وهي شاملة لمختلف نواحي الحياة في البيت والسوق والمحكمة والمدرسة والادارة والثكنة، وفي داخل الدولة وخارجها وتهدف هذه القوانين الى توفير الكرامة والسعادة والسلام العالمي للناس جميعاً، على اساس من الحب والتراحم ومراقبة الله في السر والعلن (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)، وبذلك كانت القوانين في الإسلام تدور حول الحقوق الإسلامية الضرورية لكل انسان وهي التي لا تكمل سعادته إلا بها: حق الحياة وحق العقيلة وحق العلم وحق العمل وحق الكرامة وهذا ما اجمع عليه الفقهاء الإسلام حين قالوا: (ان مقاصد الشريعة حفظ الضروريات الخمس: الدين والعقل والنفس والمال والعرض).

والأسس التي تقوم عليها هذه القوانين كلها اربعة:

١. العدالة:

وهي اعطاء كل ذي حق حقه، حتى يشعر بكرامته ويطمئن على حياته ومعيشته وسلامته وهذه العدالة تقررها القوانين الإسلامية لكل طبقات المجتمع بلا استثناء، وفي كل ناحية من نواحيه تقررها في جو الأسرة حين تأمر الزوج بالقيام بحق زوجته وتأمّر الزوجة لطاعة زوجها في حدود المعروف ومبائئ الشريعة، وتقررها في الأسرة حين تأمر الابن ان يرعى حق أبويه ويصاحبهما بالمعروف، وتأمّر الأب أن يقوم بحق ولده عليه من التأديب والصيانة عن الفساد

والانحراف وحين تأمر الأب بالعدل بين أولاده في العطايا والهبات قال عليه السلام: (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم) كما تقررها بين الزوجات (فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة).

وتقرر القوانين الإسلامية العلية هذه العدالة في بيوع الناس ومعاملاتهم فلا تبيح أن يأخذ الرجل مال أخيه إلا برضى منه وطيب نفس من غير غرر وغش (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)، وقال عليه السلام: من غش فليس منا.

وتقررها في منصة القضاء فلا يميل القاضي لخصم على خصم اتباعاً لهوى أو انحيازاً إلى عصبية (وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل)، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وتقررها ما بين الحاكم والشعب، أما الحاكم فعليه أن يبذل النصيح ويسهر على الحقوق ويؤمن الخائف ويردع الظالم، قال عليه السلام: الإمام راع وهو مسؤول عن رعيتيه، وأما الشعب فعليه أن يطيع حكامه ما استقاموا على نهج الحق وأمروا بالخير واستمسكوا به قال عليه السلام: على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحد وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

وهكذا تسير القوانين الإسلامية في تحقيق العدالة في اصغر شؤون الناس وأعظمها، وما كره الإسلام شيئاً كما كره الظلم والظالمين: (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)، وقال عليه السلام: اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة. وقال: اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، بل يعلن الإسلام أن الظلم إذا فشا في أمة كان سبب هلاكها ودمارها: (ولقد أهلكتنا القرون من قبلكم لما ظلموا).

٢. المساواة:

ومن خصائص عالمية الإسلام المساواة في القوانين العامة، فالإسلام لم يغفل عن مراعاة المساواة بين الناس جميعاً أمام القانون وأمام الحق - فانظروا الى هذه الحقيقة ان الناس قد يتفاضل في العلم والذكاء، والمال والنشاط، وقد يكون بعض الناس أكرم عند الله وأنفع للمجتمع من بعض آخر، مثلاً العالم المخلص أنفع للمجتمع من الجاهل الخائن ولكن ذلك ليس له أثر في تساوي الناس أمام الحق والقانون فمن قتل انساناً قتل ولو كان القاتل أعلم أبناء الأمة وأكثرهم دأباً على خدمة العلم ونفع الناس، والمقتول من شر الناس وأكثرهم افساداً في الأرض، لكنهما في نظر القانون قاتل ومقتول فلا بد من انصاف المقتول وعقوبة القاتل، وهكذا يساوي الإسلام بين الغني والفقير، وبين النابة والخالل، وبين العالم والجاهل، وبين الأمير والعامل في سيادة القانون على السواء قل عليه السلام: (الناس سواسية كأسنان المشط).

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مؤسس الشريعة ورئيس الدولة وزعيمها أمره ربه (قل إنما أنا بشر مثلكم)، ويقول لابنته فاطمة (رض): (يا فاطمة بنت محمد إعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً)، ويقول: (والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

وكذلك لا يمتاز المسلمون على غيرهم في الحقوق والواجبات فالقوانين الإسلامية وخاصة الجزائية والمالية تطبق على المسلم وغير المسلم على السواء تطبق على المسلمين وغيرهم أنظمة البيع والشراء والزواج والعقوبات من غير أن يعفى منها مسلم وتفرض على غير مسلم، والقاعدة العامة في ذلك (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

٣. التيسير:

فالقوانين الإسلامية العالمية لم تكلف الناس بما لا يستطيعون أو بما يقطعهم عن ضروراتهم في الحياة، والقاعدة في ذلك: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، حتى هذه القوانين التي روعي فيها التيسير ورفع المشقة لا تكون واجبة التنفيذ إذا أوقعت في الحرج والضيق، فأكل الميتة والدم ولحم الخنزير حرام إلا إذا اضطر احد الى اكلها جاز له ذلك غير باغ ولا معتد، قل تعالى: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم)، والصيام واجب فإذا شق على النفس لمرض أو سفر أو ولادة سقط الوجوب (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر)، وهكذا تتوخى الشريعة دائما رفع الحرج عن الناس: (وما جعل عليكم في الدين من حرج)، وقل عليه السلام: (يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا، وسددوا وقاربوا).

٤. المصلحة:

رعاية مصالح الناس هي الأساس في كل التشريع الإسلامي، حتى في العبادات التي يبدو انه لا علاقة لها بالمصالح، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتثبت عن الشدة وتدعو الى البر والخير عند اليسر، (إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين)، والصيام وقاية من الشح والقسوة والمرض وسوء الأخلاق: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، والحج طهارة ورحلة وتعارف وتعاون بين الاخوان الذين يجتمعون من اطراف العالم الإسلامي، قل تعالى: (ليشهدوا منافع لهم)، وهذه مصالح ضرورية لحياة الجماعات اما الزكاة فهي اظهر من أن نتكلم عن فوائدها الاجتماعية والاخلاقية: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها).

فيذا كانت العبادات في الإسلام وهي اركان الإسلام قد روعي فيها تحقيق مصالح الناس ومنفعتهم، كان التشريع الذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض أولى أن تراعى فيها مصالحهم وان لا يتوخى فيه إلا تحقيق حاجاتهم ومنافعهم. وتجدد في اثناء نصوص القرآن والسنة حين تعلق كثيراً من الأحكام بما يدل على رعاية المصلحة في تشريعها، وقد اتفق فقهاء التشريع على أن المصلحة هي قطب الرحى في أحكام الإسلام، وان الله لم يشرع أمراً إلا للمصلحة الناس.

وخلاصة هذا البحث ان الوحدة والأخوة الإسلامية تبني على أمور أربعة:
١- وحدة العقيدة الإسلامية.

٢- وحدة العبادات التي هي اركان الإسلام.

٣- وحدة الآداب والأخلاق المطلوبة من كافة المسلمين.

٤- وحدة القوانين العامة.

وأخيراً الفت نظر المفكرين والباحثين الذين اشتركوا في هذا الجمع العلمي للوحدة الإسلامية الى أمرين:

١- يجب علينا في هذا الوقت الخطير أن نؤسس المجال الإسلامي العالمي باشتراك الدول الإسلامية لأن اليهود والنصارى والمشركين تداعى على المسلمين تداعى الأكلة الى قصعتها، وقد قال الله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)، وقال تعالى: (إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون). فعلى الذين يعبدون الله وحده، وهم أمة محمد أمة واحدة، يلزم لبقائهم وحفظهم وأمنهم وسلامتهم تشكيل الهيئة الوجدانية العالمية بلا تأخير وامهال، ولا يعتمدوا على هيئة الاقوام المتحللة لأنها لا تضمن مفاد المسلمين والأمة الإسلامية، وايضاً علينا اخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب

المقدسة لأنهم يكدون دائماً على خلاف الحرمين الشريفين ومركز الإسلام والمسلمين.

٢- لا بد لمن يقوم بدعوة الوحدة الإسلامية أن تكون دعوتهم بريئة وخالية عن لون الطائفية والحزبية لأن من يدعو المسلمين للاتحاد والاتفاق وهم يريدون ان يجمعوا الناس الى عقيدة فرقة خاصة والى الطريقة السلوكية فيما بينهم فلا تفيد مثل هذه الدعوة للتقريب بين المذاهب الإسلامية والتنظيم للوحدة الإسلامية. ولكن ينبغي لدعاة الاتحاد ان يتركوا الناس على مذاهبهم الخاصة بغير نقد وتنقيص على مسلكهم المألوف، وان يوجهوهم الى اهمية اجتماع الفرق الإسلامية المنتشرة في منصة واحدة، على المقاصد الأساسية المتفقة بين المذاهب، ويكون هذا الاتحاد والاتفاق مع بقاء الاختلاف فيما بينهم من قديم الزمان، ومثل هذه الوحدة تكون اليسر وتحوز حسن القبول لدى الأمة، انشاء الله تعالى، وهذا آخر ما أردنا إلقائه بين أيديكم في هذه الحفلة المباركة.

وأرجو الله تعالى العلي القدير أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى وهو على كل شيء قدير.

بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة

محمد المختار السلامي

عضو الهيئة الإدارية للاتحاد العام التونسي للشغل

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على من أرسلته رحمة للعالمين، وختمت به رسالات المرسلين
وهدايات النبيين، فأبأن لجميع الخلائق مستقيم المحجة، وأقام على المعاندين
واضح الحججة، وعلى آله وصحبه الطاهرين الطيبين، وعلى من تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين. وسلم ربنا عليه وعليهم الطيبين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى
يوم الدين. وسلم ربنا عليه وعليهم سلامك الرضي، وبلغهم مقامات الرضوان
المقام السامق العلي.

بين عائلية الإسلام والعولمة المعاصرة

منهجان ما عرفت البشرية في تاريخها الطويل متيلا لهما، منهج نزل به الروح
الأمين على قلب خاتم المرسلين ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بذنه
وسراجا منيرا، ينظم بمبادئ واضحة وقواعد ثابتة، شؤون الإنسان وعلاقاته
بالكون، وعلاقة الكون به، وعلاقاتهما بالخالق. عمره من يوم إيقاظه للبشرية
أربعة عشر قرنا وثلث قرن، هو الإسلام. ومنهج جديد انبثق من روح الحضارة
المعاصرة بعد أن تقلبت في أطوارها حتى بلغت الحدائة، ثم أفضت إلى ما أطلق
عليه، العولمة.

يتفق المنهجان في نقطة هامة، هي أن العموم قاعدتهما، وأن كل واحد منهما
يهدف إلى جمع البشر تحت رايته. ثم يسير كل واحد منهما بعد ذلك في خط
مساره الذي يتميز به.

عبر المنهج الأول عن امتداده، وذلك أولاً، بشموله للإنسان وللكون بما يتألف منه من حيوان ونبات وأرض وسما، وكواكب ومجرات، ومن مخلوقات منظورة وغير منظورة، ليؤلف بينها ويحكم التصرف فيها بميزان واحد عدل، هو ميزان لا يتأثر بالمصالح الخاصة ولا يراعي الظروف الوقتية، ولا السلطة المبنية على القوة ولا التحكم المستند إلى نوازع الهوى، بل هو الميزان النابع من الأصول التي قررها خالق الجميع، والتي تحقق ما أراه الله من تعميم الكون. وثانياً في امتداده ليشمل الكل في جميع الأزمنة والأمكنة. يبنى ما قدمناه على الجميع بين قوله تعالى (رب العالمين) وبين قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: خص الله الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة، وأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. حتى القصاص والحدود هي في حقيقة أمرها رحمة بالعالمين ليأمنوا في حياتهم، والأمن أول شروط النجاح في الاستخلاف في الأرض. وهذه الشريعة رحمة بالحيوان الذي سخره خالقه للإنسان، فحمه من العبث به أو تعذيبه، وقرر في ضمير أتباعها أن الرأفة والرحمة بالحيوان طريق لمرضة خالق الأكوان^(١). ويقول سيد قطب: وضع المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة، وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، ووسائل استنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام المنهج الدائم. وهو منهج متوازن متناسق، لا يعذب الجسد ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد، ولا يصادم طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة، ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية. فكان رحمة لقومه ولمن جاء بعدهم، وقد أخذت

البشرية تقرب شيئا فشيئا من أفق هذه المباحث، وتنفذها ولو تحت عناوين أخرى^(١).

عبر المنهج الثاني عن نفسه (بالعولمة) وهي ترجمة لكلمة (Globalization) بالكرة الأرضية. هنو نتاج ما حققه التقدم العلمي والتقني من مكاسب، قربت بين المسافات واختزلت الأبعاد، ونقلت الأفكار والصور والحوادث، فجمعت بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب. ووصلت إلى أن سكان الأرض قد يتأثرون بالحادثة أو المشهد في لحظة واحدة. وتصل المعلومة إلى سكان الأدغال والصحاري، وإلى المدن في نفس الوقت. فالأصل الذي انبنى عليه مصطلح العولمة هو الإمكانيات العلمية والتقنية التي قربت بين البشر. والقرب بينهم يتبعه القدرة على التفاعل بينهم، في ميادين الاقتصاد وتبادل خيرات الكون، وفي المعرفة، فتسري المعلومات عبر وسائل تزداد كل يوم اقتدارا على السرعة في تعميم النفع لهم، وفي الثقافة بصفة عامة وأتملظ الحياة، وبالتالي في السياسة بتقليص الحواجز بين الأقطار، وتحجيم سلطان الحكومات على تكييف الرأي العام بما تنشره أو تحجبه عن شعوبها، فخرج عن سلطانها أخص ما هو لها قبل العولمة، وهو أن تكون السياسة المحلية هي التي تكييف الرأي العام، وتدفعه بالتالي إلى الاختيارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تسطرها ليسهل عليها التنفيذ.

غايات العولمة

للعولمة أهداف ظاهرة لينة اللمس مشرقة المظهر ناعمة جذابة، سوف أتبعها، ثم أعرض الصورة التطبيقية التي جرى عليها تنفيذ ذلك، لأقارن بين العولمة والعلمية الإسلامية.

١- العولمة الاقتصادية :

هي الفاتحة لحرية انتقال رؤوس الأموال عبر القارات، وما يتبع ذلك من تقليص أثر البطالة بما تنجزه من مشاريع وتجلبه معها من تقنيات، فترفع من كفاءة الشغاليين ومن مستوى عيشهم. فهدفها هو رخاء المحرومين المهمشين وخاصة في العالم الثالث الفقير المحتاج لرؤوس الأموال. والعالم الإسلامي واحد من هذا العالم البائس.

فعلا إن العالم انكسرت أبعاده، وإن رؤوس الأموال أخذت تجول في أرجاء العالم بحرية، وإن هذه القوة المندفعة الهادمة للحدود والقيود تمثلت أولا وبالذات في الشركات العملاقة العالمية المتعددة الجنسيات . وإن الإطار القانوني الحامي والمنظم لها هو اتفاقية التجارة العالمية التي انبثقت سنة ١٩٩٥ بمدينة مراكش، وما تبعتها من اتفاقيات.

إن التقلبات الاقتصادية هذه التي تمت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه بسرعة مذهلة في الظاهر، هي في الحقيقة تطور حث خطه ودفع بما كان معدا في الخفاء من قبل، أمور اغتنمتها الدولة العظمى المتفردة بالزعامة العالمية (الولايات المتحدة الأمريكية) وبطرق مدروسة للتأثير ويتمثل ذلك في الأمور التالية:

أولاً: في انتهاء الحرب الباردة بسقوط حائط برلين، الذي يعني أن النظام الليبرالي انتصر انتصارا ساحقا بالضربة القاضية على غيره من النظم والإيديولوجيات، وأنه تربع على عرش اقتصاد العالم يقوده أمننا على انفرادته بالقيادة، مؤمنا أمر اتباع الدول كلها له. والزعيمة الولايات المتحدة الأمريكية.

ثانياً: في حرب الخليج تلكم الحرب المشؤومة على العالم التي تفردت فيها أميركا أيضا بقيادة العالم كله ورائها. فكانت القرارات الأممية من إنشائها

وتلحينها، والخطط العسكرية القتالية بسلاحها وتخطيطها. والتي غسلت بواسطتها هزيمتها في الفياتنام، فبرزت بعد انتصارها على العراق، لا الدولة المنتصرة على بلد صغير من العالم الثالث، ولكن الدولة التي سارت الدول العظمى والصغرى وراءها. فهي زعيمة العالم بلا منازع.

ثالثاً: ما أعلن في أعقاب هزيمة العراق. ففي نشوة الانتصار، والعالم كله يرقب التحولات - التي تعقب عادة الحروب - أعلن الرئيس الأميركي أن العالم مقدم على نظام دولي جديد يختلف عما كان عليه الأمر أيام الحرب الباردة، يقوم على احترام المبادئ الديمقراطية، ويعلي من شأن حقوق الإنسان، ويكون فيه للأمم المتحدة ومنظماتها الدور الفعال في تحقيق السلام والأمن في العالم. وسكت عن المنهج التطبيقي لمضامين هذا الإعلان في شكل دقيق. ولذا كان وزير خارجية صادقا مع نفسه حين اعترف بأنه لا يستطيع أن يصف ماسيكون عليه شكل هذا النظام الجديد^(٣). فالغموض ظامرة تطلق أيدي أصحاب القرار في طريقة التنفيذ، بعد أن تكون أفسحت للآمل المجال حتى تطوع الرأي العام العالمي لقبول ما يقرر فيما بعد.

رابعاً: أسطول إعلامي عالمي يسيره خبراء متميزون في التزييف وتصوير الواقع وإبرازه في شكل جذاب، بما يمكن الدولة العظمى والشركات العملاقة من المكاسب التي تسعى للحصول عليها. كالدعوة للاستهلاك بشتى الطرق المؤثرة، مع التشكيك في جودة الإنتاج المحلي، وكقيود الحماية التي تستطيع وحدها فرضها. كما حصل في السنة الماضية من فرض ضريبة على توريد الصلب إلى أمريكا من الدول التي كانت كانت عظمى، رغم إعلان الاتحاد الأوروبي في شهر مارس ٢٠٠٣ أنه

سيفرر عقوباء ضد الولاياا الماأرأكة إن هأ لم آأراآ عن قرارها. فآنون العظمة آول لأمرأكا أن آآل ماأقرره الكونفرس ملزما للعالم.

آأاآ العولمة الاآآصاءة :

إن الشرآاء العملاآة الآمسماآة قد قسمآ آأراء العالم بآنها فهأ آفرض على الدول والآكومآ ما آشاء من قأود آنآقل من مكان إلى مكان آبعأ لمؤشر واحد هو مآامها المادأة والأرباآ الآآآمعها، فهأ آرآب فآ آد عاملة رآآصة الآمن آضمر آقوقها الاآآماعأة إلى أأنى آد، وضرآب منآفضة أكثر ما أمكن، وآآول الصناعات الملوآة إلى العالم الآآل الآآ لا أآآع.

أن أفرض علىها المواصفات الآآ آفرضا حماأة الإنسان والبأآة، وآهدد الدول الآآ آقأم فآها بالآنآقل عنها إذا لم آرضآ لمطالبها آارآة وراءها آضآم البطالة، والفقر والآبون الآآ آشرآها فآها كما آصل فآ دول شرق آسأا. وبآانب ذلك آآنآق السلع إلى البلدان الفقأرة لآعطل صناعاتها المآلأة الآآ لم آآهأأ بآد للمنافسة فهأ آرأة مآشوشة، مآآآ هآ الشرآاء من السأطرة على الآآارة العالمة. آآآقل فآ سأساآها عن سأساة ومصالح الدول الآآ آنشآ فآها.

إن ما ناوا به من آمآأ العالم الآآل من آآساب المهارآ الآقنأة سراب آلاع. فالأسرار الصناعأة أآآفظ بها بواسطة برأاة الاآآراع، وآنفرآ الولاأاآ المآآة كل سنة بما أآارب ٨٠% منها. قد أضح مآهوم الآرأة الاآآصاءة آآماهم أكثر فأآر مع الآآارة، رآم أن هآه قسمآ العالم إلى ٢٠% فآ المآآة آآمركز فآ أأآهم ٨٠% من القرارآ الشرائأة والرسامأل، و٨٠% منهم أسعون وراء لآمة العأش آون آآوى فآ آآأر من الأآأان^(٤).

أقول المآكر وعالم الاآآماع السوأسرى (آون زأرلر): إن منآمة الآآارة العالمة آآسآ اللأبرالأة الآآأة فآ صورآها المنآرفة. وهأ آعنى ضمن ما آعنى. مونا

محققا للعالم الثالث (بما فيه من العرب والمسلمين) وتذكر الإحصاءات أن عدد العالم يصل إلى ستة مليارات نسمة، يعيش أكثر من ثلثهم في دول الجنوب، والغالبية العظمى لا تعيش عيشة إنسانية. والدليل على ذلك أن ١٣٪ فقط من سكان العالم ينفقون ٦٨٪ من الانتاج العالمي. ثم يقول: إنها عدم مساواة صارخة ورهيبة فضلا عن صنوف الاستغلال والاضطهاد التي يتعرض لها الأدميون من العالم الثالث.

إن عالم السوق الرأسمالية الموحدة الذي نحيه أفرز (رأسمالية الغلب) التي تعني نهاية الدولة الوطنية والسيادة الشعبية، ونهاية التنوير والقيم المصاحبة له، مثل التضامن والعدالة الاجتماعية، وتعني أيضا ضياع مائتي سنة من الثورة الديمقراطية. وهكذا يجد العالم نفسه يعيش ليلا رهيبا تجسده بعمق (منظمة التجارة العالمية) ^(٥).

إنه إذا قارنا العالمية الإسلامية بالعولمة في الناحية الاقتصادية، فإن الفوارق بينهما تبدو:

١- في أن الإسلام يقوم في تشريعه الذي أراد به إصلاح الأوضاع العالمية على الوضوح الكامل. يقول الله تعالى: (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) ^(٦). ويقول: (وإن تطعوا قتلوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) ^(٧). فكل تشريعاته لا يتأخر فيها البيان عن وقت العمل أبدا. وهي قاعدة مجمع عليها.

٢- أن الأصل في الإسلام أن الأموال تنتقل تبعا لقاعدتين: (أ) حرية المالك في التصرف في أمواله؛ (ب) عدم الإضرار بالغير. فالحدود الوطنية التي تولدت عن الحداثة، هي مخالفة لما قرره رب العزة من أن الأرض لله، وأن الإنسان مستخلف فيها، وأنه مأمور بالسعي في أرجائها قل تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من زرقه وإليه النشور) ^(٨). ونوه بالذين

يحركون الاقتصاد وينقلون السلع من مكان إلى آخر، فقال تعالى: (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)^(٩).

صياغة الآيتين تربط التجارة ونقل السلع والأموال بأمرين أساسيين. أولهما: أنه لا بد أن يكون حاضرا في وعي الساعي أن المال مال الله والرزق رزقه. وثانيهما أنه محاسب على تصرفاته. فعمله مستمر في المستقبل إلى أن يلقي ربه يوم الجزاء. وبهما معا يصبح نشاط الإنسان الاقتصادي داخلا تحت دائرة الثواب والعقاب الإلهي الذي يقوم فيه الرقيب من داخل الإنسان ومن إيمانه. وهذه الرقابة لا تختص بالتجار وأصحاب رؤوس الأموال بل هي تتعداهم إلى ولي الأمر الذي ينظم الشؤون الاقتصادية. يقول ابن عبد السلام: فإن قيل: لم منعتم الزيادة على العشر في أموال الكفار، وقلتم: لا تؤخذ في السنة إلا مرة واحدة؟ قلنا: لأنا لو خالفنا ذلك لزهدوا في التجارة إلى بلادنا، وانقطع ارتفاق المسلمين بالعشور، وبما يحملونه مما يحتاج إليه من أموال التجارة والأقوات وغير ذلك^(١٠). فالضرائب التي تحمل على السلع ينظر فيها بمقياس المصلحة العامة، يراعي فيها ما يكون أرفق بحمل عامة الناس من وفرة السلع، وما يشجع التجار على جلب السلع والأقوات، وما هو أصلح لميزان الدولة في آن واحد، دون أن تجور ناحية على بقية النواحي، ولا أن تهمل مصلحة من الاعتبار. ثم إن النسبة التي توظف على ما يجلبه غير المسلمين لبلاد الإسلام ترتفع وتنخفض تبعا لمعاملتهم لتجار المسلمين.

وبما قدمناه يبدو ما انبنى عليه التشريع الإسلامي وتنظيماته من الرحمة والعدل ومراعاة المصالح العامة دون تضحية بالمصلحة الخاصة. وتبدو الفوارق بين العالمية الإنسانية للإسلام. والعولمة المنتمدة على الإنسان المعظمة لقيمتها الموهنة لها في مقابل المكاسب المادية التي يزداد بها الأثرياء ثراء.

٢- العولمة العلمية :

يقول الباحث عبد الخالق عبد الله: لقد وجدت العولمة الثقة في العلم والتكنولوجيا، وأكدت ولادة العولمة أن هذا العصر هو، وربما أكثر من أي وقت آخر، عصر العلوم والثورات العلمية. فالعلم أثر في هذا العصر كما لم يؤثر فيه أي عامل آخر. وكل النجاحات والإنجازات التي تحققت للبشرية، وربما كل التقدم المادي والمعنوي الذي تحقّق خلال المائة سنة الأخيرة، وبالذات خلال العقد الأخير من القرن العشرين، لم يكن له أن يتحقّق لولا العلم الذي أصبح اليوم الحقيقة الأساسية في الحياة، والمحور الذي تدور حوله كل الحقائق الحياتية الأخرى.

ويعلق د. بركات مراد قائلا: هذا القول صحيح. لقد تحول العلم والثورات العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصنع الأحداث وتشكل المستقبل، وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد فمن يمتلك هذه القوة ويمسّن توظيف نتائجها الباهرة يمتلك أساس مصيره، ويعرف كيف يتدبر شؤونه، ويتمكن من التأثير في الآخرين، بما في ذلك القدرة على إدارة العالم سياسيا واقتصاديا^(١١).

وليس العلم علم الاستيعاب ولكنه العلم الذي يفتح في كل لحظة كتاب الكون فيكشف جديدا، ويبرز شيئا مخترعا ماكان للإنسانية علم به من قبل، فيضيفه لرصيد المعرفي، ليصبح وحدة من وحدات الهرم الذي يعلو بالاستناد إلى قاعدته باستمرار. لقد بلغت الإضافات العلمية والتكنولوجية في الولايات المتحدة وحدها أكثر من واحد وخمسين ومائة ألف اختراع في سنة ١٩٩٩.

لقد قامت النهضة الحضارية الأوروبية على التجربة وحرية العلم في مساره واكتشافاته واستفادته بعد ذلك من تطويع الآلة المتحركة بالطاقة، وبرزت

الحدائفة، ثم إن البشرية بإضافتها تكنولوجيا المعلومات، وتطورها لقدرات الحاسوب، قد تجاوزت الحدائفة إلى العولمة.

لقد تطور الكمبيوتر بسرعة فائقة من جيل إلى جيل، فيسر على العلماء في لحظة من العمليات الحسابية الدقيقة والصحيحة ما كان يقصر عن بلوغه عمر العالم قبل ذلك. ومكن العلماء والباحثين من جلب ما اختزن من المعلومات في لمح البصر مع التأكد من عدم تسرب الخطأ، مما كان يقتضي أزمانا من البحث والنسخ اليدوي أو بالراقنة.

اعتمدت الثورة العلمية فيما اعتمدت على اعتبار البحث العلمي أساسا للربح، والسبيل للنجاح في المنافسة القوية في الأسواق. ولذا قامت المخابر بجانب المصانع لتطور تقنياتها طلبا للتجويد والتجديد. كما قامت معاهد البحث داخل الجامعات والكليات والمعاهد، ورُصدت الاعتمادات الكبيرة في ميزانيات الدول والشركات للبحث، وطورت المناهج تطورا يمكن الطلبة والعلماء والتقنيين من تدفق سبيل الاختراعات. وسمت العقول إلى المجهول تكتشف كل يوم بعض الحجب، وتعد الآليات المساعدة على زيادة الإنتاج كما وتحسينه نوعا، وبالتالي التأثير فيما وقفت البشرية عاجزة عن هتك أسرارها، وفي ميادين بقيت عصية عن البوح بقوانينها التي خلقها عليها باريها.

نعم كانت الاكتشافات العلمية في النصف الثاني من القرن العشرين تفوق بكثير ما بلغت الإنسانية في أدوار حضارتها. ففي ميدان الحياة ثم التأثير على التكاثر الحيواني بواسطة الاستنساخ، ومساعدة عدد غير قليل من أعراض العقم، وتم قراءة الجينوم البشري. ودخل الإشعاع الذري كوسيلة للكشف الباطني، ولللعلاج. وتطورت الجراحة تطورا دخلت به مباحث الجراحين حتى إلى خلايا الدماغ مع المكريسكوب. وعدد غير قليل من الأمراض تمكن علم الطب من

السيطرة على أعراضه، وانفصلت عن قائمة الأمراض الميؤوس من لحمة المصابين بها. وفي ميدان غذاء الإنسان تمكن العلم من التأثير على السلالات في الحيوانات لتنتج مضاعفا من اللحوم ومن الألبان، وفي النباتات لتقاوم الأمراض والحشرات الضارة، وتحقق تحسين إنتاجها كما ونوعا وشكلا.

وفي ميدان الاتصال تحقق في الواقع ما كان الخيال يقدمه في القصص والروايات من الصور المستحيلة عادة، ليستمتع بها في أحلام اليقظة. فالعقود تعقد بين أطراف تفصلهم آلاف الأميل، والأموال تنتقل من قارة إلى قارة بسرعة البرق، والحدث يحصل أثره في وقت حدوثه في أطراف الكرة الأرضية، والعالم في مكتبه تفتح له مكاتب الدنيا، بما تحويه من كتب ومجلات وبحوث، يرد منها ما يبلغ به إنتاجه المبلغ الذي ما كان يحلم أن يصل إليه. فتقدمت العلوم وتيسر للإنسان المستوى الرفيع من العون أينما كان موقعه من الكرة الأرضية. فقد انفتحت آفاق معرفية لا تُعلم حدودها تُمكن من فهم أدق لتفاصيل الكون والحياة والمادة، وفهم مكوناتها وأجزائها الدقيقة، وامتدت إلى البحث في نشأة الكون، وبروز الحياة على وجه الأرض. ثم ألصقت هذه اللافتة على العولمة منادية أن عصر العولمة هو عصر العلم أو هما شيئان في شيء واحد، تعانقا وامتزجا.

العالية والعلم:

إن الصورة المشرقة الواعدة التي بسطناها باختصار والتي انتهت إلى اتحاد وجوهي بين العلم والعولمة، هي صورة التمس فيها الحق بالباطل وامتزجا. أولا: إن أول ما يتعين رفعه من اللبس والمغالطة، هي دعوى الارتباط المنفرد بين العلم والعولمة. فلحقيقة أن العولمة اعتمدت في انتشارها وإلزام الدول والشعوب بها نسبة التقدم العلمي لها، إذ التقدم العلمي في كثير من الجوانب لم تنفرد به العولمة الرأسمالية، بل نجد أن النظام الاشتراكي البلشفي قد هوى على ركبتيه

كما يهوي النور في حلبة المصارعة، وهو يحمل مكاسب في التقدم العلمي، وأقماره الصناعية تدور في الفضاء الرحب، ومركبته الفضائية هي الأولى والأكبر والأقندر في مدارها يوم سقوطه، وترسانته النووية والصواريخ العابرة للقارات، قادرة على تخريب العالم مرات.

ثانيا: إن وراء هذا الوجه المشرق الباسم وجه مظلم كالح شرير. لقد جرت التجارب والاختراعات العلمية في خطين متضادين، خط يعمل للحياة، وخط يعمل للموت والتخريب، خط إنساني نبيل، وخط همجي شرس.

إن ما تحقق لحد الآن من تقدم في ميدان الكشف والعلاج، وتخفيف معاناة المرضى، والتغلب على بعض الأوبئة، والبحوث الواعدة للتغلب على أمراض ماتزال تقاوم، ولكن الضوء يتبين أكثر فأكثر مبشرا بقرب تجاوز نفق الجهل المظلم والعجز المستسلم، هي مكاسب للبشرية وآمال سعد العالم بتحققها، وفتح لكتاب جديد من الثقة في المستقبل. وكذلك ماتم في ميادين الاتصال والنقل، وما اكتشف من الفضلاء الخارجي. نعم لم يعد الإنتاج مرتبطا بالمجهود العضلي والفكري البشري، بل إن الآلة المعتمدة على البرمجة الإلكترونية أخذت مكانها، لتقدم للإنسان مايلي كثيرا من حاجاته ورغباته مع السرعة والدقة، مع انخفاض التكاليف.

هذا هو الوجه الذي ينوه به دعة العولة ويقدمونه على أن العالم يودع كل يوم بهنه المكاسب الحرمان والبؤس.

ولكن الوجه الآخر المعتم على شراسته وقبحه ولا إنسانية، مما يتحتم رفع الغطاء عنه وكشفه رفعا للمغالطات حتى يكون العالم يقظا لما يراد به. إنني لا أهدف إلى تتبع كل قبائح العولة ومفاسدها، فذلك أمر فوق طاقة فرد واحد، ولكنني ألفت النظر إلى بعض مظاهر التطبيق العملي للعولة.

ففي ميدان العلاج، هو ميدان الشركات العملاقة في الأدوية، والتي لا تقدر إلا ما يدره عليها الدواء من أرباح، تسعره كما تشاء لتمتص إلى الإفلاس مدخرات المرضى والمكروبين، ولا يشور لهم ضمير إذا مات مئات الآلاف من الذين لا تمكنهم قدراتهم المالية من الاستمرار على تناول ما يمسكونه من أدوية. مع أن ثمنها لو بيع ببيع معقول لتمكن كل المرضى من علاج أمراضهم. ولأنقذوا حياة الملايين من المصابين مثلاً بمرض نقص المناعة المكتسبة.

وفوق هذا بلاء وعداء للإنسانية، ماتقوم به شركات إنتاج السلاح وتطويره بما يزيد فتكا بالبشرية، وتخريباً لأنسجة الجسم، وتشويهاً للأحياء وللأجيال القادمة. أسوق لذلك مثالين:

أ) الأورنيوم المنضد (U.A) مشتق من نتاج الرقود المخصب للمفاعلات النووية. ويدخل في صنع الأسلحة كالقنابل المضادة للدبابات، وفي القنابل والقذائف والصواريخ.

وبما أنه أثقل من الصلب فإن القذائف التي تحتوي عليه تكون قادرة على خرق أقوى الدبابات المصفحة صلابة. ولكنه مع فاعليته القتالية يحتوي على ضرر كبير هو أنه (مشع) والأورنيوم كجميع المعادن الثقيلة، هو مادة كيميائية سامة. ففي الوقت الذي يتصل بالهدف، ينتشر الأورنيوم المنضد على شكل ضباب لطيف كجزئيات يمكن أن يستنشقها الإنسان أو أن تسري إلى أجهزته الداخلية ثم تختزن في الرئتين، أو في الكلي أو في باقي أجهزة الجسم. وهذا ما يمكن أن يولد سرطان الرئتين أو العظام، وأمراض الكلي، أو تشوهات جينية، وأنواعاً عديدة من المشاكل الصحية العويصة. كما يمكن أن تدخل شظية من القذيفة في داخل الإنسان، ويبقى مشعاً في جسمه. وقد أكد فيزيائي نووي أن ذرات الأورنيوم المنضد المفرغة في الجو بعد الارتطام أو بعد التفرقع يمكن أن تنتشر على مساحة

أربعين كلمترا. وكشفت دراسة (الجمعية عملية عاصفة الصحراء) أن من بين - ١٠٥١ - من جنود حرب الخليج الذين أصيبوا بأمراض غاضمة، ٨٢٪ منهم دخلوا في السيارات التي غنمت والتي كانت أهدافا للقذائف المشحونة بالأورنيوم المنضد، وما كان لهؤلاء أي علم عن بقاء فاعلية الأورنيوم ولا عن أخطاره^(١٢).

ب) القنابل العنقودية : وهي قنابل يلقى بها من الجو فتتحل كل واحدة منها إثر ذلك إلى مائتي قنبلة في حجم فراخ البط صفراء ، ثم إن كل قنبلة تنفجر لتنبعث منها مئات السهام المسننة التي تغطي مساحات كبيرة بحكم اندفاعها بسرعة فائقة. والفعالية القتالية لكل سهم تصل إلى حرق دبابة فضلا عن لحم الإنسان وعظامه. والخطر العظيم هو أنه يبقى عدد غير قليل من هذه القنابل سالمة تنتظر من يقرب منها فيحركها لتنفجر عليه. ونظر لصغر حجمها فهي تصل إلى الأماكن الخفية في الحدائق وزوايا ساحات المدارس، وتغري بلونها وصغر حجمها الأطفال. ولوصف أثرها يقول أحد أطباء العظام في كوسوفو: (ما شاهدت ولا شاهد أحد من زملائي جراحات مفاجئة كالجراحات التي أحدثتها القنابل العنقودية. إن أثارها في غالب الأحوال هو العجز. تكون الأعضاء مطحونة بشكل لا يمكن لنا إلا أن نبتئها. إنه فظيع!)^(١٣).

وأما في ميدان الفضاء الذي انطلقت منه الأقمار الصناعية تخترق الحدود وتنتقل الأخبار، وتمكن من المعرفة بأيسر طريق وأخصره، فإن الغاية منه لا تخرج عن الهيمنة ، وإن حصل من ذلك بعض المكاسب فهي حادثة بالعرض.

يقول كيت. ر. هيل الكاتب العام للقوة الجوية الفضائية للولايات المتحدة الأمريكية: فيما يخص السيطرة الفضائية ، قد تحصلنا عليها ، ونحن مرتبطون بها ، وإننا محتفظون بها. ويقول الجنرال جوزاف أشي القائد الأعلى للقوات في الفضاء: في يوم من الأيام سنهاجم أهدافا في الأرض - البواخر، الطائرات ،

وأهدافا فوق الأرض - من الفضاء وسنقاتل في الفضاء ، وسنقاتل من الفضل، وسنقاتل داخل الفضاء^(١٤).

والأمم المتحدة قد قررت منذ ١٩٦٣: أن على الدول جميعها أن لا تدخل للفضاء الكوني أسلحة نووية ولا أي نوع من أسلحة النمار الشامل، أو أن تركز أي نوع من هذه الأسلحة على الأجرام السماوية، أو أن تثبت في الفضاء شيئاً من ذلك بأي طريقة كانت^(١٥) ولكن قائمة العولمة تسخر من تلكم القرارات هذه هي العولمة في ميدان العلوم مزاياها ومضارها، والأهداف التي يسعى إليها أصحابها.

أما العالمية التي أجعلها المعادل للعولمة فإن العلم يضبط شؤونه ثلاث آيات من كتاب الله . ويوضح تطبيقاتها آيات عديدة في القرآن وعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما اهتدى به المسلمون فعملوا عليه عندما ساروا بالعلم أشواطاً، وبلغوا ما بلغوه مما هو بإجماع المنصفين قاعدة انطلقت منها وبنيت عليها الحضارة الغربية في شقها المعرفي. وهذه الآيات هي:

(ولا تقف ما ليس لك به علم)^(١٦). (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)^(١٧). (وقل رب زدني علماً)^(١٨).

الآية الأولى: تتوجه إلى كل فرد بذاته أن لا يتبع إلا ما ثبت علمياً صدقه والخلافة التي هي شرف كل فرد، والتي تحمل بها مسؤولية إعمار هذا الكون تقتضي منه أن يربط تصرفه بالعلم. وكل ما ينفيه العلم لا يعول عليه المؤمن استجابة لمقتضى أمر ربه من ناحية، وجرياً على ما يوجهه ما ميزه الله به من عقل. فانهدم بذلك كل طريق غير طريق العلم في الإثبات أو النفي، وبالتالي يسقط اعتماد ما هو مهدوم ومهزوم من الأوهام، أو الظنون التي لم ترق إلى مرتبتها

بالعقل. فالتحصرت الإمامة في العلم في حياة المؤمنين، وأنها قاعدة لمجّاح الإنسان
عموماً.

أما الآية الثانية: فإنها تتوجه إلى مجموع المخاطبين أينما كانوا وحيثما حلوا
لتذكّرهم بحقيقة كثيراً ما تقع الغفلة عنها، وخاصة عندما يبلغ فرد من سعة العلم
وجودة الذهن مبلغاً كبيراً، فيظن أنه عالم كبير جداً، وأن حظه من العلم الحظ
الموفور العظيم، أو عندما تنتشر المعرفة وتتابع آثارها في شعب من الشعوب،
فيتملكه العجب ويظن أنه قد استحوذ على العلم من أطرافه وبزوهو بمكتسباته،
فتذكره الآية بقاعدة هي حقيقة التقدير لعلم البشر - أنه كلما اتسع وتعمق هو
بعيد عن الكمال بعيد جداً عن الإحاطة - إن قصر المعرفة هو قصر العجائب،
كلما فتح العالم باباً من أبوابه تحدّته الحقيقة أن ذلك الباب إن هو إلا باب لقصر
آخر ما تزال أسراره مغلقة تدعو إلى مواصلة البحث والتأمل والتعمق. وهو ما
يقرر أن مسيرة العلم من طبيعتها أنها مسيرة لا تتوقف عند حد والقليل هو ما
علمته البشرية إلى اليوم، وأن ما زال محبوباً عنها مغلفاً بحجب الجهل هو الأكثر.
فهو التحدي الذي يُنهض العلماء لتابعة الطريق بأشخاصهم وبواسطة
المؤسسات العلمية التي يعملون فيها ويكتشفون. وهذه دعوة للعالم كله أن
يتعاون على التوسع في المعرفة، وعلى نشر نتائجها في العالمين. وأن العالم لا يخلق
ولكنه يكتشف قوانين الخلق المحكم والنظام المقدر من الخلاق الحكيم، فتتأج ما
وصل إليه هي العطاء الإلهي للإنسانية على يديه بما ألهمه في طريقه حتى وصل
إلى المعرفة. ولذلك قل تعالى: وما أوتيتم من العلم، ففاعل الإيتاء هو الله!

الآية الثالثة: وقل رب زدني علماً فهي التي تفتح أمام البشرية الأفق لمواصلة
السعي لتحصيل المعرفة. إن سعة الأفق العلمية، والكَم الهائل الذي لا يحُد
الإنسان حدوده من المجهول، ومحدودية العقل البشري، ومحدودية عمره، يدعو

الإسلام البشر في كتابه القرآن أن لا يهولهم هذا التحدي ، وأن عليهم أن يتدبروا بالإيمان بأن يوفقهم الله في جهادهم العلمي إلى الظفر بالحقيقة العلمية. وهذا التوجه يربط العالم بربه وهو يبحث، ويربطه بربه في نجاحه، ويثبت في ضميره أن ما تقدم به وزاته إلى ذخائر الإنسانية من علم هو من عطاء الله. وإذا قر هذا في ضمير العالم كان هدفه من جهاده هذا هو تحقيق خلافة الإنسان في الكون باقتداره على ربط قوانين الخلق ربطا يزيد العالم رخاء وأمنا ورفاها وصلة بالله الذي هو إله البشر جميعهم. وأنه مسؤول أيضا عن علمه، هل نفع به العائلة الإنسانية أم سار به على فتح أبواب البؤس والعذاب ثم المهانة لإذلال قوم ورفع آخرين؟ والعباد كلهم عباد الله.

وبهذا يتبين الفرق بين العولمة التي لا تفتح للعالم من مكتشفاتها العلمية إلا ما تجاوزه الزمن ، ولا تمحض علمها للنفع العام، ولا ترعى للحيمة البشرية بصفة عامة قيمة، والقيم التي توجهها وتحد لها حدودها لا تخرج عن الهيمنة والثروة، وبين العالمية الإسلامية التي وضحت من مبانيها ونصوصها أنها الخير للعالم كله مؤمنة وكافرة.

٢) العولمة الثقافية:

إن الذي يمهّد لنجاح فرض الهيمنة، ويروض على قبولها، ويفرغ الإنسان من مقوماته وخصائصه هو العولمة الثقافية. لقد قام فرنسيس فوكوياما الياباني الأصل الأميركي الجنسية مقدما للعولمة الثقافية لما قال: لقد انتهى التاريخ من حيث أنه لم يعد يوجد هناك مجال لمعارك إيديولوجية كبيرة. إن الليبرالية الديمقراطية لم تنتصر فقط، ولكن ببساطة هي الوجود. وهي كل ما يمكن أن يكون موجودا. فواقعيا لم يبق هناك مجال للنقاش حول الأصوليات. لقد تحقق مداعله كوجيف (الدولة العالمية المنسجمة) وهي الليبرالية الديمقراطية.

ولانتصارها سببان: الأول هو أن تطور العلوم وقدرتنا المتزايدة للسيطرة على الطبيعة، تعني أن المجتمعات المؤثرة تقنيا تسيطر على المجتمعات غير المؤثرة. إن جانباً من تقنية السيطرة على الطبيعة تكمن في التنظيم الجدي (فالسوق، والمؤسسة الرأسمالية، والوسيط الرأسمالي) أثبتت كلها أنها عوامل فاعلة في التنظيم. وينتهي إلى أنه إذا لم تكن هناك مشاريع جديدة بأن نحاطر بحياتنا من أجلها في عملية البحث عن الاعتراف بالخصوصية الذاتية، فإن أبرز ما في الحياة الإنسانية يكون قد تم وهو ما يعنيه بنهاية التاريخ. وقد ثار حول ما قدمه من تصور جلد كبير مما اضطره إلى تصحيح ما يقصد، أو تعديله على الأصح. فقد كتب أنه لا يعني أنه النمط الليبرالي الديمقراطي قد انتصر وانتهى الأمر، ولكنه يعني أنه باندحار الإيديولوجية الشيوعية الروسية، لم يبق في الساحة العالمية من قدم نفسه كصاحب إيديولوجية عالمية، تقوم على التعميم، ويمكن أن تؤثر في المتلقين لأطروحاتها. وناقش الذين اعترضوا عليه بأن الصراع لم ينته وأنه يوجد في العالم إيديولوجيات يمكنها أن تأخذها مكانها في الساحة العالمية ليمتد الصراع. رد هذا بأمرين أولهما: أن ماتقوم عليه الحضارة اليوم هو مركب من أمرين الشعور بالمساواة وثانيهما الديمقراطية. على معنى أن الضمير العالمي قد تطور خلال العشرين قرناً الماضية، فأنغرس في الضمير الحديث الديمقراطية المساواتية. فهي مكسب دائم أصبح جزءاً من طبيعتنا الأساسية كحاجتنا للنوم أو خوفنا من الموت.

ورد ما اعترض به عليه من وجود إيديولوجيات يمكن أن تأخذ زمام القيادة فناقش وضع كل واحدة منها. ويرى أن الأصولية الإسلامية لا يمكنها أن تنافس التحررية حتى في بلدان العالم الإسلامي، كما أنها انتصرت عليه في أقطار أخرى، وليست له جاذبية خارج المجموعات التي كانت إسلامية، وهو لا يهدد التحررية

الغربية إلا في بعض الدول التي تضم مهاجرين لم ينسجموا مع التحررية. والتفسير الذي ربما يكون معقولا لقوة الأصولية يكمن في أنه يمثل ردّ الفعل ضد الجاذبية القوية التي تمارسها التحررية على العالم الإسلامي لما التقيا أول مرة^(١٩).

إن هذا التحليل يمثل التصور الذي اطمأنت إليه الديمقراطيةية التحررية التي تقودها أميركا. فالعالم الإسلامي قد انتهت مقاومته ولم يعد يمثل منهجا يمكن أن يؤثر في العالم، وإذا كان كذلك فإن التأثير فيه تأثيرا يصبح به نسخة من النموذج الأميركي في تصوره وقيمه وعلاقاته الاجتماعية، هو الذي يمكن للسيطرة الأميركية من التحكم فيما تزخر به أراضيه من ثروات. إنه مادام العالم الإسلامي متشبثا بعاداته وتقاليده، وبنمط ترابطه الاجتماعي فإنه يمثل شيئا مغايرا النمط العولمة التي لا تتحقق إلا بصياغة كل الشعوب في القالب المهيمن زعيم العولمة. ففتحت منافذ التغيير في القيم تحسّت غطاء الحرية، وكان أهم ما عقدت له المؤتمرات قضايا الأسرة التي تمثل العمود الفقري للترابط الاجتماعي. فتحت غطاء حقوق المرأة وحريتها على أن ينحل نسيج الارتباط بين الزوجين، ليتنقل رباط السكن واعتبار كل من الزوجين لباسا لصاحبه، إلى رابطة عقدية فاقنة لروحها. ثم اعتبار الغريزة الجنسية حقا للإنسان له أن يشبعه على الطريقة التي يرضاها مع شريكه متحد الجنس أو مختلف.

واستشرى بواسطة أجهزة الإعلام تحويل المجتمعات إلى مجتمعات تمحض كل همها إلى الاستهلاك. وإلى اللهث وراء الجديد في اللباس والمراكب والزينة على الطريقة الأميركية. وبما للدولة الزعيمة من القدرات المالية الكبرى، وقيام الإشهار على دراسات علمية ونفسية، وبما حصل ويحصل لها تبعا لذلك من قوة مؤثرة في أذواق وميول الواقعين تحت سلطانها، فإن الملك هو مسخهم وتحويلهم - بعد اقتلاع جذورهم - عبيد لما يقذف به في السوق، ونفسية العبيد لا تقاوم.

أتيناكم أتيناكم
 ولولا الذهب الأحمـ
 ولولا الحنطة السمـرا
 فحياننا وحيـاكم
 وما حلت بواديكم
 ما سمنت عذاريكـم^(٢٠)

فعائشة سارت على عادة القرشيين المهلجرين، فأشار عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تجري على عادة الأنصار في الاحتفال بأعراسهم . مما يشير إلى مبدأ من مبادئ التعامل بين المسلمين وبين من يتصلون بهم: أن تحترم ثقافة الشعوب.

العالمية الإسلامية بين المبادئ والواقع

سارت المبادئ الإسلامية مشرقة، يشع بريقها، ويتوهج نورها، تهدي العالمين إلى التي هي أقوم، رابطة بين الدنيا والآخرة .

هي في هدايتها العقديّة والتشريعية والفكرية والعملية، منسجمة مع الفطرة السليمة التي خلق الله الإنسان عليها، وكلما دخلت عوامل الانحراف إلى اختيارات الإنسان تعكس مسار فطرته، وتشوه صورته فتدسيها، وتلويه عن التسامي فيهوي إلى المنازل الهابطة، يوقظه الهللي الإسلامي ليربط بينه وبين مقتضيات فطرته، فيجد في ذلك الطريق الأوفق بالطبيعة التي خلقه الله عليها في الحاضر والمآل. ويفوز بالأمن الراضي الذي يعطي للحياة معناها^(٢١).

إن تفرغ العالم من القيم المنسجمة مع الفطرة قد كان باب تعاسة له، كالغريق الموجل في لجج البحر يدفعه تيار عنيف إلى الخيط، وهو يظن أنه يقترب منه شاطئ النجاة. غرق العالم في الانحلال الخلقي، وقامت عصابات المخدرات والجنس، والإرهاب، والسطو على بيوت المال. وفي كل يوم نشرات عن الفساد الذي المحدر إليه كثير من أصحاب السلطة في البلدان القيادية للعولمة. كل ذلك

يرفع الإعلان: إن هزيمة العولمة آتية لا ريب فيها، لأنها قامت على عكس الفطرة واعتمدت العنف. وأنها آتلة إلى ما آلت إليه سابقاتها من الحضارات.

نعم إن للقوة المادية، التي تقوم عليها والتي تطورت إلى حد بعيد، صولة وهيجاناً ودويا صالحياً، وهجمة شرسة على مكاسب العالم من المعرفة، وبما أودعه الله فيه من خيرات، ولكن تأكلها من ذاتها بما تزرعه كل يوم في داخل كيانها من قوى الفساد سينخرها مخراً تنهاوى به كالجليد عد ما تذيبه إشراقة وقوة أشعة الشمس. والشمس الساطعة ليست إلا الإسلام الدين الذي يقوم على الفضيلة ، ويقرر أن العزة الحق ليس لها طريق واحد هو صراطه المستقيم (قل إنني هـداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيماً) (٢٢) (و الله العزة و لرسوله وللمؤمنين) (٢٣).

ولكن واقع العالم الإسلامي شيء آخر، كأن المسلمين مغرون بترك دينهم ظهرياً، كأن أوامر القرآن نواهي ، ونواهي أوامر في الواقع العملي. يعرف القرآن المؤمنين أنهم يتحملون مسؤولية عمران الكون . قل تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (٢٤) طلب منا أن نعلم الكون، وليست عمارة الكون بالتنازل والكثرة العددية. فتكاثر الحشرات أسرع وأقوى من التكاثر البشري ، ولكن عمارة الكون مرتبطة بالعلم الذي يفتح للإنسان الاطلاع على سنن الله في الكون وقوانينه في الخليقة. وكلما فتح باباً مكنه من أمرين معا:

(١) اكتشافه لحكمة من حكم الله في الخليقة فيزيد إيمانه إشراقاً.

(٢) تمكنه من تطويع ذلك ليحكم تعميره لما استخلف فيه. وهي سلسلة لانهاية لها كما سبق أن بيناه في مباني العلم في الإسلام. ولكن العالم الإسلامي ظهر في القرون الأخيرة بمظهر العاجز عن التحكم في أسرار الكون وتطويعها كما طلب الله منه. هو الجهل المرتبط بالتقليد. حظ المسلمين من العلوم الكونية هو التقليد لا الإبداع والاختراع. فمثلاً مهرة الأطباء عندنا هم الذين يطبقون ما

أخذه عن الغرب تطبيقاً سليماً. وليس لهم دور لا في الأجهزة التي يستندون إليها في الكشف، أو التحليل، ولا في تطوير نظريات. لا أعلم أن أطباءنا أضافوا جديداً للمعرفة الإنسانية. وكذلك المهندسون، وحتى علماء القانون هم عالة على المدرسة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية.

إن أول ما يجب أن تتجه إليه عناية الأمة هو التربية، استلهاماً من المنهج الرباني. إن أول آية نزلت على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تجمع في أسلوب معجز بين التعلم (اقرأ) وبين رطبه بخالق الأكوان (باسم ربك الذي خلق) وبين نفاذه إلى أسرار خلقه (خلق الإنسان من علق). إن التزاوج بين العلم وبين الإيمان، هو المنهج الرباني وعه أصحاب رسول الله ثم سار عليه المسلمون أيام عزهم فضموا إلى رضوان الله عزة في الدنيا وتمكيناً فيها. روي البخاري بسنده إلى أبي نضرة قل: قل رجل منا يقل له جابر أو جويسر: طلبت حاجة إلى عمر في خلافته. فانتبهت إلى المدينة ليلاً، فغدوت عليه، وقد أعطيتُ فطنةً ولساناً (أو قل منطلقاً) فأخذت في الدنيا فصغرتها، فتركته لا تساوي شيئاً. وإلى جنبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب. فقل لما فرغت: كل قولك كان مقارباً إلا وقوعك في الدنيا. وهل تدري ما الدنيا؟ إن الدنيا فيها بلاغنا (أو قل زادنا) إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نحزى بها في الآخرة قل: فأخذ رجل هو أعلم بها مني فقلت يا أمير المؤمنين! من هذا الرجل الذي إلى جنبك؟ قل: سيد المسلمين أبي بن كعب^(٢٥).

ليتمكن الإسلام من تحقيق العالمية يتحتم:

أولاً: تغيير مناهجنا من التلقين إلى تحريك العقول لتنفض إلى الأسرار. ومن عزل علوم الدين عن علوم الدنيا إلى الوصل بينهما. وأن لا تقلّ عنايتنا بتربية العقول عن تربية السلوك وتهذيب النفس.

ثانياً: الإصلاح الاجتماعي المبني على تربية الأجيال على حب العدل والتزامه مما تدوب معه الأنانية الطاغية، حتى يستحي الفرد من الظلم ويمقتة في أصغر الأشياء وأعظمها على السواء. ويشمل ذلك الأسرة في حقوق الذكر والأنثى والوالدين والأولاد والزوج والزوجة. ويشمل ذلك أيضاً العلاقات الاجتماعية في المدينة والدولة والملوك العام والملوك الخاص. لقد تكرر الأمر في القرآن بالعدل وتكرر النهي عن الظلم. وقد يخيل لبعض الناس أنه ظلم الحاكم أو رجل القضاء. وهو فهم ساذج. فالله يقول: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)^(٢٦).

ويقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعطوا الطريق حقه^(٢٧)، فالعدل لا يتبع عواطف الحب ولا البغض، والطريق ككل المصالح العامة التي ينتفع بها المواطن يحتم على المستفيد أن لا يظلم فيتجاوز حقه في الاستفاعة.

ينوه معظم المفكرين والكتاب بالديموقراطية، ويعتبرونها السبيل الوحيدة للحق والرفاه. والديموقراطية لها أشكالها المتعددة، بل إن شكل الديموقراطية في البلد الواحد يتطور تطوراً كبيراً تكاد معظم ملامحه تتغير مع التقدم الزمني، ولو قارنت أوضاعه الحاضرة مع أوضاعه السابقة لانكشف لك فيه من النقائص والظلم الشيء الكثير. أم إذا نظرت في تطبيقاته في العلاقات الدولية وجدته لا يختلف عن بقية الأنظمة. يقول الكاتب جوهيا مورافشيك: إن الديموقراطية الحديثة ولدت سنة ١٧٧٦، في شعب الولايات المتحدة الأمريكية الحر. ولم يكن تعداد السكان يبلغ مليونين. ولم يكن كل المواطنين يتمتعون بحق الانتخاب، ففي بعض الولايات لا ينتخب إلا الرجال، وفي بعضها لا يتمتع بحق الانتخاب إلا من يملك ضيعة، ويقول إنه بواسطة انتصارات حركات الدفاع عن الحقوق المدنية

سنة ١٩٦٠ أمكن رآب الشرخ فتمكن النساء والأقليات بعد الكفاح القوي من المساواة في الحقوق المدنية^(٢٨).

فالملونون في الولايات المتحدة ما كان لأولادهم أن يتعلموا في مدارس البيض. وليس لهم حق في الانتخابات إلى سنة ١٩٦٠.

أما في العلاقات الدولية فإن الاستعمار لم ينتشر في العالم إلا عندما أخذت أوروبا بالديموقراطية. والهيمنة القاسية، واستلاب حق الشعوب، والمأساة الإنسانية في فلسطين كلها بغطاه الديموقراطية.

أريد أن أبين ما أقصده جيدا من العدالة بضرب أمثلة بسيطة تكون لها دلالتها الواضحة. إن الذي يريد أن يسبق من كان قبله ليستأثر بمقعد في الحافلة هو غير عادل وظالم، إن الذي يحدث ضوضاء وقت ما يكون الناس نياما هو ظالم لهم، إن الذي يتملق السلطة وينشر أخبارا غير صحيحة ولا دقيقة هو ظالم للمجتمع، إن الذي يزيّف الحقائق في الإعلام هو ظالم للذين خدعهم، إن الذي يعمل على منع الأثني من ممارسة حقوقها هو ظالم لها وللمجتمع معا. وقس على هذا المنوال ما يكشف لك بآدنى تأمل أن العنل هو الأساس، وأن طرق تطبيقاته السياسية والاجتماعية كثيرة، والديموقراطية مقبولة إن كانت تحت غطاء العدالة، وإلا فهي نوع من التزييف والخداع.

إن العالم الإسلامي لو قدم مثالا للعالم على التزامه بالعدالة واحترامه لها لكان ذلك من أهم العوامل المحققة لعالمية الإسلام. وإن أعظم ما ينفر من الإسلام، وما يطعن به خصومه فيه، هو الصورة الواقعية للمسلمين الذين يتوالى قبولهم للمظالم المتنوعة هانت نفوسهم، وابتعدوا عن مقاعد العزة. يقول

المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميست إسلام

ثالثاً التعاون الصادق

لقد قرر القرآن أننا أمة واحدة، وأن رابطة المؤمن بغيره هي رابطة الأخوة، ولا أريد أن أسرد الأدلة فهي معلومة، ضروري معرفتها من أعداء الإسلام وخصومه فضلاً عن معتنقيه.

أنا لا أدعو إلى أن تكون الأمة الإسلامية دولة وعلماء واحداً على تباعد أقطارها، واختلاف أوطانها وثقافتها ولغاتها. فهذا أمر خيالي وتصور بعيد أن يبرز إلى التطبيق الواقعي. والإسلام دين واقعي منهجياً وفلسفياً. ولكن أقول إن واجب الحكومات والقيادات في العالم الإسلامي أن يكون من ثوابتها التي لا تقبل الاجتهاد ولا التأويل ولا الاسترخاء، أن تكون علاقة كل شعب ببقية الشعوب علاقة تكامل في جميع الميادين الاقتصادية والعلمية والثقافية والعسكرية والدفاعية. يد على من سواهم.

حلرنا الله من النزاع فقل: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم) ^(٢٩) ذهبنا ورحنا وتمزقنا ومضى علينا قرون من التناحر والتصادم والدعوى الجاهلية (العرقية) فابتلعنا أعداؤنا وأذلونا وانتقصت بلاد العالم الإسلامي من أطرافها، وأصعب في عصرنا السرطان الخبيث قلبها في فلسطين.

إن عالمية الإسلام تقتضي منا أن يضع أهل الذكر حكماء العالم الإسلامي ميثاقاً لعلاقة شعوب العالم الإسلامي يدرس في جميع مراحل التعليم، ويقرر كبنود في مقدمة الدساتير، وتخصص له الندوات الفكرية، ويقسم كل ولي أمر على احترامه أمام شعبه وأمام العالم. وينتخب مجلس تمثل فيه جميع دوله يقول على حراسة تطبيقه.

الهوامش

- ١- التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ١٧٠/١٧١ بتصرف.
- ٢- في ظلال القرآن، ج ١٧، ص ٦٤/٦٦ بتصرف.
- ٣- الإسلام والتفاعلات المعاصرة بحث د محمد بدر المتياوي مجمع الفقه الإسلامي الدورة الرابعة عشرة.
- ٤- غسان الغزي، في جذور العولمة، ص ٤٦.
- ٥- ظاهرة العولمة كتاب الأمة، ص ٨٦.
- ٦- سورة النمل / آية ٧٩ .
- ٧- سورة النور / آية ٥٤ .
- ٨- سورة الملك / آية ١٥ .
- ٩- سورة المزمل / آية ٢٠ .
- ١٠- القواعد ج ٢، ص ٢٥٧.
- ١١- كتاب الأمة ص ١٤٨ / ١٤٩ العدد ٨٦ .
- 12- Bill Mesler The Pentagon,s Radioacitve Bullet The Nation 21\10\66.
p12\13
- ١٣- الدولة الفاسقة، ص ١٤٠ و ١٤١ .L Etat Voyou. P. 141
- ١٤- نفس المصدر، ص ٥٦/٥٧ .
- ١٥- الدولة الفاسقة، ص ١٤٠ و ١٤١ .L Etat Voyou. P. 141
- ١٦- سورة الإسراء / آية ٣٦.
- ١٧- سورة الإسراء / آية ٨٥
- ١٨- سورة طه / آية ١١٤.
- ١٩- مجلة الحوار الأميركية، العدد الثالث لسنة ٩٠ ، ص ١٣/١٢ بتصرف Dialogue
- ٢٠- فتح الباري، ج ١١، ص ١٣٣/١٣٣.
- ٢١- العولمة والعولمة بحث آية الله الشيخ محمد علي التسخيري مجمع الفقه الإسلامي الدورة الرابعة عشرة.
- ٢٢- سورة الأنعام / آية ١٦١ .
- ٢٣- سورة المنافقون / آية ٨ .

- ٢٤- سورة هود / آية ٦١ .
٢٥- الأدب المفرد ح ٤٧٦ ، ص ٢٠٦ .
٢٦- سورة المائدة / آية ٨ .
٢٧- فتح الباري، ج ١٣، ص ٢٤٧ .
٢٨- مجلة الحوار العدد ٤ / ١٩٩١، ص ٢٤/٢١ Dialogue.Joshua.Muravchik
٢٩- سورة الأنفال / آية ٤٦ .

العالمية والعولمة

وموقف الأمة

آية الله الشيخ محمد علي التسخيري

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول: الوضع الطبيعي

إذا اردنا ان نعرض الواقع الطبيعي للعالم فإنه ينبغي أن نعرضه على مستويين. تارة على المستوى النظري، من وجهة نظر الإسلام، وأخرى على المستوى الواقعي الحالي القائم. من وجهة نظر هي اقرب الى العدالة كما نتصورها.

أما على المستوى النظري فإن الإسلام يرى ان الوضع الطبيعي للبشرية إنما يتم إذا قام نظام عالمي شامل له قانون واحد، وله امام واحد، ويتمتع بخصيصة: امتلاك قوانين منسجمة مع الفطرة الانسانية، باعتبار ان الفطرة هي الحد المشترك بين الأفراد. والدين ينسجم تمام الانسجام مع هذه الفطرة، وهي سنة الله في خلقه كما في الآية الشريفة (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)⁽¹⁾، وهذه الفطرة تقتضي اللجوء الى الله تعالى، واستمداد الشريعة في أصولها من الله تعالى؛ لأنه أعلم بما يصلح الانسان، ويحقق العدالة في هذا الاصلاح لانه تعالى الخالق العليم الرحيم؛ فلا حيف ولا ظلم ولا جهل، والرسالة التي تأتي من الله تعالى تعتمد منطق العدل والاحسان. والعدل يقتضي عدم التمييز إلا بالصفات التي يكتسبها الفرد، وهذه الصفات هي التقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)⁽²⁾، والجهاد (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً)⁽³⁾، والعلم (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)⁽⁴⁾، كما ان هذه

الرسالة تقتضي اتباع منطق الشورى في الأمر، هذا هو التصور الاجمالي للوضع الطبيعي للبشرية - على المستوى النظري: مجتمع واحد وإمام واحد وقانون واحد يستمد اصوله من هداية الله تعالى، ويسير وفق التشريع الإلهي.

أما على المستوى الواقعي الحالي والمنطق السائد فإننا إذا لاحظنا الوضع الحاضر فإنه يبدو ان الوضع الطبيعي للعلاقات الدولية والنظام الحاكم في الأرض يقتضي أن تكون هناك أمم متحدة، وقانون دولي واحد ومنظمات دولية واحدة تنظم هذه العلاقات، خصوصاً وانها مسيرة تكاملية، وحركة من التفرق الى التجمع، وان هناك مسائل لا يمكن ان تعالج اليوم على اساس محلي من قبيل (مسائل البيئة الحياتية، وحقوق الانسان، والاقتصاد العالمي والتجارة العالمية والطاقة والارتباطات والقوانين الدولية لحركة السنن والطائرات والامواج الاذاعية والتلفزيونية) وان تعامل الثقافات اليوم ضرورة ملحة للشعوب ولكن هذا النظام العالمي يجب ان يقوم على أسس منها:

- ١- احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.
- ٢- احترام الثقافات المتنوعة.
- ٣- اتباع سياسة عامة نحو الفقر ودعم العدالة الاجتماعية.
- ٤- دعم الديمقراطية في اطار احترام القيم التي يؤمن بها المجتمع.
- ٥- اتخاذ منطق الحوار للوصول الى المشتركات والتعاون في هذه المشتركات وذلك على المستويات كافة، سواء كان حواراً بين الحضارات او بين الأديان او بين المدارس والمذاهب المختلفة.
- ٦- الارتفاع بالمستوى العلمي الانساني، والتعاون بين الدول في هذا المجال.
- ٧- دعم قضية السلام العالمي العادل.
- ٨- نفي الاحتلال والظلم والارهاب بأنواعه.

٩- فتح المجال للمعلوماتية البناءة النافعة للبشرية.

١٠- تقوية الجوانب المعنوية الانسانية وعدم السماح للأفكار الهدامة بالظهور، من قبيل النازية والفاشية والعنصرية وباقي الأفكار الشيطانية باجماع البشرية.

القسم الثاني: ذكرنا فيه عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأي الإسلام

وهنا نود أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الإسلامية، إلا أننا قبل ذكر هذه العناصر، نشير إلى الأساسين الرئيسين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإسلامية، وهما:

١- المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

٢- الروابط والرحمة الانسانية، والصلات الخلقية.

والواقع ان كل التشريع الإسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول - عند التعمق - انهما يعبران عن موقف واحد فلم يكن الإسلام ليقصد إلا أن يضع الانسان على طريق تكامله، ويفجر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته، المستمدة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.

والواقع الذي لا شك فيه أن الواقعية والروح المناقبية تعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس إنما ينبثق عن هاتين الصفتين الرئيسيتين.

أما العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أولاً: العمل على ابقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية

فالأمة الإسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط، والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة التي تتبناها الجواهر الأخرى فيه. وهي الأمة الشاهلة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الإسلامية تسير بشكل منسجم مع مجموع السياسات الداخلية بالنجاة تحقيق هذا الأمر بشتى الوسائل والسبل، أي سواء على الأصعدة السياسية، أو الإعلامية، أو الاجتماعية، أو العسكرية، أو غيرها.

إن هذا العنصر يدفع الأمة الى التعالي والتكامل في كل حقل، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه. انه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة انسانية حضارية كبرى، نقول هذا ونحن نعترف بأن أمتنا - نتيجة عوامل كثيرة - قد اقصيت عن هذا الدور الطبيعي الذي أهلت له، ولكن هذا لا يعني أن لا تظل تلح على الوصول اليه، او تنسأ عندما تحاول او توصل اية علاقة دولية.

ثانياً: المبدئية في التعامل

وهي سمة عامة في كل خط سياسي سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي ذلك:

أن الدولة الإسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادئ تصورية تقوم على أساس منها خطوط عملية تستوعب حياة الانسان الفرد والمجتمع. ولهذا فهي تقترب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلا من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ ...

فعلى ضوء المبدأ يتحدد نوع العلاقات الدولية، وكونها ودية، او حسنة، او سيئة في الأصل.

أما العلاقات الاخوية فلا تقوم إلا بين المؤمنين، وذلك لأنها علاقات سامية، قد تعني وحدة الأفراد في مختلف الشؤون وليس هناك إمكان أن يصلها أناس يختلفون على قضية الايمان.

ثالثاً : نفي السبيل على المؤمنين

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد السياسة الخارجية، وربما كانت في بعض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبر عن علو الإسلام على غيره من الأنظمة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تُمسّ مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة فإن أي تصرف او معاملة او عقد يؤثي الى تفوق الكافرين على المسلمين يعد ملغياً من أساسه - وكما يعبر الفقهاء - فإن هذه القاعدة شأنها شأن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) وقاعدة (نفس العسر والخرج) تعد من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الأولية بمجموعها، اللهم إلا تلك التي تتضمن بنفسها تحمل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد.

وتستند هذه القاعدة الى أدلة، منها: الآية الشريفة:

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)^(٦)

ومنها الأحاديث التي تطبقها في بعض الموارد، كالحديث الوارد بما نصه:

(الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، والكفار بمردلة الموتى، لا يحجون ولا يورثون)^(٧)

كما تستند الى اجماع الفقهاء، وربما أمكن أن يقلل: إن روح التوجهات الإسلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقرر هذه الحقيقة بوضوح، و(الله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)^(٨).

وينبغي أن ننبه هنا الى أن هذا التوجه لا يعبر عن نوع من التكبر - كما يقول البعض - وإنما هو تقرير حقيقة علو النظام الإسلامي على غيره، باعتباره النظام الأكمل، وبالتالي افضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش او يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحث حينئذ الى الأدلة. أما أن يطلق القول على عواهنه، ويعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشد الظلم.

إنها قاعدة تعاملية مهمة، لها تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها: المجالات السياسية.

وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم، في تعاملنا مع القوى العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخداعة. وتعد حادثة تحريم شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى (رجي) تطبيقاً لهذه القاعدة في إيران، حيث سلب الشاه الظالم الكافرين، على جانب اقتصادي إسلامي، فاصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

(إن استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وأنه يعد بمثابة اعلان الحرب ضد الامام المهدي - عج -).

والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه الامام الخميني من معاملة الكابيتولاسيون (أي الاشراف) ويعني: اشراف ان لا تطبق على السكان الاجانب في ايران إلا قوانين دولهم، حيث يقوم فنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلا نوعاً من الحصانة القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقب المسلمين، وقد قام نظام الشاه القبور بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣م،

فنهض العلماء الكبار - وفي طليعتهم الإمام القائد - ضد هذا العمل المنافي للإسلام والعدالة، مما أتى به الى إبعاده من قبل الحكم الطاغوي الى تركيا. والواقع أن بذرة الثورة الإسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع ان الإمام استهل بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً).^(٨)

ولو أن الأمة الإسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً. ومن الجدير بالذكر: إن العناصر الثلاثة الماضية تشكل أساساً لروح الاستقلال، والترفع على أي نفوذ أجنبي مذل.

رابعاً: التوعية قبل أية خطوة أخرى

الإسلام دين التوعية والتربية ... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضم الى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام ان ينفذ الى عمقه ... انه يعرض جوهرة الثمينة، لأنه يعلم أن قيمتها ستتكشف بكل وضوح للجميع ... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو الى البحث والبرهنة، (قل هاتوا برهانكم) وهو يرفض أية عملية إكراه عقائدي (لا إكراه في الدين) كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها ... وفي مجمل التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء، يقول القرآن الكريم: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).^(٩)

(فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم).^(١٠)

(ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين).^(١١)

(قل هذه سبيل أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين).^(١٣)

وفي هذا يقول آية الله السيد محمد باقر الصدر في كتابه (اقتصادنا):
(والأمر الآخر: أن يبدأ الدعوة الإسلاميون - قبل كل شيء - بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وایضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام حجته، ولم يبق للأخريين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرين على رفض النور... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية - إلا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح).^(١٤)

وقد جاء في كتاب الكافي للمرحوم الكليني عن الصادق (عليه السلام) قوله:
(قل أمير المؤمنين (ع): بعثني رسول الله (ص) الى اليمن، فقل: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه الى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي).^(١٥)
إنه أسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علمه الله لموسى وهارون (ع)
(اذهبا الى فرعون إنه طغي، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر او يخشى).^(١٦)

انه الدعوة - حتى عند مواجهة الطواغيت - عسى أن يهتدوا الى الحق.
وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة (ادعوك بدعاية الإسلام) في رسالته الى شاه ايران، وقيصر امبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.
وهكذا راح الدعوة يبتون الدعوة الى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعوة الى الله، ومنهم:

عبدالله بن حذافة السهمي - مبعوث الرسول (ص) الى ايران.
حاطب بن أبي بلتعة - مبعوث الرسول (ص) الى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي - مبعوث الرسول (ص) الى روما.
 عمرو بن أمية - مبعوث الرسول (ص) الى الحبشة.
 سليط بن عمرو - مبعوث الرسول (ص) الى اليمامة.
 عمرو بن العاص - مبعوث الرسول (ص) الى عمان.
 حرملة بن زيد مع وفد معه الى مدينة (أبلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.
 المهاجر بن أبي أمية - مبعوث الرسول (ص) الى ملوك جُمَيْر.
 خالد بن الوليد - مبعوث الرسول (ص) الى همدان (مدينة قرب بحر عمان).
 علي بن أبي طالب (ع) - مبعوثه الثاني الى هذه المدينة.
 حذيفة بن اليمان - مبعوث الرسول (ص) الى الهند.
 عبدالله بن عوسجة - مبعوث الرسول (ص) الى قبيلة حارثة بن قريظ.
 جرير بن عبدالله البجلي - مبعوث الرسول (ص) الى قبائل نبي الكلا.
 وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة الى الشعوب.

وإذا اردنا ان نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلاحظها في بعثات الايضاح المرسله من هنا الى هناك، وفي اساليب توضيح الحقيقية عبر الوسائل السمعية والبصرية. وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة الى المؤتمرات الدولية.

ومما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنها تنظر الى عملية التوعية والايضاح كرسالة اهية ومبدأ ضروري يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية او سياسية او غيرها تجاه الدول الأخرى.

أما ما تجلده من السياسة الماكرة القائمة بالفعل، فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية باعتبارها مناورة سياسية فلذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيرت الموازين.

ونذكر هنا بان الإسلام قدم للبشرية وللمسلمين بالخاص ارشادات رائعة تؤكد على:

- ١ - ان ينطلق الحوار من مباحث ثابتة لا اسماء موهومة.
 - ٢ - ان يكون موضوعياً.
 - ٣ - ان يتم في جوخل من التهويل بل يتبع التي هي احسن.
 - ٤ - ان يبتعد عن الجدال العقيم.
 - ٥ - ان يستهدف غايات نبيله.
- وغير ذلك.

خامساً: مراعاة العدالة في التعامل

يشكل العدل أهم اصول التصور الإسلامي عن الواقع. (شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط).^(١٧) وأهمّ الأسس عند التعامل الاجتماعي. (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله).^(١٨) ومن الطبيعي أن يأتي التأكيد على العدالة حين تنور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من البين، وحينئذ تقول الآية: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).^(١٩) وإذا لاحظنا أن العدل في التعامل مع الأجنب عن دار الإسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الانساني في هذا لأصل، وهذا ما تؤكد أحكام الإسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها. وهو ما يفسر وقوف الدولة الإسلامية الى جانب قضايا المستضعفين والمخرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان، حتى لو لم يكن الأمر بمسها من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظلمة بين الدول.

فليس وقوفنا الى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمّتها رحنا نسومها سوء العذاب، وهو ما مجده من القوى العظمى، شرقياً وغربياً.

وإنما هو موقف مبدي أصيل، قائم على أساس متين، متى ما خالفناه - وفي أية لحظة - خرجنا عن الخط الإسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى:

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم).^(١٥)

إن القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله:

(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور).^(١٦)

سادساً: مبدأ تأليف القلوب

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الإسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيتها في نفس الوقت.

ففي الجو الذي يتم فيه تأليف القلوب، تنفتح النفوس للحقيقة، وتتقرب الى الواقع، والأصل في هذا المبدأ هو: سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف الى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب الى الإسلام.

ورغم أن الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة، وهل تختص بغير المسلمين، أم تشمل المنافقين، أم نعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان، إلا أن الذي يبدو من روح الإسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة -

ومنهم الإمام الخميني القائد - أنه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الإسلامية أن تلحظ المصلحة أينما تكون. ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات الى مختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتى مذاهبها.

ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معين، وبالنسبة لأشخاص معينين، بعد وفاته (ص) فإنه لا شك في إسلاميته اصلاً، ولزومه في العصور الأخرى.

على أننا ننبه هنا الى أنّ هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم لا يختص مورد بلب الزكاة، وإنما نجد الإسلام يسمح للإمام بأن يقوم بالإنفاق بما يحقق مصلحة الإسلام العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الإسلامية.

وبانفتاح هذا الباب نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تقدمها الدولة في سبيل تقريب القلوب الى مبادئها... إلا أنّ من الواضح فيه ملاحظة ملئ ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيقة.

سابعاً: احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمد عليها السياسة الإسلامية الحقة، وكما قلنا من قبل، فإنه يستمد من الواقعية التي تتسم بها النظرة الإسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الحق من جهة أخرى.

فالقائد الإسلامي يفكر ملياً في أيّ عهد او عقد يعقله، ولكنه إذا عقد العقدة - مستوفية لكل شروطها - التزم بها تمام الالتزام.

(وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً).^(٢١)

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية أو الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرّح بها الإسلام، وحدّد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسيّر بمنحى مستقل، يرى وليّ الأمر أن يعقدها لأنها تحقق المصلحة الإسلامية العليا. فمثل الأول: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثل الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثلة ذلك.

وتستمد التعاليم الإسلامية - الخاصة بهذا العقد أو ذاك - من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول (ص).

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).^(٣٣)

وهناك عقود أهل الذمة التي عقدها (ص) مع نصارى مجران وبني تغلب ومجموعات من اليهود.

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنما نريد التأكيد على أن مسألة العهود تحتل جانباً مهماً من الفقه الإسلامي، وتستمد خطوطها العريضة من القرآن الكريم.

ثامناً: التعامل بالمثل

يقول تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين).^(٣٤)

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدأين واقعيين يرتضيهما المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنّهما كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربّما عاد أحدهما من الضرورات، إما لردع الأعداء، وإما لجلب القلوب.

تاسعاً : نظام الجهاد بمختلف أنواعه

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الإسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً تحقيق الأهداف الإسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الإسلامية، والحفاظ على محورها المتحرك. كل ذلك مع ضمان أكبر للالتزام الأساليب الانسانية الممكنة ولن نتحدث طويلاً عن هذا الباب لسعته وضيقت مجالنا عنه.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا إليها في محات سريعة، تاركين التفصيل فيها الى مظانه، وملاحظين أنه قد يكون البعض فيها داخلاً في اطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، او نظام الجهاد.

القسم الثالث : الاتجاهات العالمية لدى النظم

هناك اليوم ثلاثة ومذاهب متنافسة هي الإسلام، الاشتراكية، الرأسمالية. وهي تمتلك جميعاً توجهات عالمية، وهنا أؤكد على انه لا فرق من حيث هذا التعريف بين العولمة والعالمية. و الإسلام باعتباره آخر حلقة من حلقات الدين الإلهي جاء ليصلح البشرية، باعتباره طريق خلاصها الذي اراده خالق البشرية، وهو بذلك يركز على الفطرة الانسانية المشتركة بين ابناء البشر، ويعتمد منطق الحوار والاقناع، ويعرض نفسه باعتباره السبيل الوحيد لخلاص البشرية، هذا الإسلام استخدم، لتحقيق اهدافه، عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي، وسعى لحذف الحدود الجغرافية والحدود اللونية واللغوية، وإقامة مجتمع عالمي يطبق قانوناً واحداً، ويتبع قائداً واحداً، ويمتلك احساساً مشتركة، وأهداف انسانية واحدة. وهذا الاتجاه العالمي يبدو في كثير من النصوص الإسلامية، مثل قوله تعالى: (قل يا

أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا^(٢٤)، وقوله تعالى: (وان يكاد الذين كفروا ليزلفونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين)^(٢٥). وهناك نصوص كثيرة تؤكد على عالمية الإسلام منذ انطلاقة الأولى خلافا لما يدعيه بعض المستشرقين والمؤرخين؛ من أن العالمية الإسلامية جاءت بالتدريج ولا مجال هنا للتفصيل في هذا المجال.

فالإسلام إذا انطلق باتجاه علمي وما زال، عبر العصور، يؤكد هذا الاتجاه، ويؤكد وحدة المنطلق الانساني، والمسير والهدف، هذا هو رأي الإسلام، أما الاشتراكية فهي ايضا عندما طرحت فلسفتها عن التاريخ طرحت مسألة المادية التاريخية، والمراحل التي اشتهرت في هذه المادية، حيث تنتقل البشرية من مرحلة العبودية الى المرحلة الاقطاعية، الى الرأسمالية التجارية، الى المرحلة الرأسمالية الصناعية، الى المرحلة الاشتراكية، وبالتالي الى المرحلة الشيوعية، عبر بعض القوانين ومنها صراع الأضداد الاجتماعية هذا التصور اعطى الاشتراكية نظريتها العلمية في ايجاد تحول علمي في مسيرة الانسانية. وواضح ان الاشتراكية اعتمدت في هذا المجال قضية صراع الطبقات، والثورة والنظام الحديدي الاشتراكي، الذي يوصل المجتمع الى الجنة التي يتصورها الاشتراكيون، وهي الشيوعية^(٢٦)، وقد فشلت هذه الرؤية سواء على الصعيد النظري او على الصعيد التطبيقي في اثبات ذاتها.

هذا بالنسبة الى الاشتراكية، أما بالنسبة الى الرأسمالية؛ فقد انطلقت منذ بداية حركتها دون أساس ايديولوجي^(٢٧)، ولم تكن تهتم بالأساس الايديولوجي، وانما همها تنظيم الحياة، واقامت نظامها على اساس الحرية الفردية الرأسمالية، ولكنها عندما انطلقت وواجهت اتساع الأفكار المعادية لها، راحت تأخذ من الاشتراكية شعاراتها وتستبدلها بشعارات مقابلة، من قبيل العدالة الاجتماعية؛ حيث

استبدالها بمسألة حقوق الانسان، والتنمية الاقتصادية؛ حيث استبدالها بمسألة السوق الحرة وغمو الانتاج، وبالتالي فإنها اخذت شعار الأهمية البروليتارية واستبدلته بشعار العولمة الرأسمالية، إذ انها عندما انطلقت انطلقت محلية وكان تركيزها على الغرب، ولم تطرح نفسها بشكل عالمي، إلا بعد أن توفرت ظروف مناسبة لذلك، فراحت تطرح مفاهيم العولمة اما النظام العالمي الجديد فهو مصطلح استعمله الغرب سياسيا في فترة مبكرة لكي يفرض هيمنته السياسية وقد اتخذ في فترات متفاوتة قوالب متعددة. تبعا لسخونة الحرب وبرودتها.

وهنا نذكر بالمراحل التي ذكرها (روبنسون) فقد تصور (روبنسون) ان العولمة الرأسمالية مرت بمراحل هي المرحلة الجينية، وتبدأ منذ القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر، بسيادة القومية والجغرافية، ثم مرحلة النشوء، التي رآها تستمر حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بتبلور مفاهيم العلاقات الدولية ثم مرحلة الانطلاق وأوصلها الى عشرينيات القرن العشرين بظهور المفاهيم الكونية، ثم مرحلة الصراع من اجل الهيمنة حتى منتصف الستينات، حيث ظهرت الأمم المتحدة، ثم مرحلة الاتصال واندماج العالم الثالث، والتعدد الثقافي، وبالتالي تصور اوج العولمة في الثمانينات والتسعينات^(٢٥). وهذا التصور كما نعتقد مصطنع وفرضي ولا واقع له، لأن الرأسمالية لم تنطلق بنظرة عالمية مطلقاً، وانما كان تركيزها على الغرب والدول الغربية بشكل جغرافي لا غير، ولكن الظروف التي حصلت في اواخر القرن العشرين دعت لطرح مفهوم العولمة كما يبدو للباحث، فإن تنامي القدرة الغربية وامتلاكها المعلوماتية الضخمة وقدرة الاعلام النافذ الى كل انحاء العالم من جهة، وكذلك تعاضد القدرة الإسلامية وانتشار النظرة الشمولية الإسلامية، التي شكلت في نظر الغرب خطراً على كل الحضارة الغربية من جهة ثانية، وانهايار

الاتحاد السوفيتي كقدرة منافسة، كل هذه الأمور فسحت المجال لطرح نظرية العولمة على هذا المستوى الواسع.

القسم الرابع: تعريف العولمة

لا ريب ان تعريف العولمة غامض والتعاريف المقدمة متناقضة ومتنوعة، والحقيقة إن الإنسان يدرك من خلال معرفة نوع التفسيرات والتعاريف؛ إن العولمة هي محاولة نفي الحضارات غير الغربية، وتحميل الرأسمالية، ومحاولة فرض الأمركة والهيمنة على العالم. ونذكر في هذا الصدد ثلاث محاولات:

١- تعريف اللجنة الدولية عام ١٩٩٥م وهو يفسرها بالتداخل بين أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك عبر رفض الحدود والانتماء الوطني والاجراءات الحكومية.^(٢٧)

٢- بعض التعاريف العربية للعولمة بأنها حقيقة التحول الرأسمالي في ظل هيمنة الدول المركزية وسيادة نظام علمي غير متكافئ، وهناك تعريفات اقتصادية او ادبية او تعاريف باعتبار اللوازم (للجائري) و(التيزيني) وغيرهما.^(٢٨)

٣- تعريف (روزناو) الاميركي ويطرح تساؤلات: هل تنطلق العولمة من التجانس، او تعميق الفوارق؟ وهل لها مصادر واحدة او متفرقة؟ وهل لها ثقافة واحدة او متعددة؟ وبالتالي يعتبر ان هناك ثلاثة عناصر دخيلة في العولمة، هي ازالة الحدود وابرار تشابه المجتمعات الكبرى وفرض طريقة حياتها على الآخرين^(٢٩)، ومن هنا نستطيع ان نقول: أن العولمة في الواقع هي محاولة امركة العلاقات السياسية والحقوقية والاجتماعية، عالياً، وفرض ثقافة الهيمنة الغربية على الآخرين فهي من أخطر الأفكار الشيطانية. وقد استفاد الغرب من قدرته التكنولوجية والعلمية والثقافية والعسكرية لطرح هذه الفكرة، كما قام بعض الفلاسفة والكتاب بالتمهيد النظري لها، وكلنا يعرف نظرية (هاننتكنن) التي

تركز على الحضارة الغربية وتعتبرها تتميز بالتسامح والانسانية والتعددية، في حين تصف الحضارات غير الغربية بالاستبداد والانغلاق على الماضي، والفشل في حل المشكلات الانسانية، كالفقر والبطالة ومستوى المعيشة، وكثرة الانحجاب والديكتاتورية. وهي تقترح على الغرب أن لا يتعاون مع غيره، ولا يصدر التكنولوجيا، ويوحد نفسه اقتصادياً وسياسياً وإدارياً، وترى ان الحضارة الغربية تعتمد على الأثر اليوناني والمسيحية الغربية والعلمانية، وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني وحقوق الانسان، وهي أمور تميزت بها الحضارة الغربية ولا تتحقق في حضارات اخرى. ويأتي (فوكوياما) ليجعل النظام الرأسمالي غاية التاريخ، ويرى ان المجتمعات كلها يجب ان تتجه نحو الرأسمالية، ويجب توفير الشروط السياسية والاجتماعية، وأهمها تطوير البنية الاجتماعية نحو المساواة واللاطبقيه واللاطائفية، وإيجاد تفسيرات دينية مرتبطة بهذا التطور، وكذلك قيام المجتمع النامي لإيجاد المؤسسات الوسيطة بين الأفراد والدولة، كما يجب عدم المبالغة بالتمييز القومي مما يدعو للعزلة الحضارية، ويدعو الى تفسيرات مستنيرة للنصوص الدينية، وينتقد كل الحركات المتطرفة، ويدعو لتوجه الصفوة لدعم القيم الديمقراطية والحريات؛ فهو اذن يجعل المجتمع الرأسمالي الغاية التي يجب ان تسير اليها كل الحضارات.^(٣٧) كذلك نجد (بيدهام برايان) المفكر الانكليزي في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة الايكونومست خلال عام ١٩٩٤ يؤكد ان هناك تشابهاً بين الوضع الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع اوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى ان كلا الوضعين متشابهان في توفر الارضية المناسبة للاصلاحات، وفي نوع المؤسسات الدينية لدى المسلمين ومؤسسات الكنيسة في القرن ١٥ م وفي المستوى البائس لديهم، وفي الشوق لتحسن الاوضاع، ويرى ان هناك عاملاً خارجياً يحرك هذه الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكل فيه (المسلمون) العامل الخارجي لتطوير اوروبا في حينها،

يشكل الغرب اليوم عامل دفع للعالم الإسلامي نحو التطور والتقدم ويرى ان التحرك يبدأ من الإسلاميين المتحررين الذين يؤمنون بالديمقراطية، ولا بد من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، وفي ختام مقالاته يوجه الى العالم الإسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الانسانية السائدة هي:

١- الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

٢- القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

٣- العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم^(٣٣)

هذا وقد شملت عملية التمهيد لنظرية العولمة والأمركة المجالات المعلوماتية كما في مجال الانترنت والفضائيات، كما شملت عملية السيطرة على المنظمات الدولية، فإن استجابات لهذا الهدف وإلا تم تجاوزها وراح التخطيط لفرض السياسة الأميركية على العالم. وقد استغلت اميركا حوادث ١١ سبتمبر لتطرح نفسها القوة الاولى في العالم، والسيطرة على كل مقدراته السياسية كما جاء التخطيط للسيطرة على الثقافات والقيم، والتدخل في التشريعات الاجتماعية، كما رأينا في مؤتمرات الاسرة في القاهرة وكوبنهاغن، ومكسيكو سيتي، وبكين وغيرها؛ حيث تم التدخل في الأمور التشريعية الاجتماعية تحت شعار حماية حقوق الانسان.^(٣٤)

القسم الخامس: الآثار السلبية للعولمة

لقد توضحت للعالم جميعاً الآثار السلبية التي تركتها هذه الفكرة المخربة، ولذلك وصفت العولمة بكثير من الأوصاف منها العولمة المتوحشة او العولمة المجنونة او العولمة الفخ، او وصفت بأنها أما أن تأكل او تؤكل، وقد ذكرت الدراسات المتنوعة هذه الآثار السلبية التي نشير الى بعضها:

- ١- سيطرة القوى الكبرى على حركة الاقتصاد العالمي والمصادر الانتاجية والتبادل المالي والتجارة، حتى قيل ان هناك ٥٠٠ شركة تسيطر على ٧٠٪ من حجم التجارة العالمية، وان هناك ٢٠٪ فقط يعيشون في اكتفاء ذاتي في حين يقبع ٨٠٪ في عالم التبرعات. وان ما تكسبه الولايات المتحدة من حركة تحرير التجارة لا يقل في المتوسط عن ٢٠٠ مليار دولار سنوياً منذ انشاء منظمة التجارة العالمية وحتى عام ٢٠٠٥ بينما تقدر خسائر الدول الافريقية بمحوالى ٢٠٩ مليار سنوياً.^(٣٥)
- ٢- سيطرة اميركا على وسائط نقل المعرفة.
- ٣- كسر هيبة الدول الصغيرة، وقدرتها على النمو.
- ٤- التدخل في التقنين الداخلي لباقي الشعوب كما رأينا في مؤتمرات الأسرة وغيرها.
- ٥- الغزو الثقافي لكل المناطق، ومحاولة استئصال الثقافات الأخرى. فهي تدعو الى تطبيقات عصر ما بعد الحداثة والغاء دور الدين وقد نلحى الفيلسوف دجك دريدا الى حل المؤسسات الدينية والتعليمية.^(٣٦)
- وها نحن نجد الغرب يسوق بعض مفاهيمه على انها مفاهيم مسلمة وعلى العالم ان يلتزم بها من قبيل (الديمقراطية) و (الحرية الفردية) و (الحرية الجنسية) بل راح اخيراً يجعل (العلمانية) مبدأ انسانياً لا يمكن تركه، وهكذا يمكن الحديث عن النماذج الاقتصادية الغربية في الاستهلاك من زاوية ثقافية وكذلك من الممكن الاشارة للغزو الثقافي الواسع الابعاد والعمل على محو الهويات الوطنية وابتعاد هويات مجازية ومصطنعة بواسطة وسائل الاعلام الواسعة التأثير.
- ٦- التقليل من شأن المحافل الدولية، واستغلالها لصالح هيمنة القوى الكبرى، كاستغلال صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرها من المنظمات لتنفيذ

السياسات المصلحية وقد رأينا قبل أيام ان رئيس دولة غربية يعلن ان النانو والقوى الغربية وجّهوا اكبر ضربة للنظام العالمي لاستغلالهم المحافل الدولية.^(٣٧)

٧- تلويث البيئة نتيجة الجشع الذي ابتليت به القوى الكبرى.

٨ — وهناك عمل رهيب على تغيير الخارطة السياسية في بعض المناطق (من قبيل منطقة الخليج ومنطقة شمال افريقيا، وروسيا وتايوان) وربما لايجاد سايكس بيكو جديدة.

وهناك آثار سلبية كثيرة اخرى للعولمة نعرض عنها فعلاً.

الموانع بوجه مخططات العولمة الاميركية (المتفردة)

ونحن نجزم بان اميركا التي تقف وراء حركة العولمة هذه، لن تستطيع ان تحقق مآربها رغم ما تملكه من امكانات. فهناك موانع كثيرة امامها ومنها:

١ - وقوف دول كبرى وتكتلات عليية مختلفة المصالح بوجهها.

٢ - وقوف الشعوب بوجه مخططات الرامية الى مسح الهوية بل وربما الاحتلال المبطن.

٣ - حصول الازمات العالمية على مختلف الصعد وخصوصا الاقتصادية كازمة الطاقة التي قد تشعل النظام العالمي كله.

٤ - عدم امكانها الاستمرار في عملية تحلي نظام العلاقات الدولية وتخطي المؤسسات العالمية مما يحرك العالم ضدها.

٥ - تنامي الوعي العالمي لهذه المخططات بنفسه يؤدي لارتفاع وتيرة المقاومة ومن هنا يمكن ان تتحول الوسائل الحديثة التي تستغلها العولمة الى ادوات تنمي عنصر الوعي بمخططاتها.

٦ - الوعي الديني المتنامي للشعوب فهو يشكل المانع الاكبر بوجه المخططات التي تعمل على محوه.

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

وقبل ان نطرح تصورنا لما يجب ان تفعله الامة، نحاول ان نلخص الفروق بين عالميتنا وعولمتهم فيما يلي:

ان العالمية الإسلامية تمتاز بانها:

* عالمية اقناعية لا تفرض على الشعوب ايدولوجيتها ولا تحاول سلبها ثقافتها ونمط حياتها، وانما تعمل على التعايش والتفاهم معها وهذا ما تثبته النصوص الإسلامية وتؤكد الوقائع التاريخية المنسجمة مع النصوص فلا اكراه عقائدي ولا مسخ ثقافي ولا محو عنصري.

* وهي لا تعمل على سلب حقوق الآخرين ونهب ثرواتهم.

* وهي لا تعمل على اشاعة مفاهيم مصلحية كتعميق مفاهيم الاستهلاك بل توازن في اتجاهاتها بين الانتاج البشري والحاجة العامة نافية اي كفر بنعم الله واي ظلم في التوزيع مستهدفة قبل كل شيء سعادة الانسان وكرامته رافضة الاسراف انتاجا او توزيعا.

* كما انها لا تنحرى ما يوجب الاضرار بالافراد او الجماعات او المجتمعات بل تعمل على اعطاء كل ذي حق حقه موفرة الامن بكل انواعه للجميع.

* وهي لا تحاول فرض هيمنة شعب او طبقة او فرد على الآخرين ، وتتصدى لكل انواع الديكتاتوريات والتعالي وتعتبره مظهرا للطاغوت معتبرة ان الصراع ضد الطاغوت هو احد هدي الانبياء الى جانب تعبيد الارض لله.

* وهي تعمل على نشر القيم الانسانية والاخلاق الحميلة كهدف لاتحاد عنه.

* وتعمل بواقعية اصيلة على ان تتجلى باقي المظاهر الانسانية في السلوك

الفردى والاجتماعي والدولي.

* ومن هذه العناصر الفطرية العدالة التي يعمل الدين لتحقيقها في كل المجالات ويحذف كل ما يتنافى معها مهما كان.

* كما تعمل هذه العالمية على احترام الآخر واشاعة منطلق الحوار قبل اي عمل (ليحيي من حي عن بينه ويهلك من هلك عن بينة) وهو ايضا من مقتضيات الفطرة الانسانية.

* ومن المباني التي تعمل على اشاعتها التعاون والتعارف والاستخلاف الالهي والتكافل الاجتماعي.

* وتقوم الانسان ومركزه بمعايير الالتزام والعمل الانساني.

* وتوازن بين الحريات الفردية والمنافع الاجتماعية وبالتالي فهي تبني كل المسائل الاجتماعية على فلسفة واقعية تنطلق منها وتلتزم بمقتضياتها الى ما هنالك من خصائص لايسع المجال لاستقصائها.

اما العولمة الغربية فنكاد نقطع بانها تقف على النقيض مما سبق فهي تنصف - كما رأينا - بالاكراه الثقافي، والنهب اما بشكل همجي مجنون او بشكل عصري حدائي، كما انها تعمل على تعميم المنطق الحيواني للاستهلاك، وتتدخل في كل شؤون المجتمعات حتى الاجتماعية والمدنية منها وتستهدف الهيمنة بشتى انواعها، ثم انها لاتعرف اي معنى للقيم الاخلاقية بل هي تسخر الاخلاق لتحقيق مآربها السياسية - كما رأينا في بيان المفكرين الاميركيين اخيرا - فلابجال للامور المعنوية في قاموسها بل هي تعمل على محاربتها بما تمتلك من وسائل ومنها الوسائل الاعلامية الاباحية، كما ان العدالة عندها نسبة تتناسب مع مصالحها الضيقة، وبالتالي تطرح بوحشية لامثيل لها منطلق الصراع بدلا عن الحوار، اما معيار العدالة والتقويم فليس الا القوة والمصلحة الضيقة ولذا تستيغ الكيل بمكيالين باعتبار الآخرين لايملكون

استحقاق التعامل الانساني - وفقا لنظرية هوبز في تقسيم المجتمعات على اساس الحداثة - وقد وجدت اليوم اتبعا اكثر من المفكرين الغربيين وخصوصا في انجلترا واميركا.

واخيرا فقد قلنا ان العولمة الغربية تستغل الظروف المواتية لها دون ان تستند الى فلسفة واقعية تبرر لها هجمتها المتوحشة.

القسم السادس: موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب ان تتخذها اتجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأن الرفض الانفعالي لن يؤدي الى نتيجة، وانما يجب التأمل واتخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال:

أن نقوم بوضع استراتيجية عملية وواضحة وشاملة، ويتعاون الجميع على وضعها أولاً، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا ان نقوم بفضح النظريات التي مهدت لمثل هذه النظرة التخريبية.

وبالنسبة للاستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

عالمياً:

١- يجب علينا أن نعري الجانب الايديولوجي للهيمنة الاميركية والمقصود الحقيقي من مقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخل وفتح الحدود وأمثال ذلك).

٢- يجب علينا حذف هيمنة السوق على الجانب السياسي.

٣- يجب تعميق قيم الانسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الإسلامية.

٤- يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.

- ٥- يجب التأكيد على الهويات الاقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافتها.
- ٦- يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنمية للشعوب.
- ٧- يجب العمل على اعطاء الحريات والحقوق الاصلية للشعوب.
- ٨- يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.
- ٩- يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوعة.
- وفي الاطار الإسلامي يجب علينا بالاضافة لما سبق:
- ١- أن نعلم الحوار بين المذاهب انجاء لتكوين الوحدة في الموقف الإسلامي.
- ٢- يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.
- ٣- يجب ان نطور دراساتنا الاقليمية والعلمية ونحقق الانفتاح على التاريخ.
- ٤- علينا ان نقوي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميقها.
- ٥- علينا ان نجمع بين الأصالة، والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروج للاجتهاد الجماعي، وغير ذلك مما يؤدي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.
- ٦ — علينا ان ندعم قضية الصحة الإسلامية.
- واخيراً فان علينا ان لانسى ان عولمة كبرى موازية قد امتدت ايجابياً وهي الاتجاه العالمي لنمو المعنويات وروح التدين لدى الشعوب والتضاهم بين القادة الدينيين وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الفهم الشمولي للإسلام فهماً يجعله امل هذه الأمة في احتلال موقعها الحضاري المطلوب.
- واننا نعتقد ان مظاهر هذا الاتجاه العالمي تنجز يوماً بعد يوم حيث نشهد مثلاً:

- أ - اتجه الجماهير في العالم الإسلامي نحو الدين بشغف ومطالبة العلماء بالتدخل المباشر في الحياة العامة وابداء الرأي في القضايا الملحة.
- ب - تحكيم دور الكنيسة السياسي والاجتماعي في العالم المسيحي وخصوصاً في الدول التي تشكلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي حرر قوة البوذية المعنوية في صياغة القرارات الاجتماعية في جنوب آسيا.
- د - ازدياد الاقبال على النظريات والمؤلفات الدينية.
- هـ - اتجه الامم المتحدة الاخير نحو القادة الدينين كما في مؤتمر نيويورك وبانكوك.
- و - اتساع نطاق الحوار الديني بين الاديان المختلفة فيجب ان يقوم رجال هذه الاديان بواجبهم في دعم المسيرة المعنوية الصاعدة.

الهوامش

- (١) سورة الروم / ٣٠.
- (٢) سورة الحجرات / ١٣.
- (٣) سورة النساء / ٩٥.
- (٤) سورة الزمر / ٩.
- (٥) النساء / ١٤١.
- (٦) من لا يحضره الفقيه، ص ٤.
- (٧) المناقون / ٨.
- (٨) النساء / ١٤١.
- (٩) النحل / ١٢٥.
- (١٠) الشورى / ١٥.
- (١١) فصلت / ٣٣.
- (١٢) يوسف / ١٠٨.
- (١٣) اقتصادنا، السيد محمد باقر الصدر، ص ٢٧٥.
- (١٤) وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٠.
- (١٥) طه / ٤٣ - ٤٤.
- (١٦) آل عمران / ١٨.
- (١٧) النساء / ١٣٥.
- (١٨) المائدة / ٨.
- (١٩) سورة محمد / ٢٢ - ٢٣.
- (٢٠) سورة الحج / ٤١.
- (٢١) الاسراء / ٣٤.
- (٢٢) التوبة / ٢٩.
- (٢٣) البقرة / ١٩٤.
- (٢٤) سورة الأعراف / ١٥٨.
- (٢٥) سورة القلم / ٥١.
- (٢٦) للوقوف على تفصيل هذا الأمر، راجع بحوث الشهيد الصدر في (اقتصادنا) ص ٥٣ - ٢٣٨ حول الموضوع.
- (٢٧) نفس المصدر، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.
- (٢٨) نقلا عن سيد ياسين، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٢٨، فبراير ١٩٨٨م.
- (٢٩) مجلة النهج، عدد ٥٠، ربيع ١٩٨٨.

- (٣٠) مجلة الواحة، عدد ١٦، ص ١٥٣.
- (٣١) جيمس روزناو، ديناميكية المعرفة.
- (٣٢) مجلة المستقبل العربي العدد ٥١٢، الأستاذ مجد الدين خمش، ص ٣٠.
- (٣٣) راجع مجلة المنهاج، عدد ٢٢، السنة السادسة، ص ٢٤٨، مقال للمؤلف حول هذا الموضوع.
- (٣٤) راجع كتاب مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتداعياته للمؤلف.
- (٣٥) الأستاذ المنيأوي نقلا عن تقرير المجلس القومي للإنتاج والشؤون الاقتصادية (المصري) والنبي عرض في ٢٠٠٢/٣/١٧.
- (٣٦) الدكتور عبدالعزيز حموده الثقافة، اختيار للثقافة القومية (الاهرام ٢٠٠٢/٧/٥ ص ١٣).
- (٣٧) وتتابع الأدلة يوماً بعد يوم على هذا الاستغلال فإذا لم تحقق لهم مصالحهم تركوها وهذا ما شاهدناه من موقف أميركا من معاهدة (كيوتو) التي تمنع تلويث البيئة لأنهم اكتشفوا انها تقلل من انتاجهم من الفحم الحجري، والنفط الثقيل، والطاقة النووية وذلك بعد ان كانت قد وقعت عليها ومن المحكمة الجنائية الدولية أخيراً. بعد ان ساهمت هي في انشائها ولكنها عملت على اعفاء جنودها من اجراءات المحكمة. وكذلك عملت على الخروج من اتفاقية (Ctbt) لمنع التجارب الذرية ووقفت العمل التفتيشي في مجال تحريم الاسلحة الكيميائية.

أهمية الموقف الإسلامي

الموحد تجاه العولمة

الحاج عبد الهادي بن الحاج أوانج

الرئيس بالوكالة للحزب الإسلامي ورئيس ولاية ترنجانو بماليزيا
وعضو البرلمان المركزي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
والصلاة والسلام على حبيبنا وشفيعنا وقدوتنا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين . وبعد.

أهمية الموقف الإسلامي الموحد تجاه العولمة

فإن الرسالة الإسلامية الشاملة الخالدة التي يحمل أمانتها نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم من علم الله الذي لا ينتهي، وحكمته التي لا تحصى. خاتم الرسالة
للعصر الذي وهب الله للناس ذروة التقدم التكنولوجي والازدهار العلمي حتى
تجعل الكرة الأرضية وشعوبها المختلفة قرية صغيرة لسرعة المواصلات وتبادل
المعلومات في جميع مجالاتها ونواحيها، وتغير وجه الحياة الانسانية وعلاقتها بالعالم.
فيكفي رسولا واحدا، للناس جميعا في كل مكان وزمان وليس كغيره من الرسل.
ولقد رأينا في زماننا هذا ما لا يراه الجيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم
الذين يكفون برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته الحميلة فيؤمنون
بعلمية الرسالة، ويواجهون التحديات المحلية والعالمية، فأظهر الله دينه على الدين
كله، ابتداء من مكة واد غير ذي زرع إلى قارات عالمية مهمة عدة قرون منذ عهد
الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد الخلافة بالخضارة الإسلامية المتميزة.

وابتداء ببناء شخصية الإنسان روحيا بالإيمان والعلم المبني عليه وجسميا على حسب ضرورياتها وحاجياتها وكمالياتها ليصل إلى الهدف المنشود لخلقه ووجوده في هذا العالم للعبادة والخلافة والأمانة. (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(١)، (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(٢). (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)^(٣). لا كما حدث إبليس عليه اللعنة (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)^(٤). فرسالتنا نحن المسلمين فهمها البدوي من الجيل الأول فصرح أمام الدولة العظمى، (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة). ولم يفهمها أو يتجاهلها المعاصرون العلمانيون أسارى الغزو الفكري، أولئك الذين يسمون أنفسهم بالقادة والمفكرين والمتقنين الذين يدعون إلى الأيديولوجيات التي جنت على الأمة الإسلامية المعاصرة التي تعاني بالمهانة والاحتطاط.

فالعولمة اصطلاح جديد غريب من جسم الإسلام ، فإنها نشأت بعد إعلان النظام العالمي الجديد الذي اعلنه الرئيس الأمريكي بعد انتهاء تمثيلية الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفيتي، فشعرت أمريكا أنها القوة العظمى الفريضة التي لا بد من وقوف الدول الغربية خاصة وراها صفا واحدا للسيطرة على العالم وبالأخص العالم الإسلامي ، ثم الأمركة بوضع الولايات الأمريكية المتحدة قوة فريضة للعالم كاستمرار للاستعمار بالصيغة الجديدة، مستفيدة من سيطرتها على التكنولوجيات الحديثة للهيمنة على العالم سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا. فهي مجرد السيطرة والهيمنة بغض النظر إلى السلبيات التي تزيل وظيفة الإنسان في الأرض وتمحو القيم الصحيحة وتنهار الموازين. فإنها وليدة قرون قد خلت منذ عهد نمروود بابل وفراعنة مصر إلى عهد الاستعمار الصليبي في

شتى أرجاء الأرض لأمبراطوريات أوروبية كبريطانيا وفرنسا وهولندا وإسبانيا وبرتغال واستبداد الشيوعية على آسيا الوسطى. إلا أن العولمة المعاصرة تغير مخططاتها واستراتيجياتها على حساب الديمقراطية والسلام وضد الإرهاب على حسب تعريفاتها ومصطلحاتها المزعومة.

لا بد من الدراسة والفهم من العلاقة الوثيقة بين أمريكا التي تقود شعار العولمة والصهيونية التي تسيطر لوبياتها على السياسة والاقتصاد والإعلام في أمريكا وموقفها الشهير بجانب إسرائيل، وكذلك المقارنة بينها وبين تزويد أمريكا وخلفائها العراق بالأسلحة لتخريب الجمهورية الإسلامية في إيران وقتل الإخوة المسلمين الأكراد في حلبجة في حرب الخليج الأولى وموقفها المتحمس المعاصر في العدوان على العراق وتدميرها في حربي الخليج الثانية والثالثة لادعاءات وضعتها بأسلحتها المتطورة على حساب حماية إسرائيل ومكانة المنطقة البترولية والاستراتيجية بستار الأمن وضد الإرهاب. وترك إسرائيل حرية التسلح وتزويدها بالأسلحة بلا حدود، ثم إن هذه الأسلحة العراقية لا تنفع لمواجهة العدوان على شعبها المظلوم وبالتالي تخطيط إعلامي منظم لبث الأخبار والمعلومات وترتيب المقابلات التي تشتت العالم الإسلامي والعربي. فإنه من واجب الأمة الإسلامية التي تحمل الرسالة الربانية للعالم لاتخاذ دورها ومسؤولياتها لإنقاذ نفسها أولاً والناس جميعاً من هذا الغرور والجنون. فإنها ليست بمواجهة الأسلحة الحديثة المدمرة فحسب، بل أخطر من ذلك إزالة القيم الإنسانية التي كرمها الله بني آدم، وذلك لأن العولمة ليست للسيطرة العسكرية بالأسلحة التي تقتل الناس بعدد كبير، والسيطرة على الاقتصاد عالياً والهيمنة على الحكومات سياسياً، فإنها كذلك تقتل الإيمان والعقيدة والخلق والقيم الإنسانية بالثقافة والإعلام بمساعدة التكنولوجيات الحديثة والإيديولوجيات الهدامة المستعنة

الموجودة في قلوب المسلمين التي تحكم بلادهم الآن بعد استقلال البلاد ظاهرا بمساندة البقايا التي تركها الاستعمار الأجنبي كقاعدة له بمساعدة أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا إلا أنهم دعة على أبواب جهنم.

ومن واجب العاملين في الحقل الإسلامي مواجهة التحديات الداخلية والخارجية صفا واحدا وبدا واحدة لإنقاذ الأمة من خطر العولمة وجيوشها من الداخل والخارج. فأما الداخل من عند أنفسهم من الجهل والوهن اللذين يؤديان إلى الركون لهذا الاستعمار الجديد والاستسلام لمخططاته وبرامجه حتى يضرب بعضنا رقاب بعض.

ولا بد من تطهير الأفكار من آثار الغزو الفكري وتوعية الرجوع إلى الإسلام من جديد، والنصيحة لله ولرسوله لأئمة المسلمين وعامتهم. وأما الخارج هذه المخططات والاستراتيجيات الجديدة كشن ضربات عسكرية وهيمنة سياسية وسيطرة اقتصادية واستعمار اجتماعي وتربوي بهذا الاسم المهذب الأنيق، العولمة.

ومن واجب الحكومات في الأراضي الإسلامية أن تحذر من هذا الوباء الجديد الذي يهدد العالم بالخطر حتى أن المنصفين من دول الغرب قاموا باستنكارات على العولمة من حيث المصالح المادية الظاهرة. فأما نحن المسلمين تلزمنا الرؤية أوسع منها وأكبر خطر لجميع النواحي البشرية. وعلى الأمة بكاملها موقف موحد تجاه العولمة وذلك لأن البديل لا يمكن أن يكون إلا في الإسلام، والنظر إلى صورة العالم بأسره بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. فالتحنى الوحيد للهيمنة الغربية والعولمة الأمريكية بالتحديد التي تريد السيطرة على العالم برسالتها الجاهلية نجد أنه الإسلام والمسلمون.

العولمة والنظام العالمي الجديد

ولست بحاجة إلى تعريف العولمة، فقد كتبها الكثيرون، وشرحوها شرحاً واضحاً في الكتب والمقالات والمقابلات حتى أن هذه الكلمة الأنيقة متداولة بين الباحثين والمتقنين والمعنيين في الدراسات العالمية في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والعسكرية وبينوا إيجابياتها وسلبياتها. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، قائد الكتلة الشيوعية، وانتهت تمثيلية الحرب الباردة بينها وبين الكتلة الغربية الرأسمالية التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية، اندفعت هذا الأخير بغرورها وشعرت بوحدتها لقيادة العالم، فأعلنت شعار النظام العالمي الجديد لإجبار الدول على تخطيطها للسيطرة على سياستها والمهيمنة على اقتصادها والتدخل على ثقافتها وتعليمها كمحاولة لإبقاء مكانتها في قيادة العالم مهما كان الثمن الذي ستدفعه الدول الأخرى لاسيما الدول النامية في العالم الثالث وبالأخص الأراضي الإسلامية بمكانتها الاستراتيجية في خريطة السياسة والاقتصاد، واستعدت حتى للتدخل العسكري بكل قواتها بعد السيطرة على وسائل الإعلام واستخدام المنظمات العالمية كجمعية الأمم المتحدة ومؤسساتها السياسية والاقتصادية والثقافية والناتو والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي بدون استحياء ومرؤة.

وهذا هو استعمار جديد على العالم، باسم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان بأسلوب أنيق يفرض الدول لإتباعها وطاعتها والركون إليها طوعاً وكرهاً. وإلا ستدخل أية دولة في قوائم الإرهاب وأعداء الديمقراطية والحرية والعدالة وحقوق الإنسان. فالولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها معصومة من تلك الكبائر كلها مهما كانت إجراءاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية ومنها مساعدتها لإسرائيل مهما كانت وحشيتها على الشعب الفلسطيني

المظلوم، وفرض الاهتمام بمصلحتها وأتباعها اهتماما بالغاً ولو كان على حساب المستضعفين والمظلومين في العالم. فالدفاع عن وجود إسرائيل الظالمة أولى من حقوق فلسطين، وكذلك إهمال قضايا الشيشان وكشمير وجنوب الفلبين وغيرها من المظلومين. وكل قرارات دولية بالأغلبية التي تمس تلك الدول المستكبرة منقوضة بالبيتو.

والعولمة وليدة النظام العالمي الجديد بتخطيط دقيق واستراتيجية أنيقة للاستعمار الجديد على طرق حديثة ليست كاستعمار القرون الوسطى. فإنها تخطط بدقة وتنظم بدراسة متعمقة من خبراء الاستراتيجية للسيطرة على العالم بستر الديمقراطية والحرية والثقافة والأخوة الإنسانية والعدالة وحقوق الإنسان. وهي برنامج من برامج لتغريب العالم في الثقافة بوسائل متنوعة من أداة الإعلام المقرؤة والمنظورة والتدخل في مناهج التربية والتعليم. وفي السياسة بالتدخل في نظام الحكم والإدارات الحكومية باسم الإصلاحات الديمقراطية، وفي الاقتصاد بالسيطرة على الموارد كالبتروال والغاز والحركات التجارية والاستثمارات وتأسيس البنك الدولي وصندوق النقد الدولي باسم المساعدة.

والعولمة سيمة الاستكبار العالمي الذي يسعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك أهلها بتنظيم جديد بين الاستكبارات المتحالفة في الحكومات الرأسمالية بقيادة أمريكا وتنضم إليها الولايات الشيوعية السابقة، فإن الحرب الباردة ليست إلا تمثيلية خلافية في أسرة واحدة داخل المجتمع الغربي الذي تبرجه الصهيونية اليهودية في لوبياتها ومناهجها للسيطرة على العالم أيضاً. فالرأسمالية والشيوعية منبع ماسوني وصهيوني ويهودي، فأسماء الشخصيات، كارل ماركس ولينين وتروتسكي وأدم سميث وبنجامين هاريسون وميكائيل غورباشيوف وهنري كسينجر وغيرهم من أقطاب الرأسمالية والشيوعية معروفون بأصولهم وفروعهم

اليهودية. فلقد لعب اليهود دورا كبيرا في تشكيل النظام الدولي قديمه وحديثه وكانوا وراء الكثير من الأحداث الدولية كالثورات والانقلابات على حسب مصالحهم المادية، فالمادة هدفهم الأول، وهي أولى من تعاليم دينهم وأنبيائهم، لقد قتلوا أنبياءهم وغيروا دينهم، ونظموا جيوش الأحزاب في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم ينتظرون هذا الرسول العظيم في دار هجرته، وفي الأخير تمكنوا من القضاء على الخلافة العثمانية وإسقاطها وبعدها إقامة دولتهم المغتصبة في فلسطين بتدعيم من الدول الكبرى التي يسخرونها بالمادة التي يملكونها. فالنظام العالمي الجديد الذي يلد العولمة نفس الجاهلية البحتة التي لا تضع اعتبارا لغير المادة وعبادة القوة. فلحرك الأساسي له المصالح المادية والمنافع الدنيوية التي تقوم على البرجماتية النفعية ولا ثواب ولا عقاب، حتى أن الحق والعدل والخير تحلدها المنافع المادية البحتة ولو كان إثما وعدوانا.

فالعولمة وليدة تعليم إبليس عليه اللعنة حينما خدع أبينا آدم (عليه السلام) بتسميته الشهيرة لشجرة منعه الله أن يقربها (شجرة الخلد وملك لا يلسى) كأنه ليس هناك يوم البعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وتفرعت منها داء الكفر والاستكبار والعلو والغلو، وناضل في سبيله نمروذ وفرعون وعباد وشمود ثم جددتها أمريكا وحلفاؤها بالعلمانية ومذاهبها المتنوعة وأيديولوجياتها المختلفة وتكنولوجياها الحديثة حتى تحاول سيطرة الفضل الخارجي في السماء ببناء الصواريخ المتطورة كما بنى فرعون الصرح لرؤية إله موسى (عليه السلام). ولكنها بنظام جديد للسيطرة على الدول كلها بللناج التي أرادتتها في السياسة والاقتصاد والثقافة ومنها التربية والتعليم ووسائل الإعلام وإجبار الحكومات والشعوب وفي مقدمتها الأمة الإسلامية بغزوات فكرية وعسكرية واقتصادية وسياسية.

وما العولمة إلا تضييقا وإزالة لفطرة الله التي فطر الناس عليها بغطاء الوحلة وحطم الحواجز الثقافية والاقتصادية والأمنية والسياسية تحت مشروع أمريكي للهيمنة والسيطرة والاستعمار بأساليب عصرية متطورة بدون مراعاة للتعددية القومية والجنسية واللغوية والجغرافية وهي تخالف سنة الله في الأرض: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^(٤).

وقال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)^(٥).

وبعبارة محدودة أن العولمة برنامج أمريكا الاستعمارية الجديدة التي تشعر أنها أقوى الدول والحكومات في العالم وتريد فرض نظامه السياسي والاقتصادي والثقافي والديني على الدول والحكومات كلها على حساب مصالحها الوطنية قبل مصالح الدول الأخرى، مثلا علاقتها بإسرائيل التي تسيطر على الانتخابات الأمريكية أولى من علاقاتها بالدول العربية بالبتروولية، وحل قضية تيمور الإندونيسية ولا حل لقضية كشمير والشيشان وهكذا . وإزالة كل حاجز يقف أمام نفوذها ولو كانت بدفع حملات عسكرية تبلغ ميزانيتها مصالح شعبيها حول العالم وإحراق الأخضر واليابس بالحرب والحصار. ثم إن الولايات المتحدة الأمريكية ببيانات صريحة من رئيسها تنظر إلى أن هذا النظام الجديد على أنه يعني انفرادها بقمة النظام الدولي وسيطرتها الكامل على حلبة السياسة الدولية، خاصة بعد تحلل الاتحاد السوفيتي وزواله من اللعبة والصراع رسميا وانهيال الشيوعية وحلف وارسو.

والهدف الأول هو العالم الإسلامي لدينه وموقعه الاستراتيجي بين العالم، ومكانته التاريخية في قيادة العالم، وبناء الحضارة الغالية للعالم المعاصر، عدة قرون

بنجاح باهر - فلما تأخر المسلمون بترك دينهم، وأما انهيار غيرهم بضعف الأديان والأيديولوجيات التي تحكم البلاد والعباد وما الحضارة الغربية الحديثة إلا جزء مادي من الحضارة الإسلامية التي اتخذوها ونشأوا منها الثورة التكنولوجية المنفصلة من القيم والروح. ولذلك فإن أمريكا ترى أن التحدي الوحيد لسياستها ونظامها في تطبيق العولمة هو الإسلام والمسلمون الذين سيقفون أمامها ولذلك تتدخل في أمور المسلمين من الحكومات والمدارس الدينية والحوزات العلمية، وفي السياسة إلى التجارة.

وهذه العولمة التي أعلنوها غير العلية في إسلامنا. والإسلام يتحدى لأن علية الإسلام تفتح على الإنسان في العالم كله ولا إكراه في الدين لأن الإكراه يظهر النفاق الذي اعتبره الإسلام مرضاً خطيراً على الأمة، فشريعتنا تفرض العدالة المطلقة بين الناس لقوله تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)^{٤٩}. فاقصدنا لا نخصب ملك أهل البلاد التي فتحناها لقوله (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ ابن جبل (رضي الله عنه) (وإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب). ولذلك فإن دخولنا بلاد الآخرين باستقبال المستضعفين وإزالة الجبارين ونسبها فتوحات ولا نسبها استعمار. ودخل الناس في ديننا أفواجا برضا، وبقي من بقي من غير ديننا وعاش في فمتنا إلى هذا اليوم، وعاش الأقليات في المجتمع المسلم بأمان ولو كان هذا الدين لا يملك التمكين في الأرض في الفترة الأخيرة ولكن المسلمين متأثرون بهذا الدين في معاملة الآخرين، والفرق ساشع بينه وبين الأقليات الإسلامية الموجودة في هذا العصر. والإسلام يفتح للعالم في رسالته وعلاقته بالعالم، يدعو الناس جميعاً في كل زمان ومكان إلى هذا الدين وجلب المنافع والمصالح من أي مكان وزمان لقوله (صلى الله عليه وسلم) (الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها) رواه

وهو أحق بها) رواه الترمذي وابن ماجه، ودفع المضار والمفاسد من داخل الأمة وخارجها (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كنان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون صم بكم عمي فهم لا يعقلون)^(٦). (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)^(٧).

وأما الاحتجاجات والمظاهرات العالمة ضد العولمة لمصالح ملادية وصراعات الأقوياء وخوف الضعفاء في الأوساط العامة وسباق بين أمريكا وأوروبا في السيرة والهيمنة السياسية والاقتصادية، وثورة عمالية خوفا من كثافتها التي ستتقلص العمل في الغرب بعد رخصة دخول العمالة الرخيصة بعد تطبيق العولمة، وتأثر السوق المقترحة التي ترعاها منظمة التجارة العالمية على فرص العمل في الولايات المتحدة الأمريكية لأن الدول النامية تتميز برخص العمالة. وأما الخلافات بين الدول الكبرى ليست إلا في تقسيم الغنيمة، وليس لهم نظر في الدين والقيم والأخلاق. وأما نحن المسلمين لا بد من أن ننظر على حسب ميزاننا الواسع وحدونا الكبيرة. بالمقارنة بينها وبين شمولية الإسلام وعاليته وأخطار العولمة على العالم وعلاقتها بالصهيونية كلاعب أساسي لسياسة أمريكا.

فالهدف الأول هو العالم الإسلامي والشعوب المسلمة، مهما كانت الأدلة والبراهين ضعيفة للحكم على الإسلام والمسلمين أو غير موجودة فإن هذا الدين وأمته وأراضيه هدف للأمركة، رغم أن ألمانيا واليابان وأوروبا متقدمة في التكنولوجيات الحديثة التي تؤثر الاقتصاد الأمريكي وكذلك كوريا الشمالية والصين وروسيا تملك أسلحة الدمار الشامل إلا أن هدف النظام الدولي الجديد وبرنامج الضرب هو العالم الإسلامي بحجة ضد الأصولية الخطيرة والإرهاب وهتك حقوق الإنسان.

عولمة التربية والتعليم

فإن السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية في الفترات الماضية لا تعطي الفوائد على المدى الطويل، ولا بد من تغيير الفكرة والذهن بكل الوسائل التربوية والإعلامية، فالدراسات الاستشراقية والتبشيرية في الأقاليم المستعمرة تدعوا إلى مواصلة المخططات في هذه النواحي المهمة ابتداء من إعداد الشخصيات العلمانية بين أبناء المسلمين ليرثوا قيادة البلاد بعد خروج الاستعمار لمواصلة مخططاته على المدى البعيد. وقد حرص النفوذ الاستعماري أن يجعل من جامعاته ومعاهده مصدر لتخريج القادة والحكام في العالم الإسلامي، فتخرج منها قادة المناضلين لإعلاء الأيديولوجيات الهدامة على اختلاف مذاهبها لتطبيقها على الأمة الإسلامية بعد استقلال مرتب ومخطط، والمهم أن لا تعود الحكومة الإسلامية مرة أخرى. وذلك بتركيز المناهج الدراسية في الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية الغربية فإنها تدرس بحسبانها في العلوم الأساسية دون أن يوضع موضع التقدير أن للإسلام تعاليم شاملة ومفاهيم كاملة في تلك النواحي كلها.

وبالتالي إبعاد اللغة العربية، لغة القرآن ومكانتها العلمية الراقية في تاريخ الحضارات. لاشك أن القرآن معجزة باقية في لغتها ومحتوياتها. (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)^(١).

وقد جمع الإسلام في عهد فتوحاته الذهبية العلوم النافعة والمعارف الغالية من جميع الشعوب والأمم بتصفيتها من الجاهلية وربطها بالإيمان برب العالمين، ونشأت الحضارة الإسلامية التي تربط بين العالم وربّه وخالفه، ولكن الحضارة الغربية التي اقتبست من الجانب المادي من الحضارة الإسلامية تبني حضارة ناقصة

ومنفصلة من الإيمان والأخلاق ، فنشأت منها العلمانية فتولدت منها النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المنفصلة عن الدين والقوانين الوضعية الضعيفة. وهذه السليبيات الهدامة زرعت في الأراضي المستعمرة لاسيما الأراضي الإسلامية.

وذلك بنشر لغة المستعمر، وتعليم أهل البلاد المستعمرة تعليماً ينشئ في نفوسهم حب المستعمر والافتخار باتباع سننه في نظم الحيلة وحتى في اللباس واللغة والأخلاق ، فأدخلت كلمات غريبة في اللغة الوطنية ثم إزالة التأثير الإسلامي في الشعوب المسلمة كاستعمال الأحرف العربية في اللغة القومية وتداخل الكلمات العربية القرآنية في اللغات. لقد نجحت هذه الخطة في إندونيسيا في فترة الاستعمار الهولندي وفي تركيا بيد كمال أتاتورك وفي ماليزيا بعد استقلالها بأيد أبناء المسلمين الذين أخذوا زمام السلطة من بريطانيا بمخططاتها.

فهذه الحركات القائمة على الغزو الفكري بوسيلة التربية والتعليم لتغريب التعليم من كبرى المعارك التي تواجهها الأمة الإسلامية في التاريخ وتنبه المسلمون هذا الخطر فحاولوا من ناحيتهم بدون سلطة تحميهم ببناء المدارس والجامعات واستمرار الحلقات الدينية والحوزات العلمية بتضحيات كبيرة من علمائنا الكرام رحمهم الله والمعروف أن جميع الثورات والحركات والمقاومة للنفوذ الاستعماري إنما انبعثت من هذه الاجراءات التاريخية الذهبية . وفي مقدمتها حلقات الحرمين والأزهر والقرويين والزيتونة وقم والنجف.

وبهذه الخطة المرسومة استطاع الاستعمار أن يرافق الفتح السياسي والاقتصادي فتحاً معنوياً بوسيلة التربية والتعليم ، فظهر جيلاً من المثقفين شقافته الذين يرثون الأرض بعد خروج هذا الاستعمار طوعاً أو كرهاً. اولئك

الذين يجدون كل التسهيلات في قيادة البلاد، وإدارتها والسيطرة على جميع المؤسسات السياسية والاقتصادية والتربوية والاعلامية. لمواصلة المخططات بعد خروج الاستعمار الخارجي. كذلك لاتزال من هذه الأمة طائفة قائمة على الحق لا يرههم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، فطلع الفجر الجديد في العالم المعاصر وتفجرت منها الصحوة الإسلامية في العالم كله، ومنه في ديار الغرب بين أبناء المسلمين الذين تعلموا في الجامعات الغربية لإعداد جيوشها بين أبناء المسلمين، هذه معجزة قرآنية عظيمة في قصة ظهور موسى (عليه السلام) حينما منعه فرعون بقانونه الوحشي الظالم (يلذخون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فإذا بموسى (عليه السلام) نشأ في قصره وأمام عرشه.

فثارت ثورتهم وأعلنوا أن المؤسسات التربوية والتعليمية الإسلامية تخرج الإرهابيين. وأعلنت أمريكا بدون حياء تدخلها في شؤون التربية والتعليم للمؤسسات الإسلامية من مستوى روضات الأطفال إلى الجامعات الإسلامية والمدارس الإسلامية الشعبية والحوزات العلمية. حتى في مناهج دراستها وربما في القرآن الكريم نفسه. وحاولت بعض الحكومات في أراضي المسلمين لتنفيذ هذا الأمر. وفي ماليزيا قررت حكومتها إلغاء المساعدة المالية للمدارس الأهلية الدينية وأعلنت وزارة التربية والتعليم دراسة وتغيير منهج الدرس الديني في المدارس الحكومية واتصلت الجهة الرسمية بالأزهر في مصر لمراجعة معادلة الشهادة للمدارس الأهلية وهكذا فهذه أيضا من سياسة العولمة في التربية والتعليم.

وكذلك خطة عولمة التربية والتعليم بنشر اللغة الإنجليزية بفرضها في المواد الدراسية منذ المرحلة الابتدائية ولا ننكر ضرورة تعلم اللغات المختلفة في العالم كوسيلة للعلم ونشره ولكن هذه الخطة المرسومة لها هدفها المرسوم للهيمنة التربوية والتعليمية لتغريب البلدان بأسلوب العولمة الأمريكية لتشننة شباننا

على رفع مكانة اللغة الإنجليزية في ميادين العلم والمعرفة فلا مكانة للغة القرآن كاللغة الرسمية ولغة العلم للمسلمين وكذلك اللغات القومية. وتعطلت محاولات إعادة رفع اللغة العربية وترجمة العلوم ومصطلحاتها إلى لغاتنا كما نجحت الألمان واليابان الدفاع عن كيانتهما ولغتهما بعد الدمار والهلاك في الحرب العالمية الثانية ونحن المسلمين أولى منهما.

وانخذوا من السيطرة على وسائل الإعلام التي تبث الأخبار المحلية والدولية وتحمل الأفكار وتنشرها في المجتمعات، وتبلغها كذلك بواسطة وكالات الأنباء العالمية التي يهيمن عليها الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى صناعة الأفلام السينمائية والتمثيلية والمسلسلات والحفلات والبرامج التلفزيونية تحت تخطيط الغرب على حسب أهدافه المرسومة للغزو الفكري والثقافي لاسيما على العالم الإسلامي. والتطور الهائل في التكنولوجيات المعلوماتية ومنها شبكة الانترنت التي تشجعهم في تحقيق العولمة في هذا المجال، يعطي لهم فرصة واسعة للهيمنة على العالم على حسب المخططات. وأبرز مظاهر الهيمنة الثقافية للغزو الفكري بوسيلة الإعلام أن أربع وكالات أنباء غربية صهيونية هي رويتر وأسوشيتدبريس ويوناييتدبريس وفرانس بريس تحتكر المعلومات لبتها في العالم على حسب برنامجها الإعلامي ودعاياتها للمصالح الغربية وفي مقدمتها أمريكا. وبالإضافة إلى السيطرة على إنتاج علمي في البرامج التلفزيونية التي تربي البيوت والمنازل.

ولايجد المتابع لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في الغرب إلا موجوما مستمرا على الإسلام وسخرية واستهزاء بالمسلمين. والأمر أكثر خطورة يتمثل في أن الهيمنة الإعلامية تمس شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) والأحكام القطعية المنصوصة ويتم استسلام الفئات الحاكمة لعدم الاهتمام بها

اهتماما بالغا. واستعدت الدول الغربية لحماية دبلوماسية أمنية للشخصيات الخبيثة التي فرت من المجتمع المسلم في العالم. فصورة الإسلام عندهم لا تخرج عن إطار خبيث اتخذوه من جميع السلبيات التي استخرجتها الدراسات الاستشراقية من تعاليم الإسلام باستنباط الروايات الشاذة الموضوعية والضعيفة أو قطعوا جزء ناقصا من الإسلام بدون ربطه بجميع النواحي المتعلقة بكامل الإسلام وشموله لكي يصفوا هذا الدين بالرجعية أو أنه يتخذ دورا متخلفا في الحياة البشرية أو يدعوا إلى الحرب والعنف باستمرار وينادي بالقضاء على جميع أعدائه بالإكراه في الدين ولا يراعي حرمة الأقليات غير المسلمة في المجتمعات الإسلامية ويظلم المرأة... إلخ. وصورة المسلم لا تخرج من إطار العنف والعدوان والدم والدكتاتورية ولا يهتم بالديمقراطية والحرية والتعددية. ولقد لعب الإعلام الغربي دورا بارزا في الهجوم على الإسلام وأعطت المؤسسات العلمية فيها كل التسهيلات للدراسات الإسلامية لبحث ما اعتبرت من السلبيات من تعاليم الإسلام.

والنحية الثقافية والفكرية وما يتصل بهما من شؤون التربية والتعليم والإعلام من المخططات المهمة لإزالة العامل الدافع إلى القوة والجاهد والمقاومة أمام الزحف للهيمنة الغربية بشعار العولمة وكانت هذه المخططات بأساليب مختلفة منها:

أولا: نقض مفاهيم الإسلام وتحريفها، وخلق دعوات تحمل لواء الإسلام ولكنها تتكرر لمقوماته وهو الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام لإلغائه تالما قللت من أهميته أو عملت على تفسيره تفسيراً خاطئاً.

ثانيا: الطعن على الإسلام وعلمائه ودعائه والحملات على مقاومته واتهامه بالسلبات المختلفة ، والحصار السياسي والاقتصادي والإعلامي على أية حكومة تطبق الشريعة الإسلامية.

ثالثا: هدم المناهج الدراسية في المؤسسات التعليمية والتربوية في علوم الدين بتقليلها وتحميدها وفصل العلوم الدنيوية من الإسلام لاستمرار العلمانية الموجودة وكذلك استهداف الحملة على إيقاف نمو اللغة العربية بالدعوة العامية وتغريبها والعمل على تغليب اللغات الأجنبية لاسيما الانجليزية.

العولمة الاقتصادية

فالاستعمار القديم في القرون الوسطى تجعل المجال الاقتصادي همزة الوصل للحركات الاستعمارية وهو يناسب النظام الذي يقوم على المبدأ الرأسمالي المادي، فنشأت شركة الهند الشرقية من بريطانيا إلى الهند وشبه جزيرة الملايو وشركة الهند الشرقية من هولندا إلى إندونيسيا، وكان هدفهما أخذ مواد الخام بالأسعار التي يحددها الاستعمار وأن تسوق منتوجات في تلك البلدان على حسب التسعير والتخطيط للذين رتبهما الاستعمار بالإضافة إلى توزيع السكان الذي نقلهم من المناطق المستعمرة بأجرة رخيصة وكذلك في الولايات الأخرى في أمريكا اللاتينية التي يسيطر عليها الإسبان والبرتغاليون، وأما في أمريكا الشمالية استولت عليها الغرب إجباريا بقتل سكانها الأصليين والتشريد واستعباد أسارى الأفريقيين وغيرهم وتهجير اللجنة من سجون بريطانيا للسيطرة على الأراضي الواسعة لفتح الحقول الواسعة والمزارع الكبيرة والمناجم الغنية بالمعادن لتمويل أوروبا وتزويدها بالموارد الاقتصادية . وكان السيطرة الاقتصادية

في الفترة الاستعمارية القديمة بالهيمنة على المواد والموارد والإنتاج والتصدير والعمل والتسعين والسوق وغيرها.

فالعولمة الاقتصادية هي ظاهرة الرأسمالية بتجديدها بقيادة أمريكا ثم هيمنتها على حسب التطور الجديد بعد ازدهار تكنولوجيات المعلومات في العالم، والخروج من الأزمة الاقتصادية الداخلية في أمريكا وتأثرها من تطورات الاقتصاد في دول العالم، بالسيطرة على البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وقهر العالم بالدولار الأمريكي كعملة عالمية التي تؤثر العملات العالمية ولإيجاد المنطقة الكبرى العالمية بالنمط الرأسمالي على الصعيد الدولي مستفيدا من الفراغ الذي تركه انهيار المعسكر الشرقي وحدث التسارع الكبير في ثورة المعلومات الموجودة حيث أن الاتصالات والمعلومات أعطت الوسائل للانتشار السريع لنظم العولمة ومنها النظام الاقتصادي العالمي الفريد وهو النظام الرأسمالي على مستوى العالم بقيادة أمريكا بإلغاء الحدود بين كيانات هذا العالم ويسمح التدفق الحر للسلع والمعلومات والاستثمارات ووسائل التقنية الحديثة، والهجوم العسكري على المناطق المهمة اقتصادية كاستيلاء على أفغانستان للسيطرة على الموارد الاقتصادية في آسيا الوسطى والحرب للسيطرة على الخليج لمكائنها البترولية وحماية إسرائيل التي تمول الانتخابات في أمريكا. ونشرت وسائل الإعلام نبأ تخطيط بناء أنابيب نقل الغاز من آسيا الوسطى إلى المحيط الهندي من طريق أفغانستان وباكستان واستعدادات سياسية وعسكرية للسيطرة على الدول العربية وإيران لل غاية الاقتصادية بعد جمع الدويلات الصغيرة في الخليج كقواعد لاستثمارات الغربية باستخدام أهاليها، هذه بعد تحرير أفغانستان كما يدعون ونفس الخطة بعد تحرير الكويت والعراق، فهناك دول مستقبلية بنفس الدعاية.

فسياسة العولمة الاقتصادية لتكون الدول النامية لاسيما الدول الإسلامية قواعد اقتصادية للغرب لاستخراج الموارد في أراضيها واستخدام الأيدي العاملة فيها وتسويقها بين سكانها، وبعض الأراضي الإسلامية صالحة للقواعد العسكرية لحماية مصالح الاستعمار، وبعض حكامها خادمون له بدفع قسم من الأسهم والمصالح. وذلك الاحتكار الثروات واستعباد الشعوب على الطريقة الجديدة للنظام الرأسمالي على المستوى العالمي.

والعولمة الاقتصادية تجعل العالم سوقا واحدا للرأسمالية العالمية التي تقودها أمريكا للمقاومة على ثروات الآخرين واستخدام الشعوب المستضعفة بالضغط الاقتصادية التي لا تسمح لها أبدا الخروج من مرحلة الدول الفقيرة التي تسمى بالدول النامية. والمعاملة الربوية تكون عظيمة وعالمية بأسلوب عالمي بطريقة البنوك والمؤسسات المالية التي تسيطر عليها اليهود بحماية أمريكا وفي مقدمتها البنك الدولي وصندوق النقد العالمي باسم المساعدة لحل المشاكل الاقتصادية ومعضلاتها، لتخطيط أهداف لا أخلاقية ولا إنسانية للهيمنة الكاملة والمطلقة على الاقتصاد العالمي حتى لا تستطيع أية دولة الوقوف أمام المطامع الغربية بقيادة أمريكا.

فسياسة أقرض الدول الصناعية الغربية للدول النامية عبر البنوك والمؤسسات المالية كالبنك الدولي وصندوق النقد العالمي بربا خبيثة عالية وسياسات تقشفية مهينة ضد شعوب الدول المقترضة فستزيد ديونها وفقرها، ثم سوف يتحمل المواطنون من قبل حكوماتهم النتيجة المؤلمة التي تمس شخصية الدولة واستقامتها. وليست المنظمات الاقتصادية العالمية التي تقودها الغرب إلا الذراع الاقتصادي للسيطرة العالمية على الدول.

فستكون العولمة الاقتصادية هذه كأداة لهيمنة الغرب الأمريكي المتمثلة في شركاتها الكبرى التي تدير المصانع الكبيرة والمزارع العظيمة وفروعها في العالم وتسيطر على الثروة والانتاج وتحويل العالم لا سيما العالم الإسلامي إلى أداة تزويد الموارد والاستهلاك والتسويق. وكذلك استراتيجية تشجيع اعتماد اقتصادنا على النقود من قيمة الموارد البترولية والمعدنية وتخطيط المزارع المعتمدة على تحصيل الدولارات بزراعة التبغ والأفيون والقات والحشيش وزيت النخيل وبينما أراضيهم لتحصيل المزارع للأغذية والأطعمة الكافية للداخل والتصدير في العالم الثالث.

فالحكومة في الغرب الرأسمالي متعلقة تعلقاً قوياً برجال الأموال والأعمال، هؤلاء الذين يمولون الحزب الحاكم في الانتخابات العامة وكذلك الانتخابات الرئاسية لتعيين رئيس الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية، فالحكومة الأمريكية مستعدة بالسياسة والأمن والقوة في داخل بلادها لحماية المصالح الاقتصادية لهم وفي دول العالم بالتدخل العسكري لحماية النظام الرأسمالي والليبرالي للسيطرة الاقتصادية على المستوى العالمي ولليهود دور كبير في هذا المجال لأنهم الأيدي الطويلة في النشاط الاقتصادي في البنوك والمصانع والأسواق التجارية.

فالعولمة الاقتصادية تكون بواسطة المؤسسات الاقتصادية كالبانك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية والسيطرة على النشاط الإنتاجي والسوق والعملية العالمية بالدولار الأمريكي بستر العولمة السياسية التي تهدد الدول بشتى الوسائل التي تسيطر عليها أمريكا وحلفاؤها إعلامياً واقتصادياً وعسكرياً.

العولمة السياسية

فإن الاستعمار الغربي ترك في علمنا الإسلامي آثارا عميقة وقوية من الغزو الفكري الشامل لتطبيقها في جميع النواحي لاسيما الناحية السياسية، رغم أنهم تركوا ديارنا باسم إعطاء الحرية والاستقلال ، فمرض العلمانية التي تعاني بها الدول الإسلامية بعد استقلالها المخطط الذي لا يعطي مجالا للإسلاميين الذين بدأوا ضد الاستعمار للدفاع عن الدين والأمة بالتربية والتعليم والمواجهة الجهادية وقدموا الشهداء من أبناء الأمة الإسلامية من علمائها وشعوبها، يفتح مجالا بعد ذلك للنظم الوضعية والايديولوجيات الهدامة والنظريات الغربية من الإسلام بتخطيط إبعاد الإسلاميين من الحكم والإدارة وإدخال أبناء جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا الذين تثقفوا بثقافتهم وتربوا بتربيتهم في المؤسسات الحكومية، فبريطانيا المعادية للشيوعية أعطت مجالا للشيوعيين في اليمن الجنوبية السابقة والشيوعية الروسية أعطت مجالا للبراليين الرأسماليين المتغيرين من الشيوعية في الولايات الإسلامية، ثم دخلت ولاياتنا الإسلامية في شبكة الكومونولث، ومنظمة دول عدم الانحياز، ومنظمات دولية أخرى التي تهيمن عليها الدول الكبرى، وترى حكمانا الآن تلك المنظمات أولى من منظمة مؤتمر الدول الإسلامية. هذه بالإضافة إلى المشاكل الداخلية التي نبعث من الحلول المستوردة التي جنت على أمتنا.

فالعولمة الأمريكية التي تقوم باسم الديمقراطية حاربت الحركات السياسية الإسلامية في جميع أنحاء العالم بإدخال كلها. في قوائم الإرهابيين وقامت بحماية مطلقة للدكتاتورية التي تحمي المصالح الأمريكية، فهناك براهين كثيرة تدل على ذلك فمنها العدوان على الثورة الإسلامية في إيران والحصار السياسي والاقتصادي والإعلامي عليها وإلغاء الانتخابات في الجزائر التي تعطي فرصة

للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وإسقاط حكومة تركيا تحت قيادة حزب رفاه وحله بقوة الجيش، وتبرير الرشوات والتزويرات لتغليب الأحزاب العلمانية على الأحزاب الإسلامية بستر الديمقراطية، وعدم الاهتمام بحقوق الشعب الفلسطيني والكشميري والشيشاني وغيرها من الشعوب والأقليات الإسلامية المظلومة بخلاف قضية تيمور الشرقية في اندونيسيا، فالديموقراطية التي تريدها أمريكا هي الديمقراطية التي تؤكد حضورها في جميع أنحاء العالم ولا ديموقراطية للإسلاميين.

فأما الأمم المتحدة وفروعها السياسية والثقافية والاقتصادية التي هي أمل الشعوب المستضعفة بعد الحربين العالميتين لا تستطيع أن تتخذ دوراً بارزاً لحقوق الدول المستضعفة وشعوبها إلا بإحسان من الدول الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وهي تحاول الآن لإجبارها على المقاييس السياسية العالمية التي تريدها لاسيما فرصة انهيار الشيوعية وانقطاع أوصال الاتحاد السوفيتي وتغيير سياسة الصين الشيوعية إلى الانفتاح الرأسمالي وانضمام دول أوروبا الشرقية بالنايو. وبعد تسييس الأمم المتحدة لمصلحة الولايات المتحدة على الطريقة الديموقراطية الغربية بالرشوة والتزوير والتهديد كما حدث في قضية العراق ويكون القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة كبيت العنكبوت الذي تصيد شبكته الفراش الصغير ولا للطيور الكبار وستكون مصيرها كعصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى.

ولقد بدأت أمريكا بالتدخل في نظام الحكم في الدول الأخرى باسم التغيير الديموقراطي على حسب مصلحتها فهذه كلها برنامج العولمة والأمركة حول العالم. فإن الأبواب مفتوحة أمام برامج العولمة والأمركة إذا كانت سياسة الحكومات معتمدة على الإيديولوجيات المستوردة في الغرب، وزمام السياسة في أيدي أولئك

الذين تخرجوا من برامج التربية والتعليم والثقافة المتأثرين والخدامين لها والشعوب خاضعة لوسائل إعلامها المقروؤة والمنظورة في البيوت والأذهان والحياة العامة معتمدة على النظام الاقتصادي المنشود بحماية سياسية غربية.

فالولايات المتحدة الأمريكية تندفع بحماسة غريبة لقيادة العالم بعد انهيار الكتلة الشيوعية، بشعار النظام العالمي الجديد والعولمة باسم الأمن والعدالة والحرية وحقوق الإنسان وغيرها من الكلمات والشعارات الأنيقة، وهي لا تستطيع أن تكون نموذجاً في داخلها حيث الحرية الفوضوية وارتفاع الجنايات على حساب الدقيقة وانتهاك حقوق الإنسان على السكان الأصليين والسود وتطبيق الديمقراطية بتمويل الأحزاب من اصحاب الأموال من اليهود والمافيا وغيرهما، وتريد تطبيقها في العالم للسيطرة والاستعمار والهيمنة بالتدخل في شؤون الدول الأخرى بحجة الشرعية الدولية من خلال الأمم المتحدة بوسيلة التهديدات تارة والمساعدات المالية والعسكرية تارة أخرى، فلا احترام لحدود والسيادة والهوية على استقلالها أمام سياسة العولمة الأمريكية.

فالولايات المتحدة الأمريكية تجعل العالم الإسلامي التحدي الأول في أمالها الكبيرة لمكانة الدين الإسلامي والقوة البشرية من أمته والمكانة الاستراتيجية لأراضيه جغرافية واقتصادية، فالنظم الغربية في السياسة والاقتصاد والثقافة والتربية والتعليم لا تستطيع المقارنة بهذا الدين الخفيف الذي يأتي من عند الله رب العالمين، ولكن أمريكا تهاجم الإسلام بالغطرسة والاستكبار، فاستعجال القادة الأمريكيين للهجوم والاتهام على الإسلام في كل حدث في أمريكا قبل البيئات الصحيحة الواضحة يدل على ذلك، والحركات الإسلامية في جميع أنحاء العالم وضعت في السطر الأول في قوائم التحديات التي وضعتها الولايات المتحدة أمام برنامجها العولمية. ومن أجل ذلك فلا بد من تحرير الأمة الإسلامية من

شبكة آثار الغزو الفكري لإنقاذها من سلبيات العولمة الأمريكية التي تتبع من إيديولوجياتها المنهارة.

العولمة واليهودية

فهناك أمل اليهود الذي نشأ من فخرهم بادعاء شعب الله المختار منذ آلاف السنين ومحاولتهم لإعادته بتأسيس الماسونية والصهيونية وقاموا لتطبيق مخططاتهم ابتداء من عودة اليهود إلى أرض فلسطين وإقامة دولتهم من النيل إلى الفرات، وبالتالي إعادة بناء معبدهم العظيم هيكل سليمان على هدم المسجد الأقصى وهي لنا أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبداية معراجه. ثم نضالهم للسيطرة على العالم بالدولة اليهودية العالمية. وأبطالهم تيودور هيرتزل وكارل ماركس ولينين وأدم سميث ودروين وغيرهم معروفون بدورهم لتخطيط الحركات الصهيونية وتطبيقها وتخدير العالم بالنظريات الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والذرية والبراغماتية وغيرها لهدم الشعوب بالسياسة والاقتصاد والأخلاق حتى بقي الشعب اليهودي كالقوة الوحيدة في العالم.

لقد انهارت الشيوعية بسياساتها واقتصادها وأخلاقها. فالولايات المتحدة الأمريكية يسيطر عليها اللوبي اليهودي حتى تكون مستخدمة للصهيونية بشن الحروب السياسية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية للسيطرة على العالم حتى انهارت نفسها لخدمة اليهود، ودولة إسرائيل التي تحميها أمريكا ستكون باقية على حسب الاستراتيجية المنشودة، فإن الاستعمار على العراق في الحرب الأخيرة هي الخطوة لفتح السبيل للأمل اليهودي من النيل إلى الفرات، ثم مواصلة المسيرة بالسيطرة على العالم الإسلامي وإبادة الإسلام إربة إربة، فستكون بعد

العراق البلاد الأخرى على حسب البيانات الأولية من قادة أمريكا وإسرائيل ومانخفى صدورهم أكبر.

ولقد نجحت اليهود في تضليل المسيحية في العقيدة والشريعة بإدخال التثليث في التوحيد وإحلال الحرام وتحريم الحلال واتخاذ الأحرار والرهبان أربابا من دون الله، وتغريب القادة والملوك بالإيديولوجيات الهدامة، فأصحاب الفكرة الإيديولوجية منهم، وكذلك يتخذون وسائل الفسوق والفجور والمنكرات لإزالة مكارم الأخلاق وكرامة الإنسانية بالنشاطات الأخلاقية بالأفلام والمجلات والكتب والنواحي والبرامج التلفزيونية والانترنتية وغيرها . فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت، وإن هـم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

واتخذوا من الهيمنة على الاقتصاد بحماية أمريكا لنشر المعاملات الربوية على الشعوب والحكومات لإضعاف اقتصادها وتعلقها الدائم بالمؤسسات المالية التي يسيطرون عليها كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، فالبلدان كلها قواعد لهم لبناء المصانع الكبيرة والحقول الواسعة والمزارع العظيمة، والشعوب عمالهم، والحكومات التي تقوم باسم الديمقراطية على حساب الرشوة والتزوير في الانتخابات خدما لهم. وتبقى الديكتاتوريات في العالم الإسلامي لمنع الصحوة الإسلامية وإخادها.

وأخيرا فإن العولمة الأمريكية ستكون خدمة لليهودية لتنفيذ المخططات المرسومة للسيطرة اليهودية على العالم، ولهذا فإن اللوبي اليهودي الذي يسيطر على وسائل الإعلام ويهيمن على الاقتصاد في أمريكا يتخذ دورا حاسما للسيطرة على الرأي العام الأمريكي لتعيين رئاسة أمريكا وتحديد سياستها الداخلية والخارجية.

تأثير العالم الإسلامي من العولمة

ولقد ترك الاستعمار الصليبي في العالم الإسلامي المخططات المدروسة لإبعاد الأمة الإسلامية من الدين الكامل كله أو بعضه، وعلموا صعوبة ردها عن دينها، ثم لجحوا بوسائل الغزو الفكري، بتطبيق العلمانية وأفكارها، وفرض التوجهات المادية ونشر النظريات الإلحادية بين المسلمين. وبالتالي تستفيد الولايات المتحدة الأمريكية لتطبيق العولمة من نجاح المخططات الاستعمارية الماضية على العالم الإسلامي، منها:

ففي الناحية السياسية تستفيد من تمكين الفكرة القائمة على فصل الدين عن الحكومة وسياستها، وإدراجها باستخدام الحكومات العلمانية في العالم الإسلامي لتطبيق مخططاتها في البلاد وقمع الحركة الإسلامية التي تدعو إلى إقامة الحكومة الإسلامية فيها بكل الوسائل القانونية وغير القانونية، حتى أن أمريكا الحامية للديموقراطية تدافع عن الديكتاتورية في البلدان الإسلامية، والرافعة راية حقوق الإنسان وهي تسمى عن انتهاك حقوق الإنسان في العالم الإسلامي، وذلك لصد الإسلاميين من الوصول إلى السلطة وإعادة الحكومة الإسلامية المتحدية الوحيدة للعولمة الأمريكية.

وفي الناحية الاقتصادية تسيطر على النشاطات الاقتصادية من الهيمنة على الموارد الأساسية كالبتروول والثروة المعدنية وغيرهما والمصانع الكبار، فهذه الفرصة التي أتاحتها الحكومات العلمانية بالإضافة إلى الفكرة الاقتصادية المادية كالتعامل بالربا وغيره التي يقوم بها رجال الأعمال من أبناء المسلمين وتعلقهم بالمؤسسات الاقتصادية الغربية وارتباط الحركة الاقتصادية في حكومات الأراضي الإسلامية بشبكة المنظمات الاقتصادية العالمية التي تهيمن عليها الغرب بقيادة أمريكا، وهي العوامل التي تسهل وبمئات العولمة والأمركة في هذا المجال الحيوي.

ومن الناحية الثقافية والتعليمية والإعلامية، نرى المناهج الدراسية المنفصلة من التربية الإسلامية حيث تركز فكرة فصل العلوم الدنيوية عن الإسلام وإتاحة الفرصة للغة الإنجليزية مكانة علمية وإهمال اللغة العربية واللغة الوطنية وشعور عدم صلاحيتها للعلوم الدنيوية. بالإضافة إلى وسائل الإعلام المسخرة لنشر الأفكار والمعلومات المخربة فكلها تتخذ دورا بارزا لمعانقة العولمة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية المهمتان من حيث الفكرة الأمريكية المادية. ومنع تقدم الصحة الإسلامية التي ازدهرت في العالم الإسلامي وخارجه.

انهيار الحضارة وتأثيرها للعولمة

ظهرت في الفترة الأخيرة امارات انهيار الحضارة الغربية ابتداء من إزالة الاتحاد السوفيتي من خريطة العالم جغرافية وسياسية كإشارة للكساد الشيوعي والاشتراكي، وبدت تدهورات النظام الليبرالي الرأسمالي ومحاولة مؤقتة من أمريكا لإنقاذها باستعمار أفغانستان ثم العراق بالقوات المسلحة المتطورة التي تملكها بأسلوب قديم متحفي التي اتخذته من سجلات التاريخ الأسود للعالم بمساعدة حلفائها بريطانيا وأسبانيا وإسرائيل وغيرها. وهي عملية جراحية قبيل الموت ومنها تجديد الاسم بالعولمة.

والمأمل في ثنايا القرآن الكريم يلمح التركيز الكامل على أن صلاح الحضارة وبقائها يرتكز في أساسه على العقيلة السليمة والإيمان الخالص والشريعة الإلهية العادلة والأخلاق الربانية الكريمة، وكذلك أن انهيار الحضارة يرتكز في عكسها مهما كانت قوتها المادية، فقال تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك

للمرصاد^(١١). الشواهد التاريخية تثبت ما ورد في الآيات القرآنية، فإنها معجزة عظيمة حية، والأحداث الواردة في القرآن مكررة في كل زمان ومكان.

اعترف كثير من المفكرين في الغرب عن الحضارة الغربية الحديثة، مثلين قومهم، وموجهين إلى أهلهم سهام النقد اللاذع. منهم الفيلسوف البريطاني برتراند راسل الذي صرح بيانه لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض.. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة. وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كذلك التي لقيها خلال أربعة قرون..

وقال الفيلسوف الفرنسي أليكسيس كاريل: إن الحضارة العصرية تجرد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم.. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.. إننا قوم تعساء، ننحط أخلاقيا وعقليا.

وقال الفيلسوف الأسباني فيلاسبازا: إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديدة بكفكفة دعة واحدة، ولا خلق ابتسامة واحدة.. وليس أجدر من أسم الشرق المحتفظة بالثقافة العربية الإسلامية، والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم، الذي يجر الإنسانية إلى هوية التوحش والتسلي الملتي.

ولقد أجمع هؤلاء على أن الحضارة الغربية في سبيلها إلى الزوال والانهيار لاضمحلال الجانب الروحي وغلبة المادية إلى ذروة الطمع وسيطرتها على جميع مناحي الحياة، والانهطاط الخلقى وانتشار الفوضى والإبلحية.

والشيوعية المنهارة وحفيدها الاشتراكية جزء من الحضارة الغربية، ابتداء من زوال الاتحاد السوفيتي، وتغي الصين والكوبا الشيوعيتين إلى الانفتاح في العالم

الخارجي بعد تدهور النظام السياسي والاقتصادي في الحكومات التي أقيمت على نظامها وفساد في الإدارات وفساد في الأسرة والمجتمع.

والدبرالية الرأسمالية التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية لا تسلم من السلبات المذكورة، ابتداء من الثلمات في الديمقراطية التي افتخرت بها بهيمنة المادية والانتهازية على نظام الحكم في الانتخابات المليئة بالرشوات والتهديدات والتزويرات، وسيطرة إسرائيل الصغيرة بواسطة اللوبي الصهيوني المسيطر على الاقتصاد والبنوك ووسائل الإعلام بأموالها الكثيرة. وكذلك النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يقوم على المادية البحتة تثمر معضلات مدمرة لاقتصاد أمريكا بنفسها حيث تحمل هذه الحكومة الغنية الديون الكبيرة والحركة الاقتصادية التي تحمي المصالح الخاصة التي تهدم العدالة الاجتماعية. والمجتمع يعاني الانحطاط الخلقي الذي يخرج من الفطرة الإنسانية، فانهدمت الأسرة وانتشرت الجنايات والمنكرات والفساد التي تهلك الأمم السالفة.

وجملة القول إن أمريكا لا تصلح أن تكون قائدة للعالم، والعولمة التي تناضل في سبيلها ظهرت من الحضارة الغربية المنهارة التي تنتهي بالدمار والهلاك للإنسانية مثل أخواتها الحضارة السابقة التي خرجت من دين الله وسننه الحكيمه ونواميسه العظيمة والحرفت من الطريق المستقيم للعالم. والفكرة العلمانية التي يقوم عليها الغرب وأخذت زمامها الولايات المتحدة بشعار العولمة أخرجت الدين السماوي من دوره في الحيلة البشرية، وقيلالة الناس في حياتهم ومعاتهم وعلاقتهم بربهم والعللين. وخانت الرسل عليهم الصلاة والسلام من آدم إلى محمد(صلى الله عليه وسلم)، منهم أنبياء بني إسرائيل ومن بينهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى (عليهم السلام) وكانوا على دين واحد وهو الإسلام: (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن

إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون^(١٢). وما دعوة أمريكا إلا سلسلة من سلاسل الجاهلية الأولى التي يواجهها الأنبياء والمرسلون بصيغة عصرية.

أهمية الموقف الإسلامي الموحد تجاه العولمة

الإسلام دين عالمي في عقيدته وشريعته ونظمه، ودور الإسلام للعالم لا للهيمنة والسيطرة والاستعمار، وإنما هي هداية رب العالمين للناس جميعا، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفتح قلوبهم إلى الصراط المستقيم قبل فتح بلادهم، ولذلك يسمى دخول المسلمين في البلدان بالفتوحات لا بالاستعمار، وحرمة الظلم والإكراه لأنهما يورثان التفكك الذي يبطل الإيمان، وترك لأهل البلاد حرية الدين والعمل والملكية، واعترف الإسلام في بلاده وحكومته التعددية في الأديان والقوميات واللغات والتقاليد رغم دعوته للناس جميعا إلى هذا الدين. والعولمة التي يعنىها العالم المعاصر على تفسير الولايات المتحدة الأمريكية تخالف الإسلام في معناها الإيديولوجي وهدفها الاستعماري.

وأساس العقيدة الإسلامية الإيمان بالله رب العالمين الذي أسلم له من في السموات والأرض، قانتا لقوانينه، خاضعا لسنة، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، بل خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين الماء والأرض لآيات لقوم يعقلون. كلها تدل على عظمة العقيدة الإسلامية، وهي دعوة جميع

الأنبياء منذ آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي أرسله الله للعالمين ورحمة للعالمين.

وأساس العبادة في الإسلام واحد منذ آدم إلى آخر الزمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك، بالإخلاص له الدين، في جميع شعائر العبادات، والاختلاف في كیفياتها بين الرسل لاختلاف المكان والزمن، مما يدل على وحدة العبادة وتوحيدها بين الرسل، ونذكر في عبادتنا لله رب العالمين وأن العالمين يعبدونه ويسبحون بحمده، والإسلام يدعو الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

والشريعة الإسلامية كاملة متكاملة، وكلها يشمل جميع النواحي البشرية وعلاقتها بالله رب العالمين، والعلاقة بين الناس في إطار المسلمين وغير المسلمين، أو بعبارة أخرى تشمل العبادة والأسرة والسياسة والاقتصاد والعلم والتربية والثقافة والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وعلاقة الناس بربهم، وعلاقة الناس فيما بينهم، وعلاقة الناس بالأرض ومن فيها وما فيها، وعالم الغيب والشهادة، وعلاقة الدنيا بالآخرة.

والعالمية خصيصة من خصائص الإسلام ومميزة من مميزاته، وفضيلة نبينا وحبينا وقدوتنا محمد (صلى الله عليه وسلم) على غيره من الأنبياء والمرسلين، وقام بواجبه العالمي منذ بداية الرسالة، وليس أمراً عارضاً أو تطور ادعت إليه التطورات العالمية وإنما هي تحديد من عند الله لآخر رسله وخاتم أنبيائه.

رسالة عالمية

وعموم رسالة نبينا وحبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بتعيين من الوحي، وإنها موجهة إلى الناس جميعاً، وهذه ثابتة منصوصة في القرآن والسنة عدة مرات ومواضع كثيرة، ومنها: قوله تعالى: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له

ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تفتنون^(١١٧).

وقوله تعالى: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون)^(١١٨).

وقوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(١١٩).

وقوله تعالى: (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم)^(١٢٠).

وقوله (صلى الله عليه وسلم): وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة^(١٢١).

وقوله (صلى الله عليه وسلم): مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة؟ وأنا في النبيين موضع هذه اللبنة^(١٢٢).

وأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رسله ورسائله إلى الملوك والرؤساء في أنحاء العالم، فأسلم من أسلم وصالح من صالح وحارب من حارب. وأقام الدولة الإسلامية وواصل وظائفها الخلفاء من بعده، واتسعت الفتوحات حتى تكونت الدولة العالمية التي تحكمها الشريعة العالمية الكاملة، ونشأ المجتمع المدني الرباني التطبيقي، والشريعة الإسلامية الكاملة تقوم على العدالة الإلهية المطلقة للعالمين جميعا، فقل تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وجمع الإسلام العلوم النافعة والتجارب المقيمة من الأمم والبلدان لقوله (صلى الله عليه وسلم): (الحكمة ضالة المؤمن فأني وجدها فهو أحق بها). وقامت الحضارة الإسلامية على أساس العقيدة الصحيحة والشريعة العادلة

والأخلاق الكريمة واستفادت منها الأمم والشعوب الذين دخلوا في رحاب الدولة الإسلامية العظيمة. ونجح الإسلام في التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الإنسان وحلجات البشرية على وجه العموم.

وكانت دعوة الآيات القرآنية لا تخلص المؤمنين والمسلمين خاصة وإما هي كذلك للناس جميعاً، وليست للدخول في الإسلام فقط ولكنهم لا يكرهون في الدين وتحترم حقوقهم الإنسانية. فقل تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله على عبه خبير) (الحجرات). وقال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين).

انتشرت الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانتشرت معها عدالة الشريعة الإسلامية في قلوب الناس مع اتساع الدولة الإسلامية وعلاقاتها الدولية ووصلت معلوماتها في الرأي العام بين الدول والشعوب، وانهارت الفرس والروم العظيمة ودخل الإسلام في الصين في القرن الأول الهجري وبالتالي في جنوب شرق آسيا بطريق التجارة، واستطاعت الخلافة الإسلامية إدارة ولاياتها وشعوبها عدة قرون في فترات لا توجد فيها سهولة الاتصالات والمواصلات، واستفادت الأمم والشعوب من الحضارة الإسلامية، وفاز من دخل الإسلام كافة في الدنيا والآخرة، ومن فصل الدنيا من الدين فليس له في الآخرة من خلاق، بل انهارت في الحياة الدنيا.

والعالم في أمس الحاجة إلى الإسلام بعد فشل الدين كله إلا الإسلام، وتحمل الناس سلبات الإيديولوجيات، والقوانين الوضعية. ويجب علينا نحن المسلمين إنقاذ العالم من الدمار، فهذه رسالتنا الخالقة، ولكنه لا بد من إصلاح أنفسنا أولاً - ع - إلى الإسلام من جديد، لأنه لا يصلح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

والعولمة المعاصرة التي تغير وجه العالم المعاصر تجعل الأمة الإسلامية تندمج بها ولا بد من تحديد موقف إسلامي موحد صحيح لتغيير الدور الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس، على أساس وضعه ربنا تبارك وتعالى في كتابه وقام عليه الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وسلم). وهو قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)^{١٥}. وقوله تعالى: (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) الحج.

العولمة واستراتيجيات الدول الإسلامية

فإن رسالة الإسلام خالدة إلى يوم القيامة لا تنتهي بوفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وإنما هي لإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. وإنه من واجب الأمة الإسلامية مواصلة مسيرة هذه الرسالة، والعولمة من حيث المبدأ فتحت الميدان الجديد لهذه الرسالة، وفيها تحديات منظمة لمواجهة الإسلام، وقد رأينا مواطن الضعف فيها. ولا يمنع انتشار الإسلام في قلوب الواعين من الناس في الشرق والغرب ومنهم في أمريكا نفسها، في هذا العصر الذي لا تقوم فيها خلافة تحمي الدعوة الإسلامية، وهذه أيضا من المعجزات، ووفاء العهد الصالح من عند الله، أنه يحفظ هذا الدين ويحميه. ويجب الإيمان بصلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة، ولقد نصر الله دينه في مواطن كثيرة في عهد النبوة وبعده، (وإن تولوا

يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم^(٢١). وعلى الدول الإسلامية الإجراءات التالية:

أولاً: تحرير العقيدة من الاستعمار الفكري

فإن الحلول المستوردة التي جنت على أمتنا لحل القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية والإعلامية بواسطة الإيديولوجيات المختلفة والنظريات المتنوعة إنما هي من نتيجة الفكرة العلمانية التي تدخل في عقول المسلمين بواسطة الغزو الفكري في عهد الاستعمار، وهي من مخططات الأعداء في عهد حكمهم على أراضينا وشعوبنا، فإن استقلال البلدان الإسلامية في هذا العصر لا يكفي، وخروجهم من بلادنا لا يشمل معنى الحرية الكاملة، ولا بد من تحرير العقول والأذهان من الغزو الفكري الذي يمس العقيلة والشريعة والنظم، ويجب التخلص من الفكرة العلمانية حتى نرجع إلى ديننا الكامل المتكامل وعقيدتنا الخالصة من الشرك في العبادة والشريعة والأخلاق، وحتى تكون الدين كله لله والأعمال كلها على تعاليم الإسلام الكافة الشاملة. (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم)^(٢٢).

فإن استبدال الإيديولوجيات المستوردة والنظم الأجنبية والقوانين الوضعية مكان الشريعة الإسلامية المنصوصة القطعية في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) من الشرك الذي يضر العقيلة ويفسدها ويجب الخروج منه والرجوع إلى الإسلام من جديد (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله). فإنه تمس حاكمية الله التي هي من التوحيد الذي دعا إليه جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجاهد في

تحرير عقيلة أهل مكة من الشرك الذي يدافع عنه أهل مكة نفسها قبل مواجهة الروم والفرس، والشرك لا يتحدد في عبادة الأصنام والأوثان كما فهمه العامة وإنما يدخل فيه قوانين الحية ونظمها كما فسره رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وكفى بالحكومات العلمانية أن تخدع الأمة بالاصطلاح الدستوري الماكر الذي وضعت في دستورها أن الإسلام هو الدين الرسمي، وهي كلمة حق أريد بها باطل.

فإن الإستعمار قد جعل الإسلام محكوما عليه على حسب إرادة حكومته، حتى أن وزارات الأوقاف، وإدارات الشؤون الدينية التي أوجدها الإستعمار في عهده ليس إلا لحبس الإسلام في سجنه، ولتفتيش المساجد وخطبائها والمدارس الدينية وعلماؤها لمنع الوجود الإسلامي في سياسة الحكومة وإدارتها، بل الذنب والجريمة على الدين والأمة والأعظم أمام الله أن تبقى على هذا النهج الضال، ولا بد من تحرير الأمة من هذا الاستعمار الذي لا يزال ظاهرا في العالم الإسلامي ويجب ضد سياسة العولمة الأمريكية التي تريد أن يستمر هذا المنهج المنحرف بصيغة التغيير الديمقراطي.

ثانياً: فك الارتباط بأمريكا

البلدان الإسلامية غنية بالموارد الطبيعية، من الأراضي الخصبة والمتوفرة بالثروات الزراعية والمعادن الثمينة، قادرة لتصدير الضروريات والحاجيات والترفيات. وخبراؤنا منتشرون في الأرض، وبعضهم في أوروبا وأمريكا مبعدين من أوطانهم وبعضهم معتقلون لأسباب سياسية، وعمالنا كثيرون، وأسواقنا عظيمة تتكون من أكثر من مليار مسلم في العالم، فلماذا هذا الارتباط الضروري بأمريكا، من عملتها الدولارية إلى قمحها وملابسها بالإضافة إلى رحمة أسلحتها المحدودة

وهي لمواجهة الإخوة أكثر من أن تكون لمواجهة الأعداء، حتى نستخف من ذلك الشيطان ونطيعه. لماذا هذه المهانة؟، فاعتبروا من ألمانيا واليابان اللتين انهدمتا ودمرتا في الحرب العالمية الثانية، ولكنهما قامتتا بالعزة التي لا تتعلق بالشواب والجنّة، بشخصية قوميتيها ووطنيتيها، وكذلك أوروبا قامت بالترابط بين بلدانها بمنظمة أوروبية. فأين نحن بإسلامنا؟ فلماذا نقف خائفين متخاذلين مترقبين وننسى ديننا المتين الحصين وربنا العزيز الكريم. فإن الله قد أعز سلفنا بالإسلام فمهما نبتغ العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله.

ولابد من التعاون الدول الإسلامية في الاستفادة من مواردها الغنية للأوطان والأمة لحل قضايا داخلية الدول الإسلامية بأنفسهم وفيما بينهم بالأخوة الإسلامية والاهتمام بخبراء المسلمين وعماهم وتعيين العملة المتداولة بين الدول الإسلامية لتحريرها من لعبة الدولارات كما حاولت أوروبا بتقديم اليورو ولا يمنع من أن نتصل بالدول الأخرى في المعاملات الدولية ولكنه لا يجوز أن نتعلق برحمتهم حتى تمس عزتنا الإسلامية.

ثالثاً: الأخوة والتقريب

إذا كانت أمريكا بغرورها تقوم بالعدوان على العراق وشعبها بغض النظر إلى سنتهم وشيعتهم وعربهم وأكرادهم وتركمانهم وقبل ذلك القتل على أفغانستان بدون فرق بين مذاهب أهلها وقبائلهم، ولا يهتم بالإيديولوجيات لأن استخدامها قد انتهى. فلماذا لا نتأخي فيما بيننا بالأخوة الإسلامية ولا نتقارب بعلاقتنا الإيمانية، فإن الشعوب المسلمة تشعر بالامها مهما بعدت المسافات وفرقتها الحدود الجغرافية، والمسألة على الحكومات التي تعاني بمرض العلمانية التي تفصل الإسلام منها.

ولا بد من علاج الخلافات بين الأمة الإسلامية بالأخوة والتقريب، ابتداء من تقريب المذاهب الإسلامية بتركيز الوحدة في العقيدة الصحيحة التي اتفقنا عليها والشريعة المنصوصة التي اجتمعنا على نصوصها وإجماعها ونترك الخلافات الفرعية بحونا علمية غنية التي نستفيد في تطبيقها على حسب الظروف المختلفة والواقعات المتغيرة والمتنوعة.

ويجب على الحكومات في الأوطان الإسلامية التحرر من العصبية القومية والوطنية والحدود الجغرافية التي ابتدعها الاستعمار لتشتيت المسلمين حتى يجعلنا غرباء في أوطاننا، وللأجانب أسهل تأثير من الإخوة في الدين، وحتى يضرب بعضنا رقاب بعض، كما أُنذرتنا الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) في وصيته العظيمة في حجة الوداع قبل وفاته ولقائه بالرفيق الأعلى. والله يقول الحق في محكم كتابه:

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمه الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)^(٣١).

فسبب نزول الآية يدل على دور اليهود في كيدهم ومكرهم فرجع المسلمون الأوائل إلى الله ورسوله، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين فسلموا، وانتصروا على أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر من مشارق الأرض ومغاربها فانتشر الإسلام بين الأمم والشعوب، وقامت دولته العظمى من الشرق إلى الغرب، وكانت هبة الأمة الإسلامية منتشرة في العالم من أقصاه إلى أقصاه، ودعاة الإسلام يضربون في الأرض مع بضائعهم لحمل الرسالة الإسلامية العلية، واتسعت الفتوحات من المحيط إلى المحيط.

وتقسيم العالم الإسلامي المعاصر وتفريقه من صناعة الاستعمار بعد تأثرنا بالغزو الفكري العلماني واعتناق قادة البدان الإسلامية بالإيديولوجيات في تحكيم بلادهم وتركوا الإسلام وراءهم ظهريا، وطبقوا النظم والقوانين والنظريات على الشعوب المسلمة حتى أن بعضهم رضوا أن يكونوا خدما لأعدائهم لضرب إخوانهم. ولا حول ولا قوة بالله العلي العظيم.

ولقد نادى الإمام جمال الدين الأفغاني بضرورة إنشاء جامعة دولية إسلامية، وما كانت لدعوته استجابة إلا حث الشعب الإسلامي عليها، وإنهاض الأمة للاتجاه نحوها. وطوف في أرض الإسلام ماطوف، ومادخل إقليميا إلا أبقظ أهله، وأزال الغمة، وحاول بعث الهمة، ولكن لا يلبث حكام المسلمين أن يخرجوه من أرض الإسلام حتى ألجؤوه إلى دار الكفر واستمر في محاولته من المنفى إلى المنفى ومن السجن إلى السجن، وهذا من تاريخ علمائنا.

ويجب أن يكون مؤتمر الدول الإسلامية تغيير وضعها من أن يكون صالة للمحاضرات والندوات والمناظرات والمشاتمات بين القادة والسلاة الملوك والرؤساء إلى مستوى المنظمة الإسلامية العالمية التي تجمع الدول الإسلامية في التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، فإن الشعوب المسلمة ترضى الصبر على الظلم والفسوق والفجور الداخلية مع العمل المتواصل للإصلاح والتواصي بين ذات البين ولكنها لا ترضى أن تكون خدما لبوش الأمريكي وسياستها العولمية.

رابعا: الدعوة العالمية

فإن الرسالة الخاتمية العالمية التي حمل رايتها الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا تنتهي بوفاته، وإنما تجب مواصلتها على أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفرض على العاملين في الحقل الإسلامي العمل به كاملا على نهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، من دعوة الناس في كل مكان وزمان إلى هذا الدين وإلى إقامة دولته ليكون الإسلام ظاهرا على الدين كله.

فالرسالة الإسلامية العالمية تشمل الشعوب والحكومات، إما أن تدخل في دين الله باعتناقه وإما أن تعيش في حماية عدالته وإما أن تساله دون صد دعوته ومنع انتشاره. فللواجهة السلمية أولى من الحرب ولا إكراه في الدين. ويجب على الحكومة تسهيلها وتنظيمها وحمايتها وحفظ أمنها وتقديم حسن الإسلام وعدالته بتطبيق الشريعة الإسلامية في جميع أمورها والتخلق بأخلاقه وآدابه واتخاذ الوسائل العصرية في نشر الدين في داخل البلاد والمجتمعات الدولية ومنها انتهاز المواضيع الإيجابية من العولمة من وسائل العلاقات الدبلوماسية والإعلامية والتجارية والسياحة وغيرها.

فإن انهيار الإيديولوجيات من أمارات أن العولمة ستفشل مهما كانت طغيانها وجبروتها، وهذه فرصة الإسلام ومستقبله. ولقد حدث انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا بدون دولة تحميها، وخلافة تحرسها، وهذا نور الله الذي لا ينطفى (يريدون ليظفونوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون). ولقد رأينا أزمت الثقافات بين أهل الغرب بدينهم حتى أن الكنائس مهجورة أو مبيعة أو منقلبة إلى نشاطات لا دينية، والقوانين الوضعية ضعيفة جدا لمواجهة الجنايات حتى ازدادت بنسبة خطيرة، فهذه كلها تجعلنا أكثر أيمانا بضرورة الدعوة إلى الإسلام وإنقاذ الناس به من الهلاك والضلال.

والعولمة جاهلية العصر، تدفع الناس إلى أكثر غلو وفساد من الجاهلية الأولى فيجب دعوة العالم شعوبا وحكومات إلى الإسلام لإخراجهم من هذه الظلمات إلى النور، فحوار الحضارات التي تروجها وسائل الإعلام فرصة للدعوة العالمية،

ونحن على يقين أن حجة الله البالغة ستظهر على الدين كله. فيجب على الأمة الإسلامية علماء وحكاما أداء هذا الواجب الديني لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فإنها لكرامة هذه الأمة وعزتها تحاه العولمة.

ويجب الاستفادة من تكنولوجيات المعلومات الحديثة في نشر الدعوة الإسلامية بطريقة وسائل الإعلام المقروءة والمنظورة ومنها القنوات الفضائية بشتى اللغات العالمية. ولا نستطيع الخروج من الاندماج بالعولمة ولكننا نقوم بالشخصية الإسلامية القوية حاملين الرسالة الإسلامية العالمية.

خامسا: الأخذ بأسباب القوة

لكي تصبح الأمة المسلمة ذات نفوذ وتأثير في مواجهة العولمة لابد أن يتوافر لديها رصيد ضخم من القوة الروحية والمادية إذ أنهما يتكاملان في سياق إبراز مكانة الأمة في العالم، وإظهار كرامتها وعزتها، فلدينا عناصر القوة التي يجب إعادتها وجمعها وإحيائها وتحقيقها في جميع المجالات، ويجب بذل كل الجهود لتطبيقها.

فالقوة الروحية في العقيدة والإيمان والأخلاق وأداء الفرائض الدينية وفي مقدمتها فريضة الجهاد التي هي سنام الدين، ولقد عم البلاء لإهمال هذه الفريضة، ويجب فتح هذا الباب لأبناء أمتنا لكي يتسابقون إليه كما تسابق السابقون الأولون. سواء كان داخليا لمواجهة الحكام الفسقة الفجرة أو خارجيا لمواجهة الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر. فللراجع غنية في السطور والصدور، لأن لدينا كتبا كثيرة في جميع المذاهب، وعلماء كثيرين في المنابر والمدارس والجامعات. ويجب على الحكومات ألا تخاف من هذه الفريضة لأنها تحميها

وتعزها وتحفظها إن كانت مخلصه لوجه الله الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء وينزل من يشاء ويبدل الخير وإنه لا يسأل من والاه ولا يعز من عاداه وإنه على كل شيء قدير.

والقوة المادية من القوة الاقتصادية والعسكرية وغيرها، فلدينا عناصر هذه القوة، من الثروات والموارد والطاقت البشرية التي يجب الانتفاع بها وتخطيطها تخطيطاً جيداً بالتعاون والتعاقد بين المسلمين وحكوماتهم، استجابة لأمر الله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دولهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)^(٣٣). وهذا أمر إلهي موجه إلى الأمة جمعاء لاسيما أولياء الأمور لكي لا يخفوا استطاعتهم وراء المصالح الدنيوية، وبعد ذلك نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين.

سادساً : نهضة علمية شاملة

وبعد تميزنا بالإسلام في تعاليمه الكامل فإن الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها وهو أحق بها، فقاعدتنا أقوى من اليابان وألمانيا اللتين نهضتا نهضة علمية بعد الدمار الشامل الذي أصاب كليهما في الحرب العالمية الثانية، لأن نهضتنا العلمية ستكون على أساس الإيمان والإسلام والإحسان. ولا يمكن أن نستفيد من طاقتنا البشرية ومواردنا إلا بالنهضة العلمية الشاملة تشمل الدين والحياة. ويجب فتح المجال للمؤسسات التربوية والتعليمية مساندة التطورات العلمية مع الصحوة الإسلامية المباركة، ويجب على الحكومات إزالة الحواجز التي بتتها لصد التوعية الإسلامية بين الطلبة في الداخل والخارج. فإن الإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا وبين الدين والسياسة وبين الدين والعلوم النافعة.

خاتمة

فالإسلام دين الله الذي لا يأتيه الباطل ويعلو ولا يعلى عليه، فالعولمة الأمريكية التي تمتد من الجاهلية الأولى لا تستطيع أن تقف أمام الإسلام مهما كانت قوتها واستكبارها، وإنما هو من وظيفة الإسلام أن تدخل العالم الذي هو هدف رسالته، كما قل عقبة بن نافع حينما وصل الشاطئ الغربي من شمال أفريقيا متوجها إلى المحيط الاطلنطي في تلك الفترة التي لا تكتشف فيها القارة الأمريكية إنه يريد خوض هذا المحيط ليصل إلى تلك الأرض وليبلغ في أهلها الإسلام وليرفع على أرضها رايته . فنحن على دربه إن شاء الله.

فهذا نظر سريع موجز من المستضعفين الذين يحملون أملا عظيما لمستقبل الأمة بإسلامها ويأسفون على تقصير أولياء الأمور. فإن المسيرة لا تنتهي مهما كانت التحديات وعظمتها لأن الله اكبر واجل واعظم، ويحفظ دينه كما وعده (وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

- ١- الوحدة الإسلامي، الشيخ محمد أبو زهرة.
- ٢- العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، الأستاذ أنور الجندي.
- ٣- حوار مع الأستاذ نجم الدين أربكان، تركيا.
- ٤- الحلول المستوردة، شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي.
- ٥- العولمة والثقافة، الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (قناة الجزيرة).
- ٦- الإسلام والعولمة، الشيخ محمد حسين فضل الله (قناة الجزيرة).
- ٧- العولمة ومستقبل العالم، الدكتور فتحي يكن ورامز طنبور.
- ٨- النظام الدولي الجديد، ياسر أبو شبانة.
- ٩- أسرار الماسونية، أتلخان.
- ١٠- نشأة العولمة: الدكتور عبد الحي زلوم (قناة الجزيرة).
- ١١- ثورة الغرب على العولمة، محمد المقدادي وصبري سعيد (قناة الجزيرة).
- ١٢- العولمة والتجارة والعلاقات الأمريكية العربية، توماس فريد من (قناة الجزيرة).
- ١٣- العولمة بعد أحداث أمريكا، محمد وجدي عبد الحكيم دباب ومجدي خليل.
- ١٤- النظام العالمي الأمة العربية والصهيونية، الدكتور عادل سمارة ويعقوب دواني (قناة الجزيرة).
- ١٥- العولمة والشرق الأوسط، الدكتور ناصف حتى ونلمي شحلة.

الهوامش

- ١- الذاريات / ٥٦.
- ٢- البقرة / ٣٠.
- ٣- الأحزاب / ٧٢.
- ٤- طه / ١٢٠.
- ٥- الحجرات / ١٣.
- ٦- الروم / ٢٢.
- ٧- المائدة / ٨.
- ٨- البقرة / ١٧٦.
- ٩- المائدة / ٥٠.
- ١٠- البقرة / ٢٣.
- ١١- الفجر / ١ - ٨.
- ١٢- البقرة / ١٣٢ - ١٣٣.
- ١٣- الأعراف / ١٥٨.
- ١٤- سبأ / ٢٨.
- ١٥- الأنبياء / ١٠٧.
- ١٦- التكوثر / ٢٧ - ٢٨.
- ١٧- البخاري ومسلم وغيرهما.
- ١٨- البخاري ومسلم.
- ١٩- آل عمران / ١١٠.
- ٢٠- محمد / ٣٨.
- ٢١- البقرة / ٢٠٨ - ٢٠٩.
- ٢٢- آل عمران / ١٠٣.
- ٢٣- الأنفال / ٦٠.

العدل .. والسلام العالمي

الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي
رئيس المنتدى الإسلامي العالمي للحوار
والأمين العام المساعد لمؤتمر العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغي يعظكم لعظمتكم لتذكرون) - النحل / ٩٠.

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا
ورسولنا الهادي البشير محمد بن عبدالله .. وعلى آله وصحبه أجمعين .. والصلاة
والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

العدل والإحسان .. والظلم والبغي: قيم متضادة
العدل: فضيلة، ورحمة، وأمان، وتكريم، وسلام
والظلم: رذيلة، ونقمة وعذاب، وتحقير، ودمار
والصراع لا يزال قائما ومحتما بين العدل والظلم منذ بدء الخليقة .. والمعارك
بينهما سجل.

فمع غلبة العدل تكون الرحمة .. وتصان كرامة الإنسان .. ويعم الأمن
والسلام بين الناس.

وإن كانت الجولة للظلم كان معه القهر والعذاب .. وتهان كرامة الإنسان،
ويعم الفساد والدمار، وتسعر الحروب والعداوة بين الناس.

ولكن من هم أهل الظلم وأنصاره؟ وهل أحد من البشر يدعي الظلم
ويحمل رايته؟ والجواب المألوف: لا.. ليس هناك أحد من البشر ينسب نفسه الى

الظلم أو ينسب الظلم الى نفسه .. فالناس جميعاً من حيث الظاهر يعلنون كراهيتهم ورفضهم للظلم والظلمين .. بل ويعلنون حربهم على الظلم وأهله، والكل مجمع على أن الظلم سبب ورذيلة، متفقون على قبحة ومقته وكراهيته.

إذا من هو المسؤول عن الظلم يا ترى؟ ومن ذا الذي يمارسه ويحمل أوزاره؟ والجواب الخير على لسان حل كل جهة في الأرض .. أن المسؤول جهة ما في الأرض! ولكن من هي هذه الجهة؟ وما هي هويتها وما هو دينها وثقافتها؟ لا أحد يجيب .. والمهم أنه بريء.. وأن أحداً ما غيره هو المتهم.. فالناس يصرون على أن الظلم شر وقبح ورذيلة.. وأنهم يناضلون للتخلص منه ومن أهله .. إذا هو موجود وممارساته قائمة .. وضحاياه مشهورة.. وآثاره المؤلمة شاخصة .. وهذا ما يجعل هذه القضية لغزاً يحتاج لمن يفك طلاسمه.. ويجلي اشكالياته.. ويتحمل مسؤولية ازالة اللبس في شأنه .. ليتمكن الناس من تحديد وتشخيص هذا العدو المجمع على عداوته وخصومته .. وأحسب أن مثل هذا اللقاء الحاشد من عقلاء وحكماء مختلف الأديان والثقافات .. معني بهذه المسؤولية العظيمة وهذه الغاية النبيلة .. وأنا من جهتي ومن خلال هذه الورقة، بذلت جهد المقل في تقديم قراءة متواضعة حيال هذه الإشكالية المحيرة .. فبعد التأمل والمراجعة وجدت أن جوهر هذه المعضلة يكمن في: اضطراب واختلاط معايير العدل والظلم بين الناس .. فما هو من الظلم عند البعض، تجده عين العدل والإنصاف عند آخرين .. وتداخلت خصائص وصفات وممارسات العادل والظالم .. فما هو بنظرك عادل .. يكون عند غيرك من الظلمين المعتدين .. وهكذا اضطربت الرؤى واختلت القيم والمبادئ.. فختلف الناس في تحديد الظالم من المظلوم .. والمعتدي من المعتدى عليه .. أو هكذا زينت لهم أهواؤهم ونزعاتهم .. فافترقوا افتراقاً شديداً.. وتدابروا وتخاصموا تجاه هذه المسألة الجوهرية في حياة الناس .. مما جعلهم جميعاً عاجزين

عن التعامل مع هذه القضية بمعايير وقيم ثابتة ومشاركة، تحول بينهم وبين
الصدام والاعتقال بشأنها للأسف.

هذه حقيقة مرة قائمة .. وواقع مؤلم تعاني منه المجتمعات البشرية اليوم مثلما
عانت منه خلال تاريخها الطويل .. وقد حاولت قدر الإمكان تتبع رحلة الإنسان
مع قضية العدل والظلم منذ فجر التاريخ .. فوجدت أن ظاهرة اختلال القيم
والمعايير حيال العدل والظلم قديمة .. لمست شيئاً من هذا الخلل:

— في شريعة حمورابي (في الألف قبل الميلاد)، الذي كان يفتخر صاحبها بأن
الإله سمه (الأمير الشهير الخائف من الرب القائم على توطيد العدل في الأرض
وإزالة الشر والفساد وحماية الضعيف من القوي وظلمه)، وكان يفتخر كذلك
فيقول: أنا حمورابي الراعي المفضل الذي وزع الغنى والثروة .. وأنه أزال الخوف
من نفوس الناس، وقد وصف البعض شريعته بأنها (إنسانية، ديمقراطية) ورغم
ذلك لم تنجو شريعته من الاتهام بممارسة المظالم والانتهاكات.

— أما شريعة مانو (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، فقد ركزت على الجوانب
القانونية والمسائل اللاهوتية، وواجبات الفرد في الدين والعبادات والأخلاق،
وسنت العقوبات التي تطهر المذنب لما بعد الموت، إلا أنها اتهمت بالممارسات
الطبقية والمظالم وانتهاك الحقوق، واستخدام العقوبات التي وصفت بالوحشية.

— وفي شريعة بوذا (ألف سنة قبل الميلاد)، ركز على الأخذ بلجوهر دون
المظهر، ودعت إلى ضبط النفس ونكران الذات، كما دعت إلى مقاومة الشهوة
والعاطفة باعتبارها السبيل إلى السعادة بعد الحياة الأولى، إلا أنها رغم التعديلات
التي أدخلتها على شريعة مانو أو دين البراهمة، إلا أنها اتهمت بانتهاك حقوق
الإنسان واعتمدت مذهب التمايز الطبقي بين الناس.

— وفي شريعة كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٨ قبل الميلاد)، كانت العناية كبيرة بالأخلاق، واهتمت بشكل أساس ببناء الأسرة باعتباره الأساس المتين لبناء المجتمع، واشتهر كونفوشيوس بعبارة التي تقول: (إذا قامت الأسرة على أساس سليم أمن العالم وسلم)، كما اشتهر عنه مبدأه الذي يقول: بأن على الحكومة أن توفر للناس (كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، وإقامة الثقة بينهم وبين حكاهم)، ولكن وجد في الصين حركة مناهضة ومعارضة لشريعة كونفوشيوس واعتبرتها مثالية لا تصلح لتحقيق مصالح الناس، ووصفوها بالجمود والتعصب، وأنها حقرت النساء وأذلت المرأة، ومارست بذلك التمييز الطبقي.

— الشرائع اليونانية (١١٠٠ - ٤٠٠ قبل الميلاد)، وامتازت أو عرفت بعدد من القيم والقوانين التي وصفت بالظلم والقهر والقسوة بالحروب، وإشاعة الإباحية الجنسية، ومارست التمييز الطبقي، وحمت الملاك على حساب العمال وبأقبي المواطنين، إلا أنه بالمقابل وفي بعض مراحلها اهتمت بالقانون وتحرير من استرقوا، وعملت على تحقيق المساواة بين الناس، ثم انتكست في مراحل أخرى لتعود إلى ممارسة نظام التمييز الطبقي، مما جعل الشرائع اليونانية توصف بأنها كانت تتأرجح بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، والعدل والظلم والقهر، وقد مثلتها نماذج أربعة هي: (أشعار هوميروس، قوانين دراكون، قوانين صولون، قوانين ليكر جوس).

— أما الشرائع الرومانية، فأبرز ما يمثلها الألواح الإثني عشر، ويصف المؤرخ والقانوني الفرنسي المشهور (مونييه) ما جاءت به الألواح فيقول: (إننا في الحقيقة أمام تشريع بربري يعلمنا بأن المدينين العاجزين عن وفاء ديونهم ينبغي استرقاقهم من قبل الدائن وتعطيه حق بيعهم أو قتلهم، وإن تعدد الدائنون

فلهم جميعاً الحق في تقطيع حسم المدين إرباً إرباً وهو حي)، كما يقول مونه ايضاً بأن القانون الروماني وضع لخدمة مصالح الملاكين للأرض على حساب الفلاحين، وشجع على ممارسة الظلم والقهر بين الطبقات، إلا أن القوانين الرومانية طرأ عليها شيء من التطوير والتحسين بعد ميلاد المسيح عليه السلام تأثراً بالقيم الربانية العادلة.

الشرائع او المذاهب الاجتماعية المعاصرة

ويمثلها بشكل رئيس خمسة مذاهب هي: الفاشية، والنازية، والصهيونية، والشيوعية، والليبرالية، وأبرز هذه المذاهب وأكثرها تأثيراً في المسيرة الحضارية المعاصرة، الشيوعية الاشتراكية. والليبرالية الديمقراطية، حيث تميزت الأولى أي الشيوعية بشكل رئيس بلحيازها لصالح المجتمع على حساب الفرد، وعرفت الليبرالية من جهة أخرى بلحيازها لصالح الفرد على حساب المجتمع، وجرت محاولة في فترة الحرب الباردة بين القطبين الشيوعي والرأسمالي، وفي إطار الأسم المتحلة الوصول الى نظام وسط بين المذهبين السائدين آنذاك، فطلبت الجمعية العمومية عام ١٩٧٥ من الطرفين ليقدم كل منهم صيغة وسط بين الشيوعية والرأسمالية، فلم يفلحوا وجاء مشروع كل منهما منحازاً لصالحه، فحلالت الجمعية العمومية الأمر الى منظمة اليونسكو فقدمت مشروعاً يقوم على ثلاثة مبادئ:

- ١- وجوب الاعتراف بوحدة الأسرة البشرية وحققها بالتعايش بأمن وسلام.
- ٢- العمل على تطوير مشترك للتنمية بما يحقق انتعاشاً اقتصادياً للجميع.
- ٣- إحقاق عدالة التوزيع في الأرض.

إلا أن الأمم المتحدة وجدت نفسها عاجزة عن تطبيق مشروع اليونسكو بسبب الحرب الباردة التي كانت مستعرة بين المعسكرين يومئذ، وبعد انهيار القطب الشيوعي، برزت محاولة مماثلة عام ١٩٩٨ قادها ممثلو احزاب اليسار الوسط

بزعامه الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون، وتوني بليز رئيس وزراء بريطانيا الحالي، حيث طرحت فكرة (الطريق الثالث) كمشروع وسط بين الرأسمالية والاشتراكية، ووضعت سبعة أعمدة لذلك المشروع، إلا أن موجة العولمة العارمة طغت وغيّبت مقاصد تلك المحاولة، وتفاقم أثر وسطوة القطب الواحد على مقدرات الوضع الدولي، وشعر الناس بتراجع هبة وأثر الأمم المتحدة في السيطرة على القرار الدولي، وأخذ الناس يتحدثون عن حالة اللانظام التي تعاني منه المسيرة البشرية في أوضاعها الراهنة، وما نجم عن تعطل ميثاق الأمم المتحدة من ازدياد في اضطراب واختلاط معايير العدل والظلم .. مما جعل المجتمعات الدولية تعيش هاجس الرعب والخوف .. وتحس أن أمنها واستقرارها تهدده نذر حروب عالمية شاملة مدمرة .. وأدركت الأمم المتحدة خطورة المجتمعات الدولية خطيرة ثقافة الصراع والصدام بين الحضارات، التي أخذت تروج لها جهات عالمية معروفة، وحاولت من جهة أخرى ان تستعين بالقيم الدينية والروحية لتدارك الأمر، فعقدت قمة عالمية للقيادات الدينية والروحية في مقر الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠م لإصدار تعهد مشترك بشأن السلام العالمي، ولتشكيل مجلس استشاري دائم في الأمم المتحدة من القيادات الدينية والروحية، وأصدرت القيادات الدينية والروحية تعهداً بشأن السلام العالمي وقوبل بصدى واسع من الترحيب والتقدير على كافة المستويات، إلا أن مجلسهم الاستشاري لا يزال يعاني من مخاض صعب، وربما من محاولات اجهاض مبكر .. بل إن المؤشرات تنبئ بأن الاجهاض قد وقع بأمن وسلام.

الشرائع السماوية

وهي من حيث الأصل ترجع الى مصدر واحد وتسعى لغاية واحدة .. مصدرها الله تعالى .. وغايتها إخلاص العبودية له جل شأنه .. وعمارة الأرض وإقامة العدل

فيها، وحدث خلل، وأحدث بعض الناس في دين الله تعالى ما ليس منه، وهجر بعضهم الآخر القيم الدينية واحتكموا لأهوائهم ورغباتهم، مما ولد - كما أسلفنا - اضطراباً كبيراً في المفاهيم، واختلاطاً شديداً في معايير العدل والظلم عند كثير من الناس إلا من رحم ربي .. وبعد يبقى السؤال الكبير المتكرر ما العمل؟ وهل من سبيل للخروج من هذا المأزق العالمي الخطير؟ أحسب أن مثل هذا اللقاء معني بأن يقول كلمته بهذا الشأن .. وأن من واجبنا باعتبارنا أتباع دين الله تعالى والمؤمنون بقيم ومبادئ الإسلام الخالدة، وحمة رسالته السمحة العادلة للناس اجمعين ان نبذل النصح والترشيد، ونهيب بصناع القرار الدولي أن يصغوا باهتمام وجدية الى ما يبذل لهم من نصح وتذكير .. لذا فإنني باسم المنتدى الاسلامي العالمي للحوار، وباسم مؤتمر العالم الاسلامي الذي لا يزال منذ أن تأسس في مكة المكرمة عام ١٩٢٦م، يعمل على تجلية القيم الدينية والمبادئ الربانية التي تؤكد على أهمية العدل باعتباره الأساس، لتحقيق الأمن والاستقرار، والمصدر الأقوى في توفير أسباب التعايش بسلام بين المجتمعات، اقترح أن يصدر عن هذا المؤتمر نداء عالمي بشأن أهمية العدل في إقامة السلام العالمي والتعايش الأمن بين الناس آخذين بعين الاعتبار المبادئ التالية:

- ١- أهمية القيم الدينية والروحية في تأسيس فضيلة العدل في نفوس الناس.
- ٢- احترام وحدة الأسرة البشرية وتكامل مصالحها.
- ٣- العدل حق للجميع دون تمييز.
- ٤- حرمة حياة الإنسان وحرمة كرامته وممتلكاته.
- ٥- المحافظة على سلامة البيئة وعدم الإفساد فيها.
- ٦- حرية العبادة وعدم الإكراه في الدين.
- ٧- التعاون والتنافس في الخير لمصلحة الجميع.

- ٨- المرأة والرجل شريكان في مسؤوليات الحياة على أساس من التكامل المنصف بينهما.
- ٩- خيرات الأرض لصالح الجميع على أساس من احترام حق التملك ومشروعية الانتفاع المتبادل.
- ١٠- التكامل بين الحقوق والواجبات منطلق أساس لتحقيق التوازن بين مسؤوليات الإنتاج والاستهلاك.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمورية التسامح في الإسلام

أبو القاسم العليوي

رئيس ديوان وزير الشؤون الدينية
وعضو المجلس الإسلامي الأعلى – تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس أنسب من انعقاد المؤتمر السادس عشر للوحة الإسلامية للتبصير بأهمية التسامح في تيسير تخطي الفوارق والحدود بين المذاهب التي لا تعدو، في أصح تعريفاتها، أن تكون مدارس فكرية غذتها اجتهادات الفقهاء الاعلام، وأفهامهم المؤسسة على ما استقام لهم بلوغه من مراتب وعي المباني والحقائق الإسلامية كما هي مبيّنة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

ولقد آن للمستنيرين من علماء المسلمين أن يولوا موضوع التفريب والوصل بين هذه المذاهب كامل الأهمية التي تؤكد حاجتها للمسلمين اليوم الى الانشغال بأهميات المسائل التي ترتبها صيرورة مجتمعاتهم، مثل التوفيق الرشيد اللازم بين مبادئ الإسلام الخفيف وقيمه من ناحية، ومقتضيات الإنخراط في الحداثة، والمشاركة في ضمان إنسانيتها من ناحية أخرى، وإصلاح نظم التربية والتكوين على النحو الذي ييسر توطين المعرفة العلمية، والمشاركة في إنتاجها، ويضمن تعزيز الثقة بالذات، واخصاب الحوار بين الثقافات والحضارات.

وفي واقع هذه المجتمعات ما يبيّن أن منزلة الضعف والتبعية التي تجمعها تمثل خلاصة النتائج المترتبة عن الانشغال عن هذه المسائل الموضوعية بأخرى، وهمية، تراكمت، وتوالدت حتى طغت على الضمير الجماعي، وظن أنها أكبر القضايا، وأولها بالاهتمام.

ومسألة الاختلاف بين السنة والشيعة، وبين المذاهب السنية، والمذاهب الشيعية بلغت من قوة الهيمنة على التفكير الإسلامي مبلغاً كبيراً لافتاً يتبدى، بالخصوص، في

عند الدراسات والأبحاث المحضنة لطرقها، قديماً وحديثاً، وفي ما بين الآراء التي عرضها أصحابها من أوجه التباين الذي يصل أحياناً حد الاختلاف البعيد، وهو تكفير أهل الآراء المغايرة تكفيراً صريحاً لا يجيزه الدين، ولا يستسيغه العقل. وبذلك كله غدت هذه المسألة بمثابة الشجرة التي تحجب الغابة بأكملها، وشاع التوهم بأن الخوض فيها من أسباب شهرة العلماء الذين نسوا بها مشكلات التنمية والتقدم، وما أكثرها، وأوكدها، وبخاصة في بواكير هذا القرن الحادي والعشرين.

ووازی هذا التوهم نزوع ظاهر عند بعضهم الى الإيهام بأن المخالفة في الرأي موقف خلاف مطلق، وبأنه لاسبيل الى التوفيق بين وجهات نظر المتصدين لدرس فقه المذاهب، وتحليل الأسباب التي افضت الى ضمور روح التسامح في تعاملهم المباشر، أو في حكم بعضهم على أحكام بعضهم الآخر، من معاصريهم، أو من السابقين.

وللتحرر من أسر الفكر الإطلاقي الذي باعد بين المذاهب، وفرق أتباعها، وأرسى ثقافة التشيع والانتصار للملل والنحل التي لا تقول بنسبية الحقيقة، وبوجود التمييز بين الأصول والفروع، لا بد من تربية الأجيل الناشئة من المسلمين على التسامح، ومن تعميق وعيها بأن الإسلام واحد، خالد، بتعاليمه السمحة، ومبادئه السامية، وقيمه الزكية التي لا اختلاف فيها، ولا وحدة إلا بها.

فبالتسامح، ووعي حقيقة الإسلام القاطعة التي تجمع بين المسلمين، في عقيدتهم، وشريعتهم، وتربيتهم، وثقافتهم يتضح الفرق بين الدين والمذهب، والوحي والاجتهاد، والمبدأ الثابت والرأي الفردي أو الجماعي، ويكون التكامل بين رؤى الفقهاء المجتهدين، والتقارب والتواصل بين المذاهب، وبين المدارس الفكرية الناشئة بدراساتها.

ويمكن اجمل المعاني الامهات المتصلة بمفهوم التسامح في القول بأن المقصود بهذا اللفظ إنما هو وعي حق الآخر في المغايرة والاختلاف في المعتقد والرأي والاختيار، والإقرار بمشروعية التنوع وبأهميته في إغناء تجارب الإنسان بما يجعل الحضارة الكونية صفة اجتهادات تراكم وتتكامل على نحو يضمن دفع حركة التاريخ نحو المزيد من التفاهم والتفاعل بين الشعوب، ويتيح إخصاب الحوار الدائب اللازم بين الثقافات.

وبهذا التعريف التأليفي ينزل التسامح منزلة القيمة المحورية التي يجوز عدّها نشع الحضارة، والقوام الأمتن للسلام الذي لا يبلي توق الإنسان اليه، ولا يفرّ حرصه عليه، لارتهاان الأطراد في العطاء الحضاري، واكتمل التوازن في الحيلة الفردية والجماعية، باستتبابه، وبسريان الرؤى المؤسسة على تمثله والإعتصام به في كل مكونات الواقع المائل، وكل مشاريع الاستعاضة عنه بواقع أمتل.

ذلك لأن التسامح روح تتبلى في التفتح على الآخر، والإستعداد لتقبله كما هو، لا كما نريد له أن يكون. وهو، بهذا الاعتبار. موقف يجسد الثقة بالذات، ووعي حاجتها الى الغير في النهوض بأعباء التطوير والإصلاح باكتناه طبائع الظواهر الموضوعية، وردّ ذلك الى واقع جديد يتعزز فيه اقتدار فيه اقتدار الإنسان على حسن التصرف في الكون، وبلوغ مستويات أعلى من الوعي الذي به العمران، وسيادة القيم التي بدونها لا يكون إلا كالشهوة الهلف، لا عسل فيها.

والحرص على التوفيق بين المعرفة البانية التي هي الحكمة، في أشمل معانيها، وبين القيم الهداية الى الاستقامة والصلاح، من أوكد ما علينا تجسيده، نحن معشر المسلمين، بالإخلاص في طلب العلم - محضاً ومطبّقاً - وفي التمسك بالقيم الزكية الخالدة التي ندب اليها ديننا الحنيف، وحض عليها، وجعلها جماع مكملات الإنسان في عاجلته وأجلته. فالإفادة من المعرفة في أدراك أسرار المنظومة الكونية، وتسخير الحقائق العلمية المكتشفة، والمبتكرات التكنولوجية المتولدة عنها لدعم سلطان الإنسان على الكون الذي استخلفه الله فيه، إنما يقومان على حب الحق، والشوق الى الفضائل

التي تكسب الاجتماع الانساني واحداً من معانيه الأساسية، وهو المتمثل في تكامل التجارب وشبكات العلاقات والمصالح، ومنظومات التفكير، وأنماط الآراء والمواقف، وأساليب الحياة بما يؤكد نسبية الحقيقة، وضرورة الاجتهاد، وشرعية التميز، وواجب الانخراط في حركية التعاون على البر والتقوى.

ومن مستلزمات النهوض بهذا الواجب، بل من أهمها اتحاد التفكير السليم والمخلق القويم اللذين بنى عليهما الإسلام، ديناً وحضارة، نظام الحياة الاجتماعية بما هي إطار يمارس فيه التعاون على تحقيق الخير لكافة المتعاشين داخله، وللإنسانية جمعاء، على أساس من التفتح على الآخر، والرفض الجماعي للإطلاق، وأدعاء احتكار الحقيقة. فلولا روح التسامح الجامعة بين أعضاء الجماعة، والمتممين الى نفس المجتمع، بل بين الناس كافة، لظن كل منهم أن اختلاف الآخرين عنه مهتدٌ لكيانه، وأن مصلحته لا تكمن في غير إخضاعهم لرأيه واختياره، وتسخيرهم لطاعة هواه، ولدفع مالا يحب، وتحقيق ما يرضى ويطلب، بحيث يكون بعضهم لبعض عدواً، وتكون الحياة جمع أصدقاء، لا سبيل فيها الى تفاهم او معايشة او امتزاج بين الناس، ولا مكان البتة لأي طموح مشترك، او لأي وجه من وجوه الانتظام، والاستقرار، والاستمرار.

وبافتراض هذه الحال الجماعية غير الاجتماعية التي لا تكون فيها الحياة إلا ابتلاء بالتطاحن ومجرد عيش بيولوجي بين متنافسين، والتي تفتى سريعاً لافتقارها الى مقومات التعايش وأسبابه، ولتفاني كل طرف فيها، بالتالي، في السعي الى التعجيل بإفناء الآخر لكونه الضد المضاد، تتأكد ضرورة التسامح للوجود بمستوييه الفردي والجماعي، وبأبعاده التاريخية والأخلاقية، ويتضح مدى انغراس المعاني المتصلة بهذه الضرورة في الفطرة بما هي القوة المودعة من الله تعالى في نفس الإنسان، ليعرف بها هذا الكائن الفاني عظمة القوة الإلهية السرمدية، ويصبح تسليمه بها توحيداً وإسلاماً.

فالفطرة هي الهيئة الأصلية المتأصلة في نفس الإنسان الذي يكون بها كائناً متميزاً بتميز ما هو إلهي، وبالإستعداد الطبيعي لتأكيد كيانه كما أراد له الله أن يكون، في سلوكه الحيوي والوجداني أولاً، ثم في سلوكه الاجتماعي والأخلاقي الذي يزكو، ويصلح بغلبة الأسباب الضامنة لسلامة النفس على الانفعالات الباعثة للتكلف، والغلط، والممانعة عن إصابة الحق.

ذلك لأن غائية الديانة إنما تكمن في صلاح الإنسان. ولئن كانت لها غاية إلهية، فإن موضوعها إنساني، وهو يشمل حل الإنسان ومآله، وما به سلامته، وسلامه، وفوزه بما يتبغي من سعادة في الدنيا، ولحجة في الآخرة.

بهذا يتضح أن الفطرة أساس العقل الذي به الوعي والتدبر والفهم والإعتبار، وتوخي سبيل الهدى والاستقامة، والتحرر من الأهواء المفضية الى الباطل، والفساد، وسوء المنقلب (فما عرف بالعقل أنه من صالح الحية الإنسانية كان مطلوباً شرعاً، وما عرف أنه من المفسد كان منهياً عنه، لا يقرر الشرع ذلك بلسان الأمر والنهي، ولكنه يعتمد فيه على إدراك العقول الصحيحة والفطر السليمة للمصالح والمفاسد).^(١١)

وقد وصف الإسلام بأنه دين الفطرة لمواءمة تعاليمه ومبادئه وقيمه للفطرة التي تطمئن اليها، بحكم ذلك، وتتعلق بها لما فيها من سماحة ووسطية ويسر ترسخ في النفس أدباً منزهاً عن الظلال الذي يكره الناس أن يعاملوا به، ومرغبا في كل فعل (يحب العقلاء أن يتلبس به الناس وأن يتعاملوا به).^(١٢)

قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك هو الدين القيم)^(١٣). والدين المقصود في هذه الآية الكريمة إنما هو الإسلام الحنيف الذي جاء ديناً عاماً للبشر كافة مصداقاً لقوله عز من قائل: (إن الدين عند الله الإسلام).^(١٤)

وليس أبلغ لوصف الإسلام من قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم، خطاب الأمر: (قل إني هادي ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم

حنيفاً^(٦). والصراط المستقيم هو سبيل نعمة الإنسان مما يضلّه، وينأى به عن الهداية والحق. والمقصود به هو الإسلام الذي وصفه الله بكونه القيم لأنه (قيم بالامة وحاجتها)^(٧). ولأنه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي التوحيد، ومسيرة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحق^(٨).

ولقد تكاملت أنظار المفسرين المجتهدين في بيان مدى الملائمة بين الفطرة والإسلام في عقيدته وتشريعه ومنظومته القيمية وبنائه الحضاري، فأكدوا أن المراد بالحنيفية السماحة إنما هو الإسلام للانبائه على السماحة واليسير (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، ولما يفتحه، بذلك، أمام المسلم من أفلق السعي الى التقوى لاستحقاق رضوان الله، ومن سبل التوفيق بين ثوابت الدين وحقائقه القاطعة، والمتغيرات التاريخية المتوالدة باستمرار.

ومن أهم معاني هذا التوفيق الذي هو من عمل العقل أنه وسط بين شبكات العلاقات والأطراف والأقطاب التي لا يمكن للإنسان، بما هو كائن موصول الصبوة الى طبيعته الروحية الثقافية التي بها توازنه وتأثيره الإيجابي في الكون، أن يذهلها أو يتحرر من سطوتها في انشغاله، في كل الظروف والصروف، بقضايا الدنيا، ومستلزمات الفوز فيها، ثم في الآخرة، بالمصير الأفضل المنشود.

إنه وسط واعتدال بدونهما لا يتسنى تنكب الإفراط والتفريط في معالجة المسائل الحادثة بالكدح من أجل تحقيق الذات، وجلب المصلحة ودفع المضرة. ومن هذه المسائل ما يطرح بالتفكير في علاقة المسلم بربه، ومسؤوليات الإستخلاف، ومنها ما يستثار بنسج علاقاته بلخيه المسلم، وبغير المسلم، بل بكافة مكونات ما يسميه علماء النفس (العالم الخارجي)، بما يجعل هذا التفكير متداخلاً الأبعاد، متصل الحلقات والأطوار، متسعاً لجميع ضروب الأحوال التي يبحث فيها الإنسان عن ذاته، ويجهد من أجل تأكيدها، ورسم توجهاتها، ولحمت منزلتها في مجتمعه، وفي العالم، ويسأل عن دوره في خدمة البشرية، وعن مصيره في الحية الدنيا، وبعد الموت؛ بحيث يكون الكائن البشري، في كل ذلك طالباً ذاته، ساعياً اليها في ما يراه منها مما يفهم

من المقدس، ومما يعي من الزماني، وبإدراكه لأوجه الصلة بين الفرد والجمع، وموقفه من القريب والبعيد، والمعلوم والمجهول، والمماثل والمختلف، والمحجوب والمكروه، وغير ذلك من الثنائيات والمعادلات التي يزخر بها الوجود، والتي تند حقا عن الحصر.

ومن أبلغ الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من تاريخ الإنسان، ما يتمثل في تأكيد حاجته لمعرفة ذاته والاستجابة لمطالبها المشروعة، وللظفر بسلام النفس وسلامتها، وتوازن السلوك الى الفطرة التي بينا أنها استعداد جبلي لتحقيق القوام بين الروح والملة، والمطلق والنسبي، والنقل والعقل، والثابت والمتحول، والأنا والآخر، والذاتي والموضوعي، والفردى والجماعي... وكلما زاغ عما يستساغ بالفطرة ومل الى ما تهجن وتنبذ، أفسد فطرته التي فطرها الله عليها، وابتعد عن ذاته، بل عن إنسانيته، وأخل بواجب الوفاء لكرامته، وسقط، حتماً، في المفسد والشور.

لما كان الإسلام دين الفطرة المهية للتمييز بين ما ينفع وما يضر، وبين ما يصلح وما لا يصلح، وكان العقل أداة ذلك التمييز الذي توحى به السليقة، ثم يغدو ملكة تزكو بالمران والتربية، وكانت الوسطية والسماحة واليسر من أخص خصوصيات الحنيفية السمحة التي بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه يجوز القول بأن القيم السمحة التي يدعونا الإسلام الى التمسك بها، والإسهام في صونها، وتثبيتها، وتجسيدها في الزمان والمكان نابعة من الفطرة، ومكرسة بهذا الدين القيم الهادي الى سواء السبيل: (إن هذا القرآن يهدي للذي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً).^{٧٥}

وبتحليل طبائع ما بين هذه القيم من متين الروابط الدالة على أن أصلها واحد، وعلى أن الغاية من العمل على الالتزام بها واحدة، هي صلاح الإنسان وإعمار الكون، يتضح مدى الإحكام الذي يتسم به سبك المنظومة القيمية الإسلامية التي تتداخل فيها المفاهيم، وتتكامل المعاني بما يجعل محاولة تعريف كل قيمة باعثة على

التفكير في غيرها، مؤكدة أن ضبط حدما ومداهما لا يستقيم إلا بوصفها بصنوها، وتنزيلها في النظام القيمي الشامل.

فبالصدي لصياغة تعريف (التسامح) بما يتيح التأليف بين كل المعاني المقصودة به لغة، واصطلاحاً، وهي التي استهللنا بها الحديث فيه، تثار في الذهن، بلا شك، معاني السماحة التي على المسلم أن يلقي بها غيره، مسلماً كان أو غير مسلم، ومعاني اليسر واللين والتفتح التي ينبغي أن تؤسس عليها كفيات معاشرته، والتعامل معه.

كما يثار مفهوم الحرية، وما يتصل به من معاني الحرص على احترام ذات الآخر، ورأيه، ومعتقد، وضمأن حقوقه، ومنها حقه في الاختلاف في كل ذلك، من دون أن يرى في اختلافه هذا خلافاً، يبدو في غياب السماحة، والتفتح، ورحابة الصدر، نقيضاً، وخطراً تعين مقاومتهما، ويتأكد القضاء عليهما.

قال تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)^(٩)، وقال: (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعك في الأمر، وادع إلى ربك إنك لعلي هدى مستقيم).^(١٠)

ولولا العقل لتقاذفت الناس نوازع الشطط والسرف، وضاعوا في متاهات التعصب والتطرف الخطرين المقيتين. ونولاه لتوهموا أن كل مخالف عدو، ولغاب التراحم الذي به السلام والتضامن اللازمين للاجتماع، ولاستشرى بينهم التباغض والتناحر، وانقلب عيشهم فتنة نكراء تذهب بهم جميعاً (والفتنة أشد من القتل).^(١١)

إن روح التسامح سارية كالكهرباء في سلوك الإنسان العاقل. والإنسان العاقل هو السمع، المفتوح، المعتدل، المحب لغيره، والمتعاون معه لتحقيق الخير للجميع، ولصون مبادئ الحرية، ونشر السلام. وبهذا تتجلى محورية قيمة التسامح في الإسلام، ويموز اعتبارها أم القيم، ومن أجل ما أنعم به الله تبارك وتعالى على عباده، رحمة بهم، وتكريماً لهم، ويحق لنا أن نقول إن الإنسان متسامح بالطبع، بحيث يكون سلوك

التعصب غير سوي يستوجب الردع والتقويم، وبعيداً البعد كله عن جوهر الإسلام الذي (أسس للتسامح أسساً راسخة وعقد له موثق متينة، وفصل فصلاً مبيناً بين واجب المسلمين بعضهم مع بعض في تضامنتهم وتوآدهم (...)) وبين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى^(١١٢). ويتسامحه كفل الإسلام لغير المسلمين حرية المعتقد، وممارسة الشعائر المشروطة في دياناتهم، بعيداً عن كل إكراه أو عسف (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)^(١١٣). وقد جاء في سورة يونس قوله تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين).^(١١٤)

وبهذه الروح، تأصل في المجتمعات الإسلامية ضرب من التعايش السلمي بين المسلمين واليهود والنصارى تسنى به صون حرمة كل دين، وحفظ حقوق كافة الناس بغض النظر عن تباين مللهم، وقناعاتهم، وتصوراتهم. وبها كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة تراكمية غير تعويضية، انفتحت على ما شهدت البشرية قبل ظهور الإسلام من تجارب الأمم المختلفة، واستوعبت ما كان فيها من صنوف السداد، وآيات الصلاح، ولم تنبذ منها إلا ما كان مناقضاً لتعاليم الإسلام، أو مغلاً بمبدأ من مبادئه. والى هذه الخصيصة التراكمية يُعزى ثراء هذه الحضارة التي قوتى إشعاعها (وكانت دولتها شباب الزمان)^(١١٥). أي كانت قوتها محل إعجاب العالم كله، في عصور ازدهارها الذي تحقّق بالاجتهاد الصحيح الخصيب الشاهد على أن (حرية العقل ثمرة اقتطفت من دوحه الإسلام (...)) ثم انتقلت الى أقوام^(١١٦)، وعلى أن الإسلام قد فتح بتسامحه وفتحه أفقاً رحباً حقاً للتعايش بين الأديان، والتحاور، والتلاقح بين الثقافات والحضارات، وبنى للسلام أسساً متينة راسخة، كان بها، عن جدارة، عند المستنيرين المخلصين من أتباعه، وفي نظر المنصفين من الدارسين غير المسلمين، القدامى والحديثين، دين التسامح، والحوار، والسلام. ولا بد من تأكيد التنبيه - هنا - الى أن الصور المشوهة التي ينشرها عن الإسلام من انسلخت نفوسهم عن روح التسامح والسلام السارية في القرآن الكريم

والسنة الشريفة، واستبدلوا الهدى بالضلالة، والخير بالشر، من التائبين في أفلاك الظلامية، وأهواء التعصب المتسّر بالدين، والخاصعين لنزعات العنف والإرهاب، تشكل عين نقيضه. وقد وجد فيها الجاهلون، ودعاة الصدام بين الحضارات، ما يبررون به إصرارهم على بث خطاب الكراهية والعدوانية والتجني، والترويج لما يقترن به من أفكار مسبقة وأحكام مجانية في بعض وسائل الاتصال والدعاية الرهيبة في الغرب.

ولئن وجدت وراء الحملة التي تستهدف طمس ثوابت الإسلام، وعرض حقائقه على عكس ماهي، في المجتمعات غير الإسلامية، حلجات في نفوس الضالعين بها، دينية وثقافية، وسياسية، فإنه من الصدق بلحق القول بأن مضمي نارها، والدافعين، غياً وبغياً، إلى استمرار اشتعالها هم المتعصبون المتطرفون الذين لم يعوا ما في الإسلام من أريحية التسامح، وخالص الدعوة إلى السلام، وعمدوا إلى الخلط بين الدين والسياسة، أي بين منطق الحلال والحرام، ومنطق الصواب والخطأ، لنيل أغراض ليست من الإسلام في شيء، أضحت اليوم غير خافية عن كل ذي حجى، في البلاد الإسلامية، وخارجها.

وإن ظاهرة الغلو في الدين، وتعمد استغلاله لنيل المآرب السياسية لمن أخطر الظواهر المرضية التي شهدتها تاريخ المسلمين الذين يتعيّن عليهم اليوم اعتبار التصدي لها بما يضمن اكتمال اجتنائها من أوكد الأعمال التي يستوجبها الإخلاص في خدمة دينهم القيم، وصون قيمه من كل نزعات الإفك، والغبي، والتعصب.

وفي صميم العمل الزكي السخي الذي يهدف إلى إعلاء شأن الإسلام وتعزيز عز المسلمين تدرج المنجزات الكمية والتنوعية المتتالية التي تشهدها تونس منذ بواكير عهد السابع من نوفمبر ١٩٨٧.

فقد أراد سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، حامي حمى الدين والوطن، لهذا العهد أن يكون عهد الإلتحام بين الدين والدولة، ونزك التمسك بقيمة التسامح

وسائر القيم الخالدة التي يحضُّ عليها الإسلام الحنيف منزلة الخيار المركزي الثابت في فلسفة الإصلاح والتحديث التي يجري تطبيقها، بقيادته المتبصرة، بحماس شعبي رائع، ونجاح مبین، تتجلى آياته في التكامل البعدين الروحي والمادي في عملية التنمية الشاملة، وتكريس مبادئ التسامح والوسطية والتضامن في واقع المجتمع بمختلف مستوياته، وفي السلوك الفردي والجماعي على حد سواء.

الهوامش

- ١ - محمد الفاضل ابن عاشور - ومضات فكر، الجزء الأول، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١، ص ١٣٣.
- ٢ - محمد الطاهر ابن عاشور - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس، الشركة القومية للنشر والتوزيع، ١٩٦٤، ص ٢٧.
- ٣ - الروم / ٢٩.
- ٤ - آل عمران / ١٩.
- ٥ - الأنعام / ١٦١.
- ٦ - محمد الطاهر ابن عاشور - تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ج١، ص ١٩٩.
- ٧ - نفس المصدر، ص ٢٠٠.
- ٨ - الإسراء، / ٩.
- ٩ - هود / ١١٨.
- ١٠ - الحج / ٦٥.
- ١١ - البقرة / ١٩٠.
- ١٢ - محمد الطاهر ابن عاشور - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص ٣٣٠.
- ١٣ - البقرة / ٢٥٦.
- ١٤ - يونس / ٩٩.
- ١٥ - الشيخ محمد النخلي - آثار الشيخ محمد النخلي، جمع وتحقيق عبدالمنعم النخلي وحمادي السحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥، ص ١١٠.
- ١٦ - نفس المصدر، ص ١١٠.

نحن والغرب والعولمة المضادة ..

الصراع الحضاري المتجدد والحوار النقدي

الدكتور سمير سليمان

أستاذ الحضارة الإسلامية في الجامعة اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

في المنهج

في الكلام عن العولمة والسياسات والاستراتيجيات الغربية يصعب الفصل بين القضيتين بقدر ما يصعب الفصل بين العولمة والغرب. صحيح أن الغرب هو المصدر والمنشئ، إلا أن هذا الغرب، مفهوماً وكياناً ومشروعاً حضارياً وإرادةً سياسية، مسيل في تضاعيف وانسجة سياساته واستراتيجياته حتى لتبدو (هي) بمثابة الـ (هو) - والعكس صحيح أيضاً في كثير من الأحيان، وبطريقة أو بأخرى .. أو كذلك ينظر اليهما. إلا أن هذه الحقيقة ينبغي لها أن لا تُجَب حقيقة تأسيسية ومنهجية أخرى، وهي أن الغرب ليس معادلاً أو مساوياً للعولمة في معادلة تكافؤية: (الغرب = العولمة).

فالغرب تركيبة أضخم وأشد تعقيداً من أن يكون مشروعاً من مشاريع ذاته وبضعة منها.

قد يشبه الإبن الأب في كثير من الملامح والصفات والأسرار، مبدأً أن الابن سرّ أبيه، إلا أن الأب ليس إبنه وإن كان منه.

ألا يستخدم بعض اللاهوت الخاص بإخواننا المسيحيين هذا النسق المنطقي ذاته في معادلة: الأب والإبن والروح القدس، للاستدلال على أنهم من الموحدين؟

١. حقل الرؤية

شكلت مسألة العلاقة بالغرب^(١) إحدى أبرز المعضلات / التحديات الموضوعية التي شغلت الحركات الإسلامية المعاصرة والحديثة. وبالرغم من الانجازات الكبرى التي حققتها حالة الاستنهاض النسبي في بلدان العالم الإسلامي كافة، وخصوصاً ما ظهر منها بعد إنتصار الثورة الإسلامية في إيران، فإن تلك المسألة الحافلة بالإشكاليات ما انفكت عقلة مستحكمة تحول دون تشكل علاقات مستقرة ومتوازنة ومتفق عليها بين الشعوب والدول الإسلامية وبين الغرب عموماً.

والواقع أن مسؤولية الإضطراب التاريخي في تلك العلاقات لا تقع على الغرب وحده كما لا يزال البعض يصرّ على التوهم، بل تقع أيضاً على المسلمين أنفسهم أحياناً، وإن بنسبة أقل. أما رصيد الغرب من تلك المسؤولية فهو أكثر بروزاً في الجانب الموضوعي تبعاً للخلل التاريخي في معادلات النظام الدولي في الأزمنة المتأخرة لمصلحة القوى الإستعمارية والإمبريالية الغربية وسعيها المستمر الى ترسيخ عوامل ومفاعيل تجزئة العالم الإسلامي ونهب ثرواته والمهيمنة على مقدراته وإرادة شعوبه وإستتباعه سياسياً وإقتصادياً وثقافياً وعسكرياً لمشروعها الحضاري وصيغ الحياة المادية وقيمتها ومثلها العليا التي تهدف تلك القوى الطاغوتية الى فرضها وإستلاب الأمة من خلالها وممارسة كل صنوف الإستكبار عليها.

أما حصة المسلمين من تلك المسؤولية فتشمل، فيما تشمل، الجانب الذاتي بشكل أساسي، وذلك واضح في الوعي أو التبسيطي أو (الشعوبي) بالغرب لدى الأكثرية منهم، بحيث لا يرى الغرب إلا عالماً واحداً للكفر والفسوق والسقوط الاجتماعي والأخلاقي والتحالف الاستراتيجي مع العدو الصهيوني

ومعاداة الحقوق المشروعة للشعوب العربية الإسلامية .. الخ، حتى لا يرى فيه خير إلا نادراً، كما تشمل حل الاضطراب العام في وعيهم لذاتهم وهويتهم، وفي جعلهم مشروعهم الحضاري الإلهي الذي يشتركون في الانتماء اليه جزئياً او كلياً مع الكثير من القوى والجماعات والفئات الداعية الى الحق والحريّة والعدالة لأمم الأرض كافة من أحرار العالم وموالاته المدنية الحية، وعجزهم في كثير من الأحيان عن تقديم بدائل او نماذج حضارية منافسة وقابلة للتطبيق وعقلانية ومقنعة، قياساً الى الصيغ والنماذج والأنساق الحضارية التي أبدعها العقل الغربي، أو أعاد انتاجها وأرساها واختبرها وأسسها، فغلقت في وعي ولا وعي الكثير من الشعوب، داخل العالم الإسلامي وعالم المستضعفين عموماً والنخب، النموذج الأصلح والوصفة السحرية الناجعة و(الوحيدة) القادرة على تطوير العمران البشري في المجالات كافة، ومعالجة العلل الاجتماعية والاقتصادية ومعضلات التخلف - أو أكثرها بالأقل - التي ترزح تحت أحمالها تلك الشعوب المستضعفة والنخب العاجزة عن تقديم البدائل الأصيلة وغير المستعارة لشعوبها. وبذلك تحققت، وعلى نطق علمي، الغلبة الشاملة للمشروع الحضاري الغربي ومنظوماته الديمقراطية الليبرالية وللمتممين اليها غرباً وشرقاً والمتحكمين او المستفيدين من قانون سوقها واحتياجاتها، وإن تفاوتوا قوة واقتداراً ومكراً، او تمايزوا جنوحاً الى الاستبداد والاستحواذ والسطوة، او تغيروا في نظرتهم الى الآخر واختلفوا في نسبة ومستوى (الحقوق) والثروات التي ينبغي لهم إنتزاعها منه.

وإذا كانت ضرورات التحرر الوطني والتطلعات الاستقلالية قد طغت على ما عداها في مرحلتي الاستعمار القديم والجديد مما انتج بالتالي جنوحاً إيجابياً مشهوداً للتمسك بالخصوصيات الثقافية او التاريخية والدينية لدى شعوب العالم

الإسلامي والدفاع عنها بلا هوادة في مواجهة الهجوم الاستعماري المعلوم والمتماهي في المشروع الصهيوني التوسعي والإستيطاني، وقدم ذلك الجنوح الإيجابي ضرورات التصدي للغرب ومشروعه الاستيلاني الاستحوازي وللكيان الصهيوني كأولوية لا تلوها أية أولوية أخرى في توجهاته الأيديولوجية والسياسية، وذلك على أولويات تجاوز التخلف الفكري والعلمي والاقتصادي وإعادة المشروع الحضاري الإسلامي ليكون مرجعية الحيلة وخيار النهوض والاستنهاض ومنهج إحياء عقلائي، فكان منه أن قدم أولوية التحرر من الخارج على تلك المنطقة بالتحرر من الداخل وبالتمنية الذاتية، وإذا كانت الحرب الباردة منذ قمة يالطا إلى أواخر ثمانينات القرن العشرين قد أوهمت العالم الإسلامي وقادته ونخبه بحدوث إنشطار حضاري عمودي في معسكر المشروع الحضاري المادي المنقسم أيديولوجياً إلى شرق ماركسي وغرب ليبرالي ديمقراطي، إذا كان ذلك قد حدث فأنتمج انساقاً أيديولوجية وسياسية وثقافية وتنموية ذات عمق وطني أو قومي أو ديني معادية للغرب أو للشرق أو لكليهما معاً، أو متوجسة منهما أو متحالفة معهما، أو ميالة إلى اعتبارهما حضارتين / مشروعين حضاريين مختلفين ومتمازين يمكن الاستفادة من تناقضاتهما وضرب أحدهما بالآخر، أو الإحتماء بواحد منهما في مواجهة خصمه ... الخ، إذا كان كله قد حدث فإن انتهاء الحرب الباردة وتفكك المنظومة الاشتراكية وعودة الإلتحام الحضاري إلى طرفي الانشطار الغربي ليلتثما ويأتلفا من جديد بإعتبارهما مشروعاً حضارياً واحداً، اصلاً وصبورة ومصيراً... قد أعادت تدريجياً تركيب التوجه المنهجي والصحيح لفهم أكثر واقعية وعمقاً لحقيقة العلاقة التاريخية بين طرفي ماجرت تسميته معادلة الإسلام والغرب، وسمح بتكوين وعي عالمي وإسلامي أفضل بطبيعة المشروعين الحضاريين^(٣) اللذين يضطلعان بمحملهما،

وازال الكثير من عوامل وظروف الاشتباه والالتباس او سوء الفهم التي لطلما أرخت بظلالها الكثيفة على تلك العلاقة وما ينبغي أن تكون عليه، وذلك باتجاه اجراء قراءة لها في ضوء التحولات الاستراتيجية الكبرى التي حدثت في الغرب وعلى أرض المشروع الحضاري المادي وأدت الى انهيار عام للنظام العالمي القديم وسقوط درامي لمعادلات ومنظومات الثنائية القطبية والتي تطاول حضورها على مدى الحرب الباردة ولم يكن ممكناً لسبل وآليات ومعايير هذه القراءة الجديدة أن تبرز في العالم الإسلامي والعربي، لولا ذلك الصعود (المفاجئ) للمشروع الحضاري الإسلامي الذي استعدته الى الواجهة الثورة الإسلامية الإيرانية وقيام أول دولة إسلامية في التاريخ الحديث على انقاض الحكم البهلوي الاستبدادي، الوكيل الثاني للامبريالية الغربية في الشرق، بعد الكيان الصهيوني.

صحيح أن صورة العالم إبان الحرب الباردة التي انفجرت الثورة الإسلامية في سعي الى كسر معادلاتها في أواخر سبعينيات القرن العشرين، كانت بخطين ايدولوجيين يتجهان وجهة واحدة ويرميان الى الوصول الى ذات الأهداف تقريباً بسياقين مختلفين، إلا أن المشروع الحضاري الإسلامي المستبث بعد لأي ويأس شاملين في العالم الإسلامي، تمكن من إعادة تشكيل تلك الصورة للنظام العالمي والعلاقات الدولية، بإضافة وجهة منهجية جديدة ومغايرة، حتى أمكن القول أنذاك أن النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية كان برأسين منبثقين من حضارة واحدة، غير أنه بعد انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية والتداعيات والامتدادات الارتجاعية التي احدثتها في كل بقعة من بقاع العالم فيها للمسلمين وجود، قد أضحي بثلاث رؤوس منبعثة من جذعين، أي بإضافة مشروع حضاري جديد الى الساحة الثقافية والايديولوجية الدولية. وعندما أطاحت الرأسمالية رأس الاشتراكية لم يعد ظاهراً في صورة النظام الحضاري للعالم سوى رأسين / مشروعين

كما وسبق وأسلفنا، ولكن في معادلة فيها للمشروع الحضاري المادي غلبة شاملة بحكم التوفيق العلمي الكبير الذي حققه والغنى الذي أنجزه، والتقدم المعرفي والثقافي، إضافة الى عصرية منظوماته السياسية وتطوره الإقتصادي الهائل.

إضافة الى التحولات الاستراتيجية التي نوهنا بها، قبض للعالم في السنوات الأخيرة، وعلى أيدي حملة المشروع الحضاري المادي أنفسهم وبسبب من المراكمة العلمية التي أحدثوها، أن يشهد ثورة تكنولوجية وفضائية ومعلوماتية ضخمة لم تألف لها المدنيت البشرية مثيلا، وهي، بسلبياتها وإيجابياتها، قد غيرت بحق وجه العالم الحديث وراحت تضيف الكثير من صيغ الحياة الجديدة اليه وفرضت - موضوعيا - أنماطا مختلفة من العلاقات بين البشر وصيغا مغايرة من صيغ التبادل والتعاون والتعامل بين الأفراد والجماعات والشعوب والدول، حتى أضحت وصف العالم بالقرية الكونية خلوا من المبالغة والخيال، فانفجت العلاقات بين الناس بلا حدود وقصرت المسافات بين البلدان والقارات الى درجة الصفر، فالتحدرت الجغرافيا الى قيمة تكاد تكون هامشية إلا بما هي حالة حدودية تضاريسية او وطنية، وأشرعت الأبواب أمام كل الأفكار والمعلومات والمعاملات والمنظومات الاجتماعية والمثل وتحولت جميعها الى خيار فردي وانتقاء حر يسير، ليعرف العالم بذلك مرحلة تاريخية جديدة من التطور البيوي الذي يضع فيه من يتمتع عنه او يكابر، نفسه خارج العصر حقا، بل خارج التاريخ، وبذلك أصبحت الدعوة / الدعوات العولمية وكأنها نتيجة موضوعية لهذا التطور لا مجرد سبب من أسبابه أو آلية من آلياته.

وإذا كنا لا نبغي في هذا المقام الخوض في تفاصيل نشأة العولمة، والاختلاف فيها، ولا في مواقف مؤيديها وخصومها، كل بغاياته ومقاصده وتصورات، فإننا نعتقد إنه من المهم الإشارة الى أن العلومة والسعي اليها هما فكرة تاريخية

عضدتها موازين القوى، او اقتداء المغلوب بالغالب (بمنهج ابن خلدون)، او اقتداء المغلوب الحضاري بالغالب الحضاري (بمنهجنا)، وتجمدت فيها مجموعة تحولات في الزمان والمكان وفي التأثير عن بعد - بتعبير انطوني غيدنز^(٣)، مما انتج جزئياً نظاماً اجتماعياً بعد تقليدي^(٤)، وإيديولوجية كاملة ومتخصصة اندع فيها الفكر العولمي بلا عوائق تذكر مغطياً ألوان الطيف السياسي داخل الغرب وخارجه من اليمين الى اليسار.^(٥)

إذ نقول ذلك، فإننا ممن يؤمنون بأن العولمة ظاهرة موضوعية وبعضها الكثير من نتائج انتهاء الحرب الباردة وتطور الرأسمالية، وسواء قبلها من قبل، وعارضها من عارض، فإنها قد غدت شريكاً حضارياً وسياسياً وحياتياً في صيغ معيش الأمم، المتلقي منها والمرسل. ولا نظن أنه بت من المجدي (والعقلاني؟) تجاهل نتائجها وانعكاساتها والتداعيات. وليس أذل على هذا الأمر الواقع من كون ما يسمى (بالعالم الثالث) / عالم الجنوب معولماً تاريخياً بدرجة أو بآخرى، من غير أن يعني ذلك أنه قد انشق عن تقليديته، او انفصم كلياً عن بنى علاقاته وصيغ حياته المحافظة. ووجود العولمة او عدمه وجودها لا يلغي في شيء حقيقة كون العالم الإسلامي بخاصة والعالم الثالث بعامة، عالين يحملان الكثير من قابليات الاستبابت الايديولوجي والسياسي والاقتصادي المعولم.

ونضيف هنا: إنه إذا كان دعة العولمة او خصومها قد حاروا في تفسيرها والوعي فيها بين السياسي والاقتصادي الى الاثنين معاً، فإننا نميل الى الاعتقاد بأن العولمة ظاهرة حضارية بللعنى الذي كنا قد نوهنا به آنفاً، إذ إن الحضاري / الثقافي من وجهة النظر هذه، هو منشأ السياسي او الاقتصادي، او كليهما. وبالتالي فإن العولمة إن كانت قد صنعت أدوات الاستحواذ والهيمنة ودينامياتهما، فإنها - وربما عن غير قصد من سدنتها - أفرزت في المقابل أدوات ثقافتها وتفكيكها

ودينامياتها، فاستُحضِر الكُل في الجزء، واستُكِن الجزء في الكُل، وتحررت علاقات الأفراد والجماعات من قيود الزمان والمكان لمصلحة أوسع سوق لتداول كل شيء بدءاً بالسلع والأشياء ورؤوس الأموال والأسهم، وصولاً إلى الأفكار وردات الفعل والحوافز وعقود الزواج^(٦) التي جعلتها تكنولوجيات الإتصال بمثابة الحضور المادي بمفاعليها الحقوقية والقانونية كافة.

وللمصابين بالإرهاب / الإرهاب العولمي نقول: سواء أكانت العولمة حالة موضوعية كما رأينا إليها، أو قدراً دائماً أو مؤقتاً، فإنه لا يضيرنا أن ندرسها بعمق، وأن نعيها وعبئاً موضوعياً بأبعادها كافة فنختار منها - في الأقل - ما يلائمنا وينسجم مع قيمنا وينضوي تحت لواء مشروعنا الحضاري الإنساني، وفي كل حل .. ما الضير في عولمة العلم والمعرفة والتكنولوجيا والمعلومات؟ وما الضير في عولمة الحريات والديمقراطية وتداول السلطة سلمياً؟ وما الضير في عولمة حقوق الإنسان؟

وما الضير في عولمة قيم التكامل والتعاون والتعارف بين الشعوب والأمم؟ وأنسى يكون الخطر في تعميم رفع الظلم والتهميش والتمييز الديني والعنصري والاقتصادي؟

أمام هذه التحولات التي طرأت مع غروب القرن العشرين، والقفزات العلمية الكبرى التي حدثت ومنها الثورة الجينية الواعنة بشورة أخرى في حياة البشر، ثمة المجاز تاريخي آخر من إنجازات الطفرة التكنولوجية الحديثة، لم يعد ممكناً لأحد، وخصوصاً في العالم (غير الممكن) أو غير التقاني الذي يستهلك التكنولوجيا والمعلومات ولا ينتجها - أو العالم الثالث سابقاً أو عالم الجنوب لاحقاً أن ينزوي أو يتخذ مهرباً من الآخر بكل انماطه^(٧): الآخر الأيديولوجي، والآخر الديني، والآخر الاثني أو العرقي، والآخر السياسي، ... الخ، فلقد بات

الأخر المتنوع، وخلافاً للأعصر السالفة، حاضراً في الذات باستئذان تارة، وبغيره تارة أخرى، وغدا حاجة وضرورة أكثر من أي وقت مضى، تتشكل العلاقة به من دون وسائط منهكة أو مكلفة أو بعيلة، وخارج الأطر والنماذج التقليدية التي تفكرها المؤسسات الاستعمارية الكلاسيكية نماذج مدروسة ومخطط لها، أو بصور وأشكال بنمطية معروفة الأهداف والمقاصد ...

علاقة الذات بالأخر إذن، اضحت بلا قيود أو محددات مفروضة ومقررة سلفاً... إن هذه المفروضات أو قل بعضها باتت أكثر من أي وقت مضى ممكنة الخرق والتهافت، وذلك يتيح للبشر قاطبة ان يستعيدوا في مناخ من فوضى الاتصال الرائجة بعضاً من أصالتهم الإنسانية وأن يتعارفوا مباشرة كما هم، وكما يريدون أن يكونوا، بلا أوهام أو تصورات قبلية، وذلك بالرغم من بعض المحاولات العولمية المشبوهة الداعية الى تعميم النموذج الواحد في كل الشؤون لمصلحة كارتل أممي متعددة الاختصاصات.

٢. الذات والأخر ... عالم جديد برؤية جديدة في ضوء المواجهة الثقافية والسياسية

ولا نريد في هذا التنويه بثورة الاتصالات وتكنولوجيا الفضاء والمعلومات ومفاعيلها العولمية أن لا نرى في مستجداتها وطوارئها، إلا النفع العميم والخير الناجز والايجابيات المتفردة فحسب للناس كافة، فنحن نعرف - بالمقابل وفيما يعني الحركات والقوى الإسلامية الحالية تحديداً - أن تلك الانجازات الانسانية اللامعة والعبقرية هي سلاح ذو حدين يصلح أحدهما ليكون وبالاً عليهم كإسلاميين استنهاضيين وتهديداً وجودياً للمشروع الحضاري التغييري الذي يحملونه وذلك لمصلحة المشروع الحضاري المالي المضاد الذي ينافسه، لكن حده الآخر - وهذا ما لا ينبغي تجاهله أو إحتمال أهميته وتأثيره - يتيح للمشروع الحضاري الإلهي لو عرف أهله الاستفانة - ولو بغير قصد أو تخطيط من الأول

على الأرجح (كما سبق وذكرنا)، الجمل لتقديم نفسه كما يحلو له وأن يعرف بمنظوماته وأفكاره وقيمه من غير تشويه أو تشويه، وأن يخلق فوق المسافات والذنى بغمضة عين ليدخل الى جناح كل مريد، ويرد على تساؤلات كل متسائل، ويستجيب لكل مطلب ممكن يطالب به مطالب في أقصى الأرض، وينقد ويفند حجج ودعاوى المنظومات والاعتقادات المناوئة، ويجلو الكثير من الأضاليل وسوء الفهم التي كانت تحيق به، ولعلنا لا نضيف جديداً إذا لاحظنا هذا التمدد والانتشار المشهودين لاستخدام تكنولوجيا المعلومات على نطاق واسع بين ظهراني دعة الاعتقادات والأفكار والعلمين على تبليغها ونشرها.

ومع ادراكنا العميق لطبيعة التوترات والتوجسات بين الإسلام والغرب والإرث الثقيل من المواقف الثقافية والايديولوجية والسياسية التي حكمت وتحكم العلاقات فيما بينها، ومع وعينا (المتقدم) محاولات المؤسسات السياسية في الغرب، محاصرة العالم الإسلامي ومشروعه الحضاري ونواياها ودأبها في الهيمنة على ارادته وثورته، ومع إدراكنا العميق بأن موجات العولمة الإكستلاحية تسعى الى تنميط العالم وإنتاج نموذج إنساني واجتماعي كوسمبوليتي قد يفضي الى اغراق الخصوصيات الثقافية وطمر القيم الثقافية للشعوب المستضعفة وتحويل العالم الى سوبرماركت او مقرات مركزية للعلاقات العامة والاستثمارات ... مع إدراكنا لهذا كله، فإننا نعتقد بإستحالة بقاء المشروع الإسلامي وأتباعه مجرد منفعلين هامشيين او سكونيين او تائهين عن التحولات التي أشرنا اليها. بل إننا نرى أن ثمة فرصة هامة متاحة لإحداث إختراق - او إختراقات - في كيان المشروع الحضاري الماضي ومعتنقيه وفي أسواره الثقافية، وفي تغيير الصورة النمطية التي تكونت عن الإسلام والمسلمين بفعل الأوهام الإعلامية المتقنة سياسياً التي

روجتها او روجت لها وسائل الإعلام الغربية التي لليهود فيها نفوذ لا يعلو عليه نفوذ.

لقد لاقانا احرار الغرب والعالم ومواطنينا الحية والمستقبلية إبان التحضيرات الاميركية البريطانية الاخيرة لاحتلال العراق في منتصف الطريق - حتى داخل الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما - ورفعوا اعلى الصوت ضد الحرب على العراق وشعبه، وضد فرض الخيارات السياسية والثقافية والاقتصادية على الشعوب بالقوة والحديد والنار، وعلنوا تشبثهم بالسلام والحلول السلمية للنزاعات، ورفضهم سياسات التسلط والعسف والاكراه.

لكأن العالم يتهاياً لنمط جديد من العولمة لما تكتمل ملامحه ولا مشروعه الاممي بعد. لكنه نمط يتجه اتجاهها معاكسا (نسبياً) لنهج العولمة الرأسمالية التي الفناها في العقد الاخير من القرن العشرين والستينين الاوليين من القرن الواحد والعشرين. وقد لانبالغ اذا زعمنا ان هذه العولمة المستجدة هي ضرب من «العولمة المضادة» يمكن لنا وصفها بأنها (عولمة للعدالة والسلام). ولاندرى بعد ما اذا كان القياس بالديالكتيك الهيجلي في هذا السياق ممكناً.

ثمة ظاهرة اخرى مستجدة شهدناها ايضاً خلال (الحرب) الدبلوماسية والسياسية التي مهدت لتفرد الولايا المتحدة وبريطانيا وحلفائهما الدوليين القلة في الاضرار على الذهب الى الحرب، رضيت الهيئات الدولية ام لم ترض، وهذه الظاهرة تتمثل في التصدع داخل الجبهة السياسية للغرب من خلال تمرد بعض اوروبا، مثلاً بفرنسا والمانيا وبلجيكا، على التوجه الاميركي - البريطاني.

لانز هذا التمرد الاوروبي عن الحلفيات ولعبة تناقض المصالح. لكننا بدأنا ننصت على اثرها في الغرب الى تنظيرات من مفكرين استراتيجيين ترى الى ما حدث باعتباره سقوطاً لوحدة الغرب الاستراتيجية واستمرارها ثقافياً وسياسياً

واقصديا،^(٨) والى ان الوقت قد حان (للتوقف عن الادعاء بأن الاميركيين والاوروبيين يتقاسمون رؤية واحدة للعالم).^(٩)

صحيح ان الحرب العسكرية على العراق قد انتهت باحتلاله، وستنتهي ازمة العلاقات بين الطرفين الاميركي والاوروبي الى اعادة تطبيعها، غي ران (الفوارق في المسائل الاستراتيجية لن تتوقف) في رأي اولئك المنظرين.^(١٠)

وسواء صحت توقعاتهم ام لم تصح، فليس لذي بصيرة ان يغفل عن ان التشقق في ما درجت ادبياتنا السياسية على تسميته بـ (الغرب) ليس شأنًا خارج نطاق الممكن، وان ما كان بعيد الاحتمال بالامس ليس كذلك اليوم. وبالتالي فان اي مشروع غربي للهيمنة، ويقطع النظر عن اية قوة عظمى تقوده، ليس محصنا من تشقق دعاية والمستفيدين منه، ومن انهيار مفاعيله السلبية وارتخاء قدرته على فرض نماذجه وتحويل الانسان الاجتماعية والحياتية للآخرين الى ما يتلاءم مع مصالحه واهدافه..

ولانريدها هنا ان نغرق في التفاؤل .. لكن ما نستطيع الشهادة له ان ثمة ظاهرة عولمية ايجابية وواعدة قد ولدت في مواجهة عولمة قوى السئوق وقوانينها. مما قد يفضي، بما توفر له من صدقية سياسية واخلاقية نسبية، الى تشكل نمط علائقي جديد بين المجتمعات المدنية في شتى

الاقطار، مما قد يبشر - اذا توفرت بعض الشروط الذاتية والموضوعية المساعدة - بتحول تلك القوى لاحقا الى كتلة ضغط مدني عالمية قادرة بنسب متفاوتة على احداث تغيير في سياسات القوى العظمى تجاه القضايا والحقوق العدالة لشعوب المستضعفة.

انها فرصة قد لاتعوض لاقامة هذه الجبهة العالمية لاعادة الحد الادنى من التوازن للعلاقات الدولية، اذا لم نحسن جميعا استغلالها، وبخاصة الإسلاميون المستنيرون وحركاتهم الاستنهاضية.

ومن لطيف المصاديق في التدافع بين الحضارات، ان الحرب الاميركية - البريطانية على العراق لم تكن صدقا بين الفحضارات - كما حلا لبعض الباحثين والمحلين ان يتوهموا - بدليل وقوف تيار جماهيري دافع من داخل الكتلة الحضارية الغربية ذاتها ضد تلك الحرب. ولانستبعد - اذا قيض لهذا التيار ان يتنامى ويعضد من داخل ومن خارج - ان يكون له في المستقبل غير البعيد انكاسات ايجابية على صورة الإسلام والمسلمين النمطية في بنية المخيل والوعي الغربيين بالرغم من مواقف ومخططات المؤسسات السياسية الغربية واجهزتها والاعلام النمطي الذي يسوق خطابها ومواقفها.

لقد آن لنا ان ندرك بان الديمقراطية ولانة للمجتمعات المدنية في الغرب، وان القوى الحية في هذه المجتمعات هي الوجود بالقوة للتحويل في موقف تلك المجتمعات من قضاياها الخقة.

ولا يخافن احد من مصطلح مفهوم المجتمعات المدنية والعلاقة بها الذي غدا موضع حساسية وتوجس الكثيرين عندنا بلا مبرر وجيه او مقنع. فبعض مظاهره الاساسية لطلما كانت معروفة في المجتمعات المسلمة القديمة والحديثة، ومجتمعاتنا اولى بتجسيد مضمونه قبل اية مجتمعات اخرى.

ان المجتمع المدني، هو بمصطلح علماء الاجتماع: الفضاء الاجتماعي الذي لا يخضع للسلطة السياسية بشكل مباشر، ولا يدعن لاجهزتها الرسمية، بل ينأى عنها حتى حدود الرقابة عليها ومحاسبتها.

والمجتمع المدني هو جميع الهيئات والمؤسسات والتنظيمات والقوى الحية التي تتصل بإدارة جوانب هامة وأساسية في حياة الفرد والجماعة، وتنظم انشطتها. وتحدد مواقفها بقدر مشهود من الحرية والاستقلالية.

في التاريخ العلائقي الصدامي بين الإسلام والغرب كانت المجتمعات المدنية الغربية مؤلفة مع مؤسساتها السياسية في المواجهة الشاملة التي حدثت في بعض الحقب مع المسلمين، وكذلك كانت حل المجتمعات المدنية والمؤسسات السياسية في الجان المسلم في بعض المراحل والحقب. ولأمر من بلذ الجهود اللازمة لفك ذلك الائتلاف تدريجياً، والضغط الدائم في هذا الاتجاه، وما كنا الحنا إليه سابقاً من استفاقة وعي وضمير الرأي العام الدولي حيل الحرب على العراق، هو اول الغيث في هذا السبيل.

ان بيننا وبين الغرب تاريخاً متطاولاً من التنازع الايديولوجي والسياسي والعسكري والديني احياناً فضلاً عن الممانعات الاخلاقية والفلسفية غير ان هذا التنازع مكتنز ايضاً بالكثير من عوامل سوء الفهم المتبيل التي شكلت في بعض الحقب بنية تحتية او خفائض (وخاصة من جهة الغرب والنخب الغربية)، صالحة للانارات العدوانية والهروب والتصورات السلبية المقررة سلفاً. والدارس الموضوعي، قبل التنافر والتناحر السياسيين والايديولوجيين وبعدهما، ومن الطرفين، اذ يعاود النظر في المشروعين الحضاريين: المادي والالهي الإسلامي يعثر فيهما على نقاط كثيرة مثيرة للتباين والاختلاف، لكنه يجد فيهما وبينهما - بالمقابل - الكثير من القواسم المشتركة التي يحسن الانطلاق منها والبناء عليها ف يالتوجه الى الآخر، دون ان يعني ذلك التماهي فيه والانصياع والاذعان لارادته والارتخاء في برائنه وتصديق خدعه وجعله قادراً على فرض املاءاته ومصالحه. ولقد اضافت مستجدات الاعصر المتأخرة الى تلك القواسم هموماً ومسؤوليات

واعاء مشتركة جديدة، لأمجد عن مواجهتها والتصلي لها بتصوير وآليات وجهود وامكانيات وتعاون متبادل.

ولا يبدو لنا في فهم علاقة (المسلمين) بالغرب وفيما ينبغي لهذه العلاقة ان تكون عليه افضل من الشعار القرآني الذي رفعه واكد عليه الامام الحميبي (قدس سره): «لا تظلمون ولا تظلمون» ولا في وصف الواقع الحضاري والاجتماعي للطرفين، اتق من عبارة الشيخ محمد عبده: «ذهبت الى الغرب فوجدت إسلاما ولم اجد مسلمين، وعدت الى الشرق فوجدت مسلمين ولم اجد إسلاما».

٢- العولمة .. الحضور النقدي

بينما تحضر العولمة بنماذجها الكونية الكوسموبوليتية في دورنا وامزجتنا وتنغلغل في نسيج ثقافتنا وحياتنا وتتدخل فيما نحب وفيما نكره، وتمتد غلبتها في مغلوبيتنا، فان الرد عليه من قبل المغلوبين لا يكون باضافة (لا) جديدة الى (لاءاتنا) السابقة لكل ماهو غربي لمجرد كونه غريبا، كما لا يكون الرد بالغياب الحضاري مادام حضورنا المادي معلوما موضوعيا. فلا فراغ في الكون، وان لم نسد (فراغاتنا) فسيملأها الآخرون حتما وقسرا، وسنفقد اي فرصة في استعادة الحد الأدنى من التوازن مع المشروع العولمي، وقد امسى واقعا في وجوده وشبكة نفاذه ونفوذه، لكنه واقع غير ثابت دائما وفي كل الشؤون والمسائل، كما ان الحقل العولمي وموقع اختباره ليسا مؤاتيين على الدوام.

ان سؤال اين الـ(نحن)؟ يظل مشروعا في وجود الـ (هم) الموضوعي.

ان كوننا مجرد ردة فعل على كثير من الفعل التي تصيينا، وان كوننا في موقع الاستلاب والضحية، لا يغفران - ولا يبرران - البتة لنا الغياب، ولا الاستسلام والاكتفاء بالصراخ (الخافت؟!) نتيجة لما يعصف بنا وحولنا. فليست (التجربة)

العولمية اول ولا آخر المطاف في علاقة اللاتوازن المتفاقم بيننا وبين التفوق الغربي. واذا كانت لنا مع تلك التجارب هزائم، ونحن على ما هو مشهود من تهافت وتخلف ومواجه ضعف، فان لنا ايضا تاريخا من الممانعة والمقاومة ينيء بأن مسؤولية الهزائم تتحملها، في الاعم، النخب التي اضطلعت بأعباء المواجهة (في حل وجودها) لا الامة بأسرها. اما عندما كانت الامة هي المعنية بالمواجهة فان احدى النتيجةين كانت الملك: اما جعل انتصار الخصم صعبا ومنهكا وظرفيا، واما الحاق الهزيمة به ودفعه الى الانكفاء، او حتى الى فرض الاندحار عليه.

ان للهزيمة شروطها. لكن للمقاومة شروطها ايضا. كما لها ادواتها ومستوياتها وخطتها واعدادها، وفي طليعة ذلك كله المعرفة الوثيقة بمن، وبما نواجه .. وليست مشاريع الهيمنة العولمية خارج سنة نقاط الضعف ونقاط القوة، ولا خارج سنة الايجابيات والسلبيات.

ولاريب في ان قدرة المغلوب على الاختيار بينها ليست مطلقة، بيد انها ايضا غير معطلة بالكامل. فاستعادة مجتمعاتنا بعضا من سيطرتها على اقتصادها والخروج من هوس الاستحواذ والاحتفاظ الثقافي والسياسي والاجتماعي ليسا شأنين مستحيلين.^(١١)

أما البدائل المجدية والمقنعة والمتفق عليها فهي مسؤولية الرفض أو الممانع وبذا وبغيره يتشكل حضورنا في الساحة العولمية، أو بعضه في الاقل.. وأما الاستكاف والخرد المجانين، فشعوب العالم الإسلامي والعربي أدري بنتائجهما والمحصلات، ولن يغيرا من العولة الواقعة وفيها شيئا. ولعلهما يقدمان خدمة جليلة لها ولاستحكامها.

صحيح الكثير مما يقال ويكتب عن المشاريع العولمية واهدافها.. الا ان الصحيح ايضا ان (السباق الكبير الى الاستهلاك)^(١٢) في ازمة، وان الشعور

بالهامشية والاحباط والمرارة والقهر باتت كلها اشد وطأة في العالم اليوم من الفقر والجوع والامراض والحروب.^(١٣) فليست الطريق العولمية سالكة وأمنة الا جزئيا. وكنا قد اشرنا آنفا الى ان الاعتراض على مواقف وممارسات المؤسسات السياسية الغربية وجحونوها العولمي قد بدأ يراكم تجارب احتجاجية جعلت بعض الحكومات الغربية تقف في واد، بينما تقف شعوبها في واد آخر. فالدارونية السياسية والاقتصادية والعسكرية والزعم بأن البقاء للاقوى وان الضحية تستحق مصيرها لم يعودا في سوق التداول بلا منازع.

اما الفكر السياسي والفلسفة السياسية في الغرب فيما فتنا يرفعان وتيرة تقدمها الذاتي ويدعوان الى نظرة مغايرة لاداء اقتصاد الاعلام الموجه، ولطريقة تصوير ما يحدث في العالم الثالث بضغوط ايدولوجية. حتى ان اصواتنا مستتيرة قد بدأت تلقي تجاوبا شعبيا عندما رحلت تدعو الى اعادة النظر في وعي الغرب بالعالم. وهذا شأن كان حتى الامس القريب بمثابة المحرم، او في عداد غير المفكر فيه، الا في النادر من الحالات والنماذج. وانها المهمة محفوفة بالصعوبات لان جميع العادات والاعراف والمصطلحات الثقافية هي بلسان هؤلاء الحداثويين الغربيين الجدد (من مخلفات العالم القديم).^(١٤) المهيمن فكره على المؤسسات السياسية في عدد من دول الغرب والموصوف هناك باليمين النزي يعتبره انطوني غيدنز راديكاليا اذ يدعو الى التغيير عن طريق الجراحة الراديكالية.^(١٥)

ان الحضور التقليدي للمسلمين والعرب في المشهد الدولي المعولم يعني حضور المواجهة التي لا تستقيم في رأينا الا بالتوازي في العمل باتجاهات علة في الوقت نفسه:

أولاً : ذاتياً وداخلياً

وذلك من خلال القيام بخطوات التحصين الآيلة الى تعزيز عوامل الممانعة للسلبات العولمية. ولعل في طليعة تلك الخطوات الآتي:

١ - ضرورة تحديث وعصرنة آليات وديناميات المشروع الحضاري الإسلامي (اصولا وفقها وعلم كلام وموضوعات) بما يتلاءم والتطورات الحديثة في جميع المجالات، لاسيما منها قضايا الحريات العامة والخاصة، والمرأة، والاقتصاد وألمان، والتكنولوجيا والفنون والآداب.. الخ.

٢ - المبادرة العاجلة الى توفير جميع الشروط الآيلة الى اقامة حوار داخلي موضوعي بين الحركات والقوى الإسلامية بهدف تكوين رؤية مشتركة (في الحدود الممكنة) تطمح الى التوحد للمشروع الحضاري الإسلامي وللمدين الإسلامي نفسه حتى لا يبدو مجموعة من الإسلامات المتباعدة (يجب الاقرار بهذه الحقيقة الكارثية) التي تختلف فيما بينها في كثير من المشؤمات الاساسية بدءا من الهوية ووعينا لذاتنا وصولا الى الحداثة وحقوق الانسان والوعي الأخر وسبل التحرر وبرنامج الاولويات واقامة العداوات او الصداقات او التحالفات ونظن اننا في أسوأ حل امام: الإسلام الأميركي والإسلام على طريقة ابن لادن، والإسلام الصدامي، والإسلام السوداني، والإسلام الإيراني، والإسلام الباكستاني، والإسلام الطالبان، وإسلام ماليزيا.. وإسلام تركيا.

٣ - فتح اوسع الابواب للنقاش الداخلي لجميع قضايانا باتجاه تأمين اوسع مشاركة وتكالم بين قوى المجتمع المدني باتجاه تكريس سلم اجتماعي بين مختلف الجماعات الايديولوجية الاثنية والدينية والسياسية، وباتجاه تقريب المواقف والرؤى من كل شؤوننا وتشكيل كتل ضغط و تحريك لقوى المجتمع كافة، وتوفير

افضل الآليات والديناميات الديمقراطية لتحقيق تلك الاغراض ولتداول السلطة سلميا.

٤ - استكمالا للبند(٢): لعل في اولويات ديناميات تنميتنا المدنية ضرورة قيام احزاب ومرجعيات اهلية متعاونة ومتكاملة لتكون بمثابة وجعيات للرأي العام في شتى الشؤون العامة والوطنية، تكون قادرة على تفعيل دوره، وتنظيم حراكه، وحرص صفوف فئاته كافة في وجهة واحدة على طريق تحقيق الاهداف المشتركة.

٥ - توثيق العلاقات، خاصة، بالمرجعيات الدينية غير المسلمة وبمواطنينا غير المسلمين (المسيحيين تحديدا) على قاعدة المساواة التامة في الحقوق والواجبات مع مواطنيهم المسلمين، وعلى اساس اقامة اصح تعارف ديني واجتماعي ووطني وحقوقى.. بين المذنبين بهدف تكوين بنية اجتماعية وسياسية مترابطة ووحدة وتكامل وطنيين في المجالات كافة. ففي قناعتنا ان مواطنينا المسيحيين، بعد توحدنا الداخلي والوطني، هم بعض اهم عدتنا في احداث اختراق مؤثر في اوساط الرأي العام المسيحي في الغرب وفي ترشيد او تصويب علاقاته بالعالم العربي والإسلامي، ما سيقدم افضل العون للجهود المشتركة في احباط المشروع العولمي الامبريالي او اعاقته.

٦ - لم يعرف تاريخ المدنية الإسلامية نهضة وتنويرا وازهارا الا من خلال ابداعات فلاسفتها ومفكرها وعلمائها ومتقنين وفنانيها.. الذين كانت لهم اياد بيض في استنهاض أوروبا في حينه.

ولعل احد ابرز ظواهر المخطط هذه المدنية وتعثرها في مشهد الازمنة المتأخرة يتجلي في ان اكثرية هؤلاء: اما مستبعون مستأجرون لخدمة السلطان فأهدروا في هذا الموقع مواهبهم وكفاءاتهم، واما مهمشون لاحول لهم ولاقوة، واما كتب اعملة في الصحافة اليومية تؤسس كتاباتهم لاشخاصهم اكثر مما تؤسس لوجهة

فكرية يراكم كمها نوعها فتحدث في محيطها الاجتماعي مخاضات وعسي واستنهاض مبشرة، واما موظفون او معلمون محترفون تاكلهم هواجسهم اليومية، واما مهجرون في ياسورا علمية وثقافية تطوي البلاد بحثا عن حرية عزيزة او حية كريمة.. واما.. واما..

ان امر هذه المدنية الإسلامية لا يصلح في رأينا، الا بكثير مما صلح به اولها. وما لم تستعد الامة لنخبها العلمية وثقافية والابداعية دورها الاستنهاضي، فالكجوات ولادة اخواتها. وكيف لجماعة مراجعة مشاريع عولمة تنبض علما وتقنيات وخبرات واختصاصات معمقة وتخطيط استراتيجي بغير هذه الاسلحة المواضي؟!..

ثانيا: في الدائرة الدولية

أ - القيام بأوسع الحملات باتجاه المجتمعات المدنية الغربية (لقد جربنا عشرات السنين من الترك والاهمل للرأي العام الغربي فلنجرب بضع سنوات باتجاه مختلف).

ب - المبادرة السريعة الى تقوية وتعزيز اوسع اعلاقات مع المرجعيات المسيحية في اوروبا واميركا، وبخاصة المرجعيات الكاثوليكية وعلى رأسها الفاتيكان الذي كان له باع طولي في التأثير على مسيحيي العالم وجعل الكثيرين منهم ينخرطون في الحملة المناهضة للحرب على العراق واعتبار هذه الحرب شرا مستطيرا.

ذلك كله في اتجاه تصحيح صورة المسلمين والإسلام في الذاكرة والوعي المسيحيين في العالم، ويهدف اقامة حوار بناء لبيان المشتركات الكثيرة وكشف مجالات التقارب، مع السعي الخثيث الى محاصرة او تعطيل تأثير الجماعات

المسيحية المهودة في الغرب على الرأي العام واستشراء تغلغله في وسائل الاعلام المتنوعة الاختصاص.

يقتضي التعقل والحكمة ايضا فتح ابواب الحوار حتى مع تلك الجماعات المهودة باتجاه مساجلتها في معتقداتها وقناعاتها المحرفة او المنحرفة، وتأويلاتها الطائشة وبعضهم لاقى من صنوف العنت الكثير.

ج - في السياق نفسه نشير الى ضرورة بلذ كل جهد ممكن لترسيخ دائرة التمييز في فكرنا وخطابنا السياسيين والثقافيين والاعلاميين بين اليهودية والصهيونية.. وهذه قضية خلافية قيل وكتب فيها وعنهما الكثير.. ولقد آن اوان الحسم فيها على قاعدة التمييز الذي ملجر نقيضه على قضايانا الا المزيد من الارباك واصطناع الاعداء بكلفة مرتفعة. فلا يؤخذ الصديق، او الحليف، بالعدو، ولا الصحيح بالسقيم. فبين الشخصيات والقوى الداعية الى السلام ولوازمه في العالم رجال ونساء كثر ممن ينتمون الى اليهودية غير التحريفية، او الى اليهود العلمانيين، او هم من الذين يقفون الى جانب حقوق الشعوب في تقرير مصيرها وفي مقاومة محتلي ارضها وبخاصة الاغتصاب الصهيوني لفلسطين.. او هم من المناهضين المشهود لهم بالصدقية في معاداة الصهيونية والفاشية ومواجهة الجنوح العولمي انى تكن توجهاته.. وبعض من هؤلاء قد لاقوا العنت والمهوان وصنوف الاضطهاد من الصهاينة، او المتصهينين الكثر، ولايزالون..

نرى الى انه بات يهني ما اوردنا، بات بحكم المستحيل ان تغيب السياسات الغربية الجائرة المعتمنة حيل قضيانا، عربا ومسلمين، كما حيل قضايا المستضعفين في العالم، عن الأجنتة، علاقاتنا الدولية. وبالتالي فان كل استراتيجية او سياسة عولمية تخرجهما اليد السوداء للامساواة الكونية ستظل عندنا وعند اصرار العالم بلاشرعية، ولن تستولد الاستقرار الدولي الذي تنوهمانه، بل

الانفجار تلو الانفجار،^(١٦) ولن يكون اصحابها انفسهم في مأمن من شظايا تلك الانفجارات.^(١٧)

وفي كل حل، ينبغي - في رأينا - لعلاقتنا بالغرب (الكلي او الجزئي) وبأي طفوح عولمية تصدر عنه، بالجملة او بالمفرق، ان تخرج عن مجموعته مسلمات استراتيجية هي الآتية:

أ - رفضنا ومواجهتنا لاي نظام دولي او اي مشروع عولمي يقوم على اساس الغائنا ومصادرة حقوقنا وشطب خصوصياتنا الاعتقادية والاخلاقية والاجتماعية.

ب - مواجهة كل اتملظ تدخل المؤسسة السياسية الغربية، او محاولات تدخلها، في شؤوننا الداخلية وفي سعيها الى فرض املاءاتها السياسية علينا.

ج - مواجهة محاولات هيمنتها على اقتصادنا ونهب ثرواتنا واستتباعنا بعناوين وشعارات نفاقية تدس السم في الدسم.

د - مواجهة تحالفها مع اسرائيل وامعانها في المشاركة والاعانة على احتلال فلسطين وتشريد اهلها.

هـ - الحؤول دون منعنا من السعي الجاد الى انهاء مجتمعاتنا وتعطيل عوامل استضعاقها، والى امتلاك جميع وسائل القوة والمنعة التي تكفل تطوير قدراتنا المادية والعسكرية بما يضمن تحسين جاهزيتنا للدفاع عن بلادنا وحقوقنا ضد اي اعتداء، من اي نوع ومن اي مصدر جاء.

و - استعدادنا الدائم للانخراط في كل مشروع يعولم الحق والعدل وقيم الخير والسلام والحرية.

الهوامش

- ١ - ليس المقصود بالغرب هنا تلك الكتلة التقليدية الديموغرافية والاقتصادية والثقافية والدينية التي تضم الأميركيين وأوروبا وأوقيانية ومجالها الجيوسياسي، بل تلك المنظومة من الدول والجماعات المنتمية إيديولوجياً إلى مشروع حضاري واحد تعبر عن مواقفه ورؤيته للعالم وصيغ العمران البشري، المؤسسات السياسية الغربية وقوى المجتمع المدني التي اختارت نجبتها القيادية وتنسب اطروحاتها ومشاريعها الكونية ونظرتها إلى مجالاتها (ومصلحتها الحيوية) في العالم، حتى ولو كان من شأن ذلك إنتهاك حقوق الآخرين، وحررياتهم واستقلالهم والهيمنة على إرادتهم وثرواتهم وخياراتهم الاعتقادية والاجتماعية.
- ٢ - نعي بمصطلح (الحضارة) هنا مجموعة الغايات والأفكار والمعايير ومنظومات القيم والمثل العليا التي تكون مفهوم الإنسان لنفسه، ونظرة إلى الوجود وما وراء الوجود، وتصوره لعلاقات البشر وصيغ الحياة ونظمها، ومنتج سلوكياتهم وأفعالهم ومواقفهم وتطلعاتهم، وتنظم إجتماعهم ووسائلهم في هذا العالم، بحيث لا تنفصل الغاية عن وسيلتها.
- هذه المكونات هي بمعنى آخر: المشروع الحضاري الذي يشكل وعي الناس وكيانهم الفلسفي والثقافي والأخلاقي والمعياري، ويلتزم المؤمنون به تحقيقاً دينياً، ووصولاً بالإنسان إلى التكامل في بناء ذاته والتسيد على مصيره والاضطلاع بمسؤولياته في هذا العالم. وعلى هذا الأساس، فإن المشروع الحضاري الإسلامي هو الإسلام ومفهومه التوحيدي للوجود والحياة. ويعني هذا المفهوم التوحيدي وعي العالم باعتباره لم يخلق إلا بمشيئة الهية، وإن نظام الحياة الأصلح لا يقوم إلا على أساس الشرعية الإلهية القائمة على الخير والحق والعدل والرحمة والبلوغ بالوجودات إلى كمالها وتكاملها. وبذلك يجعل المشروع الحضاري الإسلامي الناقد دائماً إلى التحقق وإلى تغيير الحياة، لهذه الحياة معنى وهدفاً وجدوى.
- بهدي هذا التحديد للحضارة / المشروع الحضاري، وفي ضوء تصورنا لنظرة الإسلام والأديان السماوية للإنسان والتاريخ والصبوروة الاجتماعية، نعتقد أن تاريخ العمران البشري - كما التاريخ نفسه - لم يعرف سوى حضارتين اثنتين، لا ثلاثة حضارات، وهما حضارة التوحيد / المشروع الحضاري الإسلامي، والحضارة المادية / المشروع الحضاري المادي، وهاتان الحضارتان / المشروعان محكومتان بالاختلاف والصراع والتنافس، فكل منهما تقدم رؤية مغايرة للعالم، وخاصة في نسق القيم الأخلاقية التي تأسس عليه، فللنظومة الأخلاقية تعد أهم أهم المكونات الحضارية في الإنسان وفي رؤيته للعالم.
- ولا نعي بالصراع سوى مدلولات التدافع القرآني التي لا تقوم على الصلح العدواني، ولا على العزل المطلق للأخر الحضاري وإشهار القطيعة والإلغاء في وجهه، والاصرار المسبق على إعلان القنوط القاطع من جدوى أو تقدم العلاقة به إيجاباً. كما لا يتأسس ذلك الصراع على الرفض المنهج لأية إيجابية محتملة في الأخر مجرد كونه غير ال (نحن).

إن ثمة فرقاً جوهرياً بين الصراع والصدام في رأينا، فالأول هو بمثابة تباين وخلاف بين اعتقادات وإرادات وخيارات، ولا يتخذ بالضرورة شكل المواجهة المسلحة وإن كانت تتعدد أشكاله ومظاهره، كأن يكون فلسفياً أو سياسياً، أو اقتصادياً، أو إعلامياً... ففي مجمل مظاهر الصراع لا تقع الحرب لزوماً، وإن كان الصراع قد يقود إلى الحرب، خاصة عندما يلازم الآخر إلى استخدام القوة وفرض ما يريد بالإكراه الملتي والمعنوي.

٣ - غيدنز، انطوني (بعيداً عن اليسار واليمين) الترجمة العربية، ص ١١.

٤ - م. ن. ص ١٢.

٥ - انظر: هيرست، بول و: طوبسون، غراهام (ما العولمة، الاقتصاد العالمي وامكانات التحكم)، الترجمة العربية ص ١٢.

٦ - راجع: تورين، آلان (العولمة: ليبرالية مفرطة ما بين حربين)، (مقابلة)، جريدة (Lemond)، باريس ١٤ نيسان ٢٠٠٠، ونشرتها جريدة (السفير) معربة في ١٩ نيسان ٢٠٠٠.

٧ - لا يتخذ مصطلح (الأخر) عندنا دلالة اطلاقية، وهو هنا (الأخر الحضاري) أي الذي يحمل مشروعاً حضارياً بالمفهوم الذي سبق ونوهنا به، وباعتبار أن هذا المشروع يتقاطع مع (الذات الحضارية) المستننة إلى مشروع حضاري مغاير في إيجابيات عديدة وتختلف معه فيما تراه سلبياً، ولا يمكن لإسرائيل بالتالي أن تشكل بوجودها مثلاً سوى منظومة كاملة من السلبات الحضارية التي لا يحل أن يتقاطع معها أحد.

٨ - انظر: كاغان، روبرت، (على اميركا قيادة سياسة القوة)، مقابلة منشورة في مجلة EXPRESS الفرنسية.

٩ - المصدر نفسه.

١٠ - المصدر نفسه.

١١ - أنظر تورين، آلان - م. س.

١٢ - كابوشنسكي، ريزارد، في Lecourrier International (العدد ٥٧٣)، من ٢٥ إلى ٣٠ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠١، ص ٥٦.

١٣ - م. ن.

١٤ - م. ن - صص ٥٦-٥٧.

١٥ - غيدنز، انطوني - م. س. صص ١٦-١٧.

١٦ - تلاوي، ميرفت: في كتاب (أبداً مرئية...)، الترجمة العربية، ص ٩.

١٧ - م. ن: راجع ايضاً:

SACHS, JEFFREY "L.Emanouvel Observateur" و Paris : 13 - 19 Dec. 2001.

**العولمة الاستكبارية
وسايكولوجية القسر والقهر**

الشيخ فزاد كاظم المقدادي

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ريب أن مقولة العولمة كحالة طبيعية أصبحت من المدركات الواضحة لأهل الفكر والثقافة على اختلاف مبانيهم ومشاربهم، وذلك على أساس أنها إفرازٌ تلقائي للتحويلات التكنولوجية الهائلة في التواصل والتقارب الشديدين بين الدول والمجتمعات البشرية المختلفة لتشكل بذلك مرحلة جديدة من التلاقح الثقافي والتفاهم الاجتماعي والسياسي والتكامل الاقتصادي بأبعاده الإنسانية التي تُقلص من دائرة الظلم والاستبداد والفقر والحرمان، وتجعل المجتمع الإنساني بكل دوائره والمخدرات القومية والثقافية يُدرك القيمة الإنسانية المشتركة بين الأمم والشعوب، ويدفعها لتوحيد حركتها بلتجاه رفع الحيف عن الإنسان والانفتاح بين أحدهم والآخر على أساس منطق الحوار لتأصيل المشتركات والتقريب بين الخصوصيات.

إلا أن الذي سارت عليه القوى الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في إدارة هذه العولمة كان حرفاً لها عن مسارها الطبيعي، وتحويلها إلى أداة استكبارية جديدة لقهر الإنسان والمجتمعات، وتحميلها منطقاً أشبه بمنطق شريعة الغاب منه إلى منطق الحضارة الإنسانية بمفهومها الأولي، حتى صارت وجهاً جديداً للاستعمار بطريقته الحديثة، وجولة حاسمة لإحكام القبضة الحديدية للاستكبار على دول العالم، وإسقاط تمتع الشعوب والدول من قبول هذا الاستكبار، كأمر واقع

والرضوخ له ولو بالمحصرة والردع الشامل تحقيقاً لقيادة العالم والهيمنة على مقدراته الاقتصادية وتوجهاته السياسية والثقافية.

وكان من أوائل من طاله هذا الأمر هو المنظومة الدولية ومؤسساتها وقوانينها العالمية والإقليمية، فليس بعيداً عنا ما آلت إليه منظمة الأمم المتحدة ومجلس أمنها بعد أن تمرد أغلب أعضائها الدوليين على النهج الأمريكي القسري، وتحولها بقوانينها ودولها الكبرى والصغرى إلى أشبه ما تسمى بالمؤسسة الخيرية التي يجب أن تخدم عملية العولمة الأمريكية بمنطق القوة الاستكبارية؛ وتبعاً لذلك انهارت كل المنظمات الدولية الأخرى سواء كانت قائمة على أساس مبدأ دولي عام أو إقليمي خاص كمنظمة دول عدم الانحياز ومنظمة الدول الإسلامية وجامعة الدول العربية وأمثالها، فقد وصل الأمر ببعض هذه المنظمات ودولها إلى أن تستجدي أمريكا لتسمح لها بأن تجتمع في إطار مسمى وجودها إبقاءً لواء وجهها أمام شعوبها، بل أن بعضها أخذ يسوق للأهداف الأمريكية علناً أو من وراء ستار من أجل تحقيق كل ما يمكن أن ينسجم مع تلك الأهداف حفاظاً على وجودها من التغيير، أو الزوال أمام الثور الأمريكي الهائج.

وقد يتساءل البعض عن الأسس الأيديولوجية التي انطلقت أمريكا وحلفاؤها منه لسلوك هذا النهج الصارخ في الاستبكار العالمي حتى على المنظومة الأوروبية التي تشاركها في مفهومها الحضاري الغربي في سياسة العالم، والتعامل مع دوله ومنظوماته. ويجد السائلون - على اختلاف مبادئهم - الجواب الشافي لهم فيما يقوله لنا «فرانسيس أنتوني بويل» استاذ القانون الدولي، وعضو برنامج الحد من الأسلحة ونزع السلاح والأمن الدولي بجامعة «إلينوي» في أمريكا في كتابه: «مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية»:

(إن «الهوبزية» نسبةً إلى «توماس هوبز Thomas Hobbes»، لها أثر كبير في الفكر القانوني الدولي الغربي عموماً، والأمريكي خصوصاً، و«هوبز» هو مؤلف كتاب «لوياتان Leviathan» عام ١٦٥١م، وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من «الكتاب المقدس»، ويعني وحشاً مجرياً، يرمز إلى الشر. ثم استعيرت الكلمة إلى اللغة السياسية لتعني الدولة ذات القبضة الرهيبة القاهرة القادرة على تأكيد سلطتها في كل الأوقات والظروف. ويعدّ «هوبز» مؤسس الواقعية القانونية الحديثة، وملهم النظرية السياسية السائدة في الغرب، وتتلخص نظريته: في أن الطبيعة البشرية في أساسها نزاعة إلى الغلبة والتسلط والجشع؛ ولذا فلا معنى لوجود قوانين لا تقف وراءها قوة غالبة قاهرة لتفرضها؛ لأن طاعة القانون لا يمكن أن تتحقق إلاً قسراً. ويستطرد «بويل» في كتابه قائلاً: إنّ الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية قد تبسوا هذه النظرية، حيث إن صنّاع القرار في الحكومة الأمريكية عندما يعملون وفق المبدأ «الهوبزي»، وهو أن قواعد القانون الدولي هلمشية لا جدوى منها؛ فإنهم بذلك يتصرفون بشكل يدلّ على أن الحكومة الأمريكية لا تعير أيّ أهمية إلى توقعات الدول والشعوب الأخرى، فيما تراه أقل درجات الاحترام والتقدير الذي تستحقه في علاقتها مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما يُترجم هذا الموقف «الهوبزي» إلى برنامج عمل في السياسة الخارجية الأمريكية؛ فمن الطبيعي أن يتحول إلى وصفة نلجعة لخلق الخلافات والصعوبات والنزاع مع الدول والشعوب الأخرى؛ وبهذا تضع الحكومة الأمريكية نفسها في موضعٍ بحيث تصبح الأداة الوحيدة التي تستطيع أن تحقق بها أهدافها هي: الاستعمل الوحشي للقهر السياسي والاقتصادي والعسكري)^(١).

(١) بويل، فرانسيس أنتوني، مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية الأمريكية، ص ٢٠.

وعلى هذا المبدأ بدأت مرحلة جديدة من النهج الأميركي في السياسة العالمية، وأخذت تجلياتها تظهر بشكل صارخ وحدي بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ م، وكان أبرز ما انكشف من خلفيات هذا النهج الاستكباري بمنطق القهر والقوة هو ما يلي:

١ - إعادة تشكيل السايكولوجية للعالم الإسلامي بمنطق القوة الاستكبارية وتحس

شعار العولمة الحضارية الجديدة

فرغم موجة المعارضة الشاملة للرأي العام العالمي داخل الولايات المتحدة وخارجها، إلا أن الإدارة الأمريكية تمسكت بإفراط بخيار تدمير النظام العراقي دون أن يدرك أحد أسباب هذا التمسك المفرط، لكن تقريراً أميركياً خاصاً ذكر بصراحة أن أول سبب لذلك هو أن واشنطن تريد من القضاء على نظام صدام حسين تحقيق مهمة (سايكولوجية)، وهي إجهاض حركة الشعوب الإسلامية - وخصوصاً الحركة الإسلامية - والقضاء على اعتقادها بإمكان مقاومة الولايات المتحدة الأمريكية.

فأمريكا تعلم جيداً أن العراق لا يشكل خطراً طارئاً، على الأقل في الفترة الراهنة، وبالصيغة الموصوفة في الإعلام الغربي، إلا أن (صدام حسين) يشكل (كبش فداء) مناسباً لإسقاط عناصر القوة والهيمنة التي تسعى واشنطن للبرهنة على أنها تحتكرها على الحالة العراقية، وتوجيهها كرسالة للتيار الإسلامي، لأنه يشكل الخطر الحقيقي الذي يهدد هذه القيم.

فيكشف تقرير (ستراتفور) الأمريكي - المعني بتحليل الشؤون السياسية والعسكرية - أنه لا توجد سوى دولتين من خارج الولايات المتحدة تؤيدان توجهاتها العسكرية نحو العراق هما: (إسرائيل وبريطانيا)، وفيما عدا ذلك فإن الإدارة الأمريكية من داخل الولايات المتحدة - كما دلت على ذلك إحصائيات

أجريت في ولايات أمريكية مختلفة - ومن خارجها، تلقى معارضة شديدة لسياستها هذه غير المبررة.

ويقول التقرير: إن هذا السبب السايكولوجي المهم لا تستطيع أن تفصح عنه الإدارة الأمريكية بوضوح ضمن سلسلة التبريرات التي قدمتها لاجتياح العراق كي لا تعمق عداها مع العالم العربي والإسلامي، والنتيجة أن أحداً لا يفهم بالضبط سبب التمسك الأمريكي المفرط بضرب العراق رغم موجة المعارضة الشديدة.

وذكر التقرير الصادر في ١٢ آب ٢٠٠٢م، أن الولايات المتحدة تعلم جيداً أن التحدي الحقيقي الذي تواجهه ليس تنظيم (القاعدة) المتلاشي ولا نظام صدام المهزبل تحديداً، وإنما موجة الاستياء العام ومشاعر مناهضة للولايات المتحدة الموجودة بقوة لدى شرائح واسعة وكبيرة من الشعوب العربية والإسلامية، على الرغم من أن التقرير ذكر بداية أن مصدر الاستياء من أمريكا هو دعمها المطلق لـ (إسرائيل)، ووجود قواتها في الخليج الفارسي، إلا أنه ذكر أن الإدارة الأمريكية تعتقد بأنها حتى لو غيرت سياستها تجاه إسرائيل والخليج الفارسي فإنها لن تحظى بحب العالم الإسلامي، وأكد أن الإدارة الأمريكية لن تقبل التخلي بيساطة عن الخليج الفارسي، باعتباره مصدراً مهماً للبترو، والأهم من ذلك، لأن قواتها ستشكل حجر عثرة أساسية أمام أية محاولة من الحركة الإسلامية لإقامة كيان إسلامي في المنطقة على غرار نظام الجمهورية الإسلامية في إيران يهدد الوجود الغربي - الأمريكي، باعتباره يمثل منظومة قيم مختلفة.

ومن هنا، فإن أمريكا تعتقد أن مشكلتها ليست مع القاعدة ولا مع نظام صدام تحديداً، وإنما مع المد الإسلامي بعمومه، ومن المهم السيطرة عليه عبر مجموعة إجراءات أهمها القضاء على (سايكولوجية) الحالة الإسلامية التي تحفز

لديها الاعتقاد بإمكان القضاء على أمريكا، وذكر التقرير بعض الوقائع التي شكّلت (سايكولوجيا) إمكان المقاومة لدى التيار الإسلامي وامتداداته، وهي وقائع دلّت على إمكان تعرّض أمريكا للهزيمة والضعف وهي:

- وقف النفط العربي عن العالم الغربي سنة ١٩٧٣م.

- الاعتقاد السائد بهزيمة القوات الأمريكية في لبنان والصومال.

- هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان.

- أحداث (١١) سبتمبر.

- هزيمة الولايات المتحدة في إيران.

وانتهى الى أن أول إجراء هو تصفية ما يمكن تصفيته من هذه الوقائع وتحطيمها تماماً في محاولة لإعادة تشكيل (سايكولوجية جديدة) لدى التيار الإسلامي وحركته الثورية على حدّ تعبير التقرير.

ولذلك يمكن فهم تمسك الولايات المتحدة باحتلال العراق في سياق مساعي أمريكا للبرهنة على قوّتها التي تعرّضت للاهتزاز في ١١ سبتمبر، وكي تبعث برسالة واضحة تماماً للتيار الإسلامي وحركته الثورية بأنها مازالت القوة العظمى في العالم، وأن قدراتها تفوق قوة التيار الإسلامي وحركته - على حدّ وصف التقرير - ومن جانب آخر فإن احتلال العراق يعتبر هدفاً مقدوراً على تحقيقه، مقارنة بهدف القضاء على حركات الرفض والمقاومة الإسلامية.

فأمريكا تجد صعوبة بالغة في القضاء على المنظّمات الإسلامية الثورية، حتى أنها لجأت للحديث عن استراتيجية اغتيالات رموز هذه التنظيمات في أيّ بلد كانت، من دون الحصول بالضرورة على إذن مسبق أو إخطار ذلك البلد، وبقدر ما تسلك الاستراتيجية الجديدة على قوة الولايات المتحدة في اتخاذ قراراتها باستقلالية، وتحديد استراتيجياتها في ضوء مصالحها الأمنية، دون اعتبار

لبروتوكولات العلاقات الخارجية، بقدر ما تكشف الاستراتيجية ما وصلت اليه أمريكا من ضعف أمام التنظيمات الإسلامية الثورية.

فالمقصود من احتلال العراق بقوة والإصرار على خيار إزالة نظام صدام هو بالإضافة الى النفط وأمن إسرائيل، ومحاصرة الجمهورية الإسلامية في إيران هو (العمل على إعادة تشكيل السايكولوجية الإسلامية) وسلها بالإحباط والشعور بالعجز عن إمكان تهديد القوة الأمريكية، وهو سبب - حسب التقرير - غير تقليدي، ولا يمكن طرحه كمبرر أمام الرأي العام العالمي، الذي يرفض بشدة المبررات المطروحة. ويؤكد التقرير أن هذا هو من الأسباب الرئيسية لتمسك أمريكا المفرط بخيار احتلال العراق؛ أي لأن ذلك يحقق لها مكاسب (سايكولوجية) على المدى البعيد في علاقتها بالتيار الإسلامي وحركته العلمية والهيمنة الحضارية بالطريقة الأمريكية على العالم الإسلامي، وخصوصاً منطقة الشرق الأوسط الاستراتيجية تحت شعار حتمية العولمة الحضارية بقيادة أمريكا وحلفائها الغربيين. وعلى الرغم من أن التقرير يثني بصورة غير مباشرة على الاستراتيجية الأمريكية في العمل، إلا أنه يستدرك بالقول: إن أمريكا لا تستطيع أن تجزم بالنتائج، أي أن انتصارها في احتلال العراق لا يعني بالضرورة انتهاء خطر التيار الإسلامي وحركته الثورية التي من الممكن أن يكون لها قراءة مختلفة للحدث، وبالتالي ردة فعل مختلفة إزاء هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية.

٢ - تكريس الهيمنة الأمريكية على العالم عموماً وعلى الإسلامي منه بالذات، من خلال نموذجها الحضاري الخاص وبألية القوة القاهرة وبغطاء تبريري لا يقبل النقاش والرد، حتى لو أتى ذلك الى تغيير أسس النظام الدولي وتجميد منظماته ومؤسساته الدولية والإقليمية. فالطريقة الأمريكية للسيطرة، تقوم على أساس

استخدام ركائز القوة الصلبة، كالألة العسكرية لقمع المخالف، وفرض اقتناع قسري بضرورة التناغم مع الطرح الأميركي، أو على الأقل الإذعان له؛ ويستدعي ذلك استخدام أنماط علاقات مثل علاقات الإكراه، والردع، كما تقوم أيضاً على استخدام لركائز الهيمنة النفسية كوسائل الإعلام جميعها، والمساعدات الاقتصادية، لإيجاد مبررات القناعة بالأهداف وتكريس علاقة الخضوع للولايات المتحدة الأمريكية. ويستدعي ذلك استخدام أنماط علاقات مثل علاقات الإغواء، والاستدراج، والإقناع مع إبقاء هامش فعل من الرعب والخوف والردع والقهر خصوصاً مع الأطراف الضعيفة. وبخلافه تنتقل طريقة التعامل إلى استخدام ركائز القوة الصلبة لفرض السيطرة على من لا يرضى بالهيمنة الأميركية طواعية. ولا يخفى ما في هذا السلوك من تجبر وتكبر وعلو.

وقد حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على بسط هيمنة نموذجها على العالم، وذلك في إطار إعادة صياغة النظرية الاستعمارية الحديثة. ولأجل ذلك استخدمت الولايات المتحدة أدوات أعلامها لعولمة نموذج الحياة الأميركية، وتزيينه للرأي العام العالمي، وهو ما يسهل عملية فرضه عبر المعاهدات الدولية، ومؤسسات التمويل العالمية، مع التحرك العسكري لقمع الدول الهامشية التي ترفض تقبل هذا النموذج طوعاً.

ولذا عمدت الولايات المتحدة الأميركية إلى تقسيم العالم إلى دول حليفة ودول معادية، لكن وفق المعيار الأميركي. ولعل هذا ما أتضح من كلمة الرئيس بوش للرئيس الباكستاني برويز مشرف: «أمامك خياران: إما أن تدخل في حلف الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب، وإما أن نعيد باكستان إلى العصر الحجري»، وكفوله قبل ضرب أفغانستان: «من ليس معنا فهو ضدنا».

وقد بشرت أميركا وحلفاؤها بالازدهار والتقدم الحضاري على طريقتهما الأميركية كما توعدت بالويل والثبور من يقف أمام إرادتها الاستكبارية الجامحة، ففي حرب العراق على سبيل المثال كان هناك نمطان للمثوبة - أشرنا إليهما سلفاً - أما الجحيم فكان من نصيب العراق، كما أنه من نصيب كل دولة ترفض الإيمان بالهيمنة الأمريكية، طالما أن هذه البلاد المغضوب عليها العراق - ليس لديها القدرة على رفض هذا الجحيم.

أما الفردوس الأرضي الأميركي فهو حالة الرخاء التي تبشر بها حركة الأمركة بعد تحرير التجارة ورؤوس الأموال، ناهيك عن الفردوسات العجلة من منح و مساعدات توزعها هنا وهناك ضماناً للموالاتة، وفي مقابل ذلك إرهابها من عواقب علم الرضوخ.

إلا أن أميركا وحلفاءها الغربيين وأذئابها الأقليميين تغابوا كثيراً عندما تصوروا أنهم قادرون على صناعة هوية جديدة وتحميلها على المجتمعات الإسلامية، وهي في زهو صحوتها وتجدد أصالتها الدينية ووعيتها لمهامها الرسالية الذي جسده بروح المقاومة العنيفة، رغم كل ما تمارسه انظمتها الحاكمة من أساليب القمع للرأي ومحاصرة فكرها وثقافتها الإسلامية وردع حركتها الرسالية، وأبرز نماذجها المعاصرة الجمهورية الإسلامية في إيران بتبارها الثوري شعباً وقيادة، ولبنان برمزه الرائد حزب الله، وفلسطين بفصائلها الجهادية المقاومة، والعراق الذي ما إن سقط حكم الطاغية صدام حتى هدرت ملايينه بنداؤها الخالد: «نعم نعم للإسلام... كلا كلا لأميركا وصدام» الذي ظلّ حوالي ٣٤ عاماً حيس الصدور المعذبة والأفواه المكتومة، وهكذا كان شأن الملايين من المسلمين في مختلف بلدان العالم الإسلامي التي عبرت بوضوح عن استطالة عصر الشعوب

المستضعفة بلغة الرفض للاستكبار والظلم والجور، وأن أميركا وحلفاءها سيدفعون ثمن غيبتهم وحقاقتهم غالباً عندما يصطدمون بإرادة هذه الشعوب الثائرة التي لا ترى نهجاً غير نهج رائدها الخالد الإمام الحسين (عليه السلام)؛ الذي رسم لها طريق العزة والكرامة والحرية في كلمته الخالدة: «اني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً» والعاقبة للمتقين والحمد لله رب العالمين.

العقلنة والواقعية

الشيخ نعيم قاسم

نائب أمين عام حزب الله - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكانة العقل

أعطى الإسلام مكانة خاصة للعقل، واعتبره طريقاً للاعتقاد السليم، وأكد على مسؤولية الفرد في الوصول إلى الإيمان من دون تقليد للأباء، وذلك بالتفكير في خلق الله وبعث الأنبياء وحقيقة المعاد وأهداف خلق الإنسان في الحياة الدنيا...، وحثت الآيات القرآنية على النظر والتأمل فيما خلق الله تعالى حيث تكون النتيجة إيماناً والتزاماً مع كل عاقل سلك طريق التفكير السليم، من دون حجب أو جهل أو مقدمات خاطئة. قل تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"^(١).

بل تزيد الآيات الكونية المؤمنين إيماناً واطمئناناً وتوصلهم إلى درجة اليقين: "إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ"^(٢).

فإذا جحد البعض وانحرف عن الإيمان بالله تعالى، فلعمى في بصيرته، وخلل في طريقة تفكيره ومقدماتها، لأن الأمور بيّنة وواضحة، ولا حجة للجاحد إلا

تعطيل مسار عقله نحو الحقيقة، قل تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)^(٣). وقال جلّ وعلا: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون)^(٤).

هذا العقل الذي تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، هو الحجة البالغة على الإنسان، ففي الحديث الشريف عن رسول الله (ص): "إن الله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول"^(٥)، وهو الذي يقود إلى الفلاح أو الإحراف، فعن الإمام الصادق (ع): "لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قل له أقبل فأقبل، ثم قل له أدبر فأدبر، ثم قل: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملته إلا فيمن أحب، أما إنني إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب"^(٦). إنّه الدليل الذي لا يخيب، فعن الإمام الصادق (ع): "العقل دليل المؤمن"^(٧)، ولا أمل في التوصل إلى النتيجة الملائمة والحكم الصحيح على الأشياء من دون العقل، فعن الإمام الصادق (ع): "لا يفلح من لا يعقل"^(٨).

تقليد الآباء

ولعلّ أخطر ما يصيب عقل الإنسان، رفض الاستماع إلى السبراهين والأدلة، وتعطيل نتائج الحوار والنقاش مسبقاً، بالتصميم على الفناعات التي تربي عليها منذ الصغر في بيئته، والتي شكّلت له مقدمات خاطئة لا تؤدي إلا إلى نتائج خاطئة. فهو لا يبني مواقفه على قواعد منهجية، ولا يمتلك قدرة الدفاع عن فكره وسلوكه، وعندما ينكشف حاله يرد الأمر إلى تقليد الآباء والمحافظة على الموروث، ليقتل باب الحوار بسنّه عند حدود ما نشأ عليه واعتاده، (وإذا قيل لهم أتبعوا ما

أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُ كَانَ آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ^(٥).

إنَّ دائرة تقليد الأبناء للأباء بتعطيل التفكير والاختيار، أوسع بكثير من التقليد في بيئة الأسرة، فهي تطل كل "ابن" في التقليد لكل "أب" مقلد، فقد يكون المقلد فرداً أو جهة أو حزباً أو جماعة أو نمطاً... وقد يكون التقليد لجاهلية أصنام الحجارة وعبدة النار في القرون السابقة، كما يكون لجاهلية أصنام الشهوة والملل والحتميات الفكرية المألوفة والعصبية العائلية والطائفية والحزبية والقومية...

هنا يتركز البحث عن الأصول لا عن الفروع، وعن العقيدة لا عن مرتباتها، فإذا بنى الفرد منظومته الفكرية بالموروث العقائدي أو بالالتزام بالتقاليد الموروثة التي يرعاها الزعيم ويورثها إلى من بعده، فإنَّ النقاش حول بعض التفاصيل التطبيقية لا يحقق فائدة تُذكر، طالما أنها فروع يغلب عليها طابع الإلتزام التسليمي، سواءً اتخذ هذا الإلتزام معنى العبادة، أو اتخذ معنى التقاليد والاعراف المقدسة، أو اتخذ معنى السلوك المتوافق مع المقدمات الأولى.

فاللاركسي ملحد بالله تعالى، ويعتقد بالمادية التاريخية الحاكمة على الحياة البشرية، من دون قدرة لأحد على تغييرها، ويتصرف في حياته اليومية على أساس مادية الحياة ونهايتها بالموت، فلا ينفع حوار في نقد السلوكيات الغارقة في المادية، لأنها تحقق بنظره دنياه المحدودة والنهائية، بل يجب البدء معه بالنقاش من المبدأ الأول، أي من الخالق، لحسم النظرة الأساسية نحو طبيعة الكون والإنسان والحياة، وموقعها من الخالق، وحدودها في الدنيا وما بعدها، فإذا رفض الحوار، أو لم يلتزم فيه بالبداهات العقلية للإنطلاق من قاعلة مشتركة توصل إلى نتيجة ما في الحوار، يكون قد سدَّ الباب العقلي، بحسب القاعلة المذمومة التي تحدت عنها

القرآن (قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، أي قادتنا ومن اتخذناهم قدوتنا بما اعتدنا عليه لسنوات طويلة.

والمتنمي إلى جماعة بسبب ظروفه، أو مكان سكنه، أو بيئته الاجتماعية، أو قناعاته التي تكوّنت لديه بحسب ما توفّر لديه من معطيات ومعلومات، لا يسلم بأخطاء التفاصيل والسلوكيات المتبعة، بل يدافع عنها بعصبية بالغة، ليحافظ على متانة منظومته الثقافية والعملية أمام التحديات، فضلاً عما تحمله التفاصيل من التزام تسليمي كجزء من الإنضباط العام في الطريق المختار. هنا يُفترض بنا أن نعود إلى الأسس التي انطلقت منها الجماعة لنناقشها، فإذا انهارت أمام الأدلة، لم يعد لباقي المنظومة قدرة على الصمود، وعندما يقف المؤمن بها أمام خيارين: إمّا التسليم والتخلي عنها واختيار ما يرشد إليه العقل، وإمّا التعصب ورفض التغيير لما اعتاد عليه والانتقال من الحوار إلى التزمّت والتمسك بما هو عليه، على قاعدة (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) أي جماعتنا وحزبنا، مهما كانت آراؤهم وسلوكياتهم، لأنهم اعتادوا عليها وعطلوا قابلية وشجاعة التغيير.

أما الشريحة الأوسع في العالم، فهم الذين تلقوا من أسرهم مقدمات تعليمية وتربوية تحوّلت إلى مسلمات، وترسّخت إلى درجة عطلت معها قدرة العقل على التفكير والاختيار الحر، وذلك بترسيخ مجموعة من القناعات والسلوكيات التي تحوّلت إلى مقدّسات في بيئتهم، وهي نتاج أصول اعتقادية تعود إليها منظومة الثوابت والتفاصيل والتقاليد، فلا بدّ من العودة إليها لنقاشها قبل الغرق في التفاصيل، وغالباً ما يكون الدافع (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) فيواجه حوار هذه الأصول بالتعصب، ما يؤدي إلى صعوبة في التغيير.

وعلى الرغم من تأكيدنا للعودة إلى الأصول في الحوار العقلي، فهذا لا يعني رفض النقاش في التفاصيل والجزئيات حيث يمكن ذلك، بل لا نريد أن تمنع

الأصول من التوصل إلى القواسم المشتركة في بعض الفروع، لكننا نشير إلى هذه المعضلة التاريخية التي تحتاج إلى حل، على أن لا تتحول إلى سبب لزيادة الخصومة والإنقسام، وما يساعد على ذلك، إتباع أسلوب الحوار الذي دعا إليه القرآن (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(١١).

أهمية المنهج والمقدمات

لقد بين لنا القرآن بعض نماذج الحوار العقلي والمتسلسل في العقيدة، حيث لم يقتصر أداء الأنبياء مع أقوامهم على المعجز، التي استهدفت إيجاد صدمة لإيقاظ العقل، وتحريره من الموروثات الخاطئة، وإطلاق العنان له للتفكير والاختيار، بل ركزوا في دعواتهم على محاكاة الفطرة الإنسانية، وتقديم الأدلة المقنعة لما يحملونه من إيمان.

من الأمثلة على ذلك، حوار إبراهيم (ع) مع أبيه، بتفنيد عقيدته وإبراز ضعف أدلتها، وإظهار متانة أدلة الإيمان الإبراهيمي، المستند إلى وقائع موضوعية يراها جميع الناس، في رد الأمور إلى الخالق، الذي يهدي ويطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي ويغفر يوم القيامة. قال تعالى: (وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَأَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)^(١٢).

وعندما يفتقر الطرف الآخر إلى أدنى قواعد الحوار، ويتلاعب بالألفاظ والوقائع، ليوهم الناس بوجود الدليل لديه، يتمُّ الانتقال إلى الدليل الأوضح، بالألفاظ والوقائع التي لا تسبب التباساً، ولا يستفيد منها الخصم في التدليس على الحاضرين. وهذا ما ينطبق على حوار النبي إبراهيم(ع) مع النمرود الذي ادعى الربوبية، حيث حلَّجه إبراهيم(ع) في أن الله هو الخالق الذي يحيي ويميت، فجاباه النمرود بأنه هو الذي يحيي ويميت، وطلب من جنده أن يحضروا له سجينين، فقتل احدهما بزعم أنه يميت، وأفرج عن الآخر بزعم أنه يحيي، عندها قال له إبراهيم(ع) بأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فحار النمرود جواباً وسقط ما بيده، قال تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيمُ ربي الذي يحيي ويميتُ قال أنا أحيي وأميتُ قال إبراهيمُ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)^(١١٢).

كما يتخذ البعض الحوار طريقاً للتعجيز، بسبب ضعفه في سوق الأدلة المقنعة، وعدم رغبته أو عدم قدرته على الانسحاب من المواجهة، فيبدو للوهلة الأولى بأنه يريد الحوار، لكنه ينكشف عند المحاججة على حقيقته.

فهذا نموذج لمن ينهج الأسلوب الفاشل من دون أن يعتبر عن سبقه، ذلك بأنهم قوم يجهلون، لم يطلعوا على الأدلة التي أسقطت منطق من سلفهم، قال تعالى: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قورهم تشابهت قلوبهم فذنبنا آيات لقوم يوقنون)^(١١٣).

وذاك نموذج آخر لمن ينتقل من مطلب إلى آخر، إذ كلما فشل في دليل لجأ إلى دليل آخر، إنهم الكافرون أولاً وأخيراً، قبل الدليل وبعده، لكنهم يناورون، قال تعالى: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا

فتتبع آياتك ونكون من المؤمنين (٤٧) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرين^(١١).

ثالث النماذج، إستبدال الحوار والدليل بالمغريات والمكاسب، فإن لم تنفع أصراً القوم على موقفهم ورفضهم للحق. فقد اجتمع زعماء قريش في ناديهم بعد إسلام عم النبي (ص) حمزة بن عبد المطلب (رض)، وكلفوا عتبة بن ربيعة عرض أمور على النبي (ص) ليتخلى عن دينه، فذهب إليه، ومما قاله له:

"يا بن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً نراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه...".

فجابه النبي (ص) بتلاوة سورة فصلت: (بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تنزيل من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون (٣) بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (٤) وقالوا قلوبنا في أكفٍ لما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقرّ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) إلى آية السجدة، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

عاد عتبة إلى قومه فقال: قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن نصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه^(١٢).

إن مشكلة الحوار لا تنحصر بما بين الإيمان والكفر، بل تشمل كل مواقع الحية وكل الأطراف، سواء أكان الاختلاف في الأصول أو في الفروع، وسواء أكان الاختلاف بين المؤمنين بالرسالات السماوية وأصحاب الرأي والفكر أو داخل المذهب الواحد والجماعة الواحدة.

وبإمكاننا تضييق فسحة الخلاف، عندما نحسم منهجية البحث وقواعد التفاهم ونقاط الإلتقاء، ثم نستخدم المصطلحات التي تحمل مضموناً واضحاً متفقاً عليه، ليسهل الخطاب بلغة واحدة وفهم واحد، وعلى هذا فقد نجد أنفسنا بحاجة إلى نقطة البداية، قبل أن نبي على المقدمات المطوية، وإلاّ وقعنا من اللحظة الأولى في مأزق تباين النتائج بسبب تباين الرؤى.

الإختلاف امر تكويني

لكنّ جميع محاولات عقلنة الحوار لا توحد البشرية في نهاية المطاف، لأن العقل يمثل قدرة الإدراك، أما النتائج المدركة فخاضعة للمقدمات وللطريق الموصل إليها. فمع اختلاف المقدمات تختلف النتائج، ومع اختلاف منهجية البحث والتحليل تختلف النتائج أيضاً.

وما أودعه الله تعالى في فطرة الإنسان، قدرته على الفهم والإدراك وعقل الأشياء، وكذلك وجرد المعلومات الضرورية (البدئية) التي تنطلق منها كل الأحكام، أما ما زاد عنها فهو إكتسابي، يقل أو يكثر تبعاً لجهد الإنسان في التحصيل وسعة تجاربه في الحية.

فإذا كانت المقدمات محدودة وضعيفة، كانت النتائج كذلك، وإذا كانت المقدمات خاطئة أو ملتبسة، كانت النتائج كذلك، هذا إذا كان المنهج المعتمد في التفكير سليماً، فإذا كان خاطئاً، فإنّه يطيح أيضاً بالمقدمات الصحيحة التي لا

توصل حينئذ إلى النتائج السليمة. ولا نستبعد من بحثنا ما تلعبه الأنانيات والمصالح الذاتية في تحوير النتائج بعناوين وإضافات مختلفة، وفي التباعد بين الرؤى من غير ارتباط بالمقدمات أو المنهج، وعندما تتعقد الأمور أكثر.

أمام هذا الواقع، يجب الإهتمام بالعقلنة وفق المنهج والمقدمات الصحيحة، والعمل لكشف الأنانيات والذاتيات، لنضع أمام العقل الإنساني ما يساعده على الإختيار كجزء من أسلوبنا وأدائنا، ولن تضرنا المقدمات والمنهجية الصحيحة في أي نتيجة تصل إليها، لأن ما طرحه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منسجم مع الفطرة الإنسانية المتناغمة مع طريقة التفكير السليم، ونحن مطمئنون بأنه متفوق على ما عده (وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)^(١٧).

إن الاختلاف أمر تكويني، قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١٨)، وهو اختلاف في القدرات الجسدية والعقلية والحياتية، ولا يشكل أزمة أو مأزقاً خاصةً عندما يتحول إلى تكامل وتفاعل وتنمية للطاقت، ولا يسبب مشكلة إذا المحصر في التعبير عنه بلحوار والنقاش حتى مع بقاءه واستمراره، لكنه يتحول إلى مأزق عندما يُستخدم مطية لأغراض خارجة عن السياق المنطقي والعقلي، كاستخدام القوة وحب السيطرة والإستئثار التي تدفع باتجاه الهيمنة وإسقاط القيم وعدم إحترام الإنسان وحقوقه.

من كان يدعي الأحقية فليقارع بالبرهان والدليل، فقد خلق الله الخلق ورزق الكائنات وهداهم وهذا بين واضح، وسيبقى المعاندون عاجزين في مواجهة التحدي، ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَسَ وَابِحُورٍ وَمَنْ يُرْسَلُ الرِّيحُ بَشَرًا يَلْسَنُ يَدِي رَحْمَةً أَلْهَى اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلْهَى اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٨).

وهل يستطيع المنكرون لنزول القرآن من عند الله تقديم دليل على مدعاهم، بالإتيان بسورة من مثله؟ (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)^(١٧).

فليجلب الناس النظر في أنفسهم وما تحمله من أسرار ودقة وتنظيم وتكامل وعظمة، وفي الأفق وما فيها من سماء وأرض وكواكب ونجوم وليل ونهار وشجر وحيوانات وجبل وأنهار ألا ترشدكم إلى الخالق المدبر الأوحى؟ (سُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)^(١٨)، إنها أدلة كثيرة تؤدي حتماً إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وهي أدلة واضحة للعيان يلاحظها أصحاب العقول السوية، فهل يملكون دليلاً واحداً عكس ذلك؟!

وهذه شريعة الله المقدسة بين أيديهم، وتلامس فطرتهم، (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٠))^(١٩)، وتقدم لهم الأكمل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت علىكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)^(٢٠)، وهي تتناغم مع عقولهم لتقنعهم بأنها شريعة الهداية والخلاص والسعادة.

إنها غير محجوبة عن عامة الناس لخواصهم، فهي للجميع من مختلف الفئات العمرية بحسبها، من الطفولة إلى الشيخوخة، وللجنسين الذكر والأنثى، بشمولية وإشراك وتوازن وتفاوت محدود فيما يتطلب التمايز بينهما، وهي تتجه إلى المكلفين البالغين في تحميلهم المسؤولية، لأنهم قادرين على الإختيار وتحمل التبعات، وتنطلق من تأسيس الاعتقاد بالله تعالى من دلالة العقل عليه، ليكون الالتزام بالشريعة ثمرة القناعة، لا التسليم المسبق أو تعطيل التفكير، أو الغرق في إسقاطات ماورائية لكل ما في الحيلة من دون أدنى فسحة للاقتناع أو الدليل.

العقل والقرآن

القرآن معجزة الله الخالدة، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(٣٣)، وقد توصلنا إليها بالدليل العقلي، فالله جلّ وعلا خالق الكون والإنسان والحياة، أحد لا شريك له، دلّت عليه مخلوقاته من خلال نظام العلة والمعلول، وبالوجدان، وقد أرسل الأنبياء هداية البشرية، ودعمهم بالمعجزات لإثبات نبوتهم، فحققت المعجزات أهدافها وقت حصولها، لأنها كانت مخصصة لتلك الأزمنة، إلا معجزة النبي محمد(ص) وهي القرآن الكريم، التي بدأت بزمان حصولها لتستمر إلى الأبد، انسجاماً مع ختم النبوة وختم الرسالات السماوية، لتكون دليلاً دائماً من عند الله تعالى، فلم تتمكن أيدي المخرفين من تغيير أي شيء في القرآن، وهو يتحدى المعاندين أن يأتوا بحديث من مثله، (أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)^(٣٤).

فمع إثبات القرآن الكريم من عند الله تعالى بصيغته ومضمونه، نكون أمام نص صادق وصحيح، لا يأتيه الباطل من أي زاوية، وهذا ما ينطبق على كل آياته، سواء أكانت محكمة أو كانت متشابهة، تتحدث عن عالم الشهادة أو عالم الغيب، تعرض لأدلة العقيدة أو لتعاليم الشريعة، تسرد تاريخ الأمم أو تُنبئ بالمستقبل، تكشف بعض أسرار وخصائص خلق الكون أو تخفي بعضها الآخر، تقدم نماذج تفصيلية عن الحياة الآخرة أو تجمل وقائع أخرى، تربي الفرد على الأخلاق الفاضلة أو توجه الجماعة، تدعو إلى الجهاد أو تحدد موارد الصبر. فالنص ثابت على المستوى العقلي من حيث الصدور، ويأتي التفسير وفق قواعده ليشرح المعاني المقصودة، فالاختلاف والتوصل إلى معانٍ متعددة لأية واحدة عائد لاختلاف الأفهام التي انطلقت من مقدمات أو مناهج مختلفة في التفسير أو معلومات متفاوتة.

إذا لا حاجة للحديث عن كل آية إذا كانت تنسجم مع العقل أم لا؟ لأن إثبات القرآن من عند الله تعالى بالدليل العقلي، يجعل كل آية مقبولة عقلاً، وهي نص من الخالق العليم الذي نخبرنا بالحقائق لا بالظنون والإحتمالات.

ولا يصح إخضاع المعاني القرآنية لمستوى أفهامنا وإدراكاتنا، بل علينا أن نبذل أقصى الجهد لترقى أفهامنا إلى معاني الآيات الحقيقية ومقصد الشارع المقدس منها، ما يستلزم العناية بإتقان اللغة العربية فالقرآن (بلسان عربي مبين)^(٢٥)، وقد خاطب العرب باللغة التي يفهمونها والقواعد التي تحكمها، وعلينا اختيار المنهج الأفضل في تفسير القرآن الكريم، والذي يحقق التعاطي مع معانيه ككل متكامل، ليفسر بعضه بعضاً، وتتكامل آياته مع بعضها البعض، من ضمن رؤية شاملة فيما أراد الله تعالى أن يبلغنا إيّاه من خلال هذا الكتاب الخالد، ولعلنا نصل إلى مراد الخالق بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، التي تُتمّمها السنة النبوية الشريفة بما ورد من أقوال وأفعال وتقرير حول المعصوم أحكام الشريعة، بما يبيّن كامل المطلوب من الأوامر والنواهي والمستحبات والمكروهات والمباحات، على أن يلتزم المفسر قواعد الأخذ بالأحاديث المعتبرة، ما يتطلب الاعتماد على علم الرجال، كما عليه أن يعمل لتوفير الرصيد الكافي من علم الأصول وعلم الفقه وعلم المنطق... الخ، فيكون بذلك قد أشرف على الفهم القرآني، بهذه الإحاطة العملية الملائمة، التي تساعد على فهم الخطاب الإلهي للمكلفين، ولا يكفي فهم اللغة العربية وحدها لفهم القرآن بإدعاء وضوح معاني الكلمات، فسياق الآيات وظروف نزولها وارتباطها بالسنة النبوية الشريفة وما ذكرناه من مستلزمات للتفسير، تشكل معطيات ضرورية لفهم المراد من النص.

ولا يمكن عزل آية وحدها، لإخضاعها للتحليل العقلي بقياس مدى ملاءمتها للقناعة الشخصية، أو بتحديد مدى مقبوليتها النفسية أو الاجتماعية، ففي هذه

الطريقة خلل منهجي واضح. إذ تتحدث آيات القرآن عن موضوعات شتى ولأهداف علة نذكر بعضها:

منها ما يتوجّه إلى العقل مباشرة لاندراجها في العقيدة، كإعطاء الدليل على اليوم الآخر في الإجابة على من أنكروه (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٣١)).

ومنها ما يؤسس لآيات الأحكام ونظام العبادات، حيث المصلحة بالالتزام بها، لخصائص وأسرار فيها لا يدركها الإنسان، ولفوائد عملية بتطبيقها في حياته، كالأمر بإقامة الصلاة بالكيفية التي اختارها الله تعالى، وبالأوقات المخلدة لها يومياً، (أقم الصلاة لذُكُور الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)^(٣٢)، وقال تعالى: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)^(٣٣).

ومنها ما يحدد الأخلاق الفاضلة المنسجمة مع النموذج الأفضل لسعادة الإنسان والمجتمع، ما يوفّر التجارب الكثيرة لاستكشاف الأسس التربوية السليمة، كالنهى عن الغيبة: (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)^(٣٤)، والمبادرة إلى الأحسن: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)^(٣٥)، والتوازن في الإنفاق: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)^(٣٦)... الخ.

ومنها ما يسرد وقائع التاريخ، وقد حصلت بالفعل، بصرف النظر عن كونها وردت في كتب أخرى أو خالفتها أو نقلت أحداثاً غير مألوفة، فعلمها عند الله تعالى، فهو الذي أخبرنا عن إدعاء فرعون للألوهية: (فقال أنا ربكم الأعلى)^(٣٧)، وطول عمر قوم نوح (ع) ومنهم نوح (ع): (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً)^(٣٨).

ومنها ما يتحدث عن الغيب، وهو مجهول بالنسبة إلينا، ولا نعلم منه إلا ما اطلعنا الله تعالى عليه، وهو النذر اليسير، ومنه ثواب المؤمنين في الجنة: (على سررٍ موضونة) (١٥) متكئين عليها متقابلين (١٦) يطوف عليهم ولدان مخلدون (١٧) باكتابٍ وأباريق وكأسٍ من معين (١٨) لا يصدعون عنها ولا ينزفون (١٩) وفاكهة مما يتخيرون (٢٠) ولحم طير مما يشتهون (٢١) وحورٍ عِين (٢٢) كأنثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاء بما كانوا يعملون (٢٤) لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً (٢٥) إلا قِيلاً سلاماً سلاماً^(٣).

وعقاب الكافرين في النار: (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١) في سُجُومٍ وهمٍ (٤٢) وظلٍ من يحمومٍ (٤٣) لا باردٍ ولا كريم)^(٣).
والرقابة الدائمة على أعمال الإنسان من خلال الملائكة: (ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد)^(٣).

ووجود الملائكة: (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رؤساءً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير)^(٣).
ووجود الجن: (وما خلقت الجن والإيس إلا ليعبدون)^(٣).

فالتسليم بما ورد في القرآن من الغيب يحصل في مرحلة ثانية، بعد الإيمان بنزول القرآن من عند الله تعالى. إن عالم الغيب حقيقة كعالم الشهادة، فإذا كانت معلوماتنا المتاحة عن عالم الشهادة قليلة ومحدودة، ونستكشفها تباعاً، فالأولى أن تكون معلوماتنا عن عالم الغيب أقل، لأننا نعرفها بالإخبار عن الخالق فيما أراد إخبارنا به، لا بالتجارب والاستكشاف.

تعليل الأحكام

بما أن القرآن الكريم كتاب هداية للبشر، (ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدًى للمتقين)^{٣٧}، فإنَّ غرض الهداية يتحقق بوصول الشريعة إليهم والتزامهم بها، ولا إمكانية لتعليل كل حكم من الأحكام، وذلك لكثرتها وسعتها وتنوع مراميها من ناحية، ما يعني عسراً في الإحاطة الحقيقية والفعلية لكل خفايا وأسرار ودقة التشريع، ولعدم إمكانية كل فرد من استيعاب علل الأحكام، ما يؤدي إلى اعتماده على تقييم غيره ممن يثق به، وعندما لا يكون الإختيار ذاتياً وإنما غيرياً، فيكون الأولى أن يرد الأمر إلى الله تعالى، ولتمايز العقول والأفهام، ما يُخضع الأحكام إلى جدل واختلاف، فيما لو كان المطلوب توفير القناعة بكل حكم، وهذا ما يبطل فاعلية الشريعة من أن تكون موجّهة ومترابطة، لأنها ستتفكك باختيارات الأمزجة المختلفة لما يقنعها، في مقابل ما لا يقنعها.

وهل تتحقق الهداية بهذه الجدلية العقلية لكل شيء؟ وهل يوجد منهج صالح للاتباع يتلاءم مع هذه الطريقة لاعتمادها في حياة الإنسان؟ وأي سبيل أرقى وأفضل من الاعتماد على عالم الغيب والشهادة الخالق الخبير الذي وسع علمه كل شيء؟ والأهم من كل هذا، أنّ الفطرة الإنسانية تتلاءم مع هذا النمط من التوجيه للهداية، بالإيمان الكلي بأهلية الموجّه، لتكون تعاليمه التفصيلية أوامراً مقبولة ومُسلماً بها، وقد اعتمد الباري المقدس على هذا الاتّجاه، فكانت الشريعة الإسلامية حافلة بالقواعد والضوابط التي يطفى عليها التسليم، في مقابل بعض الأحكام المعلّلة لحكمه في إبراز تعليلها، ولا تتحقق الهداية الفعلية إلاّ بهذا المنهج، لوجود أسرار كثيرة يصعب إدراكها من العجز الناقص، ولأهمية الانقياد بما له من فوائد تكامل مع ترابط وكمال الشريعة، ولأن جزئاً مهماً من بناء الإنسان يتحقق بالأوامر العبادية والتوجيهات السلوكية، التي لا يمكن إخضاعها

لتحليل عقلي من تفسير الأدلة الموجبة لها، وإن كان بالإمكان استخلاص الحكم والفوائد على سبيل الاستثناس، لا الجزم بالمحصارها فيما يتم استخلاصه. ومما أعطى الخالق تعليلاً في القرآن لتحريمه: الخمر الذي كان سائداً، والميسر الذي شكّل آفة اجتماعية ضارة، فإبراز مخاطرهما الفردية والاجتماعية يُسهّل الامتناع عنهما، كما أنّ إمكانية استيعاب أسباب التحريم يسيرٌ على جميع الناس، فلخمر والميسر فيهما إثم كبير على الرغم من بعض المنافع التي لا تتناسب مع حجم الأضرار البالغة في حياة الناس: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبرٌ من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يُبينُ اللهُ لكم الآيات لعلكم تفكرون) (١٠). ومن أضرارهما إشاعة العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة: (إنما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (١١).

أما تحريم إتيان النساء أثناء الحيض فللأضرار التي يتسبب بها، والتحريم يتجه عادة لمنع الإنسان عن الأعمال التي تضره، قل تعالى: (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم اللهُ إن الله يحبُ التوابين ويحبُ المتطهرين) (١٢). وعلى العموم فقاعدة التحريم مبنية إجمالاً على حماية الإنسان من الضرر، الذي يدركه والذي لا يدركه، وهي ليست متجهة إلى حرمانه من ملذات الدنيا المحللة، فالشريعة لا تقيّد الفرد لمعاقبته في هذه الدنيا، بل لحمايته فيها من الفواحش والمنكرات والعدوان والظلم والبغي والشرك والكذب والانحراف... ولا تقبل أن يحرم الإنسان نفسه بحجة الالتزام بها، بل تستنكر عليه هذه المنهجية، قل تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل

هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١٣).

إن الطبيب المعالج لأمراض الجسم، يُوضح للمريض بعض أسباب المرض وكيفية تأثير الدواء في تحقيق العلاج، لكنه يحتفظ لنفسه بالكثير الكثير نتيجة علمه وإطلاعه، في مقابل جهل المريض، وعدم قدرته على استيعاب كل شيء، بل وعدم الضرورة لذلك، إذ أن الهدف هو العلاج الذي يقع على عاتق الإخصائي، والمهم أن يتحقق العلاج لا العلم بتفاصيله. فكيف بمعالج الجسد والروح وتعقيدات وتشابك النفس الإنسانية؟ حيث تكون المهمة أصعب، والهدف أنبل، والنتيجة سعادة أو شقاء. فالأولى أن يكون الإتجاه للهداية بالطرق الملائمة الموصلة إليها ببعض علم وكثير تسليم.

وهذا هو دين المسار الإنساني في تنظيم الحياة، فالمدبر في المدرسة، والقائد في المعسكر، والحاكم في الرعية، والأب في الأسرة، ورب العمل في مصنعه، يتصرفون بتنظيم وتوجيهات لا تخضع للجلد، لحسن الإدارة وتحقيق الأهداف وإلا إنهار النظام العام، وما تعتمد الشريعة، يحقق تنظيماً لحياة وسلوك الإنسان يوصله إلى الطمأنينة والسعادة.

بين العقلنة والتسليم

إن حكم العقل في أصول الدين يستلزم تسليماً بفروعه، ويكون تدخله في الفروع لاستنباطها واستخراجها من مظانها لتحديد التكاليف المطلوبة بعد الحكم على شرعيتها، فمع إثبات المشروعية وحدود التكاليف لا مجال لإخضاعها مجدداً لحكم العقل بالقبول أو الرفض، فهذا مخالف للمنهج البشري المعتمد في

مثل هذه الحالات، حيث لا يستقيم اختيار أو ثبات أو مبدأ من دون هذه القاعدة الملائمة للفطرة الإنسانية وضوابط العقل في التفكير، والمطبقة عملياً في كل مجالات الحياة.

فمن اختار المبدأ الرأسمالي أو الشيوعي، اختاره في أصوله وسلّم بتفريعاته، فالالتزام بمادية الإنسان في كل منهما، يجعل التفاصيل التي تُغرق الجسد في الملذات نتيجة طبيعية لاستبعاد الحساب في الآخرة ونهاية الحياة في الدنيا، ولولم يعجب البعض نتائج هذا الغرق في الملذات، فإنه عاجز عن تغيير مسار نتج عن قاعدة كلبية، ومهما كان الهامش متاحاً فهو أسير هذه القاعدة.

والالتزام بمحورية الملكية الفردية يستتبع الإحتكار الجشع، والتفاوت الاجتماعي، وتأثير رأس المال على السلطة والقوانين مهما كانت الإجراءات الواقية من هذه النتائج لمن يرفضها، علماً بأن كتلة المصالح لفئة مسيطرة من الناس تجعلها مشروعة عندهم من ضمن النظام العام، وهم الأقدر على الدفاع عنها.

وكذلك الالتزام بمحورية ملكية الدولة، وحرمان الفرد من الملكية الخاص بأداء حثي وقمعي، يعطل الحوافز الفردية، ويُفقر المجتمع، ويحصر الثروة بالسلطة الحاكمة باسم حماية ملكية الدولة، ويخالف الفطرة في طموحاتها ومتطلباتها، ومهما حاول البعض تلطيف النتائج، فإن الخط العام حاكمٌ ومؤثر، وقد فشلت الشيوعية فشلاً ذريعاً بسقوط الاتحاد السوفيتي، الذي كشف البنيان القائم على أعمدة غير ثابتة، وما نريد الاعتبار منه هو ارتباط التفاصيل والفروع مع أصولها، حيث يكون التسليم بها أمراً طبيعياً بعد القناعة بالأصول.

وهذا لا يعني أن العقل لا يقتنع بتفاصيل الفروع في الإسلام، فهي تنسجم مع التفكير السليم بكلياتها وأبعادها وأهدافها ونتائجها، لكننا نتحدث عن

منهجية الأخذ بها عن طريق التسليم وليس عن طريق العقلنة، وإلا فإن التحليل واستخلاص الحكمة من أي تشريع يثبت إختزانه لأسباب مقنعة وراء تشريعه، ويحمل دلالات كافية لاثبات تفوقه على ما يغيره من حلول بديلة لفروع ناتجة عن أصول أخرى، إلا أن تجزئة الأحكام عن بعضها البعض وعن أصولها يُفقدنا مرقعها الطبيعي، ويُضعف فهم آثارها المتوخلة، التي تتكامل مع المنظومة التشريعية الكاملة والمتراصة، إضافة إلى أن الموافقة على طريق العقلنة في تفاصيل الفروع يربك خيارات الإنسان ويشوش استقراره العملي.

وهل الإنسان عقلٌ مجرد لتتجه منهجية هدايته إلى مخاطبة عقله فقط؟ إن دراستنا لظاهرة الإنسان ووقائع تجربته عبر التاريخ، تبين أنه عقلٌ ومشاعر، جسد وروح، ولا بدّ لأي تنظيم ناجح لحياته أن يتعاطى مع هذه الأمور الأربعة بتناسق وتوازن بينها.

فالمبدأ الملائم هو الذي يخاطب العقل بقواعد المخاطبة المنسجمة مع الاختيار الحر والمسؤول في تحديد مسار الحياة الدنيا، ويتفاعل مع المشاعر الإنسانية فيما تؤمن به وترتاح له وتحتاجه لتحقيق الاستقرار النفسي، لترسم الفروع ما يلبي حاجات الجسد بكل متطلباته، وفق ضوابط تحميه وتوصله إلى نموه الطبيعي والسليم، من دون إسراف أو تقتير، ويلبي حاجات الروح في سمو النفس الإنسانية ووصولها إلى الطمأنينة والاستقرار، الذي ينعكس في امتلاك زمام المبادرة لضبط الجسد من ناحية، وتغذية الروح وقدرتها على رفع ما يحجبها عن فلاحها من ناحية أخرى.

عالمية الإسلام

ولعلّ أفضل تعبير لوصف الدين الإسلامي الذي يواكب الأمور الأربعة المذكورة، ويحقق لكل واحد منها دائرته الملائمة، أن نقول بأنّ "الإسلام دين الفطرة"، وقد قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٤٤)، وهو بذلك دين العقل والعاطفة، دين تنظيم حاجات الجسد والروح، دين الكمال الإنساني من أي زاوية ننظر من خلالها إلى الإنسان وبتكامل الزوايا مع بعضها البعض.

لقد توجّهت الرسالة الإسلامية إلى الإنسان، ولم تقتصر على جماعة دون أخرى، فقال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)^(٤٥)، ووردت آيات كثيرة تتحدث مع الناس بلغة الحوار والاقناع والدليل:

(يا أيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبيناً)^(٤٦).

(قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدوا الله الذي يتوفاكم وأمرت أن تكون من المؤمنين)^(٤٧).

(يا أيها الناسُ ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسألهم الذباب شئاً لا يستقدوه منه ضعف الطالب والمطلوب)^(٤٨).

فهي رسالة عالمية، انطلقت من شبه الجزيرة العربية لتخاطب الشعوب والقوميات والأعراق والأجناس، على أساس أن المكانة العليا للاتقى: (يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليمٌ خبير)^(٤٩)، وهي بذلك تكون متحررة من أسر المكان لتشمل العالم، ومن أسر الزمان لتشمل كل العصور، بما فيها العصر الحديث، إذ أنها

تتعاطى مع الفطرة الإنسانية، وقد أعدّها الله تعالى لذلك، ولم يحدّها بالزمان والمكان، بل ترك فيها من المرونة ما يلي حاجات اختلاف الزمان والمكان. إنّه رسالة قادرة على التحدي على مستوى العالم، وتملك مقومات إثبات أرجحيتها على ما عداها بالحجة والبرهان، فهي لا تعتمد تعطيل العقل بإسقاطات بدوية للإيمان بمسلمات غير قابلة للنقاش، ولا تنطلق من عصبية مسبقة ترفض تشريح القناعات السابقة التي تولدت في ظروف تربوية خاصة، ولا تفرض حتميات تاريخية لمصادرة قدرة الاختيار، وإنما تنطلق من أدلة لا لبس الإيمان بالله تعالى وما يترتب عليه، في سيق وجداني يتناغم مع فطرة الإنسان وعقله.

ولعل سائلاً يستغرب، كيف لا يؤمن البشر جميعاً بهذا الدين؟!

وهنا نعيده إلى مقدمات هذا البحث، ليستخلص ويستنتج بأن العقل البشري لا يصدر أحكامه بشكل مجرد، نظراً لتأثره بالمقدمات والمنهج والأنايات، فإذا وردت أخطاء في المقدمات أو المنهج، وسيطرت الأنايات والمصالح، فستقف الحجب التي تمنع العقل عن التفكير الصحيح مانعة من الوصول إلى النتيجة السليمة.

لقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(٥٠)، ليوفّر مقدمات الهداية السليمة بالوجه الرسالة التي تُسعد الإنسان، فلا تكون لديه أي حجة لانحرافه أو ضياعه، وهو يتحمل مسؤولية البحث لعدم الوقوع في شرك حجب العقل والذات.

الفصل الثاني الواقعية

واقعية ضوابط الفطرة

الواقعية تعبير عن انسجام الفكرة والسلوك مع حقيقة الإنسان ومتطلباته. وهذا ما يستدعي منا البدء بتحديد واقع الفطرة الإنسانية لنستكشف مطالبها الواقعية.

خلق الله الإنسان من طين مجبول على الاختيار بين الخير والشر، في قالب جسدي تسكنه حاجات وغرائز لا بد من تلبيتها، وفي نفخة للروح تسمو أو تهوي به بحسب تغذيتها، وقد مكّنه الله تعالى من قدرة إعمار الأرض وبناء الحضارات.

بينما خلق الحيوان منقاداً لغرائزه لاشباعها، برتابة ومحدودية لا تمكّنه من التطور، وخلق الملائكة مأمورين بالطاعة، لا يختارون ولا يعصون ولا تشتهي أنفسهم، وينفذون مهمات محدّدة لا يجيدون عنها.

وقد جاء التشريع الإسلامي منسجماً مع متطلبات الجسد والروح، ضمن ضوابط الاعتدال في كل منهما والتوازن بينهما، رافضاً لأي إنكار للحلجات والغرائز، ومربياً على سلوك يرقى بالإنسان نحو الأفضل، بما ينسجم مع إمكاناته وقابلياته لعروج درجات التقوى، ليصل إلى أي منها بسعيه وجهده.

يشمل هذا التوازن النظرة إلى الدنيا والآخرة، فالدنيا متاع زائل والآخرة متاع دائم، فليأخذ الإنسان من الدنيا بقدر قيمتها وأثرها ليقبى، للآخرة الثمرة النهائية الدائمة، ولا داعي لإنكار حياة الدنيا بحجة الآخرة، فللمرء فيها ما يؤدي إلى الآخرة، وله فيها ما يحتاجه بشكل طبيعي ومشروع، فليعيشها بمحدودها ومتطلباتها بشكل سليم.

قل تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)^(٥١).
 وقال: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون (٣٢) قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم يُعزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)^(٥٢).

فالإنجاء الإسلامي يركز على ضبط سلوك الإنسان في الدنيا، وعدم إطلاق العنان لمذاته وشهواته، فما حرم هو ما منعه الله تعالى لضرره وسلبه وجوده ومصالحه في ذلك، علماً بأن المنع عن بعض الأمور سلوك بشري في كل الأمم والتعاليم، التي قد تحرم ما أحل الله، وقد تحلل ما حرم الله، وقد تتلاقى في بعض الضوابط مع تعاليم الإسلام، ما يؤكد على الحاجة الطبيعية لحماية الإنسان بهذه الإجراءات. وحتى الغرب الذي أعطى الجسد الكثير، فقد وضع بعض القيود لحقوق الفرد كي لا تتعارض مع حقوق الآخرين، وركز على أهمية الالتزام بالقانون الذي يحكمها، والذي يحدد ضوابط العلاقات بين الأفراد في المجتمع ومع الدولة.

فلخلاف حول الضوابط، وعلى كل طرف أن يثبت مدعاه ومنطلقاته في نظره إلى الدنيا، فلا معنى للقول بأن "الاتجاه المادي واقعي والاتجاه الإلهي مثالي"، إلا إذا كان المقصود بالمثالي الوصول للحياة الأفضل والأمثل، لأن الاتجاه الإلهي واقعي بانسجامه مع متطلبات الإنسان، وهو أكثر واقعية من الاتجاه المادي، لأنه يتعاطى مع حقيقة الإنسان وحاجاته، من موقع المعرفة والعلم، ومن موقع الخالق مع مخلوقه. أما الاتجاه المادي، فهو اتجاه تجريبي جامل بحقيقة الإنسان، يتعرف عليه تدريجياً، ويجرب الحلول ويغيرها باستمرار، ولا يُعبر عن نظرة واحدة عند جميع

الموجهين، فهو اتجاه ناقص يتصرف من وحي الواقع الذي يراه، لكنه لا يحقق الواقعية المنسجمة مع الحقيقة.

ومع اهتمام الإسلام بالروح وتغذيتها والعبادات وتأثيرها في هذا المجال، بهدف تزكية النفس، ما يؤثر على مركز التوجيه لاختيارات وأعمال الإنسان، فإنه لم يقبل جنوحاً يعاقب الجسد أو يجرمه من حاجاته الطبيعية، "فلا رهبانية في الإسلام"^(١٣)، ولا عزلة عن الحياة، فالإيمان يُترجم بعيش الدنيا للفوز بحسن السلوك فيها لا بالإمتناع عنها.

رُوي عن ثلاثة رهط استقلوا أعمالهم في مقابل أعمال النبي (ص) وقد غفر الله تعالى ما تقدم من ذنبه وما تأخر بسبب عبادته وأعماله،

فقل أحدهم: أما أنا أصلي الليل أبداً.

وقل آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقل الثالث: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله (ص) فقل: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنني لأخشاكم لله واتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"^(١٤).

وترك الإسلام فسحة لتغذية الروح، في مستحبات العبادة ورقى النفس الإنسانية، أخذاً بعين الاعتبار تقلب النفس مع مشاغل ومصاعب الحياة، فإن لها إقبالاً على العبادة في بعض الحالات، وإدباراً عنها في حالات أخرى، فلكي تبقى تربية النفس في دائرتها الصحيحة، لم يقيد المكلف بواجبات عبادة صعبة، فقد أوجب عليه خمس صلوات في اليوم، وصيام شهر في السنة، وحج مرة واحدة في العمر... الخ وهو يطبق أكثر من ذلك، فعن الإمام الصادق (ع): (ما كلف الله العباد فوق ما يطبقون، فذكر الفرائض وقال: إنما كلفهم شهر من السنة وهم يطبقون

أكثر من ذلك)^(٥٥)، ووجهه في المستحبات لينسجم مع حالة نفسه، قل رسول الله (ص): "إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفّلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة"^(٥٦)، وقل أمير المؤمنين علي (ع): "إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على المستحبات"^(٥٧).

عندما تطبق هذه التعاليم في مجتمع من المجتمعات، فتنجح وتستمر آثارها، فهذا يدل على واقعيّتها وقابليّتها للتأثير، أمّا رفضها في مجتمع آخر فعائد إلى الثقافة السائدة والأعراف والتقاليد، وما تراكم عبر الزمن من تربية للنفوس، ما شكّل حجياً مانعة من استقبال الشريعة أو الاستعداد لفهمها وتطبيقها.

ولو استعرضنا بعض المحرمات وبيّنا أضرارها، لوافقنا الجميع على ذلك من أي اتجاه كانوا، إلا أنهم يعطون المبررات المختلفة والقاصرة لعدم المنع لديهم. فلخمر يُذهب العقل، ويسبب الحوادث والمشاكل الاجتماعية الأسرية، والأهم من ذلك ما يسببه من أضرار للجسد باعتراف الأطباء. والزنا يخلط مياه الأنساب ويعطل استقرار العلاقات الاجتماعية، ويحرم أولاد الزنا من العيش الكريم، ويُغرق في ملذات الجسد، ويسبب أمراضاً متنقلة كالزهري والسفلس وغيرهما، إضافة إلى مضاره الأخرى. وإبراز جسد المرأة بالتركيز على مفاتيحها، يجعلها سلعة وأداة متعة للعامّة، ما يؤثر على مكانتها ودورها. ولن نستعرض كل المحرمات، لكنهم يتجاوزون التحريم مع اعترافهم بالأضرار ويدعون إلى التخفيف من الخمر أو عدم قيادة السيارة عند الإكثار منه، تلبية للضرورة الشخصية بعدم حرمانها من لذتها، ولا يوافقون على تحريم الزنا! لكنهم يدعون إلى توفير الوقاية من الأمراض الجسدية من دون التعرض لحرية الإنسان، ويحملون الأفراد في المجتمع مسؤولية الاختيار في طريقة التعاطي مع العري كجزء من الحرية أيضاً... الخ. لأن الأساس الذي ينطلقون منه حرية الإنسان في إعطاء الجسد أقصى ملذاته، ثم

يعالجون بعض الانعكاسات السلبية بطريقة جزئية، من دون التوقف عند السلبيات الأخرى الكثيرة، طالما أنها رغباتُ الهوى.

تطبيق المسلمين لإسلامهم

ومع كل هذه القواعد الإسلامية في التربية والحيلة والسلوك والعمل، فإن استجابة المسلمين لها متفاوتة، ولا تكفي القناعة بها ليتغيرَ الحال، بل لا بدَّ من جهد متواصل وجهاد أكبر (جهاد النفس) لمواجهة تحديات الشهوات ودعوات الشيطان، وفي الطريق يسقط البعض وينجح البعض الآخر، لذا لا يمكن الربط بين الإسلام وأخطاه المسلمين، "إن الحق لا يُعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله"^(٤٨)، ولا يمكن تكوين صورة نموجية عن مجتمع المسلمين، فحسن الصورة يزداد ويرتقي مع حسن التزامهم وتقيدهم بالتكاليف، كما أن الصورة السلبية موجودة بسبب التقصير والاهمل وضعف الالتزام.

وقد تحدث القرآن بواقعية عن مجتمع المسلمين، فعرض إيجابياته وسلبياته، وأبرز نقاط القوة والضعف فيه، وتابعه في متغيراته، ليقدم الصورة الحقيقية لئلا فلا يلتبس أحدنا بتجميل ما آل إليه حال المسلمين، لأنَّ المسؤولية تقع عليهم، وأي نتيجة في مجتمعهم تنشأ عن مستوى التزامهم، ويجب أن نعرف واقع هذا المجتمع حتى في عهد رسول الله (ص)، فلا نعيش في عالم المثل، وهذا ما يدعونا إلى الاعتبار والاستفادة من تجارب المسلمين، من دون أن يصيب تقييمنا للإسلام بأي خدش.

فالمنافقون يعيشون في مجتمع المدينة المنورة في الدولة التي يحكمها رسول الله (ص): (وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفْلِ لَا

تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم^(٥٧)، وقد تحدثت سورة التوبة عنهم وعن أفعالهم بإسهاب.

واختلف حل المؤمنين في بدر عن أحد، ففيما تميزوا بإيمانهم في معركة بدر حيث كان الواحد منهم بعشرة من الكفار في القوة والشجاعة والفعالية: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون)^(٥٨)، أصبح الواحد منهم باثنين في معركة أحد، بسبب ما دخل في نفوسهم من حب الدنيا، والتراجع في مستوى إيمانهم واندفاعهم نحو التضحية: (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)^(٥٩).

فالتجربة الإسلامية متحركة، وتختلف من مجتمع لآخر، ومن زمان لآخر، وتتبع فهمها ومستوى الاستجابة لها، كما تتأثر بعدد المتتمين إليها والفرصة التي تهيأ لهم للتربية بتعاليم الإسلام، فللمؤمنون في مكة المكرمة تميزوا بنماذجهم الراقية، فهم قلة تربوا على يد رسول الله (ص) في ظروف صقلت شخصيتهم، وكذلك كان الأنصار في المدينة المنورة حيث حسن إسلامهم أكثر مما كان عليه الحال مع قريش، فأبلوا بلاء حسناً وأقاموا دولة الإسلام، لكن فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة استقطب أعداداً كبيرة من سكان الجزيرة العربية فدخلوا في دين الله أفواجا، (إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا)^(٦٠)، ما جعل الفرصة لاستيعابهم تعاليم الإسلام قليلة، فأثار بعضهم مجموعة من السلبيات مما حملوه معهم من جاهليتهم.

ولا نقول بسهولة الالتزام الديني، خاصة مع وجود المعوقات التربوية والمجتمعية التي تحاصر الالتزام وتعارضه، لكننا نشق بالقدره على تحقيقه بالصبر

والحكمة والموعظة الحسنة والاستفادة من التجارب وإعادة الإنسان إلى فطرته السليمة، وهذا ما يتطلب عملاً هادئاً ومحسوباً برفق، قال رسول الله (ص): (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكَرَّهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المبت، الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى)^(١٣٦). فإذا سلك المرء طريق الإيمان فيجده يسيراً وطبيعياً ليصبح بعد ذلك نمطاً عادياً في حياته.

النص محور التشريع

لقد حققت أطروحة الإسلام بمحورية اهتمامها بحقيقة الإنسان قدرة على تشكيل النظام الأصح له، خاصة بمعالجتها لثوابت متطلبات الفطرة بثوابت التشريع، وتركت المجال مفتوحاً بمرونة أمام المتغيرات المرتبطة بالزمان والمكان، وشكل النص الشرعي هيكل الأوامر والنواهي، ليحقق طريق الهداية الموضوعي والواقعي، فلم يُترك الإنسان لقدره ليجتهد عن الحل، بل وضعت له الخطوات الضرورية لهذا الحل من خلال منهج الإسلام.

فالنص محور التشريع، وهو قرآني أو من السنة الشريفة (بما تتضمن من أقوال وأفعال وتقرير). أما القرآن فقطعي الصدور عن الله جلّ وعلا، وآياته: واضحة الدلالة وظاهرة الدلالة، فما كانت دلالتها واضحة فهي ثابتة المعنى، وتدل على مراد الشارع الجدي، وما كانت دلالتها ظاهرة فهي التي تحتمل التأويل، وتجري عليها قواعد اللغة وأصول الفقه لتحديد معناها الظني، الذي يمكن أن يطابق الواقع المراد أو أن لا يطابقه، لكنّ بذلك الوسع في استنباط المعنى المراد هو المطلوب، ويتأثر الاستنباط بسعة علم المفسر أو المجتهد وإلمامه بكل الخصوصيات التي لها علاقة بالموضوع، فالنص القرآني الثابت بدلالاته غير قابل للاجتهاد، والظاهر بدلالاته قابل للاجتهاد وفق المعايير المعتمدة لا بشكل استنباطي.

أما السنة فتحتاج إلى مرحلة أسبق لحسم صدورها عن المعصوم، فما تواتر منها أو صح صدوره يتم التعاطي معه كقطعي الصدور، وما تبين عدم صدوره يخرج عن دائرة البحث، وما احتمال صدوره يكون ظني الصدور، عندها يتم التعاطي مع قطعي الصدور كالنص القرآني في دلالة الواضحة أو الظاهرة بمراعاة مناسبات الحكم والموضوع وأخذها بعين الاعتبار، ومع ظني الصدور على أساس دلالة الظاهرة.

فالمساحة التي يمكن للمجتهد أن يتحرك فيها، دائرة النص ظني الصدور من السنة الشريفة، ودائرة النص ظاهر الدلالة من القرآن الكريم والسنة، أما قطعي الصدور وواضح الدلالة فلا إمكانية للاجتهاد فيه، لأنه محكم وثابت، ومعبرٌ عن الإرادة الجدية كنص معتمد في التشريع.

ولا شك بأن فهم المعنى المراد في مساحة الاجتهاد يختلف من مجتهد لآخر في بعض الاستنتاجات، وهي مساحة تشمل ما استنبطه المجتهدون في فترات سابقة لقضايا مطروحة، وما يمكن أن يستنبطوه بتجديد نظرهم فيه أو لقضايا مستجدة في الأمور المستحدثة.

ويؤثر المنهج المعتمد في طريق الاستنباط على النتائج المستفادة، فالبحث التفصيلي التجزيئي للآية أو الرواية بما هي نص، يُعبر عن المراد، ما لم يسري عليه التعارض مع نص آخر، أو قواعد الجمع العرفي، أو الاطلاق والتقييد، أو العام والخاص... الخ، وهو يختلف عن البحث التكاملي، الذي يضع النص في سياق ربطه بالنصوص الأخرى، التي لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالموضوع بالنظر إليه كجزء من كل. وكذلك اعتماد خبر الأحاد في الأحكام كنص صحيح يختلف عن عدم اعتماده، في إدخال مجموعة من الأحكام أو إخراج مجموعة أخرى

من دائرة الصحة، والأمر نفسه يتكرر في علم الرجل بتحديد الثقة، ومتى يؤخذ بخبره ومتى لا يؤخذ، وهكذا نجد المنهج مؤثراً في عملية الاستنباط.

تجديد الفهم للدين

من الطبيعي أن يكون التجديد سمة دائمة في فهم الدين، لسببين جوهرين: الأول: صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فمع اختلاف الزمان تستجد أمور، وتتغير معطيات، وتوضح خفايا، ما يستدعي الإجابة على الأسئلة المعاصرة، سواءً الماثرة منها حول قضايا قديمة، أو المستجدة منها بسبب تغير الزمان. ومع اختلاف المكان، تتفاوت الأعراف ومجالات الاهتمام، ما يستدعي مواكبة متطلباته على أساس الشريعة. وبما أن الشريعة قد ارتكزت على الثوابت والمتغيرات، فدائرة التجديد في المتغيرات مرنة وطبيعية، تتطلب من المهتمين بذلك وسعهم للاستفادة منها، فإذا قصرُوا، حُرمت الأمة من فعالية ومواكبة الإسلام للحياة، وعندها لا تكون المشكلة من عدم قدرة الإسلام على مواكبة الحياة المعاصرة، وإنما من عدم قدرة المسلمين وقلة سعيهم لمواكبة حاجاتهم في الحياة المعاصرة.

الثاني: وجود دائرة كبيرة من النصوص ظنية الدلالة أو ظنية الصدور، ووجود مساحة واسعة للمباحث، وكذلك للمستحبات والمكروهات التي يغلب على تحديدها في كثير من الأحيان التسامح في أدلة السنن، وهذا ما يمكن الفقيه من التحرك بشكل واسع في استنباط الأحكام الشرعية، والبحث الدقيق عما يساعده للاستفادة من معانٍ لم تكن مستنتجة، أو أحكام لم تكن مستنبطة، أو دلائل لم تكن ظاهرة، وهو بذلك يواكب العصر، لا على قاعدة البحث عن تخفيف التكاليف الشرعية، بل على قاعدة التدقيق في فهم أفضل وأوثق واستنباط الحكم الشرعي من مظانه للاقتراب من الحكم الواقعي الذي قد يؤدي إلى

التخفيف في كثير من الأحيان، وإلى التشدد والتضييق في بعضها. أما السبب الداعي للتأكيد على منهجية استكشاف الحكم الشرعي فلأن هذه المنهجية تضع الفقيه أمام طريق للاستنباط يختلف عنه فيما لو كان اهتمامه التخفيف. وبما أننا نؤمن بسماحة الشريعة ويسرها، فللطلب استكشاف مضامينها التي تؤدي إلى التسهيل بشكل طبيعي.

وهنا يساعد التجديد في لفظ ما تراكم من الحرافات أو تشويهات أو أخطاء في الفهم الديني، كما يؤدي إلى التخلص من التقليدية والجمود لاكساب الفهم الديني حيوية تتلاءم مع اكتمال الدين وثباته، فهو استجابة لتحديات الواقع الإنساني المتحرك، وهو السبيل لامتداد الدين الكامل وثوابته إلى الميادين الجديدة والأمور المستحدثة.

فالمطالبة بالتجديد لا يعني تجديد الدين، وإنما تجديد فهم الدين، بالاستفادة من صلاحيته ونصوصه، ودعوات التجديد موجهة إلى الفقهاء والباحثين ليوفروا الشروط الموضوعية وفق المناهج المقبولة في عملية الاستنباط، كي يقدموا استنتاجاتهم، قليلة كانت أو كثيرة، عادية كانت أو استثنائية.

ومن الخطأ أن يتحول التجديد إلى عقدة تُطرح بما بين أيدينا، أو تثير إشكالات الشك ببعض الأحكام مجرد الإحساس باحتمال أن يكون الموقف الشرعي غيرها، أو أن نعيش ضغوطات الواقع في أسئلة لا تجد حلولاً منسجمة مع رغباتنا، ففي هذا الأسلوب خطر كبير، لأنه يهز الثقة بالشريعة وقدرتها على مواكبة الحياة، ولا يقدم في المقابل فهماً مقنعاً، فيتحول تطبيقها في حياة الناس عقوبة وليس حلاً، لوجود شك في أهليتها بصيغتها المطروحة.

والسؤال المطروح: هل نعتبر الأحكام الشرعية المقبولة في زماننا هي التي تلائم رغباتنا وتخلصنا من بعض الإحراجات العملية؟ أو أننا نعتبرها منظومة كاملة لبناء الإنسان وتوجيهه فيما يعجبه وما لا يعجبه؟

بتعبير آخر: هل نريد الأحكام متوافقة مع الهوى والاتجاه المادي الذي انتشر انتشاراً واسعاً في زماننا فأوجد أسئلة معاصرة؟ أم نريدها لتعالج لنا ما نشخصه من مشاكل فردية واجتماعية وفق ما يتحمل النص من قابلية لذلك وفي المساحة المتاحة للاختيار؟

ليس وارداً على المستوى المنهجي أن نغلب الهوى على الشرع، والأحكام الحلول من مبانٍ أخرى لا علاقة لها بالشرعية. لكن المطلوب أن نحدد المشاكل المستعصية والأسئلة المستجدة، وأن نعلم في تحديدها على دراسات وإحصاءات اجتماعية منهجية، وأن نصنفها في أبوابها الفردية والجماعية، العائلية والاجتماعية، السياسي والاقتصادية والثقافية... الخ، ثم تعرض بين أيدي الفقهاء والمختصين، مع كل الحثيات الزمانية والمكانية التي تساعد على استكناه طبيعة المشكلة وحجم انتشارها، ليجمع الفقيه بين الماهية بطبيعة السؤال المطروح، والماهية طبعاً باستنباط الأحكام الشرعية، معتمداً في ذلك على ما تراكم من تطور في حركة الاجتهاد، ومستفيداً من المناهج والأليات الحديثة الملائمة مع هذه الحركة، وعند بروز قضية معقدة يُتوقع لها حلٌّ ما، لكن الفقيه لم يتمكن من الوصول إليه بما بين يديه، عندها من المفيد عقد لقاءات أو مؤتمرات، أو كتابة أبحاث متخصصة حول موضوع معين، لاستكشاف الحلول الممكنة.

لكن عندما يتبين أن جميع المحاولات لم تنتج الحلول التي يمتناها البعض، فقد تكون حكمة التشريع بأن ينحصر الحل بما استنبطه الفقهاء سابقاً، وعندها يمكن أن تتجه المعالجة إلى جهة أخرى تحيط بالمشكلة المطروحة، لتعالج بعض المقدمات

بطريقة تمنع الوصول إلى المشكلة، وربما تبين أن المشكلة موجودة في مكان وغير موجودة في مكان آخر، فيكون الحل المطروح طريقاً للمعالجة في المكان المناسب. مثل تطبيقي: أجمع الفقهاء بأن الطلاق بيد الرجل، وعند إنشاء عقد الزواج من دون شروط، يستطيع الرجل تطليق زوجته في أي وقت شاء من دون تحديد أسباب ذلك، ولا تملك الزوجة هذا الحق، ويتدخل الحاكم الشرعي بناء لطلب الزوجة ليلزم الرجل بطلاق زوجته في حالتين: الامتناع عن الإنفاق، وعدم معاشرتها لمدة تزيد عن الأربعة أشهر مع إصراره على ذلك، فإذا لم يطلقها، طلقها الحاكم الشرعي نيابة عنه.

ناقش البعض هذه القضية من زوايا عدة:

- ١- هل يمكن أن يكون للزوجة حق طلاق نفسها في أصل العقد كي تتساوى صلاحيتها في ذلك مع الرجل؟
- ٢- هل يمكن تقييد الرجل بعدم حقه في الطلاق الاستثنائي كي لا تكون المرأة عرضة للآثار الاجتماعية الكثيرة بسبب طلاقها؟
- ٣- ماذا تفعل المرأة إذا لم تنسجم نفسياً في استمرار حياتها الزوجية حيث لا يساعدها العقد للطلاق إلا إذا وافق الزوج؟
- ٤- تصرف المرأة جهدها في المنزل وتربية الأولاد، ويهتم الرجل بتنمية قدراته العملية والمالية، ليكون الرجل في نهاية المطاف مالكا، بينما تكون جهودها قد اتخذت طابعاً طوعياً ولم يتراكم على المستوى المالي، فهل تجد حلاً يضمن لها شيئاً من التوازن إذا طلقها أو إذا مات ولم يكن الثمن كافياً لإعالة نفسها مع فقده؟
- ٥- قد لا تتحمل بعض النساء تعدد الزوجات، وهو حق لا يمكن سلبه منه، ولا تستطيع فعل شيء إذا لم يوافق على طلاقها فيما لو طلبت ذلك، ما يعني أنها

ستعيش غضباً عنها في حيلة لا تريدها، وبذلك تكون عاصية إذا قصرت في واجباتها الشرعية فلا مبرر لها بذلك مع وجود العُلقة الزوجية؟
أما الدافع لهذه الأسئلة وغيرها، فبعض الوقائع الاجتماعية التي برز بعضها في مكان دون آخر، أو في زمان دون آخر، وقد تحولت في بعض الأحيان إلى ظواهر اجتماعية حادة.

بما أن إجماع الفقهاء لم يتوصل في أساس العقد إلى غير ما ذكرنا، لكنهم اجمعوا أيضاً بإمكانية وضع شروط خاصة أثناء العقد، تتلاءم مع الحقوق الثابتة لكل من الرجل والمرأة، وهي قدرة على معالجة كل الأسئلة الواردة أعلاه، فلا داعي للتوقف عند أصل العقد مع انسداد احتمالات تعديله، طالما أن الحلول المطلوبة موجودة في إضافة الشروط. إذ يمكنها أن تشترط:

- ١- أن تكون وكيلة عن زوجها في طلاقها فتساوى بذلك مع الرجل.
- ٢- يمكن تقييد طلاق الرجل لها بدفع مبلغ مالي كبير، أو مجموعة تأمينات تعيق إقدامه على هذه الخطوة عندما تكون استثنائية.
- ٣- حل مشكلة الانسجام النفسي بالعودة إلى الحاكم الشرعي ليقدر المصلحة وحجم المشكلة، ليجري طلاقها بوكالته في العقد، أو لتجريبه بوكالتها عن زوجها.
- ٤- أن تكون الثروة مناصفة أو بنسبة مئوية معينة لكل ما حصله بعد الزواج في حل الطلاق أو الموت.
- ٥- أن توافق على تعدد الزوجات، أو يكون لها الحق في طلاق نفسها وكالة عنه فيما لو لم توافق.

لكن مجتمعاتنا لا تتحمل أن تشترط كل زوجة هذه الشروط الخاصة، التي تخيف الرجل، وتجعله يُعرض عن الزواج ممن تشترط هذه الشروط. ونجيب بأن

العقد اتفاق بين طرفين، وليدرس كل منهما مصلحته، فإذا وجدت المرأة مصلحتها في الزواج أبلغ من بعض هذه الشروط قدمته عليها، وإذا وجدت مصلحتها ضرورة توقفت عندها.

ومع ذلك يمكن رفع المشكلة من دائرة الزوجين، ليضع علماء المنطق التي تعاني بعض المشاكل عقداً يتضمن شروطاً مقترحة، بحيث تُتلى على الزوجين قبل إجراء العقد، فما وافق عليه يصبح جزءاً من العقد ملزماً لهما، فيرتفع الحرج الشخصي، كما يمكن للعلماء أن يقوموا بتوجيه ثقافي للمجتمع، لتشجيعه على بعض الشروط كي تصبح مألوفة وطبيعية، فنكون بذلك قد عالجتنا العضلة الموجودة في مكان وزمان معين. وقد خطت إيران الإسلام خطوة مهمة في هذا المجال، فوضعت عقداً فيه مجموعة من الشروط للاختيار، وهي مستقلة من واقع مجتمعهم، ويتعاطى الزوجان مع الشروط بشكل طبيعي في اختيار بعضها من دون حرج.

هذا الإجراء يستلزم قناعة من المتصدين للشأن العام بطبيعة المشكلة وحدودها وأساليب معالجتها، وتتطلب جرأة ليختاروا هذا الأسلوب، ويحددوا الشروط العامة الملائمة، التي تقدم علاجاً يختار منه الزوجان ما يناسبهما، فنكون بذلك قد ربطنا المعالجة بالأسباب التي أوصلت إلى المشكلة، بوضع الشروط المناسبة وتوجيه عامة الناس حول جدوى هذه المعالجة، فيكون الحل قد ارتبط بالتشخيص الذي ساعدت عليه مرونة التشريع.

وعندما لا يتوصل الفقهاء إلى أي إمكانية لتعديلات في الحقوق الواردة في أصل العقد، لعدم قابلية النصوص لذلك، فهذا يدل على وجود مصلحة أكيدة في هذه الحقوق العامة، ومع تطبيقها من دون شروط في عقد الزواج، تستقيم

الحياة في أزمنة وأمكنة كثيرة، لأنها تحفظ المباني العامة الأساسية للحياة الزوجية، فتأتي الشروط بعد ذلك لمعالجة ما يطرأ أو يحتمل حدوثه في ظروف معينة.

إشكالية جمود الفهم للنص

إننا لا نعاني من جمود النص ولكن من جمود الفهم للنص عند البعض، خاصة عند سلوك التجزيئية في فهم النصوص، وذلك بعزل النص عن النصوص الأخرى، والتمسك بظاهره من دون أن ينسجم مع النظرة الكلية له مع غيره، فعندما نقرأ قوله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^(١٤)، ونفسر العرش بكرسي الملك، والاستواء بالجلوس عليه، ما يعني أن الرحمن قد جلس على كرسي له شكل وحدود، فإن المفسر يقع في مأزق التجسيم للخالق، لكن لو ربطنا الآية بقوله تعالى: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ»^(١٥) يتضح أنه في كل مكان، ولا يحده مكان، فيكون المقصود بالتأويل أن الله عز وجل مسيطر من موقعه كخالق على الكون، وما استخدام ألفاظ العرش والاستواء إلا لتقريب الفكرة إلى الأذهان كي تستوعبها.

وكذلك عندما نحمل التجارب التاريخية مضموناً مقدساً يجعلها بمصاف النص القطعي الصدور والدلالة، فإننا نحمد الفهم الديني ومحصره بمسلمات لم تثبت، ومثالها طبيعة الدولة الإسلامية، هل هي حكومة بنمط الخلافة من حيث التنظيم والإدارة ومفردات تدبير شؤونها؟ أم أنها تحمل مرونة الالتزام بضوابط الحكم العامة من تطبيق تعاليم الإسلام واستقامة الحاكم وأولوية الكفوء وغيرها من الشروط؟

تكفي المقارنة بين واقع المجتمع في عهد رسول الله (ص) وواقع المجتمعات اليوم، ليتبين استحالة تطبيق تنظيم دولة رسول الله (ص) بمفرداتها وآلياتها على

الدولة المعاصرة بتعقيدها وتشعباتها وعدد سكانها وترباطها مع دول العالم. ولا تجربنا النصوص على التقيد بنمط معين، وهذا منسجم مع قدرة الإسلام على مواكبة الحياة. فلحكم الإسلامي حكم بالمضمون الشرعي من دون أي تقييد للآليات التنظيمية المساعدة لتحقيق هذا المضمون، باستثناء ما شكّل منها عائقاً أمام تحقيق المضمون، الذي يكون رفضه لتسيبه حرفاً عن الهدف المنشود.

وبما أنّ شكل آليات الحكم متعددة، فيمكن الفقهاء دراسة الشكل الملائم وإخضاعه للتجربة، وإجراء التعديلات المناسبة عليه، وإخضاعه للتطوير الدائم، وهي إجراءات لا تضر بأصل الشكل الذي استنتجه المجتهد، بل تنسجم مع المعالجة الواقعية لمستلزمات المجتمع الذي يطبق شكل الحكم هذا.

لقد رسم الإمام الخميني (قده) عناوين عامة لإقامة الحكومة الإسلامية، ودعا لها بتبيان شرعيتها ووجوبها، ومع قيام الدولة الإسلامية في إيران، اختار لها شكلاً رئاسياً بانتخابات شعبية للرئيس، ومجلساً للشورى كممثل للشعب عن طريق الانتخاب، ومجلساً لصيانة الدستور لضبط شرعية الأحكام المقررة في مجلس الشورى، ومجلساً لتشخيص المصلحة للدراسة الأولويات التي تستدعي فك النزاع بين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور في إطار ما للولي الفقيه من صلاحية لحسم الموقف، ويرعى الدولة ولي للأمر يمتلك صلاحيات الضبط لمسار الدولة الإسلامية، وقد أطلق على هذا التنظيم العام المعتمد اسم الجمهورية الإسلامية كخصوصية تختلف عن جمهوريات الغرب. هذا كله في منطقة الفراغ التي تملأ بحسب الزمان والمكان وتقدير المصلحة، والتي يمكن أن يطرأ عليها تعديلات كثيرة، أو اختيار نماذج تنظيمية مختلفة في بلدان أخرى، من غير الوقوع في أسر الشكل المعتمد، فلا قداسة للشكل التنظيمي للدولة الذي يكتسب أهميته من اختيار الفقيه له، ليلائم مصلحة منشودة في بلد ما.

ومن اعترض بعدم استخدام اسم الخلافة، أو اللجوء إلى الانتخابات الشعبية، أو عدم إكل الأمر لأهل العقد والحل، أو عدم مجارة الشكل التنظيمي لمجتمع الخلفاء، فقد توقف عند الشكل والآليات غير الملزمة، والتي لم يرد فيها نص شرعي ملزم، لكنّه اختزان لموروث تعصبي لا مبرر له، بل يشكّل عائقاً أمام الاستفادة من قدرة الإسلام العظيمة لمواكبة الحياة.

سلبية الحلول المفترضة

ولا نوافق أولئك الذين يصرون على التجديد بصيغة افتراض الحلول المحتملة، مع عدم قدرتهم أو عدم توصل الفقهاء إلى هذه الحلول، لأنهم بذلك يضعون التشريع الإسلامي في قفص الاتهام، بسبب عدم قدرة الفقهاء على استنباط الحلول المفترضة، وقد يستحيل الوصول إليها، لأن تفسير النص قد أخذ مداه وهذا هو الموقف الشرعي، علماً بأن الهدف هو الوصول إلى مراد الشارع لا إلى تصوراتنا ورغباتنا، ولا يصح أن يتأثر النص بتوقعات المفسر وقناعاته، (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)^(١١٧)، لكنّ طريقتهم هذه تهدم من دون أن تبني، وتزرع الشك في الحل الإسلامي، ما يؤدي إلى البحث عن حلول أخرى من خارجه، كما يترك المجال للمعادين في أن يكيلوا الاتهامات للحل الإسلامي، مستندين إلى "المتورين" من أبناء الأمة. ولا يجدي نفعاً قولهم بتقديس الشريعة وانتقاد الفهم لها، لأن الفصل بينهما صعب فيما درج عليه الفقهاء لفترة طويلة من الزمن، وقد يكون فهمهم لها صحيحاً، وبذلك يتركز الاتهام على النص بفهمه الصحيح وتناوله سهام المنتقدين، ما يضر بأولوية النص وأصالة الشريعة في الانطباع العام، وعادة ما تراكم هذه الأمور لتؤدي مع الزمن إلى التشكيك بقدرة الشريعة على مواكبة الحياة. وهذا لا يعني بأن الخطأ لا

يحصل في استنباط الفقهاء، لكن علينا أن نميز بين الحلول المفترضة وآثارها مع عدم مساعدة الدليل عليها، وبين مطالبة الفقهاء بالإجمال للمساعدة على استكشاف الحلول الممكنة من دون إلزامهم بالنتائج مسبقاً.

لقد حرّم الإسلام الربا، قال تعالى: (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) ^(٣٧)، وقال: (وما آتيتهم من ربا ليرثوه في أموال الناس فلا يرثوه عند الله) ^(٣٨)، والربا زيادة يدفعها المدين للدائن عند رد القرض، وبما أن النظام الاقتصادي العالمي اليوم يعتمد على المعاملات الربوية من خلال البنوك، فإن المسلم في حرج من أمره في كيفية التعاطي مع هذا الواقع. فآثار البعض هذه المشكلة مفترضين إمكانية إيجاد الحلول لتشريع المعاملات الربوية كما هو متعارف عليها، وأن على الفقهاء البحث عن الدليل المناسب أو إعادة النظر بتفسير الأدلة التي تتحدث عن الربا.

وقد حاول الفقهاء معالجة الأمر فتوصلوا إلى مجموعة حلول:

١- صحة العقد بين الدائن والمدين مع بطلان الشرط الربوي فيه، فإذا دفع المدين الزيادة بعد ذلك فلخوفه من الملاحقة القانونية وليس لقناعته بها، ولو تمكن من التخلص منها لفعل، وبذلك تمت معالجة ضرورة الاستدانة بهذه الصورة.

٢- تبديل العملة بما يساعد على افتراض أي زيادة على سعرها من دون الوقوع في شبهة الربا، فلو كان ثمن الدولار الفعلي ١٥٠٠ ل. ل، فبالإمكان بيعه مؤجلاً بسعر ١٨٠٠ ل. ل، ليستفيد الدائن بسبب المنفعة، كالبيع المؤجل الذي يكون سعره أعلى من البيع المباشر، ومع اختلاف الجنس بين الدولار والليرة فلا تقع شبهة الربا.

٣- يمكن إضافة شيء آخر في المعاملة بين الدائن والمدين، كأن يعطي الدائن كمية من الريالات والدنانير مقابل استردادها لاحقاً بكمية من الريالات فقط بحيث تزيد عن السعر الفعلي للريالات والدنانير المدينة، بأن يكون السعر الزائد للريالات مقابل الدنانير في حل شبيه بما ورد في الفقرة الثانية.

٤- جواز أخذ الفائدة على الأموال المودعة في البنوك غير الإسلامية، انطلاقاً من قاعدة "الزموهم بما ألزموا به أنفسهم"، وعدم شمول أدلة الحرمة لهذه المعاملة مع غير المسلم.

ومع وجود تفاصيل أخرى في هذا الشأن، إضافة إلى المعاملات التي قررتها البنوك الإسلامية في بعض الدول بعمليات المضاربة وغيرها، فإن أخذ الربا للمسلم من المسلم لم يجد له حلاً، وبقي تحريمه قائماً. ربما كان الحل مستحيلاً بغير التحريم للربا، وهو ما يريده الإسلام كجزء من منظومة مالية تدفع للبحث عن حلول أخرى للتنمية الاقتصادية، وقد يكون المطلوب إجراءات واتفاقات مع أصحاب الشأن على المستوى العالمي لإيجاد صيغ تتفق مع الحلول الإسلامية بالنسبة للمسلمين فيما لو تكتلوا وحدوا من تعاملاتهم مع البنوك الربوية إلا إذا أُنجزت بعض الحلول الشرعية الملائمة، وقد يدفع التحريم إلى عدم استسهل المسلم لزيادة أمواله ربوياً فيبحث عن طرق لزيادة رأسماله، وذلك بتشغيل أمواله في المضاربة والمتاجرة وغيرها.

إنّ عدم التوصل إلى معالجة ما تولّد عالياً بانتشار المعاملات الربوية، لا يبرر النقد الدائم للفقهاء بتقصيرهم في ذلك، ولا يُبرر افتراض حلول مسبقة من دون أدلة مساعدة عليها، جلّ ما يمكننا المطالبة به هو استمرار سعي الفقهاء لنقاش مثل هذه المسائل، مع التأكيد على احتمال أن يكون التحريم بصيغته هو الوضع

النهائي المطلوب شرعياً في إطار النظرية الاقتصادية والمالية الإسلامية لذلك، واعتبار أن الالتزام بما توصل إليه الفقهاء من موقف هو الحل الصحيح إلى أن يثبت غيره، لا أن يكون الحل مشكوك الصحة إلى أن يتغير.

حدود الاستفادة من العلوم الإنسانية

إن الإ اعتماد على المناهج المتفق عليها بين الفقهاء طريق ضروري للتوصل إلى معرفة الأحكام الشرعية، وإن تطوير قواعد الأصول والاستنباط الفقهي في إخضاعها للنقاش والتحليل الدائمين عمل إيجابي في خدمة التجديد، ومن المفيد الاستفادة مما توصل إليه العلم اليوم من علم الاجتماع وعلم السياسة والعلوم الأخرى ذات الصلة بحياة الإنسان والمجتمع لتعزيز الرصيد المعرفي بين يدي الفقيه ما يفتح آفاقاً جديدة وإيجابية لمصلحة مطابقة الأحكام المستنبطة لمعنى النص وإرادة الشارع وواقع الإنسان.

لكن لا يمكن التسليم بكل القواعد المستخلصة من العلوم الإنسانية التي راكمت تجارب الغرب، وتوصلت إلى معلجات واستنتاجات ترتبط به، وبمعنى آخر عندما يتوصلون إلى نظريات اجتماعية أو سياسية أو غيرها لمفكرين مختلفين في قناعاتهم وطروحاتهم، فليس بإمكاننا تبنيها كنظريات مُسلمة، لأنها كنظريات لا تحمل اليقين العلمي، وعادة ما نجد آراءً مختلفة في العلم الواحد، إضافة إلى استخلاص النظريات المختلفة لظروف مختلفة عن ظروف المجتمعات الإسلامية.

فعلى سبيل المثال، نحتاج إلى علم اجتماع إسلامي في مقابل علم الاجتماع الغربي، يستفيد منه في نظرياته ثم يضيفي الخصوصيات الإسلامية عليها، ويضيف ما يتناسب معها ويعدل ما يتعارض معها. ورب معترض في ضرورة تعميم علم الاجتماع بطريقة إنسانية؟ لكن فاته بأن النظريات تفترض معيارية

فكرية تشكل الرصيد الذي يتكئ عليه العالم، وينطلق منها لتحليل الظواهر وللتوصل إلى الاستنتاجات، وعندما تكون معيارته مادية الإنسان وألوية تلبية رغباته ليكسب الفترة الزمنية القصيرة التي يعيشها، فإن حلوله تأتي في هذا السياق المختلف عن المعيارية الفكرية الإسلامية التي تتعاطى مع الدنيا كمعبر للأخرة، ومع الإنسان بتأدية رغباته المشروعة وثنيه عن الخرمة منها. فما توصل إليه الغرب من قواعد في العلوم الإنسانية لا تعبر عن تراكم التجارب الإنسانية كلها، وكأنها وصلت في حالة الغرب إلى سقفها الأعلى والأفضل، بل تعبر في أكثر الأحيان عما تراكم من خصوصيات مستفاد من المجتمع الغربي نفسه.

فالبحث الاجتماعي لا يعبر عن الأدوات البحثية فقط، والتي هي عمليات عقلية لا تنتمي إلى دين أو تجربة خاصة (كالتحليل والاستقراء والحيلة والطريقة العقلية في التفكير)، بل له مقدمات تسبقه، وهي تصورات الباحث ورؤيته الفكرية إلى الكون والإنسان والحياة، والتي تشكل مجموعة القيم التي ينطلق منها، لتكون الأدوات البحثية في خدمتها وأسيرة لها، وبالتالي فإن الأحكام التي يطلقها الباحث تستند إلى هذه القيم المسبقة والتي يحشد لها الأدلة في هذا الاتجاه.

إذاً يجب أن نلتفت إلى ارتباط ما هو مطروح عند الآخرين بالنظام الذي يؤمنون به، فلا يمكن إسقاط جزء منه على النظام الإسلامي للبحث عن توليفة بينهما، كما لا يصح نقل الأسئلة الناشئة في مجتمع غير إسلامي بسبب النظام المعتمد وآثاره، إلى المجتمع الإسلامي وكأنها مشكلته مع عدم وجودها فيه. وتستدعي الواقعية أن ندرس الواقع ونقدم الحلول له، لا أن نقع أسرى الواقع بمتطلباته، فقد تكون مطالبه مرفوضة وتحرف الشريعة عن مسارها، كما يمكن أن

تكون منصفة، وعندها لا بدّ من سلوك المنهج الصحيح للتوصل إلى الحلول الممكنة.

لقد اعترض بعضهم على فكرة التجديد في فهم الشريعة بالاستناد إلى المناهج المعتمدة حالياً والأدوات المعرفية المتعارف عليها بين الفقهاء، ودعا إلى إطلاق العنان لكل باحث من غير الفقهاء لاستنباط الأحكام الشرعية، كما دعا إلى تغيير جذري لكل المناهج والأدوات المعرفية السائدة، كطريق ضروري للتجديد. واعتبر البعض أنّ التغيير الجذري مستحيل ما لم تتغير المناهج الدراسية وأدواتها المعرفية التي تُعدّ طلبه العلوم الدينية، لتأسيس جيل كامل يفكر بطريقة مختلفة تماماً عن السائد.

هذا أشبه بهدم كل شيء وإحداث الفوضى وإعطاء صورة سلبية عن كل إنجازات الماضين، وهو تشكيك بقدرة الإسلام على مواكبة الحياة من خلال العجز السابق على فهم مضمونه الحقيقي.

أعود لأؤكد بأنّ التجديد في فهم الشريعة ضروري، وبأنّ تطوير الأدوات البحثية والمعرفية يزيد الفقه غنى، على أن نتبع المسار العلمي التدريجي والمنسجم مع أصالة النص ومحوريته، وأن نبحث عن الأدلة المساعدة للوصول إلى الأحكام الشرعية، من دون أن نضغط بالحلول المفترضة إلاّ أن يضعها الفقيه نصب عينيه كاحتمال يتأكد أو يُلغى على ضوء استنباطه، فالتجديد مطلب موضوعي له مبرراته وليس فكرة ضاغطة من دون أفق.

العدائنة مصطلح غربي

إنّ مصطلح التجديد في فهم الشريعة مُعبّرٌ عن مواكبة حاجات العصر انطلاقاً من الإسلام، ولا حلجة لإرباك ساحتنا بمصطلحات مستوردة، تحمل معاني

بلدان منشئها، ويختلف مطلقوها في تعريف دقيق لها، ومنها مصطلح الحدائث. فما هو موقفنا من الحدائث؟ وأين مجتمعنا منها؟

الحدائث مصطلح غربي، نشأ في إطار الثورة الثقافية على المفاهيم الغربية التي كانت سائدة في القرنين الماضيين بدءاً من الثورة الفرنسية وما بعدها، وقد أنتجت الحدائث منظومة ثقافية مادية انعكست على نمط الحياة في الغرب الأوروبي والأمريكي، بالإغراق في ملذات الجسد مع إبعاد الإيمان ومتطلبات الروح بشكل كامل، وجاءت كردة فعل على نظام الكليروس وسلطتهم، وقد سلكت طريق العلوم التجريبية، فحققت إنجازات كبيرة على مستوى هذه العلوم، وترافقت معها المادية الاجتماعية فأنتجت علومها. وقد كثر الحديث في العقدين الماضيين عن مرحلة جديدة بدأت بالتكون، وهي مرحلة ما بعد الحدائث، ويقصدون بها إعادة الإهتمام بالسؤال الروحية بسبب الفراغ القاتل الذي أنتجته مادية الحدائث، كما يعتبر بعض آخر بأنها رفض للمادية باتجاه إنجاز جديد لم تكتمل صورته، وهو يحمل تناقضات وتفاعلات كثيرة لا يمكن الحكم على نتائجها إلا بعد تبلورها واتخاذها لصيغ محددة.

وبما أننا لم نمر في منطقتنا بالراحل التي مرت بها أوروبا وأمريكا، وهو ما أنتج الحدائث التي تُهيء لما بعد الحدائث، ولم نعاني مما عانوا منه في السابق، حيث بقيت مجتمعاتنا الإسلامية متأثرة بالإسلام، وإن عاشت التخلف في الميادين العملية، وتراجع موقعها بسبب واقعها، وبسبب ما أنتجه الاستعمار الجديد من تفكيك وسيطرة عليها، وقد فشلت الأفكار المستوردة من المعسكرين الرأسمالي والشيوعي في إحداث تغيير لمفاهيم وعادات مجتمعاتنا، بحيث لم تتحول هذه المجتمعات إلى المادية الاجتماعية الغربية وإن تأثرت ببعض آثارها، لكن منظومة الحدائث الغربية

لم تجر على مجتمعاتنا، لذا فإن بإمكاننا أن ندرس ما جرى في إطار الحدائثة للاستفادة مما أصاب تلك المجتمعات، وما طرحته من أسئلة، وما تعانیه من أزمات، لا على قاعة إسقاطها عشوائياً على مجتمعاتنا في العالم الإسلامي، والتي تختلف في همومها وشؤونها عمّا في الغرب، فللقارنة هنا غير صالحة، لأنها ليست مقارنة بين طرفين يشتركان في طبيعة واحدة، وهذا أمرٌ مختلف عن الاستفادة الكاملة من العلوم التجريبية، التي لا تحمل طابعاً فكرياً أو توجيهياً للإنسان، وإنما هي استكشاف لقواعد المادة من غير ربط بالمبدأ والمنطلقات، أو بمسار وحيّة البشر.

الهوامش

- ١ - سورة البقرة / الآية ١٤٦.
- ٢ - سورة الجاثية / الآيات ٣-٦.
- ٣ - سورة الحج / الآية ٤٦.
- ٤ - سورة البقرة / الآية ١٧١.
- ٥ - تحف العقول عن آل الرسول للحراني ص ٣٨٦.
- ٦ - الكافي للشيخ الكليني ج ١ ص ١٠.
- ٧ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥.
- ٨ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦.
- ٩ - سورة البقرة / الآية ١٧٠.
- ١٠ - سورة النحل / من الآية ١٣٥.
- ١١ - سورة الشعراء / الآيات ٦٩-٨٢.
- ١٢ - سورة البقرة / الآية ٢٥٨.
- ١٣ - سورة البقرة / الآية ١١٨.
- ١٤ - سورة القصص / الآيتان ٤٧-٤٨.
- ١٥ - السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٣٦٣.
- ١٦ - سورة التوبة / من الآية ٤٠.
- ١٧ - سورة هود / الآية ١١٨.
- ١٨ - سورة النمل الآيتان ٦٣-٦٤.
- ١٩ - سورة يونس / الآية ٣٨.
- ٢٠ - سورة فصلت / من الآية ٥٣.
- ٢١ - سورة الروم / الآية ٢٠.
- ٢٢ - سورة المائدة / من الآية ٣.
- ٢٣ - سورة الحجر / الآية ٩.
- ٢٤ - سورة الطور / الآيتان ٣٣ و٣٤.
- ٢٥ - سورة الشعراء / الآية ١٩٥.
- ٢٦ - سورة يس / الآيتان ٧٨ و٧٩.
- ٢٧ - سورة الإسراء / الآية ٧٨.
- ٢٨ - سورة العنكبوت / الآية ٤٥.

- ٢٩ - سورة الحجرات / من الآية ١٢.
- ٣٠ - سورة فصلت / الآية ٣٤.
- ٣١ - سورة الفرقان / الآية ٦٧.
- ٣٢ - سورة النازعات / الآية ٢٤.
- ٣٣ - سورة العنكبوت / من الآية ١٤.
- ٣٤ - سورة الواقعة / من الآية ١٥ إلى ٣٦.
- ٣٥ - سورة الواقعة / من الآية ٤١ إلى ٤٤.
- ٣٦ - سورة ق / الآية ١٨.
- ٣٧ - سورة فاطر / الآية ١.
- ٣٨ - سورة الذاريات / الآية ٥٦.
- ٣٩ - سورة البقرة / الآية ٢.
- ٤٠ - سورة البقرة / الآية ٢١٩.
- ٤١ - سورة المائدة / الآية ٩١.
- ٤٢ - سورة البقرة / الآية ٢٣٢.
- ٤٣ - سورة الأعراف / الآيتان ٣٢ و ٣٣.
- ٤٤ - سورة الروم / الآية ٣٠.
- ٤٥ - سورة الأنبياء / الآية ١٠٧.
- ٤٦ - سورة النساء / الآية ١٧٤.
- ٤٧ - سورة يونس / الآية ١٠٤.
- ٤٨ - سورة الحج / الآية ٧٣.
- ٤٩ - سورة الحجرات / الآية ١٣.
- ٥٠ - سورة الحجر / الآية ٩.
- ٥١ - سورة القصص / الآية ٧٧.
- ٥٢ - سورة الأعراف / الآيتان ٣٣ و ٣٣.
- ٥٣ - دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، ج ٢، ص ١٩٣.
- ٥٤ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ١١٦.
- ٥٥ - تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي، ج ٤، ص ١٥٣.
- ٥٦ - الكافي للشيخ الكليني، ج ٣، ص ٤٥٤.
- ٥٧ - نهج البلاغة، حكم ومواعظ رقم ٣٦٢.
- ٥٨ - تفسير مجمع البيان للطبرسي، قول لأمير المؤمنين علي (ع)، ج ١، ص ١٨٧.
- ٥٩ - سورة التوبة / الآية ١٠٦.

- ٦٠ - سورة الأنفال / الآية ٦٥.
٦١ - سورة الأنفال / الآية ٦٦.
٦٢ - سورة النصر / الآيتان ١ و٢.
٦٣ - الكافي للشيخ الكليني، ج ٢، ص ٨٦.
٦٤ - سورة طه / الآية ٩.
٦٥ - سورة الحديد / الآية ٤.
٦٦ - سورة المؤمنون / الآية ٧٦.
٦٧ - سورة البقرة / من الآية ٢٧٥.
٦٨ - سورة الروم / من الآية ٣٩.

تحديات العولمة
(الجذور الفكرية والفلسفية للعولمة)
وموقف الإسلام

الدكتور مهدي مفتاح امبرش
استاذ فلسفة التاريخ والحضارة - ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أهم ما يجب التأكيد عليه ونحن بصدد تحديات العولمة أن نعدد مفهوم العولمة ذاته، ولأن العولمة لا تزال مجرد اطروحات عامة وسياسات، فإننا سنأخذ بالقول (إن ادراك الشيء جزء من تصوره)، أن اننا نتصور مستقبل العالم والبشرية في ضوء هذه العولمة، وإن كنا ننبه منذ البداية ان المصطلح في شكله الانجليزي، على سبيل المثال (Globalization)، يعطي اغراء خادعاً، فالذين وضعوا هذا المصطلح ويحاولون تسويقه، خاصة بعد سقوط ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة بالعالم باعتبارها اقوى دولة عسكرياً وتقنياً، محاولة عن طريق الهيمنة السياسية والاقتصادية ان تركز كل معطيات القوة في يدها.

اقول ان مصطلح العولمة يخفي حقيقة ان مفهومه الذي يبدو طبيعياً هو غير واقعه، فما يقدم هو تدخل قسري لجعل ما ليس عالمياً عالمياً، انه اذا استخدمنا الاشتقاق الانجليزي عملية (Globalizing) لا (Globalization).

من هنا فنحن بصدد مصطلح سيعتمد التشويه والتزييف للمفاهيم بعد ان فشل ما يسمى (بالنظام العالمي الجديد)، مصطلحاً يبرر سياسات الهيمنة والاحتواء تحت وهم النظام.

لقد أكد القرآن قيمة المرجعية في السلوك الانساني، فالمرجعية هي اساس العلاقات الانسانية، وعندنا نحن المسلمين ان القرآن الكريم وسنة الرسول الأعظم التي امره الله بتبليغها او نعلها، او اقرارها، والتأكيد على اكتمال الدين وإتمام النعمة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً).

أقول: ان هذه المرجعية هي ما يحكم بها على التاريخ، ان على افعال البشر، فافعل البشر تقاس بهذه المرجعية لا العكس، تماماً مثل ما قال الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه (يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال).

وباعتماد المرجعية الالهية الشمولية الصالحة لكل زمان ومكان يكون الموقف الإنساني الحقيقي من الذين يحاولون الغاء كل القيم، وتحويل البشر الى مجرد سلع خاضعة كما أشرت (للدفع نقداً)، (ولاسعار البورصة).

ان الاسعار والاثمان، والمقاييس، والمعايير، والأوزان كلها وما جرى مجراها تصلح لقياس الاشياء، أما القيم فهي اعلى وأكبر من مجرد ان تتحول الى واقعية، انها ما يقاس بها الواقع لا العكس، فالواقع ومن القيم القرآنية المرجعية خاضع لهذه القيم، يحكم على السلوك بها لا أن يحكم عليها بالسلوك، مثل مقاييس النفعية والبراغماتية.

ان الاختلاف والتنوع هو ما يقره القرآن الكريم (فاختلاف الألسنة والألسوان آيات من الله)، كما ان وحدة الخلق لا تنفي الجعل، فلجعل تحول ولكنه في قانون الله تحول لمصلحة الانسان (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم).

فكون الناس شعوباً وقبائل هي كلمة الله وهي صبغته التي لن تجدها تبديلاً، وهي ما يحقق استمرار الحياة، بخلاف العولمة التي تريد أن تجعل الناس امة واحدة (ولو شاء الله لجمعكم امة واحدة).

فمشيئة الله ضد هذه المحاولة القسرية لجعل الناس جميعاً في بوتقة واحدة، في ظل احادية الثقافة واحادية النظرة واحادية القانون، أما إذا تجاوز حده قوة او ضعفاً كان التدخل باقامة السدود والقنوات من هنا كان ادعاء الليبراليين ومن هذا التصور، ان مهمة الدول هي الحراسة، اي الدولة الحارسة، كما يطلقون عليها. ان القول بالفيزيقية، سوف يلغى بداهة ما وراء الفيزيقا، او ما يعرف في مباحث الفلسفة (الميتافيزيقا). وما نقره نحن المسلمون تحت موضوع الغيب، فكل ما نأمنه عن الادراك الحس، وكل ما لا يقبل التموضع لا يمكن أن يقبل الا باعتباره وهماً وفي احسن الاحوال ميتافيزيقياً.

هنا ندرك موقف فلاسفة الليبرالية من التاريخ، فمثلما دعا ببيكون الى رفض المعرفة القبلية باعتبار تصنف تحت اوهام واصنام (اوهام السوق، والمسرح، والكهف... الخ)، وان الانسان لا يمكن له ان يكون (علمياً)، إلا إذا ترك هذه التي اعتبرها اوهاماً، حيث يتلقف جون لوك هذا الرأي فيقول بأن (الإنسان - صفحة بيضاء)، وهذا يعني بوضوح انكار كل ما من شأنه ان يساهم في تكوين الذات الانسانية، وبعبارة اخرى فإن الفلسفة الليبرالية تعتمد الفردية (Individualism)، أي تحول الفرد الى مجرد رقم او شيء، وهذا الفهم بداهته ينكر، كما اشرت ان يكون الانسان ذاتاً، وان هذه الذاتية لا تكون الا بحكم العلاقات الاجتماعية، بدءاً من الأسرة الى الأمة، الى العالم.

إن الفردية هي شأن ليبرالي بحث يقوم على الغاء الهوية الاجتماعية والثقافية ومكونات هذه الهوية من شرائع وأديان واعراف، وهذا الفهم الليبرالي المعادي للثقافة والتاريخ هو ما أسس عليه الانجليزي فرويد نظريته في تقسيم الانسان الى (الهو) المجهول (ID) ثم الى (انا) (ego)، ثم الى الانا الاعلى (Soperego).

وهذا التقسيم علاوة على انه تمييز ومنهج التفكير الشانوي المشترك، فإنه يتركيزه على (الانا)، يكون قد اهمل شأن هله الانا وهي تتكامل من خلال الوعي الاجتماعي حيث تتحول من مجرد انا رقمية في قطيع، الى ذات واعية في مجتمع. ان النظرية الليبرالية وفق التصور الفرويدي تقيم حيلة القطيع لاجل حياة المجتمع، حيلة القطيع اللافيني الافراد فيه لا يجمعهم الا الحلجات البيولوجية الاولى، كما مثل افراد القطيع الذين يتركون الارض اذا جف ماؤها، او قل عشاها. اما الارض الوطن، الذي هو جزء من الفعل التاريخي الذي يؤسس على الوعي والارادة اللتين هما خاصيتان انسانيان فهذا ما ينظر اليه تحت دوافع النفع والانتهازية، وهو ما تؤسس عليه العولمة الليبرالية والتي تسعى الى الغاء الحدود الجغرافية، مثلما تحاول الغاء الحدود الثقافية والفكرية، أي الحدود التي تكون الذات الاجتماعية وتشكل العالم من مجرد افراد الى ذوات يكونون الموضوع العلمي.

ومثلما تقوم الفيزيائية على قانون الجبر المادي، لجد فرويد يؤكد على ان السلوك ينشأ من اللاشعور، من الرغبات المكتوبة في اللاشعور والتي مركزها غريزة الجنس (الليبيدو)، وكما نعلم فإن إلغاء الوعي والارادة، ليس سوى وجه آخر للتعبير عن الفلسفة الجبرية (الليبرالية). وهو ذاته ما يعد الغاء عملياً

للتاريخ، إذا اعتبرنا ان التاريخ هو تاريخ الوعي والارادة الاجتماعي للامة افراداً ومجتمعاً.

إن هذا القول ينسجم تماماً مع توظيف نظرية (بافلون) الروسي في السلوك، فإذا تم اعتبار السلوك الانساني خاضعاً للارتباط الشرطي (تجربة بافلوف واللكب والناقوس) فإن البشر بالإمكان التعامل معهم تماماً مثل الحيوانات في السر، أي يتم ترويضهم وفق قانوني اللذة والألم، او الثواب والعقاب، والحقوق والطمع الحسي.

يأتي مالثوس، الانجليزي كذلك ليبرر الحروب والقتل والابادة، تحت دعوى ان الموارد الطبيعية تزيد في شكل متوالية حسابية، بينما تزيد الموارد البشرية في شكل متوالية هندسية، الأمر الذي لا يحقق تعادلاً والذي يقتضي ضرورة اتباع سياسة الابادة للجنس البشري، ليأتي داروين من بعده ويقدم نظرية الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى، ثم ليقدم اطروحة تسمح للمشروع الانجلوسكسوني الذي يفقد الشرعية التاريخية ان يكون (تطوراً)، أي قفزة نوعية فوق التاريخ، وهو ما يؤكد النظرية الاستعمارية الانجلوسكسونية للعالم والتاريخ الانساني والحضارات.

وإذا أمعنا النظر في أحدث نظريتين، او اطروحتين وهي اطروحة الياباني المتأمر (فوكوياما)، في القول (بنهاية التاريخ، والانسان الأخير)، والذي يقدم فيه النموذج الليبرالي الاميركي كأرقى نموذج، انه حالة التطور الاخير، أي هو الصياغة الفلسفية لنظرية التطور الدارويني، مثلما هي اطروحة صدام المدنيات التي قل بها هونتغتون، وهي ذاتها صياغة بشكل آخر لاطروحة مالثوس، ولأن التاريخ لا يمكن لأحد أن يوقفه، أي ان اطروحة فوكوياما تواجه بحقيقة صيرورة

وسيرة التاريخ، وهي في ذاتها تكشف عن رعب الليبراليين من التقدم التاريخي، فإن المطلوب ان يتم ايقاف حركة التاريخ بالقوة (صدام المدنيات واعادة تشكيل العالم)، فالإبادة إذا لم تنجح على مستوى الثقافة والفكر، أي تجريد الشعوب من هويتها وكيانها الاجتماعي والثقافي والديني، فإن التدخل بالقوة، تحت شعار البقاء للأقوى، ونظرية الانتخاب الطبيعي تعني هي الحل لتحقيق التوازن الذي طالب به (مالتوس).

إذا فالعالم التاريخي، أي الشعوب التاريخية والحضارية تواجه تحدياً حقيقياً على مستوى الاطروحات الفلسفية والفكرية، وعلى مستوى السياسات الدولية والاقتصادية والعسكرية يتم توظيف كل شيء لمصلحة طرف واحد، او قطب واحد، لا يسع بقية العالم إلا أن يكون ذرات تلتصق بهذا القطب، او تسير في مجاله، ما عدا ذلك فلا بد أن ينتهي ويزول.

ان المعركة تقع في اطار التاريخ، وفي اطار الوعي والارادة، ان المواجهة لا تتم إلا عبر هذه الاسلحة التاريخية التي اثبتت وباستمرار قدرتها على مواجهة كل سياسات الاحتواء والهيمنة الامبريالية عبر التاريخ، ولعل اعادة الاعتبار للدين والشرائع هو من أقوى اسلحة مواجهة المادية والقوانين الفيزيقية التي تقوم على الجبر والإلغاء والاقصاء.

ان الدين الاسلامي، وهو يضع الانسان في مجال الإيمان بالغيب انما يواجه بهذا الإيمان اطروحات الواقعية والبراغماتية والتجريبية، والوضعية وما إليها.

إن الغيب في المفهوم الاسلامي، غيب ممتلئ لا غيب عدمي، الإيمان به مرتبط بالعمل الصالح، والعمل هو أكبر وأعظم شأنه الفعل، فالفعل محدود المكان والزمان والأثر، وقد يكون محكوماً بالهوى والحسب والكره، أما الإيمان المقرون

بالعمل، هو كذلك مقرون بالعلم الذي يتجاوز مفهوم المعرفة التي يؤسس عليها الفعل.

إن الوصف (بالصالح)، يعني الصلاحية أي امتداد اثر العمل بما يتجاوز محدودية صاحبه، إنساناً وزماناً ومكاناً، وهو بهذا غير الوصف بالمفيد والنافع والمتع والمربح ربحاً حسيباً، فهذه كلها مشروطة بقانون السوق الخاضع لاسعار البورصة.

إن الاسلام وهو يقدم الغيب يقدم فلسفة لاستمرار التاريخ وارتباطه، فالغيب هو كل ما غاب عن الانسان، بما في ذلك الذي نص (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك)، مثلما هو حقيقة تتأكد في الواقع، وتنقل الانسان الى الآتي ومن ثم فإن الإيمان بالغيب هو قمة الوعي الانساني الذي يقود الى الارادة والفعل والعمل، وهو الوعي الذي لا يلغي، كما اشرع الانسان ولا يحرم عليه هذا الواقع، ولكن يرفض ان يتحول الواقع الى فلسفة (الواقعية)، أي ان كل ما لا يكون في الواقع هو غير حقيقي، بحيث يصبح الواقع مساوياً للحقيقة، أي ان الجزئي يصبح كلاً، بما يشكل مغالطة فكرية ومنطقية كبرى كما ان القرآن يعطي قيمة للتاريخ، او للحوادث التاريخية التي مضت من اجل اخذ العبر، أي يقدم منهجاً في التاريخ وفلسفة التاريخ (قل سرورا في الأرض)، (ولكن مساكنهم كان لم تغن بالأمس)، (نحن نقص عليك احسن القصص بما انزلنا هذا القرآن).

والقرآن بهذا الخصوص يعارض الموقف الليبرالي الذي يحول الانسان الى مخلوق فيزيقي، أي ان القرآن يرفض المذهب الجبري، عندما يضع الانسان امام التكليف والمسؤولية (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، وان كان القرآن يضع ذلك في اطار الوسع (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

والعالمية، والجلدة، بحيث يكون من يرفضه ضد النظام، وضد العالم، ومتخلف لأنه يكره هذا الذي يوصف بأنه جديد. بذات الاستخدام يتم تغطية فرض النموذج الواحد الليبرالي الاميركي، ليكون (الكل العالمي)، او ما اطلق عليه (العولمة).

ولأننا بصدد تناول جذور وتاريخ هذه السياسة الليبرالية (الاجلوسكسونية)، فإن ما نحاول المؤسسات الاميركية الاعلامية والسياسية والاقتصادية بل والفكرية والتعليمية ان تقدمه ليس سوى المشروع الاجلوسكسوني منذ بداياته، أي منذ مفكره الاول، من امثال فرانسيس بيكون، وجون لوك، مروراً بمالتوس، ولامارك، ودارون، واسبنسر، حتى التوظيف الشنيع لما يسمى بنظرية الارتباط الشرطي للعالم الروسي (بافلوف)، والتي أسست عليه ما يعرف بالنظرية السكسونية التي يعتبر الاميركي (جون واطسون)، من ابرز مؤسسيها واقطابها، بل ان التوظيف الانتهازي (البراغماتي) جر الى توظيف افكار مدارس فكرية مثل حلقة (فيينا)، وما عرف بالوضعية المنطقية، والتي من اهم اقطابها الانجليزي بر تراند راسل، وهو التوظيف الذي يتم حالياً للمدرسة (البنوية)، ومدرسة التفكيك، التي تركز المذهب الوضعي في اطار اللسانيات، والدراسات الصوتية.

إن أهم ما يميز الفلسفة الليبرالية التي تقدم نفسها الآن في شكلها الجديد من خلال ما يسمى بالعولمة، إنها خلاف ما يبدو ومن خلال الترجمات التي قرص لها، فالليبرالية ليست الحرية، انها مدرسة الجبر الفيزيقي، أي ان اتباعها يؤمنون بالفيزوقراطية، باعتبار ان الانسان مخلوق فيزيقي شأنه شأن كل المخلوقات الفيزيكية خاضع، كما اشرت، للجبر الفيزيقي.

أما شعار (دعه يعمل دعه يمر)، الشعار الليبرالي التقليدي، وإن كان ظاهره عدم التدخل في سلوك الأفراد، إلا أن هذا الشعار يأتي من الاعتقاد الفلسفي الذي اشترت إليه، فالإنسان ما دام محكوماً بهذه القوانين الفيزيقية فلا يجب التدخل فيه إلا إذا تجاوزها، شأنه شأن الظواهر الفيزيقية بعام، فالنهر مادام يجري وفق حدوده لا يجب ان يمنع من الجريان، لأن ذلك محكوم بذات المعايير.

وإذا كان القرآن الكريم يعطي قيمة كبرى للوعي والإرادة والمسؤولية ومن ثم للتاريخ، المكان والزمان والانسان، بل يدعو الى قراءة القصص القرآني واتباع المنهج العلمي في دراسة التاريخ دراسة ميدانية (سيروا في الأرض)، فإنه في اطار تكريم الإنسان يعطي قيمة كبرى لموضوع البيان واللسان (خلق الانسان علمه البيان)، فالبيان واللسان من مكونات الانسان ومكونات الأمم والشعوب، والقوى بفرض ما يسمى (بلمنطق الوضعي)، أي ان أي كلمة لا (ما صدق) لها في الواقع هي كلمة زائفة كما يقول اصحاب المدرسة الوضعية المنطقية، إن هذا القول يلغي من الانسان اهم خاصياته الانسانية التي فرق الله بها الانسان عن غيره من الحيوانات والكائنات الفزيقية، وإذا كان القرآن يؤكد ان للمخلوقات الأدنى (منطق)، مثل (منطق الطير) فإنها لا تملك بياناً. إننا نفهم من نغاه الشاة، وخوار البقر، ونقيق الضفادع، ولكن لا يمكن ان نقول ان للبقر بياناً.

إن فرض فقه الارقام والحسابات، او لغة السوق، هو ما يؤكد القرآن زيفه فالقرآن يقدم ان لله حسابات هي غير حسابات السوق القائمة على الوهم والظن والآيات القرآنية التي تكشف خلال مثل هذه الحسابات (ام حسبت) (ولا تحسبن) (أفحسبت) وغيرها تؤكد ان حسابات الحقيقة هي غير أرقام الوهم والظن.

وان كانت حسابات السوق خاضعة للارقام اليومية والحسبية، فإن تجارة اخرى يقدمها الله غير قابلة للعد السوقي، انها تجارة الإيمان، تجارة الا التي تشمل وتتجاوز هذا الآن، التي تضع الانسان كما اشرت في اول الورقة، في اطار الغيب، في اطار الشهادة، التي ليست سوى الحضور، والاسلام مثلما يؤكد علم الغيب يؤكد ان المسلمين شهداء بحكم هذا الغيب والوعي على الناس، لأنهم امة وسط، أي امة في قلب الوعي بالتاريخ والوعي بالمكان والزمان.

رسالة المثقفين المسلمين ومفكري المذاهب

الإسلامية والمؤسسات الجامعية

والحوزات العلمية تجاه العولمة

الدكتور عبدالرزاق قسوم

أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة الجزائر

ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

بسم الله الرحمن الرحيم

العولمة وحقيقتها

إن العولمة او العولمية، مفهوم تمت صياغته وصناعته في المخابر والمصانع الأميركية وما يتبعها. وهي أي هذه العولمة - كمذهب اميركي - إنما جاءت خاتمة مطاف مجموعة من الأحداث العالمية، التي تمثلت على الخصوص في صياغة ما سمي بالنظام العالمي الجديد، الذي قام على أنقاص النظام الشيوعي، وسقوط حائط برلين، وقبل ذلك انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية وما تلا ذلك من اندلاع للحروب كحرب الخليج الأولى، والمد المتنامي للصحوة الإسلامية، والانتفاضة الفلسطينية، والتلويح بنظرية نهاية التاريخ وصدام الحضارات ... الخ.

فالعولمة نظام فاعل ومؤثر، بل إنه موجه وأمر، يعيش آثاره البعض منا متلقياً، ومنفعلاً ومشدوهاً، بل ومنسلباً في كثير من الأحيان.

وإن من الإجحاف اختزال مفهوم العولمة وحصرها في ما يسمى بحرية السوق، وتنقل رؤوس الأموال بدون حواجز جمركية او جبائية، فذلك إنما يدل على سطحية في الفهم، واستهانة بمخاطرها.

إن العولمة أبعد مدى من ذلك، وأكثر تعقيداً مما يظنه البعض منا، فهي نظرية، متعددة الجوانب الايديولوجية، تشمل الجانب الثقافي، والإعلامي، والأخلاقي، والإقتصادي والسياسي ولاسيما العقلي، فهي - إذن - مذهب عولسي، ولا نقول

علمي، يعمل على إشاعة أحادية الثقافة، وأحادية الاتصال وبالتسالي القضاء على الخصوصيات الثقافية، والعقدية للشعوب الأخرى، ولاسيما الثقافة الإسلامية. ويمكن القول بأن العولمة، إنما جاءت لمواجهة العملية الإسلامية، خصوصاً بعد سقوط الشيوعية العالمية.

١. مجالات العولمة

هناك مجموعة من العوامل تعتبر المهلة لتجسيد العولمة من الناحية الفلسفية الأيديولوجية، وتعتبر كلها عاكسة للذهنية الغربية المحددة لنظرية العولمة. ومن هذه النظريات، مقولة اعتبار الإنسان حيواناً إقتصادياً مستهلكاً .. ومعنى هذا أنه إنسان نهم يستبيح كل المحرمات، من غش، واستغلال، وكذب، وربما، لتحقيق مآربه، وهو ما أنتج ما يعرف بالعولمة الإقتصادية. والعولمة الإقتصادية ثورة على الحواجز الجمركية التقليدية من أجل إزالتها، وتحويل العالم إلى قرية بلا حدود، تفتح فيه كل الأبواب أمام السلع الإقتصادية الواردة من الدول القوية مالياً، والتميزة سلعها بالوفرة أولاً، ثم الجودة المقرونة بالأسعار المنخفضة، وهو ما يمثل عملياً سحراً لا إنتاج المستضعفين للإمكانات والوسائل مما يحول دون قدرتهم على المنافسة، وبالتالي الإنهيار والسقوط، والعجز عن الصمود أمام قوة الإنتاج العولمي الغازي. إن المعادلة المعكوسة التي يفرضها هذا الواقع الإقتصادي الجديد، تتجلى في كون الشركات العولمية الكبرى، والتي يمثل أصحابها على الخريجة العالمية نسبة ٢٠% من سكان العالم، سيتمكنون بقوتهم الإقتصادية، من التمكين لنشاطهم التجاري من تجاوز الحدود والجغرافيا، لتشمل العالم بأسره، وبذلك يتم رهن مصير الأغلبية الباقية من سكان العالم، وهم يمثلون الأغلبية التي تصل نسبتها إلى ٨٠% ومعنى هذه المعادلة فرض الفقر، والتعبية على هذه الأغلبية السكانية،

وجعلها تقتات من المساعدات الجائرة، التي تسدل المستضعفين، واضطرارهم الى التضحيات بجوانب كبيرة من السيادة الوطنية، كفتح القواعد العسكرية والتوقيع على اتفاقيات مذلة، والإنصواء تحت أحلاف سياسية أو عسكرية الخ.

إن العولمة الإقتصادية، نسيج للشركات المتعددة الجنسيات، والتي بدورها تنطوي على منظمات دولية كثيرة تتخذها غطاء لإملاء شروطها المجحفة تحت ستار القروض والمساعدات.

إن أخطر ما تفضي إليه هذه العولمة الإقتصادية، في ضوء تحليلنا لها على ضوء راهنية الواقع، هو تحقيقها لمبدأ الاقصاء الذي يمثل العائق أمام حصول أغلبية شعوب العالم، ومعظم الأفراد فيها على الحد الأدنى من حق العيش، وهو ما يجعلها - تحت وطأة الحاجة - فاقدة لحقها الطبيعي في المواطنة، بعد أن تسدل إقتصادياً، ويتم إخضاعها لممارسة اقسى المهن، بأقل مقابل، وتستخدم هي نفسها لنهب موارد بلادها الطبيعية لصالح تلك الشركات العالمية، وهو ما ينتج عنه تلوث في الطبيعة وفي المناخ.

ويتضح لنا، من كل هذه المعطيات أن الهدف المنشود من مسعى الشركات العالمية المتعددة الجنسيات ممثلاً في القيام بما تسميه (التعاون) والمساهمة في تنمية الشعوب المتخلفة، إنما هو ابتزاز خيرات هذه الشعوب، للحصول على الكسب الفاحش على حساب كل القيم.

لذلك، لا نجد عناء في الكشف عن اسباب الظلم السائد، وتقسيم العالم الى عالم متخلف يمثل الأغلبية، وعالم متقدم يمثل الأقلية، وأهم هذه الأسباب وجود هذه الشركات المستغلة التي تستحوذ على ما يزيد على ٨٤٪ من الناتج الإجمالي العالمي، وما يماثله في النسبة من التجارة العالمية، وهو ما زاد أغنياء العالم غنى، وهم الأقلية، وضاعف من حلة فقرائه وهم الأغلبية.

سقط إذن قناع العولمة الخادع الذي استخدمته كطلاء جذاب وفشلت مزاعمها في التبشير بلحداث القرية الكونية الواحدة، التي تجمع بين من يملك ومن لا يملك، وما هذا الغزو، والقتل، والتخريب، واحتلال بلدان المستضعفين، لاستغلال خيراتهم إلا الدليل القاطع على ازدواجية الخطاب العولمي، بين القول النظري، والتطبيق الفعلي.

بهذه الإحصائيات التي يقدمها البنك العالمي، حول مؤشرات التنمية في عام ٢٠٠١م، تمثل أحسن دليل على فضح مزاعم العولمة؛ وهو يمثل صفقة من المستضعفين، على وجه القوة المستغلة بإسم العولمة.

فالإحصائيات تقدم لنا أرقعاً مرعبة حينما تشير الى أن مليار ومئتي مليون نسمة، (أي أكثر من سدس العالم) يعيشون على أقل من دولار واحد يومياً. وإن حوالي عشرة ملايين طفل توفوا عام ١٩٩٩ تحت سن الخامسة، وأن وفاة اغلبهم كانت بسبب أمراض كان يمكن الوقاية منها لو وجدت العناية الصحية والغذائية.

وإن مئة وثلاثة عشر مليون طفل لا ينتظمون في أية مدرسة.

فهل بعد هذه الإحصائيات، التي تدحض كل زعم هل بعدها من قول؟ على أن هذه العولمة الاقتصادية - بالرغم مما تخفيه من أوجه قبيحة - فإنها تمثل بالنسبة للمثقفين في العالم المتخلف، ولاسيما المسلمين منهم، التحدث النبي ينبغي أن يواجه بالاستجابة، وما دام التحدي عنيفاً كما لاحظنا، فينبغي أن تكون الاستجابة أعنف، وما من ظالم إلا سيلى بأظلم ..

٢. العولمة الثقافية

لعل أخطر تحد تواجهنا به العولمة، بعد التحدي الإقتصادي إنما هو التحدي الثقافي، فما تجابهنا به هذه العولمة على الصعيد الثقافي، إنما هو محاولة تحقيق نمطية

العالم، وجعله واحداً في السلوك والذوق والعادات، دون الأخذ بالاعتبار، لثقافات الشعوب وخصوصياتها..

ولعل هذا ما يفسر عنف الإستجابة للتحدي العنيف كما نلاحظه في المجتمع الإسلامي لدى الهيئات الثقافية والدينية ممثلة في تنظيمات المثقفين، واتحاد الكتاب، ومفكري المذاهب الإسلامية. وغيرها، في محاولة منهم لتحصين الذات المسلمة وحماية الأصالة الثقافية من فقد خصوصياتها او الذوبان في عولمة ثقافية تقتضي وجود ثقافة أخرى، عبر الثقافة العولمية.

وعند تلمسنا لأبعاد خطورة تحدي العولمة في المجال الثقافي نلاحظ خطورة المنهج الاستراتيجي المطبق وذلك بدء بزعزعة العلاقة الوثيقة بين الثقافة وباقي المجالات، وأهمها:

١. الفصل بين الدولة والأمة

فالتلويح بإقامة الدولة، ومنحها من الأوصاف ما أمكن، كالديمقراطية، والتداول على السلطة، وعدم الوصول أو البقاء على رأسها بالعنف، وهي كلها كلمات مظلومة، لا مكان لها في عالم التطبيق حتى لدى المنادين بذلك. وفي ثنايا المطالبة بإقامة الدولة، تكمن مكيدة القضاء على الأمة ومحاولة اسقاط مقوماتها. وتستغل العولمة الثقافية بيساق لها ممن تكونوا في مؤسساتها وتغذوا بحليب منهجها، تستغلهم للتبشير بمبادئها، والدفاع عن شعاراتها الجوفاء، ومن ذلك لا للدولة الشيوقراطية، لا لأسلمة الدولة، لا للتمييز بين الجنسين في الحقوق لا لتنشئة الأطفال على الخوف بتعليمهم حقائق الجنة والنار والموت، الى غير ذلك من الجمل غير المفيدة لواقعنا الإسلامي، مما يروج له عن جهل من أبناء الأمة او عن غباء، وخبث ..

٢. تسييس الثقافة بدل تثقيف السياسة

في نطاق العمل على إسقاط الأمة ومقوماتها، تدعو العولمة الثقافية الى التخلي عن فكرة الأمة بوصفها دعوة الى التعصب الديني، او القومي، او العرقي، وفي هذا السياق قامت الدعوة الى تسييس الثقافة، وتمثل في جلب المثقفين للحكم، بعد إفراغهم من الشحنة والسحنة، وإغرائهم بالمنصب، والأموال، وتكميم أفواههم، وتعصيب عقولهم عن رؤية واقع الأمة والمساهمة في إحيائه والنهوض به.

ولعل العولمة قد استفادت من تجارب التأريخ حيث أننا نجد في الجزائر أن الإستعمار الفرنسي قد حطم الدولة أثناء احتلاله العسكري، ولكنه لم يتمكن - رغم كل جهوده المبذولة من القضاء على مقومات الأمة التي تكفل بالمحافظة عليها علماء الأمة بقيادة الإمام عبدالحميد بن باديس وصحبه، حينما رفعوا في وجه المحتل شعار الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا، فاستطاعت الأمة أن تعيد لنا الدولة بفضل بقاء الأمة حية بقيادة العلماء والمثقفين المخلصين.

ويمكن أن ينسحب نفس المثل على الجمهورية الإسلامية في ايران الشقيقة، التي تكفلت الأمة بقيادة علمائها ومثقفها الصادقين، بالإبقاء على شعلة الوعي في عقول أبناء الأمة، فتجندوا لإسقاط الدولة الظلمة واستبدالها بدولة الأمة الإسلامية العادلة.

من هنا يتجلى لنا أن الأساليب الملتوية التي يستخدمها الأعداء اليوم والتي تعمل على مغالطة العقول هي محاولة الفصل بين الأمة ولغتها وعقيدتها، ووحدها، وحضارتها، كي يسهل عليهم بعد ذلك إسقاطها، وإنه لدرس بليغ يجب أن يستوعبه أبناء الأمة الإسلامية في ضوء ما يعيشه من مستجدات في الخليج، وفي فلسطين، وفي افغانستان، فالهم ليس سقوط الأنظمة او الحكومات

وإنما المهم بقاء الأمة ومقوماتها للحفاظ على مقومات الإنسان والمجتمع وأهمها المقوم الثقافي بمفهومه الحضاري الشمولي.

إن الثقافة في مفهومها الشمولي للإنسان والمجتمع تتصل اتصالاً عضوياً وثيقاً بمختلف جوانب الحياة من نوعية المأكل، ونمطية اللبس، وطريقة العيش وقوالب الفكر والأدب، والفن، والقيمة الخلقية وغيرها.

فالعولمة الثقافية - إنطلاقاً من هذه المعطيات - تحاول تحت ستار توحيد الجميع ضمن القرية الكونية الواحدة التي تسع الجميع - إحداث الثقافة الكونية الواحدة - وهي ثقافة القوى القائمة على انقراض ثقافة الضعفاء.

وقد استخدم فلاسفة العولمة ومنظروها في سبيل التمكين للعولمة الثقافية، استخدموا طرق وأساليب شتى، أهمها التسلل الى العقل، والى القلق للتأثير على السلوك.

فشلال الأغاني المهابطة التي تدعو الى الجنس وتشجع عليه، والنداءات الملحة لتخليص الإنسان من طابع الدين، وطابع العقيدة إن هي إلا مقدمات باسم الدافع العاطفي، والوازع العقلي لإحداث التوازن - المزعوم - في الإنسان بين عقله وقلبه. وفي هذا السياق نتج ما وصف بثنائية الجنس والعنف. وقد عبثت لهذه الأهداف الخبيثة طاقات خارجية وداخلية.

فبالنسبة للطاقات الخارجية، مجدها تتمثل في الغزو الإعلامي بفضائياته، ومواقعه الإباحية للإستيلاء على قلب وعقل الإنسان، وتجنيدته بسهولة - بعد إحداث القابلية فيه - ضمن ثقافة العولمة الأحادية.

أما عن الطاقات اغلوية داخل المجتمع الإسلامي، فإنها تكمن في التسلل الى المنظمات الحيوية في المجتمع كمنظمات الشباب والنساء، بصفة أخص وشحنها

بفكرة وجوب التخلص من قيود الأسرة، والمجتمع والدين، تحت زعم التحرر من الكبت، والرعاية، والتبعية.

وتنتهي المحاولات كلها الى عدم قبول الآخر لمواصفاته وإلغاء خصوصيته الثقافية، والدينية، التي هي الكامن خلف نظام الأسرة، والزواج، والتكوين، وبناء العلاقات الإجتماعية.

وهنا بالذات تبرز مسؤولية المثقفين في واقعنا الفكري الإسلامي؛ فما يزال المثقفون عندنا مختلفين حول كيفية التعامل مع العولمة خصوصاً في المجال الثقافي. ففي حين استسلم بعض المثقفين عندنا لمعزوفة وحنّة الثقافة مستسلمين لفكرة أن العولمة حتمية لا راد لها، وبذلك دعوا الى الإنضواء تحت لوائها على اعتبار ان الثقافة مفهوم انساني، وأن المنتج العقلي قاسم مشترك بين الجميع، وهو أعلى قسمة بين الناس، فلا غضاضة، إذن، أن يندمج الجميع على اختلاف معتقداتهم، وخصوصياتهم العرقية واللغوية ضمن الثقافة الإنسانية الشمولية، العولمية.

ويقف - بالمقابل - البعض الآخر من مثقفينا، موقف الرفض لثقافة العولمة، لا بوفصها ثقافة إنسانية كما يروج لها ظلماً، وإنما لكونها ثقافة غازية تحمل بين طياتها فيروس الهدم للثقافة الأخرى بقيمتها وعقيدتها، وخصوصيتها، وهو ما يعتبر نوعاً من الإستعمار الثقافي الجديد.

والسؤال الهام، أين يكمن الخلاص؟ وكيف يمكن تجاوز مرحلة التأزم، الى مرحلة اكتساب المناعة؟ كل شيء يبدأ - من وجهة نظرنا - بالتحصين، تحصين الذات، والوعي بكيئونها.

وفي هذا السياق، تبدو الحاجة ماسة الى البدء - في عملية التحصين - بوجوب إعادة النظر في منظومتنا المنتجة للقيم، والحاضنة للإنسانية، بمفهومها العقدي،

وبعدھا الخلقى، بدء بالبيت، والمحيط بجميع مكوناتهما التربوية، والإشهارية، والإعلامية، وانتهاء بالمدرسة والثانوية والجامعة.

لقد أخلت هذه المؤسسات جميعها بجانبها التربوي والخلقى، تحت عوامل شتى، واختزل دورها في تلقين معلومات للناشئة، مشحونة بمفردات جاملة، ومعاني ميتة، منقطعة الصلة بالواقع الديني والخلقى، والحضاري، وصانعة لإنسان لا انتماء له ولا لون، مشوه القسما، عولمي اللمحات، أسمر السحنة، غربي الشحنة.

كما تخلى البيت عن مهمة تحصيل الذات، ذات الطفل ضد عواصف العولمة الهوجاء، فوجدت فيه الجسم الهش الذي لا يصمد أمام أقل التيارات هبواً، فكان ما نلاحظه من تلقى سلوك تقليدي في بيته، وتصرف أهوج متحلل من كل القيم والمبادئ، بإسم الحرية الأخلاقية ولا عجب - إذن - أن نجد في مجتمعنا الإسلامي، اليوم، تحت وطأة التمزق النفسي، من يثور على السلوكيات والأخلاق التي تبشها الأسرة، كالأمانة، والصدق، والعفة، والوفاء والوطنية، فيأتي سلوك الناشئة مناقضاً لكل هذه القيم، ويطالب بحرية الجنس خارج مفهوم الزوجية، ويدعو الى الغش والخديعة في التعامل الإقتصادي، تحت غطاء إقتصاد السوق، ويبيح لنفسه التعامل المشين مع أعداء وطنه بإسم دافع المنفعة.

وما يقل عن البيت ينسحب على كل المؤسسات الثقافية من مدرسة، وجامعة، وإذاعة، وتلفزة، وكلها تساهم في زعزعة الشخصية، واهتزاز المفاهيم، ودبذبة الإنسان عندنا في انتمائه بحيث يصبح مذهبه في الحياة - أن لا مذهب له - يحدث كل هذا ، بعد أن فقدت الثقافة مدلولها الصحيح تحت معول العولمة، وبعد أن أقصى المثقفون من دائرة الحكم، في أوطانهم، وحكم عليهم بالتهميش من بعض الوصوليين، الإنتهازيين، الفاقدين للإنتماء، والمطعمين بفيروس

الإنسلا ب العولمي ذلك أن الثقافة - في فلسفة المعاني - هي مقياس كل شيء في أي بناء حضاري. وما لم يعد تحديد العلاقة الصحيحة التي تربط بين العلم بمفهومه الإسلامي، والثقافة بمعناها الحضاري الدقيق والعميق، فإن كل طرح لقضية الثقافة في عالمنا الإسلامي، سيظل طرحاً بلا مقدمات سليمة، ومن ثم يقود إلى نتائج خاطئة كما هو حالنا اليوم.

٢. رسالة المثقفين المسلمين

إن مما لا جدال فيه، أن العولمة بجميع مفاهيمها، وخاصة مفهومها الثقافي الشمولي، هي نظام ينطلق من العقل في اتجاه العقل الإنساني العام، قصد إعادة تشكيل تفكيره، وبالتالي صياغة تعامله مع الأشياء ومع القيم. وإذا كانت هذه العولمة الوافلة إلينا من الغرب الحضاري لا تقتصر على عالم الأشياء المحايد، بل تتجاوزها إلى عالم الأخلاق والقيم، فإن أشع ما يميز هذه العولمة، هو التعصب لكل ما هو غربي ورفض ما سوى ذلك على زعم أن ما عندهم صواب وما عند غيرهم باطل.

من هنا جاءت الحاجة إلى تحديد مكانة المثقفين المسلمين في مواقعهم الأصلية، والإضطلاع بالدور القيادي التغييري المنوط بهم داخل مجتمعاتهم من أجل العمل على تحصيل الذات، والتصدي للعولمة.

وبهنا أن يؤكد هنا على أن حرصنا على تبوء المثقفين لمكانتهم، واضطلاعهم بالدور الحاسم في عمليتي التغيير والبناء، إنما ينبع من حقيقة هامة، وهي أن العولمة الثقافية بمفهومها الغربي هي بمثابة الدبابة الكاسحة لكل الخصوصيات والمميزات، وحاملة في معناها لكل ما هو شمولي في السياسة والإقتصاد والأخلاق، مادامت الثقافة المتخصصة هي المدلول عليها - في الغرب - كمسعى للتمكين للعولمة في مواجهة العالمية، والشمولية التي تطبع الثقافة الإسلامية.

فما يزال مطلب العولمة الثقافية - كما أشرنا - هو إيجاد عالم بلا حدود يقضي على كل الخصوصيات والمميزات لفسح المجال أمام تنقل الأفكار، والاتجاهات وأنواع السلوك، وهدفها جميعاً، هو إسقاط الأنظمة، وإزالة مقومات الأمة، والقضاء على معالم السيادة، وتسهيل الانضباط تحت العلم العولمي، وأوامر الجيش العولمي الغازي، والمشاركة في عزف معزوفة النشيد العولمي، بسلك النشيد الوطني

إن المشكلة الأخلاقية في صلة العولمة بالثقافة الإسلامية وسياستها، وإقتصادها إنما تبدو من مناصبة العولمة الغربية العداً لهذه الثقافة بكل خصوصياتها التي تشكل نظام انسانها العقدي، والخلقي، والإجتماعي وتطبع حياته بطابع العالمية التي تناقض - أساساً - طابع العولمية.

فيذا تنادى المثقفون المسلمون للتباحث والتخاذاً موقفاً موحد حول طرق الحماية ومنهجية تحصين الذات من الذوبان وتعزيز الكيان الإسلامي الذي يكسبهم القوة والمناعة الفاعلة للتصلي قامت كل أنواع الحملات، ومشاعر العدا، ووصفوا بأبشع النعوت كالظلامية، والأصولية، والإرهاب والإسلاموفوبيا وما أشبهها.

على أن هذه المواقف المعادية، إنما هي حوافر لنا نحن المثقفين المسلمين، على شحذ العزائم، وزيادة التصميم على تلمس طرق الخلاص، وكل سبيل للخلاص يبدأ من استعادة المثقفين المسلمين لدورهم العلمي، الذي خصهم به الإسلام حينما جعلهم أهل الحل والعقد وكفى بهذا اللقب فخراً لهم.

لكن هذا الدور القيادي للمثقفين المسلمين في مجتمعهم يتطلب منهم الاستجابة لمجموعة من القيم لعل أهمها:

١- السمو الى مستوى العلماء الراسخين في العلم الذي يستمدون كل معنى القوة من الله (فلا يخشون أحداً إلا الله) - سورة الأحزاب / ٢٩ - و(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) - سورة فاطر / ٢٨.

إن سمو من المثقفين، والعلماء، والجامعيين، والكتّاب والمفكرين، هو الذي يحدث فيهم القابلية للقيادة والتوجيه فيطهرهم من كل تزلف للحكام، وينأى بهم عن كل وصولية تحت أي غطاء كانت، ويجعلهم يندرون أنفسهم لما وضعوا له، وهو قيادة الأمة بالعمل الصالح، والقدوة الحسنة.

٢- الوعي بمسؤوليتهم كعلماء في ترشيد أبناء الأمة حكماً ومحكومين، والصدع بكلمة الحق، بإسداء النصيحة لعامة المؤمنين وخصتهم.

٣- العمل على ترسيخ القيم الإنسانية النبيلة كما دعا إليها الإسلام، وفي ضبط علاقة الإنسان بالله، وبإخوانه المؤمنين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم، على قاعة أدب الاختلاف.

٤- بث العلم في شموليته، وبجميع اختصاصاته وصيانتته عن الابتذال والسقوط، كي يغدو علماً نافعاً لبني الإنسانية قاطبة، وليتخذ قاعة صلبة للنهوض بالأمة. إنه وحده العلم الذي يبني ولا يهدم، ولا يهدد، ويوحد ولا يعدد.

٥- إعداد الأمة، واستعداده انطلاقاً من الوعي بالضعف الذي يتطلب إعداد القوة لمجابهة الأقوياء امتثالاً لفقه الآية في قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) - سورة الأنفال / ٦٠.

٦- العمل على تصحيح المفاهيم السائدة، التي تضبط العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامي الواحد، وتحديد مكانة كل واحد فيه، كالمرأة، والطفل، والشيخ، لا على أساس التجزئية المشينة، ولكن على أساس التنوع داخل الوحدة.

هذه هي رسالة المثقفين المسلمين اليوم، في عالم تطبعه عولمة أحادية أميركية متوحشة، هدفها اقتلاع الناس من جذورهم وأصولهم، ولذلك فإن المثقفين على اختلاف فئاتهم، وتنوع اتجاهاتهم واختصاصاتهم، من فقهاء وفلاسفة، ومفكرين وعلماء، وإعلاميين، وتكنولوجيين، مدعوون إلى ضم الصفوف، وتوحيد الخطى، والتنسيق فيما بينهم لتكوين الهيئات الفئوية الفاعلة، كل في مجال تخصصه، ليضعوا لبنات البناء الحضاري، داخل وحدة الأمة التي تتصدى بالاعتماد على العلم والتكنولوجيا لكل معالم العولمة الزاحفة. إن مسؤولية المثقفين تفوق كل مسؤولية، إذ على عاتقهم تلقى مهمة الإحياء والبناء.

استنتاج

وبعد فما هي العولمة الأحادية الأميركية، قد ألفت بكلاكلها، الإقتصادية، والسياسية، والعسكرية والثقافية، كالأخطبوط النهم، لا بتلاع خيرات العالم. وإنما في زحفها الوحشي التوسعي هذا، لم تستثن جزء، ولم تخطئ منطق، وإنما هي تفرض بقوة المال والسلاح إيديولوجيتها، وهيمنتها.. وما عشنه في أفغانستان، والعراق، وفلسطين، هو الدليل القاطع على أن العولمة الأميركية لا ترقب إلا ولا ذمة في الشعوب الضعيفة، مادامت مصلحتها هي المكتسبة.. ومما لا شك فيه، أن الأمة الإسلامية بالذات التي ماتزال الهدف في المخطط التوسعي العولمي، بما تمثله هذه الأمة من خصائص ومقومات تجعل منها أمة عالمية بالإسلام، وهو ما يجعلها تقف كالشوكة في حلق هذا الأخطبوط البشري العدوانية. وإذا كانت كل ثقافة، تجدد نفسها مهددة اليوم بهذا الخطر الداهم، وإذا كان المطلوب من الشعوب الضعيفة الانصياع لمتطلبات العولمة، وإن أذى ذلك إلى التضحية بجزء من سيادتها السياسية، والكسر من مواردها الإقتصادية، والأساسي

من مقوماتها الثقافية. فإن العلماء، والباحثين والمتقنين، في دول العالم الثالث بصفة عامة والمتقنين في العالم الإسلامي بصفة أخص هم مدعوون أكثر من غيرهم، واليوم بالذات لتوحيد الصف، وتحديد الهدف، كي يمثلوا قوة تقف في وجه سياسة الابتلاع، والاتباع، إن هي أرادت المحافظة على كينونتها، وهويتها، ووجودها المتميز.

ولن ينفع الأمة الإسلامية، الاكتفاء بالملتقيات وإلقاء الخطب الحماسية المنسدة بالعولمة، والكاشفة لساوئها، ومخاطرها.. إن المطلوب هو العمل الجماعي، المخطط له، المنظم، المتسم بالديمومة والبقاء، الذي يتم تجسيده في شكل هيئات ومؤسسات فاعلة، إن الانتصار على الأقوياء لا يكون إلا بتحالف الضعفاء، وهو ما يطمح لقاء في هذا المستوى من نخبة العلماء.

(وقل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم.

العولة والأخلاق

الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي

أستاذ الفقه في كلية الشريعة - جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

العولمة التي ظهرت بنحو بارز ومركّز منذ حوالي اثني عشر عاماً او الأمركة هي مظلة جديدة لهيمنة الأقوياء على الضعفاء، وتسويق الاستعمار بمفهوم اقتصادي علمي، ويمخطط مكر، لتأكيد مفاهيم الرأسمالية وحماية الاحتكارات الكبرى، وتوفير المناخ الملائم للشركات الضخمة او العملاقة للسيطرة على مناطق النفوذ وتسويق الخدمات والمنتجات الغربية، لتحل في نهاية الأمر بسبب تفوقها وتقديمها محل الصناعات المحلية، وتخطي ظاهرة القوميات، وترويج ظاهرة اقتصاد السوق الحر بعد انهيار النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٩م. والعولمة هي ايضاً اتجاه دولي احادي القطب، لفرض نموذج اقتصادي وسياسي وثقافي معين على جميع انحاء العالم ودوله، متجاوزة حدود سيادة الدولة وحقها الخاص في تنظيم شؤونها، ومرتكزة على مبدأ تسهيل انتقال السلع والخدمات والأموال، والمعلومات والمؤسسات والناس، والتقانة، والثقافة، على مستوى العالم كله.

إنها حالة تطبيع علمي، ثقافي، واجتماعي، واقتصادي، وسياسي، يراد بها احلال العادات والتقاليد الغربية محل غيرها، ولاسيما القيم الإسلامية والأداب والأخلاق الدينية والحياتية المنبثقة من أصول وثقافات تجمع في المفهوم الاسلامي بين الدين والأخلاق ومقتضيات الحياة المادية، دون فصل الدين عن الحياة.

وأخلاقيات العولمة تتمثل في ماديتها الطاغية، وتنطلق من فلسفة إلحادية أو علمانية، لا تعرف حقيقة الإيمان بالله تعالى، وهي ذات تصورات عنصرية بغيضة، تلتقي مع عنصرية الصهيونية، وتتعاقد فيها المسيحية المتشددة الإرهابية مع الصهيونية المدمرة والمخربة لقيم العالم وثقافته وأخلاقه، وتستبدل النبي هو أدنى بالذي هو خير، وتلغي وجود الآخرين دينيا وثقافيا واجتماعيا وسلوكيا واقتصاديا وسياسيا، وتعتمد على صفتين أو قاعدتين: الاستكبار العالمي، والقوة المادية والعسكرية. لذا فإن أغلب شعوب العالم يعارض العولمة، وإن كان لها بعض الإيجابيات أو الفوائد، لكن على حساب الضعفاء، وهذا يتطلب وضع خطة علمية لمواجهتها، والحد من سلطتها.

مفهوم العولمة

لم تتضح معالم العولمة بصفاتها الظاهرة، وإنما يمكن القول بأنها تعبير عن ديناميكية (حركة) جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية^(١)، وقد وجدت لها تعاريف متقاربة المعنى، معناها أنها في المفهوم الاقتصادي تعني كما جاء في ندوة (العرب والعولمة): سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والأموال والأفكار بين مختلف الدول على نطاق الكرة الأرضية.^(٢)

وفي المفهوم الأعم: أنها اتجاه دولي أحادي القطب لفرض نموذج اقتصادي وسياسي وثقافي معين على جميع أنحاء العالم ودوله، متجاوزة حدود سيادة الدولة وحقها الخاص في تنظيم شؤونها^(٣)، فهي تركز إلى مبدأ تسهيل انتقال السلع والخدمات والأموال والمعلومات والمؤسسات والناس، والتجارة، والثقافة، على مستوى العالم كله متخطية الحدود والحواجز، أي أنها تجعل الشركات العملاقة متخطية القوميات والدولة القومية الواحدة، وتصبح هي الوحدة الأساسية بدلا عن الدولة القومية.

ويتلزم قيام العولمة مع تطورين أساسيين:

أ - انهيار دول المعسكر الإشتراكي، وتزعم الفكر الاقتصادي الليبرالي (الحر) الرأسمالي.

ب - الثروة الصناعية الثالثة التي تمثلت في التطور الثقافي الهائل في مجلد الاتصالات والمعلومات.^(٤)

وصارت العولمة المعلوماتية: تعني تدفق أنظمة تقنية (تكنولوجية) معقدة لا تعترف بالحكومات والديساتير والقوانين المحلية.^(٥)

وفي جانبها الاقتصادي هي أحدث درجات الاستعمار الاقتصادي، وتعد تطوراً طبيعياً في مسار النظام الرأسمالي الليبرالي، والذي يهدف الى الهيمنة على دول الجنوب والدول النامية، ومنها العالم العربي، فلا تكون في مصلحته، ولا لخدمة مصالحه، وإن لم يملك العرب ولا غيرهم في زعم مخططتي العولمة أن يقبلوها او يرفضوها، فهي أمر مفروض لا بد منه، وقانون تاريخي ينطبق على الجميع، سواء كان علماً إسلامياً او علمانياً.

وكذلك تكون العولمة في منهجها السياسي أحد أشكال الهيمنة السياسية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وانفراد المعسكر الرأسمالي بقيادة أميركا بالسيطرة على العالم، وحينئذ تمحى الإرادة الوطنية المستقلة للدول. وتأتي عولمة الثقافة والترويج للصناعات الغربية وإشاعة أنماط الاستهلاك الغربية، تمهيداً لإلغاء مظاهر الأنماط الثقافية المحلية، واحتلال العولمة مكانها. فهو إذن مصطلح تعاوني رحيم في الظاهر، وضرر مركز في الباطن، يتضمن استيلاء واقعياً على مقدرات الشعوب والأسم.

أنواع العولمة

العولمة: حالة تطبيع عالمي، ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ويكون لوسائل الإعلام المختلفة دور مهم في توطيد القيم الجديدة المرتبطة بالإطار العام لمفهوم العولمة. فهي ثلاثة أنواع:

١. عولمة ثقافية

تعني تغريب الثقافات^(٦) الوطنية بواسطة قوى الإعلام والتقنية الجديدة؛ وانتشار التوكيلات التجارية في أسواق الخليج وغيره. وهي نوع من الغزو الفكري والثقافي والقيمي على مستوى العالم كله، وبإسم العالم كله، وتفرض نموذجاً معيناً ونمطاً محدداً في التفكير والقيم والسلوك، وهو نموذج الأقوى والأغنى والأقدر مادياً وتكنولوجياً. وإذا كانت أغلب الشعوب لا تقدر قيمة معينة إلا على أنها مجرد أعراف ومصطلحات وقيم منافع، فإن المتضرر الوحيد هم الذين يدينون بدين سماوي وفي قمته المسلمون أبناء الإسلام ذي المصدر الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويحتضن ثقافة وأخلاقاً وقيماً وسلوكيات مرتبطة بالعقيدة والعبادة والأخلاق الشرعية، وفي نطق أحكام المرأة والأولاد والأسرة، والعلاقات الدولية الخارجية والداخلية.

وذلك بنقل مجموعة القيم الغربية الى أجزاء العالم المختلفة عن طريق تكنولوجيا الاتصال الفضائية، المشبعة بمصالح الرأسمالية الأميركية ومواصفات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتريد فرضها الآن فيما سمي: أولى حروب القرن (الـ٢١)، مستغلة انهيار النظام الاشتراكي وانتهاء الحرب الباردة بين الغرب والشرق، مما زاد من شراسة الآلة الإعلامية الغربية، وفرض نموذجها على بقية نماذج العالم المختلفة، معبأ بروح المنتصر، والمستكبر، والذي لا يقيم وزناً لثقافة أحد، أي زعامة القطب الواحد، زعامة أميركا.

وخطر هذا النوع على الهوية الثقافية واضح، لأنه يقضي تدريجياً على الخصوصيات الثقافية والتفان الوطنية والاستقلال الوطني والدولة الوطنية، وتمييع الفوارق بين الذكر والأنثى، وذلك يهدد بإلغاء وحدة ثقافة الأمة ووحدة الوطن، ووحدة التاريخ، ووحدة المصير.

إن العولمة الثقافية تحاول دمج القيم حول المرأة والأسرة، وحول الرغبة والحاجة وأنماط الاستهلاك في الذوق والمأكل والملبس، بدمغة علمية واحدة. إنها تحاول توحيد السلوك الفردي وتغيير الذات والقيم والسلوك والعلاقة مع الآخرين.

٢. عولمة اقتصادية واجتماعية

العولمة الاقتصادية: هي أصل العولمة وأكثر أنواعها وضوحاً وتركيزاً، لأنها تسعى الى إبراز عالم بلا حدود اقتصادية، وملء الساحة العالمية بنشاط اقتصادي عبر الشركات العابرة للقارات، مثل شركات السيارات في أميركا، واليابان، وشركات الاتصالات العالمية، كشركة I.T.T. إن هذه العولمة تركز الى مبدأ اساسي هو حرية التبادل (التجارة) لأنها الكفيلة بتحقيق أعلى المكاسب.

ومخاطر هذا النوع أشد من الناحية المادية على وجود الشعوب الأخرى، لأن العولمة في الأصل أو الأساس تكتل اقتصادي للقوى العظمى للاستثمار والظفر بثروات العالم: موانه الأولى وأسواقه، على حساب الشعوب الفقيرة والبلاد المتخلفة اقتصادياً، لعدم توافر شروط المنافسة الكاملة فيما بين الدول الفقيرة والدول الغنية، دول الجنوب ودول الشمال.

ومن المعلوم أن الأقوى يغلب الأضعف، وأصحاب التفوق الاقتصادي يحتلون الساحة، فيزداد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، أي إنه يزداد ثراء أوروبا وأميركا الشمالية، فهناك (٢٠٪) من دول العالم هي أكثر الدول ثراء، وتستحوذ على (٨٤/٧٪) من الناتج الإجمالي للعالم.

والعولمة الاجتماعية: يراد بها احلال العادات والتقاليد والأعراف الغربية محل الموروثات الدينية ولاسيما الإسلامية، فلا قيمة ولا اعتبار لما يسمى بالعرض، ويروج لفردية النظام الأسري، وإقرار العلاقات الجنسية الشاذة، وحرية انتهاب اللذات والشهوات والمتع الدنيوية بغير ضوابط، وجعل الخيانة الأسرية من الرجل، او المرأة شيئاً عادياً، أو قضية فردية متعلقة بالزوج، ولا صلة لها بحق الله وحق المجتمع في المفهوم الديني الإسلامي، فإن عفا الزوج عن المحراف او فاحشة زوجية، فلا دخل للقضاء حينئذ.

وأدى هذا الى ظهور أمثلة فاضحة لبعض كبار المسؤولين وإنجاب أولاد بطريقة غير شرعية، ونحو ذلك من المهازل وإقرار البرلمانات زواج الذكور ببعضهم، وكذلك الإناث ... الخ.

٢. عولمة سياسية

وهي تعني الهيمنة السياسية الاميركية او الغربية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وانفراد المعسكر الأميركي بالسيطرة على العالم، ومحو الإرادة الوطنية المستقلة للشعوب والدول. فهي تتناقض مع وجود الدولة الوطنية المستقلة، وتتطلب العولمة فتح الحدود أمامها، ورفع الدولة يدها عن الحواجز الجمركية، وتوفير حرية انتقال الأموال عبر البنوك التجارية، وحرية تغيير أسعار الصرف بحسب أسعار السوق الدولية، وطبقاً لسياسة العرض والطلب، ورفع الدعم عن المواد الغذائية، وإنهاء وجود القطاع العام، والإسراع في خصخصته.

وبذلك لا تكون وظيفة الدولة حماية الاقتصاد الوطني، بل تشجيع الاستثمار الأجنبي، وتهيئة الخدمات اللازمة، أي إن العولمة تتطلب الدولة الرخوة، وليست الدولة القوية الوطنية المستقلة. وحينئذ نكون أمام شمولية رأسمالية تضاهي الشمولية الشيوعية وتتعداها، رأسمالية جارفة تسعى عبر الثقافة والتكنولوجية

وقوة المعسكر للإمساك بزمام الأنظمة السياسية، من خلال نفوذها الدولي على الساحة العالمية، واستغلال المنظمات الدولية.^(١٤)

مظاهر العملة

للعولمة أو الأمركة مظاهر جديدة من أهمها ما يأتي^(١٥):

١- الثورة العملية وثورة الاتصالات والمعلوماتية الجديدة. وهذه هي المرحلة الثالثة التي مر بها العلم، ولاسيما عالم الكمبيوتر الذي تضاعف الى ألف ضعف عما ظهر عليه في عام ١٩٤٦م، وظهر فيها مجال الهندسة الوراثية والاستنساخ وقد سبقها مرحلتان:

أ - بداية الثورة الصناعية في أوروبا وبخاصة في بريطانيا في القرن السابع عشر.

ب - الثورة العلمية خلال القرن العشرين وبخاصة في أميركا.

٢ - انتشار منشورات شركة وولت ديزني الفكاهية والقصصية، وجذبها للزوار من جميع أنحاء العالم، حيث تطبع كتبها فيما يقرب من ٢٧ لغة عالمية، وقدر عدد مشاهدي افلام ديزني في مختلف أنحاء العالم بحوالي ٢٤٠ مليون مشاهد.

٣- صناعة الرأي والتحكم في أنظار الجمهور ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، فقد بلغ مجموع الإنفاق على الإعلان في أميركا عام ١٩٧٢م ما يقرب من ٢٣ بليون دولار، وقدر ما أنفق على التلفزيون القومي والمحلي بما يقرب من ٤,١ بلايين دولار، والإذاعة ١,٥ بليون دولار.

أما الصحف والمجلات فقد بلغ مجموع ما أنفق عليها ٨,٤ بلايين دولار، وبلغت نسبة المسلسلات الأميركية للتسلية والترفيه لإحداث التغيير في البنى القديمة والنسق الاجتماعية المتوارثة في تلفزيون ايران عام ١٩٧٢م نسبة ٧٠٪ من برامج التلفزيون، وقد أثرت في النزعات الاستهلاكية على الرغم من مصلحتها

مقدرة الفرد ودخله المحدود، كما نجد وسائل الإعلام المصرية قد أثرت في البلاد العربية، بسبب كون المسلسلات التلفازية المصرية وكذا انتشار الأغنية المصرية هي الأكثر انتشاراً في البلاد العربية، لسهولة اللغة الدارجة المصرية وتأثير الكتاب المصريين على القوى الثقافية في البلاد العربية.

وصارت هيمنة الولايات المتحدة الأميركية واضحة في الجوانب الاقتصادية، وفي الوسائل الثقافية معاً بسبب هيمنتها على وسائل الإعلام العالمية، ومكنت هذه الوسائل الثقافية من هيمنة الدولة اختراقها الخصوصية الحضارية لشعوب العالم.

ومن المعلوم ان وسائل الإعلام الأميركية تسعى الى تمجيد القوة والمنافسة ونشر الثقافة الاستهلاكية، وتحرير الرغبة من كل القيود، وإيجاد أهداف جديدة للمجتمعات الإنسانية.

٤- الثورة في عالم الاتصالات: مما ساعد على نمو الشركات وازدهارها وانتشارها في العالم، وصارت خيراتها تصب في عدد محدود من الدول.

وسائل العولمة

تحاول العولمة أو الأمركة تغريب العالم بوسائل مختلفة منها^(٩):

١- التحكم في مسار تطور البنى التقليدية بالقدر الذي يسمح بتصريف منتجات الدول الرأسمالية الكبرى، والبحث عن أسواق جديدة، وتشجيع الثقافة الاستهلاكية.

٢- العمل على تغريب الثقافات الوطنية بواسطة قوى الإعلام والتقنية الجديدة وانتشار التوكيلات التجارية في أسواق الخليج وغيرها.

٣- توظيف العلم للاختراق الثقافي بهدف طحن الهوية الوطنية والهيمنة على الثقافة كماً وكيفاً، وتقليد مناهج الغرب في مفردات المواد الدراسية دون النظر

الى حاجات السوق المحلية، مما جعل أكادماً من خريجي الجامعات عاطلين عن العمل، وأوجب إعانة النظر في بعض المناهج لتناسب مع حاجة السوق المحلية التجارية والصناعية.

٤- دعم سياسات المؤسسات الدولية، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وتشجيعه على الخصخصة في العالم واتباع سياسة السوق الأميركية الحرة، وأدى هذا الى مشاركة الشركات الأميركية والأوروبية واليابانية في رأس مال الشركات في الدول الفقيرة.

٥- نقل الصناعات التقليدية من المراكز الرأسمالية الى أسواق العالم الثالث الحديث تكون الأيدي العاملة رخيصة، وهذا على المدى الطويل يعود بالنفع على الشركات العالمية.

وهناك عدة ترتيبات تقوم بها الدول العظمى للسيطرة على دول العالم الثالث، ومنها:

- ١- التحول الدولي السريع الى مرحلة التكتلات العملاقة.
- ٢- تحقيق التعاون بين دول الشرق الأوسط ومنتدى البحر الأبيض المتوسط.
- ٣- محاولة تسلل اسرائيل الى الشراكة الاقتصادية العربية، وإيجاد معادلة جديدة لشرق أوسط جديد يضم النفط السعودي + الأيدي العاملة المصرية + الميه التركية + العقول الإسرائيلية.
- ٤- إلحاق دول المغرب العربي بالغرب، وإلحاق السودان والصومال بالدائرة الأفريقية.

أهم الفروق بين العولمة والعالية

عرفنا أن العولمة تهدف الى هيمنة أميركا على العالم، وبخاصة العالم الثالث، سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

ومن المعلوم أن الإسلام دين ذو نزعة عالمية، لكنه يختلف اختلافاً جذرياً في الوسائل والغايات عن العولمة.

فالعولمة تعني تحقيق عالمية الأمر ولو قسراً ومن غير تدرج، واقتحام المجتمعات والشعوب والدول اقتحاماً دون تحضير. وتطوير هذه المجتمعات، بحيث لا يمكن لأحد أن يعزل نفسه عنها أو البعد عن تأثيراتها.

وغايتها: فرض منطق الغرب وثقافته وعاداته وتقاليده وتصدير أنظمتها الديمقراطية والمعلوماتية، وفتح أسواق جديدة أمام منتجاته وسلعه الاستهلاكية، والحرص على زيادة الثراء والغنى، على حساب الدول الضعيفة أو الفقيرة، وإبقاء الهيمنة الأميركية ذات القطب الواحد على العالم بأسره.

أما عالمية الإسلام:

فأساسها: الوفاء بمحاجات الإنسان والإنسانية، ومنهجها: تعليمي، عقلي، وتربوي تعنى بتكريم الإنسان وتحقيق سعادة الإنسانية ونجاتها في الدنيا والآخرة.

ووسيلتها: بناء الإنسان الفاضل، والأسرة المتماسكة، وتصحيح العقيدة بالله واليوم الآخر، وإقامة الدولة الرشيدة لحراسة العقيدة والإيمان والأخلاق، وتنمية الوعي الاجتماعي، وصون عزة الإنسان وكرامته وقوة المجتمع والدولة، وتعميم كل ما يؤدي إلى رقي المدنية وإعلاء صرح الحضارة الإنسانية، والترفع عن ثروات الأمم والشعوب، ومناصرة المستضعفين في العالم، وتنمية قدرات الإنسان الاقتصادية دون إبقائه في حل من اليأس والفقر والمرض والجهل وبقية مظاهر التخلف.

وهذه هي مقومات الإسلام العالمية التي أرشد إليها القرآن وأوضحها السنة النبوية على أساس من الاعتقاد الصحيح الجامع بين متطلبات الروح والمادة، وإنارة العقل والوعي والإدراك، وتنمية المعارف والعلوم النظرية والتجريبية، وإحاطة ذلك كله بسوار من الخلق الرصين الفاضل والأدب الكريم من غير

إمعان في المادية، ليعيش الناس في أمان واطمئنان، وتقريب بين فئات المجتمع من الناحية المادية، وتحقيق التوازن والاعتدال والوسطية والتسامح فعلاً.

أخلاقيات العولمة بالفهم الغربي

يعارض كثير من مجتمعات الغرب والشرق نظام العولمة، لأنها مظهر جديد واضح المعالم من الاستعمار بمفهومه الاقتصادي العلمي.

ومن المعلوم أن الاستعمار إذلال سياسي، ونهب اقتصادي، وطمس معالم الخصوصية الثقافية، وبالنسبة لنا محاولة لإلغاء الهوية الإسلامية أو تشويهها وأمرتها وخلطها بمذاق عادات الغرب وتقاليده.

ولم تكن الحربان العالميتان الأولى والثانية إلا تجسيدا لصراع بين دول قوية مستعمرة مستفيلة، ودول ناشئة تريد النمو والاستقلال، وإذا تخضعت هاتان الحربان عن ميثاق عصبة الأمم، ثم ميثاق الأمم المتحدة، فإن هذين الميثاقين يحملان أفكار وإرشادات وأطماع الدول الغالبة، وإبقاء مناطق النفوذ والسيطرة للأقوياء المنتصرين.

ولكن أميركا التي لجت من أضرار هاتين الحربين في حين دمرت عواصم الدول الأخرى، أهلتها قدراتها وثرواتها لتتبوأ مركز السيطرة العالمية تحت ستار العولمة أو الأمركة، وفرض هيمنتها على العالم على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والحقوقي.

يتضح من هذا أن أخلاقيات العولمة تتمثل في كونها مادية طاغية، ومنطلقة من فلسفة ملحدة علمانية، لا تعرف الإيمان بالله الخالق الواحد، وعنصرية بغیضة لا يهتما إلا ذاتيتها بالإضافة لعنصرية الصهاينة وعولتها ذات الأهداف التخريبية والإفساد لمعظم المجتمعات البشرية، وتنبع من نزعة استكبارية شرسة واستعلاء وغطرسة لا حدود لها، وتحرر أو تنصل من كل القيود الإنسانية والأخلاقية،

وإلغاء لوجود الآخرين دينياً وثقافياً واجتماعياً وسلوكياً، واقتصادياً وسياسياً، وتجاوز كل ما يعرف بالحدود السياسية للدول ذات السيادة، أو الانتماء الى وطن محدد او لدولة معينة، أي إن العولمة: هي مرحلة ما بعد الإمبريالية في حياة الرأسمالية العالمية المعاصرة^(١).

وهي تسعى من طريق التكتلات الاقتصادية للدول والشركات الى فرض الهيمنة، وتحقيق التبعية التامة للنظام الليبرالي.

أخلاق العولمة الاسلامية

تتميز العولمة أو العالمية الاسلامية عن العولمة الحالية بكثير من الخصائص، سواء من حيث المضمون او من حيث الغاية والهدف وهي بإيجاز^(٢):

١- قيامها على العقيدة الجامعة لكل خير وفضيلة: لأنها عقيدة التوحيد الخالص المنزه عن كل شرك ووثنية وضلال، والنابع من الفطرة، المنسجم مع العقل والعلم وسهولة الاقناع، والداعي الى الحوار الهادئ والتفكير المتزن، والمحقق للراحة النفسية والطمأنينة: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب). الرعد / ٢٨.

٢- ملازمتها للرحمة العالمة بالعالم دون تمييز بسبب لون أو عرق أو جنسية أو دين، أو عنصرية أو إضمار حقد، أو محاولة إكراه أو قسر للآخرين: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) - الأنبياء / ١٠٧. (لا إكراه في الدين) - البقرة / ٢٥٦.

٣- ترفعها عن الأطماع المادية أو الاقتصادية أو سلب ثروات الأمم والشعوب، وإنما تحرص على إغناء الناس ورفعهم وتحسين ظروفهم المعيشية، قال الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز: (إن الله تعالى بعث محمداً بالحق هادياً ولم يعنه جانياً).

٤- احقاقها الحق ومقاومة الباطل: فلا تمس حقاً للآخرين في الدماء والأنفس والأعراض والأموال:

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) - الصف / ٩.

٥- معاملتها جميع الناس على أساس ثابت وأصيل من العدل، والإحسان والتسامح، والحرية والمساواة في كل شيء من القيم الإنسانية والتكاليف أو الالتزامات: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) - النحل / ٩٠.

وقل الله في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا).^(١٣)

٦- احتضانها كل القيم الانسانية العليا: من تنظيم المجتمع الإنساني على أساس التعاون والتضامن، والسلم والأمان والمحبة والاستقرار، والتزام الفضائل والأخلاق وضبط السلوك الإنساني بما يكفل كرامة الإنسان، وينمي وشائج الإتصال والود والتعامل الطيب بين الجميع. (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) - الحجرات / ١٣. (ولقد كرمنا بني آدم) - الإسراء / ٧٠.

وقل النبي (ص): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).^(١٣)

وهذا إعلان صريح بحقوق الإنسان على نحو أصيل لا يجردس سواء في حل السلم أو في حل الحرب، وتنظيم للعلاقات الدولية على أساس من المعاهدات المتكافئة: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها) - النحل / ٩١.

٧- تنمية عوامل النهضة والتقدم، والبناء والتمدن، والحضارة وال عمران، من خلال تمجيد العلم وأعمال الفكر، والحفاظ على المكاسب، وتعمير الكون، والدعوة الدائمة للخطاب والحوار الحضاري والتعامل مع الأمم والشعوب الأخرى على قدم المساواة والدعوة الى الحق والانفتاح دون تعصب ولا أحقاد ولا

انغلاق ولا ترفع او استكبار او استعلاء او فرض هيمنة أو رضا بالواقع: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) - النحل / ١٢٥.

٨- تنظيم المجتمع بسياسة حكيمة عادلة، وإقامة اقتصاد حر عادل ومرن، ومجتمع أسري متوازن ومتربط ومتراحم، يقوم على الوسطية والتعادل بين الحقوق والواجبات، وتنمية القدرات والكفاءات والحريات المسؤولة البناء، وصيانة الكرامة الإنسانية، والدفاع عن الأعراض والحرمات: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) - النساء / ١.

٩- إقامة عدالة اجتماعية بين أبناء المجتمع من غير تفاوت صارخ أو صراع حاد، وتوزيع عادل، وتمكين حر من الإنتاج الشامل والتنمية العامة، وتحقيق تكافل اجتماعي عميق الجذور، مأمون التطبيق، فالكل شركاء في الثروة والأغنياء والفقراء إخوة: (إنما المؤمنون إخوة) - الحجرات / ١٠.

١٠- الحرص على إشاعة السلام والأمان والاطمئنان على أساس من الحق والعدل والفضيلة والأخلاق الرصينة (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) - البقرة / ٢٠٨، ولكن مع الحفاظ على قوة المجتمع والدولة والاستقلال والحرية، والعزة والكرامة: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) - البقرة / ١٩٠، وفي ضوء هذا يكون هناك فرق بين ممارسة حق الدفاع أو المقاومة المشروعة في كل الشرائع الدولية، وبين الإرهاب: وهو الاعتداء على الآخرين من غير حق أو مسوغ مشروع.

كيفية نواجه العولمة أو الأمركة؟

نلاحظ قبل الإجابة عن هذا السؤال أن أغلب بلدان العالم وليس المسلمين وحدهم متضايقون من العولمة حتى حلفاء الولايات المتحدة الأميركية مثل كندا

وأوروبا، ويطالبون بمراجعة الخصوصيات الثقافية أو اعتماد مبدأ الاستثناء الثقافي، كما نلاحظ أن العولمة ليست شراً محضاً، ففيها بعض الإيجابيات، ولكن محاولة فرض تطرف العولمة سيؤدي إلى رد فعل عنيف أو معاكس فإن تيار العولمة ربما يكون حافزاً للبلاد الإسلامية ومفكراتها للإعداد النهضوي الجيد، والتجديد الواضح لمواجهة العولمة على أساس من الحرية والاعتدال والديمقراطية الإسلامية، والتسليم في إطار الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية^(١٥)، وكذلك تنمية الاقتصاد والاعتماد على الذات، وسلوك طريق الحوار بين الحضارات. ومواجهة تحديات العولمة يتطلب من المفكرين الإسلاميين وأرباب القوة الإسلامية الإبداع، والاعتماد على الذات، وتوفير القوة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المستقبل القريب من خلال ما يأتي^(١٦):

- ١- إقامة وحدة سياسية واقتصادية وعسكرية فيما بين المسلمين.
- ٢- تطوير الإمكانيات العلمية والتقنية والمالية، والاستفادة من الموارد المائية والنفطية والمعدنية وغيرها.
- ٣- التحرر من التبعية والولاء للأجانب.
- ٤- إيجاد بديل حضاري مدروس لمواجهة حضارة الغرب للإنقاذ والاصمود.
- ٥- إبداع ثقافة جديدة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، تزول فيه معالم الاستبداد والظلم الاجتماعي والقهر، والتجزئة والتخلف والتغريب.^(١٧)
- ٦- كسر حجة الانبهار بالغرب ومقاومة قوة جذبها، ورده إلى حدوده الطبيعية، والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية.
- ٧- توفير القوة الذاتية في الإبداع للتخفيف من غلواء العولمة، بالتفاعل بين الماضي والحاضر، وبين ثقافة الماضي وثقافة العصر، فيتحقق التوافق بين الخصوصية الثقافية والعولمة.

الهوامش

- ١ - د. عبدالوهاب الحكيمي، مقال في جريدة الرياض، العدد ١١٥٤٦، السنة ٣٦ شوال ١٤٢٠ هـ / فبراير (شباط) ٢٠٠٠ (العودة .. معناها ومبناها ومفهومها في الثقافة العربية والإسلامية).
- ٢ - د. فتحي يكن ورامز طنبور، (العودة ومستقبل العالم الإسلامي)، ص ١٠.
- ٣ - د. عبداللطيف الصباغ، محاضرة عن العودة والهوية الثقافية الإسلامية، جمادى الثانية ١٤١٩ هـ / ايلول ١٩٩٨ م.
- ٤ - د. إلياس سابا، (التعاطي مع ظاهرة العودة)، جريدة الأيام البحرينية.
- ٥ - فتحي يكن، المرجع السابق، ص ١٠.
- ٦ - الثقافة: هي المركب الذي يتضمن المعرفة والإيمان، والفن والأخلاق، والقانون والأعراف، وأية قدرات وعادات يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في جماعة. وعلى هذا، فإن الثقافة هي: النشاطات التي يتفاعل بواسطتها الفرد من جميع جوانبه الإنسانية مع المجتمع، وهي التي تسمح للمجتمع بتكوين ميزاته الخاصة.
- ٧ - د. جلال أمين، العودة، والدولة، العرب والعودة، ص ١٥٣ - ١٧٠، نقلاً عن كتاب ما العودة، د. حسن حنفي وجمال العظم، صص ٨ - ٤ وما بعدها.
- ٨ - د. عبدالوهاب الحكيمي، المرجع السابق.
- ٩ - المرجع السابق.
- ١٠ - د. اسماعيل صبري عبدالله، (الكوكبة - العودة - الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية) مجلة الطريق، بيروت عدد ٤ تموز (يوليو) - آب (أغسطس) ١٩٩٧: ص ٤٥ - ٦٩، عن كتاب: ما العودة؟ المرجع السابق.
- ١١ - انظر وقارن د. فتحي يكن ورامز طنبور، المرجع السابق، ص ١٢١ - ١٤٢.
- ١٢ - أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
- ١٣ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده وغيره.
- ١٤ - محاضرة الدكتور عبداللطيف الصباغ، المرجع السابق، ص ٨ - ٩.
- ١٥ - العودة ومستقبل العالم الإسلامي، د. فتحي يكن، ورامز طنبور، المرجع السابق، ص ١٢٧.
- ١٦ - د. حسن حنفي، ما العودة؟ المرجع السابق، ص ٥٣ وما بعدها.

أثر العولمة الثقافي على

المجتمع الإسلامي

الدكتور عمر جاه

بسم الله الرحمن الرحيم

العولمة، كما تطرحها البلدان المتقدمة اقتصادياً في الغالب، هي انعكاس للتغيرات الحالية في العلوم والتكنولوجيا الحديثة. وقد كانت العولمة مدار نقاش واسع النطاق خلال العقدين الأخيرين كموضوع يغلب عليه الطابع الاقتصادي في جوهره، وإن كان يهدف بوضوح إلى خلق مجتمع عالمي واحد ذي ثقافة واحدة فقط. وفي هذا المجتمع «الجديد» المقترح لا بد من التخلي عن الثقافات التقليدية بما فيها الدين والعادات الاجتماعية وذلك من أجل إتاحة المجال أمام تطوير لا تعيقه عوائق لثقافة جديدة قائمة على مفاهيم المادية العلمانية الحديثة.

وتهدف هذه الورقة في المقام الأول إلى دراسة ما لهذه الثقافة العالمية الواحدة المطروحة، والداخلية دخولاً سافراً أو مقنعاً ضمن نطاق العولمة، من تأثير على العالم الإسلامي في شتى ثقافته. والثقافة في الإسلام أحد عناصر الدين الذي يشكل التوحيد الأساس له. أي الإيمان بالله ووحداً صفاته بأنه القدير العليم الحاضر أبداً. ومن الواضح أن منظومة الإيمان هذه على طرفي نقيض مع الأهداف التي تحتوي عليها المادية العلمانية الحديثة.

وفي محاولتنا لفت النظر على نطاق واسع إلى المظاهر المساوية المحتملة الكامنة في العنصر الثقافي للعولمة ولاسيما التأثير السلبي الذي سيكون لها على الأمة

الإسلامية، فإننا نأمل في استنباط وسيلة تمكّنتنا نحن كمسلمين من صدّ أخطار هذه الثقافة التي يجري فرضها من خلال هذه العولمة.

معنى العولمة

يمكن تعريف العولمة التي تتصور المجتمع الإنساني على أنه قرية كونية، بعبارات متنوعة لتدلّ على أشياء مختلفة لشعوب شتى حول العالم. وقد أصبحت العولمة في عالم سريع التغيّر وسيلة لتقدم وتكامل عالمين سريعين الخطى. كما تعودنا في العقدين الماضيين، على الخطاب الذي يتحدث عن العولمة والأثر الذي تُحدثه عملية العولمة المكثفة في العلاقات الإنسانية على صعيد العالم بأسره. وبلغ علما اليوم درجة من الاعتماد المتبادل والترابط جعلتنا نبدأ في الحديث عن موت الجغرافيا وعن ضغط الزمان والمكان، وبعبارة أخرى لم تعد الحدود الفاصلة بين الحضارات والثقافات والقيم والأمراض والناس أمورا ذات موضوع في الحفاظ على التنوع وأسلوب الحياة للإنسان. وبسبب القوى العاتية للعولمة فإنّ من المقدّر على مجتمعات العالم أن تصبح وحدة متكاملة كانت عبارة «القرية الكونية» خير الأوصاف لها، وقد ترابطت أجزاءها معاً من خلال تكنولوجيا المعلومات. هذا وينبغي أن تقوم باتخاذ القرارات عالية الطابع مؤسسات متخصصة تحكمها هيئات عالية ذات صبغة جماعية. ومن ثم فإنّ مصطلحات «عولمة» و«تغريب»: بمعنى إعطاء السمات الغربية و«المكدنة»: إضفاء طابع «مكودونالد» (McDonaldization)، «وما بعد الحدائنة أو العصرية»: (PostModernization) و«الأمركة» (Americanization) كلمات مترادفة تستخدم في وصف عملية العولمة. وبعبارة أخرى فإنّ الغرب الذي يسير

قوى العولمة، يتلاعب ببقية العالم ويدير دفته وينظمه من خلال «هيمنة فكرية علمية».

ومن ناحية ثقافية يمكن تعريف العولمة بأنها عملية خلق مجتمع عالمي واحد ذي ثقافة واحدة فقط. ويتمثل الهدف الرئيس للثقافة الجديدة في تهميش الثقافات التقليدية بأن يُستبدل بها ما يقال إنه ثقافة دينامية عصرية تقوم على فلسفة للحياة علمانية مادية تتألف في معظمها من القيم الغربية للمادية والفردية والعلمانية أو ثقافة الاستهلاكية.

وتكمن طبيعة هذه الثقافة الجديدة في الحقيقة القائلة إن نظرتها للعالم أحد مكونات المادية العلمانية، مما يقلل دور الدين ويستبعد الحقائق الماورائية (الميتافيزيقية) في تشكيل الثقافة وينزل بالإنسان إلى مرتبة كائن ملحد، همّه الأكبر في الحياة مفسور على الإنتاج والاستهلاك، وخلال الأشهر القليلة التي تلت أحداث الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) دأبت القوى الغربية على المطالبة بتغييرات جذرية في المناهج الدراسية في البلدان الإسلامية بغية تقليص دور الدين في تكوين الثقافة. وواضح أن هذه كلها تتعارض مع نظرة الإسلام للعالم. وعلى الرغم من أن العولمة قد تتمخض عن بعض مكاسب اقتصادية فإن أكبر تحدٍ للمجتمعات غير الصناعية في القرية الكونية يأتي من القوى الثقافية الاجتماعية والقيم الرمزية التي تحركها هذه القوى. حيث تحتوي النظرة الإسلامية العالمية على سبيل المثال مبادئ مقدّمة وطيدة البنيان تعود إلى مرجعية دينية في خاتمة المطاف. ولا يعني ذلك أن المسلمين عاجزون عن التعلّم من الآخرين. بل على العكس من ذلك، فإنه إذا أريد للمسلمين أن يشاركوا مشاركة كاملة في العملية العالمية الجديدة، فإنه لا معنى لهم عن اكتساب المعرفة والمهارات والمعلومات والتكنولوجيا والعلوم والقدرات الإدارية من أجل تعزيز فهمهم

وإدامة تطورهم وزيادة اندماجهم وتكاملهم . وتقوم العولمة على إزالة الحواجز والحدود، مما يحتاج إلى مزيد من الاعتماد المتبادل عن طرق التجارة والأيدولوجيا والجدل والمال والقيم والتزواج والموارد البشرية وما إلى ذلك. لكن على أن لاتشوه القواعد الرئيسة المقررة للتوازن الاجتماعي والقيم الدينية، كما تتجلى هذه في نظرة الإسلام للعالم.

غير أن العامل المشترك فيها يتنقص من دور الحدود الجغرافية والقومية والدولية، التي تفصل من الناحية المادية بين المجتمعات الإنسانية. وقد جرى استخدام المصطلح للتعبير عن تطور سريع في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

ويمكن تعريف العولمة من ناحية اقتصادية بأنها عملية دمج للأسواق الوطنية المنفصلة في سوق عالمية واحدة حيث تتم مركزة الإنتاج والتسويق ونقل السلع، ورؤوس الأموال والخدمات، وبذا يصار إلى استخدامها من جانب قلة من الناس. وحسب منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (DECD)، فإن العولمة الاقتصادية «عملية تصبح فيها الأسواق والإنتاج في شتى الأقطار معتملة بصورة متزايدة على بعضها البعض وذلك بسبب الدينامية أو النشاط التجاري في السلع والخدمات والحركة في رؤوس الأموال والتكنولوجيا». وبناءً على ذلك فإنه بالرغم من وجود مظاهر دينامية إيجابية للعولمة، فإنها لا يتخلو كذلك من آثار سلبية وتعطيلية وتهميشية تقع على الفقراء^(١) إلى حد بعيد.

لكن العولمة من الناحية السياسية، تعني ببساطة استعماراً بطريقة أو بأخرى؛ لأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالتطور التاريخي لأوروبا الرأسمالية أي محاولة أوروبا بالاستيلاء على العالم بأسره بهدف وضعه تحت سيطرة نظام سياسي واحد قائم على عقائدية سياسية واحدة ألا وهي الرأسمالية أو (الفاشية القومية). ويمكن

العودة بالعولمة السياسية إلى التوسع الأوروبي الاستعماري الذي حدث في القرن الميلادي الخامس عشر الذي حصل في شتى أرجاء المعمورة.

ابتداءً من (أ) الجهود الاستعمارية الإسبانية البرتغالية الرامية إلى تنصير ما يسمّى بالشعوب المتوحشة، و(ب) بعوث التحضير البريطانية والفرنسية والمولندية التي يزعم فيها هؤلاء الاستعماريون الأوروبيون أنهم قاموا بتحضير ما يوصف بالسكان البدائيين أو الشعوب المتخلفة في آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، (ج) الجهود المتضاربة التي تبذلها البلدان الرأسمالية التي أرادت من خلال التحديث والعلمنة، تطوير الشعوب غير الغربية في الشرقين الأقصى والأوسط ولاسيما تلك التي سبق أن جرت أسلمتها قبل قرون من ظهور العالم الرأسمالي الغربي «المتحضر». وعلى حدّ قول ولتر د. مغنوليسو يبدو أنّ العولمة عبر عملياتها الثلاث تتجاهل وجود منظمات اجتماعية على مستوى رفيع من التقدّم كانت موجودة في العالم آنذاك كما هو الحال على سبيل المثال في الصين والعالم الإسلامي والمكسيك (وأجزاء من إفريقيا) وذلك قبل أن شرّعت عصبة من المجتمعات البربرية الصاعدة في جعل نفسها المركز الجديد للعالم^(١). وإلى جانب التوسع الاستعماري في شتى أصقاع الأرض، فقد انتشرت الثقافة الأوروبية ولاسيما اللغات الأوروبية انتشاراً سريعاً في البلدان التي تمّ الاستيلاء عليها.

النظرة الإسلامية للعالم

إنّ النظرة الإسلامية للعالم هي العقيدة الإسلامية ذاتها، فهي تطرح رؤية الصلح والحقيقة الواحدة. وتشمل كلاً من هذه الدنيا والآخرة التي لا بدّ فيها على حدّ قول الأستاذ الدكتور العطّاس من ربط المظهر الدنيوي ربطاً وثيقاً

لأنفصام له بالمظهر الأخروي، حيث سيكون فيه للمظهر الأخروي الكلمة العليا والنهائية. ويُنظر في الإسلام إلى المظهر الدنيوي على أنه إعداد للأخروي؛ إذ يتركز كل شيء في الإسلام على المظهر الأخروي دون أن ينطوي ذلك ضمناً على أي موقف ينم عن إهمال المظهر الدنيوي وتجاهله^(٣).

وتتألف نظرة الإسلام العوَلَة من:

- (١) الإيمان بوحداية الله على أنه القدير العليم دائم الحضور.
- (٢) الإيمان بأن الله هو خالق الكون.
- (٣) الإيمان بأن الله هو رازق العالمية.
- (٤) الإيمان بالحقائق الغيبية والحياة الأخروية.
- (٥) الإيمان بأن النبي الكريم محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسول الله.
- (٦) الإيمان بملائكة الله والإقرار بأن القرآن كتاب الهدي الرباني الحجة التي تفصل بين الحق والباطل^(٤).

وعلى النقيض من نظرة الإسلام للعالم، فإنه جرى تعريف النظرة الغربية للعالم بأنها مجموعة متماسكة من المفاهيم والنظريات التي تمكن البشر من إنشاء صورة عالمية للدنيا التي يعيشون فيها. وعلى ذلك فإنه بينما تقوم نظرة الغرب إلى العالم على المادية العلمانية فإن نظرة الإسلام للعالم تقوم على التوحيد والواقع. إن نظرة الإسلام للعالم تحدد وتعرف الطريقة التي يجب أن تتخذها صلة الناس بخالقهم وهو الله سبحانه وتعالى في التسليم له وعبادته وإطاعته والطريقة التي ينبغي أن يسلكها في علاقاتهم ببعضهم وبالبيئة المادية والطبيعية ككل في تصرف ينطوي على الاعتراف بالمشيئة الربانية أي الأمر الرباني الذي يوصف بأنه القانون الطبيعي. ويمثل الإسلام النهج الإسلامي في الحياة. ويتعين أن تسير الحياة الإسلامية على هدي من المعرفة اللائقة والتوجيه الخير كما يرسمه القرآن

الكريم وكما يتمثل في الحياة العملية للنبي (صلى الله عليه وسلم) وسنته. وعلى حد قول الدكتور العطاس فإنّ الإنسان المسلم لديه القرآن الذي لم يتغيّر ولا يتغيّر ولن يتغيّر. إنه كلام الله المنزّل بصورة مكتملة ونهائية. والمقصود بنظرة الإسلام للعالم هو رؤية الحقيقة والصدق الذي يظهر أمام عيون عقولنا مبيّناً لنا مغزى الوجود لأنّ عالم الوجود بكلّيته هو ما يطرحه الإسلام^(٥). ويتصوّر.

وعلى العكس من نظرة الإسلام للعالم، فإنّ ثقافة العولمة الجديدة هي النتيجة المباشرة للتوسع الأوروبي عبر هذا الكوكب عن طريق الاستعمار والسيطرة الثقافية. وهي صورة تعكس وتبيّن بوضوح النظرة الغربية للعالم، وهي نظرة تقوم كما ذكرنا سابقاً على المادية العلمانية. إنها لا تعترف بوجود الله كخالق ورازق لهذا الكون ولا تؤمن بالحقيقة المطلقة ولا بالحقائق الغيبية ولذلك فإنها لا تعترف بالحقائق الميتافيزيقية ولا بالحساب في الحياة الآخرة. إنها عموماً تتصور هذا العالم الماديّ على أنه نظام أبدي، مستقل، موجود بذاته يتطور حسب قوانينه الخاصة به^(٦). وفي نظام من هذا القبيل يُنظر إلى الإنسان على أنه سيّد ذاته ولا حاجة له لسلطة لتوجيهه وهداه. ولذا فإنّ له الحرية لعمل ما يريد، من هنا تأتي مشكلة الإنسان في هذه الحياة.

ولابدّ لكل مسلم من أن يعرف في قرارة نفسه أنّ تأثير المادية العلمانية الغربية هو تأثير الشيطان. إنّ المادية الغربية العلمانية تنتزعنا من صلواتنا، ومن ثقافتنا الإسلامية وتشوّه نظرتنا للعالم، وتأخذنا من نظامنا الاقتصادي الإسلامي ومن نظامنا التربوي الإسلامي ومن قيمنا الإسلامية وتصرف أذهاننا عن الله وتسلب من أطفالنا هويتهم الإسلامية كما وتعطينا المادية العلمانية الغربية مجتمعاً يقوم على الجريمة والعنف وتعاطي المخدرات والمسكرات والبغاء والصور الداعرة والانحراف الجنسي واستغلال البشر والموارد وتنحدر بالحياة إلى درك من

ممارسة العيشية مجرد من كل مغزى. كذلك فإنّ المادّية العلمانيّة الغربيّة تغرس في عقول أطفالنا الفكر الإلحائي وامتهاناً للتقاليد والوالدين والكبار وفقداناً للأمل، واستخفافاً بالمعرفة وهياماً بأسلوب حياة ذي طابع حيواني وضع لا يُعنى إلا باللذات الجسديّة في أشد حالاتها فجاجة أو بعبارة أخرى النهج النفسي البحت الذي يرى الحياة على أنها مبدءان: اللذة والألم.

مفهوم الثقافة في الإسلام

كما هو مبين في هذه الورقة فإنّ الثقافة كما يعرفها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بأنها مجموع التجربة الإنسانيّة بما فيها الدين والتقاليد والقواعد الأخلاقيّة والقيم الاجتماعيّة والعادات واللغة والقيم الأخلاقيّة والموسيقى والفن.. الخ. وإذا ما نظرنا إلى الثقافة على أنها شيء يصل الناس ببعضهم إضافة إلى وصلهم ببيئتهم فإنّ بإمكان المرء تعريف الثقافة الإسلاميّة بأنها معرفة عمليّة مكتسبة يوجهها مبدأ معياريّ قرّره وفسرته الشريعة.. وتتجسّس هذه المعرفة في سلوك الإنسان الواعي في الحياة عندما يتعامل بصورة فرديّة أو جماعيّة مع الوجود (أي مع الله الخالق ومع مخلوقاته). وفي هذا الصدد فإنّ بالإمكان قسمة الثقافة إلى صنفين:

(أ) الثقافة الماديّة.

(ب) الثقافة غير الماديّة.

وتتعلق الأولى بالجانب المادي من الحياة كما تدركه الحواس الخارجيّة بينما لا يتعاطى الآخر إلا مع الحواس الداخليّة للإنسان أي مع عقله ونفسه وذهنه وروحه. ويطلق على هذا الجانب المظهر الروحي للحياة الإنسانيّة. فليس الإنسان مجرد لحم ودم وعظم بل هناك جانباً أو جزءاً روحياً لهذا الإنسان أيضاً.

ويبين تحليل متأن لمعنى الثقافة أن الثقافة ليست سوى بيئة جديدة أوجدها الإنسان في محاولته العيش براحة وسط البيئة الطبيعية التي خلقها الله بالنسبة لمن يؤمنون بالله أو أوجدتها «الطبيعة» في نظر أولئك الذين يعززون كل شيء إلى الطبيعة. وفي إيجاد هذه البيئة أو المحيط الجديد يحاول الإنسان إعطاء شكل لحياته حسب حاجته وقدرته على التكيف. وتنطوي هذه العملية على إيجاد موطن له وتطوير وسائل ينتقل بها، وإيجاد لغة للتخاطب وصنع أدوات لإنتاج الغذاء وأسلحة لحماية نفسه من الأعداء وفنون لأظهار مواهبه في تقدير جمال الطبيعة. وكلما ازداد الإنسان صعوداً في معارج التطور أصبح محيطه أكثر ارتقاءً. ولهذا السبب فإن الثقافة تتفاوت بين جماعة وأخرى بيد أنها تبقى مع ذلك الهوية التي يتصف بها الإنسان نفسه. ولنفس السبب كذلك، فإن باستطاعة المرء أن يرى أنه بالرغم من وحدة نظرة الإسلام إلى العالم فإن هناك تنوعاً في الثقافات الإسلامية في شتى أنحاء الأرض.

وإذا نظر الإنسان بإمعان إلى الحضارة الغربية فإنه يستطيع أن يرى بسهولة الأثر العميق للمادية العلمانية الحديثة في طبيعة هذه الثقافة ذاتها وكذلك في تطورها. لقد مرت الثقافة الغربية بتغيرات عديدة من الثقافة القديمة والكلاسيكية إلى الحديثة ومنها إلى ما بعد الحديثة. أما الحالة الراهنة لذلك التغيير فتتمثل في العولمة. وفي الإسلام تنمو الثقافة لتبلغ درجة النضوج في ظل الهداية الدينية، إلا أن الدين ذاته كمصدر للثقافة جاء مكتملاً ولا يمكن تغييره أبداً^(١٠). ولذلك فإن المظهر الوحيد للمجتمع الإسلامي القابل أو المعرض للتغيير والتطوير هو مانسميه الثقافة التي هي بيئة الإنسان المخلوقة بشطريها المائي وغير المائي. وبعبارة أخرى فإن ما يصوغه الإنسان نفسه ويشكله ويطوره ولكن بصورة تنسجم ومبادئ التوحيد، بما فيها بعض المعتقدات والممارسات الدينية

هو الثقافة. ويدخل في هذا أمور من قبيل اللغة وفنّ اللباس، والعادات، وقواعد الأخلاق والأغاني والموسيقى والتصميم المعماري والعادات الاجتماعية. وقد تمرّ هذه جميعاً ببعض التغييرات غير أنّ هذه التغييرات ينبغي أن لا تتعارض مع التوحيد. وفي هذا المقام فإنّ الدين هو أساس الثقافة وليس أحد العناصر المكوّنة لها كما يريدنا علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وأتباع المذهب الماديّ العلماني أن نعتقد.

وبوصفه ديناً شمولياً (وكلمة دين هنا تعني ديناً مُنزلاً من عند الله كأسلوب حياة بالمعنى الجسديّ الماديّ والعقليّ والروحي) فإنّ الإسلام يعترف بالتنوع في العنصر واللغة والعادات والتقاليد الاجتماعية. وفي هذا ما يكفي لتبيين طبيعة العالم وشموليته.

وفي الإسلام يُشجّع الناس من مختلف العنصر وشتى اللغات والثقافات على العيش معاً والتعارف فيما بينهم والتعارف واحترام ثقافة بعضهم بعضاً ضمن إطار التوحيد الذي لا يعترف فقط بالتنوع الثقافي بل يرى في ذلك أيضاً إحدى المعجزات من صنع الله عزوجل^(٥).

والواقع أنّ الطابع العالمي للإسلام ينعكس بصورة أفضل في طقوسه وممارساته مثل الصلاة والصيام والحج. ففي كل من هذه العبادات يقوم المسلمون من مختلف العنصر والمشارب واللغات والتقاليد بأداء النوع نفسه من العبادة في الوقت عينه في جميع أنحاء العالم^(٦). وفي الإسلام يعني الوعي الثقافي معرفة الحقائق الطبيعية التي تقع وراء الطبيعة على أنها كلّ دينامي لا يتجزأ لا يقع وراء شيء سوى الله سبحانه وتعالى. وعلى صعيد الوعي الإنساني فإنّ الحقيقة ليست نسبية كما هي الفلسفة المادية النسبية الغربية. والهدف من وراء خلق الإنسان هو أن يعرف خالقه الله ويعترف بوجوده ويخضع لمشيئته ويطيع أوامره^(٧). وهذا هو معنى

أوامره^(١١). وهذا هو معنى الدين أي أنه وعي الإنسان بأنه مدين لخالقه وهو الله عز وجل^(١٢). ويبلغ وعي الإنسان بالإسلام ذروته في مفهوم الإحسان وهو يعني الشعور المتواصل والتام بأن الله موجود مع الإنسان، وبأن الله يعرف تمام المعرفة أفعال الإنسان وسلوكه في أي وقت يوجد فيه الإنسان وحيثما وجد وبناء عليه فإن المعرفة تحتل موقعا مركزيا في النظرة الإسلامية إلى العالم والثقافة.

أهمية المعرفة

المعرفة في الإسلام تعني اليقين بعكس الشك والظن. وهناك مستويات ثلاثة لليقين: (أ) علم اليقين ويعني ذلك المعرفة التي تم الحصول عليها من خلال الاستنباط السليم؛ (ب) عين اليقين وهو المعرفة التي أمكن التوصل إليها عن طريق الملاحظة؛ (ج) حق اليقين ويعني ذلك التجربة المباشرة أي المعرفة المدركة بلحس أو البديهية سواء كانت عن طريق التجربة العملية (الاكتشاف العلمي) أو التجربة الروحية (الإلهام) والتي تأتي بنعمة من الله سبحانه وتعالى الذي هو الحقيقة المطلقة^(١٣).

وتكمن الأهمية المعرفية لليقين في الحقيقة القائلة إنه يتسامى على مجال الشك والتخمين، وحسبما يحاج الدكتور العطاس فإن المنطق والتجربة كما عرفهما العلماء المعاصرون بأنهما المصدران الوحيدان للمعرفة، لا يمكن أن يؤديا إلى حق اليقين أو الحقيقة المطلقة التي لا تترك مجالا للشك أو الحدس والتخمين. وقد أكد القرآن الكريم ذلك في سورة يونس/ الآية ٣٦. (إن الظن لا يغني من الحق شيئا) ولا يعني ذلك أن العلم والجدل المنطقي لا قيمة لهما، بل إنه إذا تم استخدامهما بصورة صحيحة فإن بإمكانهما تقديم أساس سليم للمعرفة الصحيحة. وفي وسع المرء أن يرى من التعريف الوارد أعلاه للمعرفة الصعوبة

في استخدام فلسفة مادية نسبية في محاولة للوصول إلى معرفة حقيقتي لليقين لمساعدة الإنسان في كيفية ممارسته لحياته في الاختيار. وهذا هو ما يميز نظرة الإسلام للعالم عن نظرة الغرب العلمانية الحديثة لهذا العالم. إذ بينما تدرك الأولى هذه المصادر للمعرفة وهي التفكير السليم والتجربة السليمة وحجية القرآن وشخص النبي (صلى الله عليه وسلم) فإن الثانية تتعرف بصورة رئيسة على مصدرين للمعرفة.

وهما: المنطق والتجربة.

وطبقاً لهذه الفلسفة المادية فإن من المستحيل وجود حقيقة مطلقة أو يقين؛ ولذلك لا يمكن إثبات حقيقة دون منطق أو تجربة. وبكلام آخر لا بد وأن تكون الحقائق تجريبية وقابلة للإثبات عن طريق المنطق والتجربة. وإذا تم تعريف المعرفة على أنها وصول الروح إلى معنى الأشياء كما يقول العطاس والقدرة على التعرف على المكان الملائم للأشياء في نظام المخلوقات بحيث تؤدي إلى تبين المكان المناسب لله في منظومة الوجود. فإن تطبيق تلك المعرفة لا بد وأن يعني وضع الأشياء في مكانها المناسب. أما وضع الأشياء في أماكنها المناسبة حسب ترتيبها في نظام الخلق، فيسمى الأدب، وهو يمثل أساس العدل وهذه هي الحصيلة الطبيعية لحرية الاختيار. وتعني فقدان حرية الاختيار عدم القدرة على وضع الأشياء في أماكنها المناسبة في منظومة الخلق. ويسمى هذا الجهل والظلم. وإذا ما سمحت عوامة الثقافة للإنسان بتغيير الترتيب الإلهي في الخلق عن طريق إخفاق الإنسان في وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، فإن من شأن الثقافة الإسلامية بل من واجبها عدم التردد في رفض ذلك. ولا يعدو هذا التصور الخاطيء لحرية الإنسان كونه انحرفاً خطيراً عن تعاليم الإسلام كما أنزل في القرآن الكريم.

وحسب التعاليم الإسلامية فإنه لا بدّ للإنسان بالاسترشاد في ممارسة حقه في حرية الاختيار. وباستطاعة الإنسان من خلال حرية الاختيار أن يختار - بفضل - الهداية الربانية - ما هو مناسب. له أما اختيار ما هو غير مناسب للإنسان فيعني فقدان حرية الاختيار^(١٣).

مصادر المعرفة

تأتي المعرفة الصحيحة في الإسلام من الله خالق الإنسان نفسه. وقد أشار العطّاس إلى مصدرين من مصادر المعرفة معترف بهما من جانب العلماء العلمانيين المحدثين الغربيين على أنهما المنبع الموثوق الوحيد لاكتساب المعرفة لكنه أضاف مصدراً ثالثاً يسميه الحجّة. أمّا المصدران الآخران فهما (أ) العقل، (ب) الخبرة أو التجربة. ويبيّن العطّاس أنّ هذين المصدرين يقصران عن تزويد الإنسان بوسائل كافية لاكتساب المعرفة الصحيحة التي تمكّنه من وضع الأشياء في مواقعها الصحيحة في ترتيب الخليقة، لاسيما عندما يكون العلماني نفسه ينكر وجود الخالق. وأمّا المصدر الثالث الذي يعترف به العطّاس فهو القرآن وشخص النبي (صلى الله عليه وسلّم)^(١٤). إنه يمثل معرفة اليقين الذي لولاه سبّقى المعرفة الإنسانية بالحقائق ملفوفة بالغموض الذي يرى فيه العلماء حقيقة نسبية. ويسمي القرآن الكريم الغموض أو انعدام اليقين «الظن» (التخمين) ويقول إنّ الظنّ لا يمكن أن يؤدي إلى الحقيقة (إنّ الظنّ لا يعني من الحق شيئاً)^(١٥).

ويشير هذا المصدر الذي يُعرف الحجّة إلى الله وإلى تعاليمه ورسوله الذين يبلغون تعاليمه للبشر. وعن طريق هذه التعاليم يزودّ الله الإنسان بالهدى الرباني لمعرفة خالقه ومعرفة نفسه ومحيطه والكون في مجموعه^(١٦). ومن خلال تطبيق هذه المعرفة لليقين تطبيقاً سليماً يحصل الإنسان على الأدب والحكمة اللذين لا بدّ منهما لتحقيق العدالة^(١٧) ولاشكّ في أنه لا يمكن تحقيق السلام ولا الأمن

منهما لتحقيق العدالة^(١٧) ولا شك في أنه لا يمكن تحقيق السلام ولا الأمن ولا الاستقرار دون إقامة العدل.

أخطار العولمة

إذا نظرنا إلى ما دار من نقاش أعلاه حول نظرة الإسلام إلى العالم، يمكن أن نرى أنّ العولمة الثقافية القائمة على العقائدية (الأيدولوجية) المادية العلمانية أمر خطير وضارّ بالمجتمع الإنساني بعمامة والمجتمع الإسلامي بخاصة. وفي وسع المرء أن يرى بسهولة أنّ الخطر الذي تشكله العولمة على المجتمع الإسلامي لا يكمن أصلاً في عملية العولمة ذاتها. ويأتي الخطر من المحاولة الخفية والمنسقة للتقليل من فعالية الإسلام في سعيه إلى إنشاء مجتمع يتّصف بالاستقامة والعدالة يسير وفق مشيئة الله. ولما كانت العولمة تعرف بأنها مجتمع واحد ذو ثقافة واحدة، فإنها (أي العولمة) تعني فرض ثقافة واحدة على المجتمعات كافة في شتى بقاع الأرض.

وتتميز هذه الثقافة الجديدة بأنها ثقافة استهلاكية استبدلت فيها أخلاقيات المنافع والأرباح أخلاقيات الأنبياء. إنها ثقافة نزعات مادية وفردية واستهلاكية وعلمانية وعصرانية. ومن الطبيعي أن يرفض الناس الذين يهمهم معتقدتهم الديني وممارساتهم الدينية، هذه الثقافة ويحاربوها إذا اقتضى الأمر ذلك.

ويتجلى خطر العولمة الثقافية على الشعوب الإسلامية بوضوح في فلسفتها القائمة على النزعة المادية العلمانية والفردية الضالّة. وبينما لا تعترف المادية العلمانية بأي وجود خارج نطاق هذا العالم المادي، فإن الفردية ترفض رفضاً قاطعاً السلطة الإلهية مهما كان شكلها، الأمر الذي قد يقيد حرية المرء في العمل الذي يريد. وينظر مبدأ الفردية إلى الإنسان على أنه فرد عصامي يكون ذاته بذاته

مستقلّ تمام الاستقلال ولا يدين بالكثير أو لا يدين بشيء أبداً للآخرين أو للمجتمع. وتقف هذه الفلسفة على طرفي نقيض مع مبدأ التوحيد. ومع أنه قد يكون هناك بعض المزايا للعولمة بوصفها نظاماً سياسياً واقتصادياً للتطور الإنساني، ولاسيما في ميادين النقل والاتصال وتكنولوجيا المعلومات، إلا أنها تشكل تهديداً وشيكاً للحياة الاجتماعية الثقافية لغالبية سكان العالم. ويتجلى هذا التهديد بأوضح صورة في استخدام وسائل التسلية الضخمة وأجهزة الاتصال الهائلة من أجل إضفاء الكمال وتمجيد بعض من الممارسات المؤذية والأخلاقية في الغرب مثل ممارسة الجنس قبل الزواج والشذوذ الجنسي والاستهلاك غير المقيد للمشروبات الكحولية. وكما سبق ذكره فإن القوى العالمية ممثلة في هيئة الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ما فتئت تستغلّ العولمة في فرض وجهات نظرها على البلدان الصغيرة، وعادةً فإنّ القرارات تتخذ وتم الموافقة عليها في الأمم المتحدة والهيئات الدولية ذات العلاقة لإرغام البلدان الصغيرة على تغيير التشريعات المحلية التي تتصل بالتقاليد مثل تعدد الزوجات والميراث وختان الإناث وغير ذلك. وقد بلغ هذا التهديد الموجه للثقافة الإسلامية والتقاليد الإسلامية درجة من الخطورة لا يمكن السماح له معها بالهيمنة.

ويكمن خطر الثقافة الجديدة للعولمة في فلسفتها المادية وإفراطها في استخدام تكنولوجيا المعلومات بهدف التأثير على رأي عام علمي معروف بسعة الاطلاع والاستقلالية، ويمكن محلاظة ذلك في افتقارها إلى الإيمان، ونزعتها المادية وطبيعتها الانتقائية وهيمنتها الفكرية واتجاهات العدواني وموقفها التمييزي بالنسبة للثقافات الأخرى. وكما ورد في تقرير البرنامج التنموي للأمم المتحدة فإنه لا يوجد تأثير يذكر ولا صوت ذو شأن للبلدان والشعوب الفقيرة في منتديات هذه

الأيام التي تصنع القرارات العالمية. وأكثر الدول أهمية وتأثيراً هي مجموعة السبعة G7 التي يتحكم أعضاؤها بمؤسسات برتن وودز (Bretton Woods) من خلال حق التصويت وبمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عن طريق انشغال ثلاثة مقاعد فيه للدول دائمة العضوية^(١٨).

وفي تقرير نشرته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة تحت عنوان «تنوعنا الخلاق (Our Creative Diversity) الصادر عام ١٩٩٤م جاء مايلي:

ثمّة خطر محتمل في انتشار هذه الثقافة الجماهيرية الشعبية (العولمة) يتمثل في الحجم والمدى اللذين تبلغهما اتصالات وسائل الإعلام وتسيطر على ما يتم نشره وإذاعته وبذلك تضيع أذواق الأقليات ومصالحها^(١٩).

وقد أدت هذه الثقافة المادية إلى جانب وسائل الإعلام والتحضير والتصنيع إلى تفكك نسيج الريف والقضاء على نظم الأسر الممتدة وتهميش ملايين الأشخاص. كما أنها تنحو نحو استبعاد الفقراء من التنمية الاقتصادية. ويقول عامر الربيعي مانصه:

(تعمل السرعة غير العادية التي تنتقل فيها تكنولوجيا المعلومات على تقويض قدرة الدول القومية في ممارسة أية سيطرة على قيام مجتمعات تلك الدول بوظائفها)^(٢٠).

إنّ تكنولوجيا المعلومات تحطم جميع الحواجز وتنقص الحدود القومية من أطرافها، وتخرق خصوصية الناس وتسلل إلى عقولهم وتتحكم في أذواقهم وتربك إحساسهم بالأولويات. إنها أسوأ استعمار فكري شهده التاريخ البشري. كما أنها تخلق ثقافات جديدة وتطور قواعد جديدة للسلوك الاجتماعي والقيم الاجتماعية ولاسيما عقول الناشئة والفئات غير المتعلمة التي تكون أكثر استعداداً للتأثر بالدعايات. وربما كان خلق فجوة الأجيال واحداً من أخطر آثار

هذه الثقافة. حيث أنها تفصل بين الآباء الذين يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بنظرة الإسلام للعالم من ناحية وأبنائهم الذين لا يكادون يعرفون شيئاً عن الإسلام ولا يكتنون أي احترام للتقاليد. والعولمة عملية متحركة في جميع مظاهر الحياة الإنسانية وتقوم على فلسفة علّمنة المجتمع وعصرنته (تدمير القيم التقليدية). ويتمثل هدفها الرئيس في تقليص المعتقدات والممارسات الدينية إلى حدودها الدنيا والقضاء على التقاليد الثقافية والعادات الاجتماعية كما تحطّ من شأن القيم الأخلاقية، مؤدية بذلك إلى إصابة المجتمع الإسلامي بالعجز وهو المجتمع الذي يزخر بالطاقات والإمكانات الكامنة.

وتتمثل الميزة الرئيسة لثقافة العولمة الجديدة كما سبقت الإشارة إليه في النزعات المادية والعلمانية والفردية. ويتجلّى الخطر هنا في أنّ العناصر الغربية لهذه الثقافة تفرض فرضاً على الناس عن طريق وسائل وأساليب إعلامية وتقنيات اتصّل متقدمة، ابتداءً من صناعة وسائل التسلية مروراً بالحاسوب والإنترنت والأفلام وأشرطة الفيديو وشبكات التلفزيون والموسيقى والأغاني الشبابية الصاخبة وأفلام الكرتون وإنتاج السلع الاستهلاكية (سقط المتاع)، وطرق الإعلان المثيرة إن لم نقل الاستفزازية. وقد تمّ إبراز هذه العناصر بوضوح في مقالة الربيعي التي سبق الاستشهاد بها.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ العناصر المكوّنة لهذه الثقافة الجديدة تمثل نظرة الغرب إلى العالم، الأمر الذي من شأنه أن يؤثر بالطبع على موقف الفرد تجاه الحياة كما يتجلّى ذلك في أسلوب الحياة واللباس وعادات الأكل والمواقف إزاء الناحية الجنسية، ومفهوم الزواج، والطلاق، والإجهاض وتعاطي المخدرات ومعاورة الخمر وجميع ضروب المتعة الجسدية المودّية إلى أنواع السلوك اللاأخلاقية^(١١).

ولمّا كانت هذه الثقافة الجديدة تقوم على فلسفة ذات نزعة ماديّة علمانيّة، فإنها لا تستطيع أن تتقبّل أو تتحمّل أية ثقافة أخرى تقوم نظرتها إلى العالم على الدين - أي على الإيمان بالله بوصفه خالق الكون والاعتقاد بوجود حقائق ماورائية تتجاوز هذا العالم الظاهر للعيان. وفي الثقافة الجديدة نجد أنّ الإنسان - وليس الله - هو سيد الكون. ولذا فإنه لا حاجة للمرء لأي هدى الملهم إلا ما هداه إليه تفكيره العقلاني. وينبغي أن يكون الإنسان حراً في عمل ما يريد عمله. هذا هو ما يصفونه بالحرية وحقوق الإنسان أي أن يفعل المرء ما يشاء وليس بالضرورة ما هو صواب.

وباستطاعة المرء هنا بسهولة أن يرى الفهم والتصور الخاطيء للحرية ذاتها. إذ يوجد هنا خلط بين حرية الاختيار التي هي المنبع الحقيقي للسعادة من ناحية، وحرية التصرف على غير هدى ملائم وسليم. فعندما تتم ممارسة حرية الاختيار بالصورة المناسبة، لا بدّ وأن يقود خيار المرء إلى الخير والسعادة وليس إلى الشر والشقاء. وفي الثقافة الجديدة فإنّ الحرية لا تؤدي في العادة إلى سعادة البشر كلهم بل إلى سعادة عابرة للقلّة وللبؤس دائم للأكثرية. ومعنى ذلك أنّ حرية من هذا القبيل ليست حرية أبداً؛ بل هي افتقار إلى حرية الاختيار نابعة من همينة فكريّة علميّة، وهي الصفة الرئيسة التي تتسم بها العولمة الثقافيّة كما بيّن الأستاذ الدكتور العظّاس بحق^(٣٣). وواقع الأمر أنّ حرية معاقرة الخمر التي ربما تؤدي إلى الإدمان على المسكرات، وحرية ممارسة الشذوذ الجنسي والبغاء التي قد تتمخض عن الأمراض التناسليّة، كما أنّ حرية المقامرة التي تقود في العادة إلى خسارة الأموال وحرية التعاطي بالربا التي تكون عاقبتها الإفلاس في العادة، ليست هذه كلها من الحرية في شيء. إذ لا يودّ أحد أن يكون مدمن خمر ولا أن يكون مصاباً بمرض نقص المناعة المعروف بالإيدز، ولا يرغب في أن يسلب نقوده ولا أن

تُحقّق مدخراته التي قضى حياته في تجميعها. لقد أخفق المجتمع الغربي في التمييز والتفرقة بين الحرية وإطلاق الحبل على الغارب. فالحرية تمثل حق الاختيار بين الأمور التي أحلّها الله، بينما يعني الانفلات ممارسة الحق في اختيار أي شيء مهما كان نوعه سواء كان حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً، عدلاً أو جوراً.

ولا مراءى في أنّ من شأن هذه النوازل التي تعزى إلى ما يسمّى الحرّيات أن تحدث أثرها في أولئك الذين يسيئون الاختيار إمّا بدافع الجهل أو الحرمان من حرية الاختيار. وبخلاف مفهوم الله كما تراه الفلسفة الأرسطوطالية^(٣٣)؛ فإنّ الله في الإسلام هو الخلق الكون ورازقه. ويشارك في كل مظهر من مظاهر هذا الخلق وإفناء جميع الكائنات وإعادة خلقها بما في ذلك الحياة البشرية. والواقع أنّ الله يخلق العالم الماديّ ويُفنيه ويعيده خلقاً جديداً في كل الأحوال والظروف^(٣٤). وتؤكد نظرة الإسلام إلى العالم على الإيمان بالنبوة على أنها السبيل الذي يتصل الله من خلاله بالإنسان الذي هو خليفته في الأرض. إنّ هذا الاعتقاد والممارسة الدينية هي ما يميّز الثقافة الإسلامية التي تحاول العولمة الثقافية القضاء عليها من خلال تكنولوجيا الإعلام والاتصال وعدد غفير من الطرائق المتطورة القائمة على الفلسفة المادية للحياة.

وقد ألحنا فيما سلف من مناقشة إلى الحقيقة التي مؤداها أنّ المنتجات الغربية الثقافية تحدث تأثيراً كبيراً في أنماط حياة الناس ومواقفهم تجاه ثقافتهم الخاصة. ولا مشاجرة في أنّ إمكانية الوصول على نطاق واسع لتكنولوجيا الإعلام والاتصال مكّنت الأمم الغربية من تصدير - فلسفتها العلمانية إلى البلدان (النامية) وبخاصة الأقطار الإسلامية منها. فثمة أفكار مثل الحداثة والنزعة الاستهلاكية والفردية والتصوّر الغربي لحقوق الإنسان والحرية، وجدت سبيلها إلى عقول الناس بصرف النظر عن الأثر السلبي الذي قد تحدثه هذه المفاهيم في

المجتمعات التي سبق أن اتخذت النظرة الإسلامية إلى العالم سبيلاً. أما وقد وضعنا ذلك نصب أعيننا، فلنتنقل الآن إلى مناقشة العولمة على الأمة الإسلامية.

أثر العولمة في الأمة الإسلامية

يكمن خطر الثقافة الجديدة للعولمة في حقيقة أنّ خصائصها الأساسية تقوم على اختيار فعل أشياء يمكن أن تلحق أبلغ الأذى بالحياة الإنسانية؛ إمّا نتيجة فعل متعمد أو بمجرد المصادفة نتيجة للافتقار إلى المعرفة والهداية السليمين الآتين من لدن سلطة عليا وهي الله (عن طريق القرآن الكريم) ثم النبي (صلى الله عليه وسلم). ودون الدين أو الهداية الربانية فإنّ من شأن الإنسان أن يبقى عاجزاً عن ممارسة مشيئته الحرة الحقيقية في اختيار ما هو صحيح وخير. وحسب نظرة الإسلام إلى العالم والمعرفة الحقّة والصحيحة فإنّ الهدى هبة من الله. وكما جاء في القرآن الكريم فإنّ الله (يؤي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)^(٢٥). أمّا الثقافة الجديدة التي جاءت بها العولمة فترفض دور الدين في تكوين الثقافة. إنّها تنفي إنتاج ثقافة علمانية لن يكون للدين فيها دور يقوم به، وهو الدين السماوي الذي اختاره الله فأتقنه، وهو سبحانه خالق الإنسان وأفضل من يعرف ما هو الأفضل لهذا الإنسان. وينص القرآن صراحةً على أنّ الإسلام هو الدين الذي اختاره الله^(٢٦)، وأنّ لا إكراه في الدين^(٢٧)، وأنّ ذلك الدين قد أكمله الله وأتمّ نعمته به^(٢٨).

ولهذا السبب فإنه ليس بالإمكان أن نستبدل الثقافة الإسلامية التي تستمد محتواها من الدين بثقافة تابعة من المادّية العلمانية. ولما كان الإسلام ديناً للكافة فإنّ الثقافة أيضاً لا بدّ وأن تكون كذلك، إنها تحترم الثقافات الأخرى وتوسعها وتثريها ضمن إطار التوحيد. وقد مكّن انتشار الإسلام، ليطل إفريقيا وآسيا

وأوروبا، الناس على اختلاف ثقافتهم من تقاسم المعرفة والتمتع بضروب التنوع الثقافي والعيش إخواناً في الإنسانية. ومن الصحيح إلى حدّ بعيد أن التنوع الثقافي أمر ضروري لضمان مستقبل دائم للجنس البشري. إنَّها حرية الاختيار في الإسلام التي تمثّل مصدر الثقافة، أي أنه لا يجوز فرض ثقافة معينة بالقوّة على ثقافات أخرى، كما هو الحال في الثقافة الجديدة للعولمة. ولنستشهد مرّة أخرى بقول الربيعي:

(على المسلمين حماية المؤسسات (التقاليد) الثقافية ببذل الجهود في الحدّ من آثار الاتجاهات العلمانيّة الغربيّة التي تقوم التقنيات الحديثة بنشرها وتعميمها. وهناك قدر لا يستهان به من الأدبيات التي تظهر على صفحات الشبكات في وسائل الإعلام تمثّل انتهاكاً للتوجيهات الإسلاميّة أو التعاليم الإسلاميّة)^(٢٩).

وقد ثبت أن العولمة سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية هي نتاج للتقدّم في تكنولوجيا المعلومات التي تتحرّك متعجّلة وتخرق المجتمعات بقدر من السرعة لا تستطيع معه البلدان النامية السيطرة عليها أو على الأقلّ الحيلولة دون نقل أفكارها الخطرة إلى داخل مجتمعاتها.

وفي العادة فإنّ إعلاماً من هذا القبيل يتخطى السلطات ويصل إلى الناس بوسائل شتى مثل التلفزيون والإذاعة والأقمار الصناعيّة وغير ذلك من الوسائل الإلكترونيّة التي يطالها بصفة خاصّة صغار الناشئة والكبار الذين لم يؤثروا حظاً من الثقافة والتعليم. ومن خلال تحطيم الحواجز والتغلغل في أعماق عقول الناس، يمكن أن تسهم تكنولوجيا المعلومات في تحسين الاتصال بين الناس وتكشف عن محنة أولئك الذين خلق بهم القمع أو تمّ إنكار حقوقهم الإنسانيّة الأساسيّة، لكنها لن تساعد في تحسين الظروف الاقتصاديّة الاجتماعيّة للفقراء. وعلى العكس من ذلك فإنّ التكنولوجيا الحديثة للعولمة وسيلة لزيادة ثراء

الأثرياء موسعة بذلك من الهوة بين الموسرين والفقراء بحيث يصبح الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقراً. ويتربع هذا التفاوت المتزايد في توزيع الثروة تجديداً على قمة أجندة العولمة كما تطرحها البلدان الصناعية. ومن الجلي أنه إذا أريد لمن (لا يملكون) أن يحصلوا على نصيب عادل، فإنّ (الذين يملكون) لابد وأن يخسروا. وتعدّ العولمة بأمل عراض للقلّة ومستقبل قائم للأكثرية من بني الإنسان. وهو مستقبل لن يتيسر فيها لسواد الناس حظ أوفر من أن يكونوا أتباعاً للشركات الجبّارة متعددة الجنسيات. وللتغيير السريع في تكنولوجيا المعلومات تأثير سلبي على الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية للأمم الفقيرة^(٣٠)، ولاسيما المسلمين الذين جرى غزو نظرتهم الإسلامية إلى العالم في محاولة لعلمتها.

ويتمثل خطر العولمة الثقافية في أنّ العولمة نفسها شكل آخر من أشكال الاستعمار الذي يتخطى الجانب المادي من الحياة إلى لبّ الحياة ذاتها أي إلى العقل البشري والنفس الإنسانية. إنّ العولمة تستهوي الشهوات بقوة كما تثير الرغبات الجسدية والرغبات الشيقة الجائعة. وتستهدف كل فرد في المجتمع سواء كان ذكراً أو أنثى، طفلاً أو راشداً، متعلماً أو غير متعلّم، بريئاً أو مجرمًا، غنياً أو فقيراً. إنّ أدواتها القويّة في الاتصال وطرائقها المتطورة في نقل الأخبار وبثّ الأفكار عبر الحدود الوطنية والحواجز المادية، توفّر مجالاً سهلاً ومباشراً للوصول إلى العقول البشرية عبّر الطيف الاجتماعي بأسره. أما ما يجعلها جذابة للإنسان الحديث فهو مقاربتها التحرريّة للحياة. فليس ثمة من قيود على ما يستطيع المرء فعله (التحرريّة أو الليبراليّة) ، ولا من حدود لما يتمكن المرء من قوله (حريّة التعبير)، ولا من تجديد لما يقدر المرء على استهلاكه (النزعة الاستهلاكيّة) ولا من قيد على ما في وسع الإنسان أن يحوزه (الربا والميسر).

وبناءً على كون الإنسان سيّد مصيره وكائناً علمانياً، فإنه لا بدّ لهذا الإنسان من أن يتمتع بحريّة وضع القوانين وتغيير القيم والقضاء على التقاليد الاجتماعية، واختراع الثقافة وتأديب الطبيعة وإعادة ترتيب النظام الطبيعي في الكون لا لشيء إلا لإرضاء احتياجاته وتلبي مطالب نفسه الحيوانية الأمانة بالسوء. ولا بدّ من أن نشير هنا إلى أنّ احتياجات الإنسان يمكن أن تتغيّر وتختلف من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل. وقد لا يمكن بالضرورة التوفيق بينها وبين احتياجات الآخرين. ويعمل الدين من جانبه على تزويد الإنسان بوسائل أفضل للحصول على معرفة حقيقية لليقين، وأفضل الطرق هو تطبيق المعرفة تطبيقاً سليماً. وقد سبق أن بيّنا في هذه الورقة أنّ استعمال الحكمة يؤدّي باستمرار إلى إقامة العدل الذي يمثل الأساس الرطيد لمجتمع منظم حيث يمكن أن يخيّم السلام حيثما المجال لتحقيق التقدّم والتطوّر من أجل فائدة الجميع بصرف النظر عن العنصر أو الثروة أو المكانة الاجتماعية. أمّا الثقافة الجديدة فتتناقض بصورة تامّة مع ذلك.

والعولمة الثقافية فلسفة تستعين بالفلسفة المادية العلمانية (فلهم هو اللحظة العاجلة)^(٣١). وهي لا تعترف بحقيقة مطلقة أو بواقع ميتافيزيقي. والدين والثقافة عندها من صنع الإنسان، ومن هنا فإنّ حرية الإنسان في تغييرهما وفق مشيئته ستؤدي دائماً إلى تغيير نحو الأسوأ. وينظر إلى حرية الإنسان على أنها حقّه في استخدام جسده وثروته دون أيّ ضوابط أخلاقية أو حدود ترسمها قواعد الأخلاق بالطريقة التي يملكها الدين الإسلامي. وكتنتاج لهذه المادية العلمانية فإنّ الثقافة الجديدة تنادي بالعلمنة وإكساب الحياة طابعاً عصرياً. وينظري ذلك على تغيير مستمر وإعادة صياغة متواصلة للقواعد الاجتماعية والسلوك الإنساني. ولذا فإنّ الخصائص الرئيسة لهذه الثقافة هي العلمانية والحداثة والفلسفة المادية والفردية والاستهلاكية. وقد تساعد هذه المظاهر في دفع التنمية إلى الأمام في البلدان الغنيّة

الصناعية لكنها لا تجدي في هذا المجال في البلدان الفقيرة حيث تميل العلمانية إلى تحرير العقل البشري من الإيمان بالله لكنها تخفق في تقديم بديل لإطفاء غليل التعطش الروحي.

وتنادي الثقافة الجديدة بالفردية والتحررية دون ضمان حرية الإنسان في اختيار ما هو مناسب وخير له. أما بالنسبة للنزعة الاستهلاكية فإنها تزيد من حدة شهية الإنسان النزاعة إلى الاستهلاك دون أن توفر سلماً استهلاكية كافية في المجتمعات الفقيرة التي لا يكاد الناس يقدرون فيها على نفقات ضروريات الحياة اليومية على أية حال.

وتعني الحداثة بالضرورة تغيير كل شيء في المجتمع بما في ذلك الدين واللغة والتقاليد والقيم الأخلاقية والعادات الاجتماعية التي تمثل هوية الإنسان وشخصيته الفردية. ويؤدي هذا بدوره إلى فقدان اتصاله بمحيطه أي الثقافة التي يصنعها ويطورها من أجل خيره بالذات.

وحسب تقرير البنك الدولي لعام ١٩٩٨م فإن التطور الاجتماعي الاقتصادي في المجتمع الإنساني يبدأ بالتعليم قبل كل شيء. ويجب أن يأتي اكتساب المعرفة (المعرفة الصحيحة في الإسلام) قبل إنشاء المصانع ونقل التكنولوجيا والتصنيع وإنتاج السلع الرأسمالية وتكديسها وغير ذلك. وتعتبر هذه حجارة البناء في صرح العولمة. أما في الإسلام فيعني التعليم أكثر من مجرد تلقين الإنسان كيف يقهر الطبيعة وينتج الثروة المادية ويكديسها. وتعطى الأولوية في التربية الإسلامية لتنمية الوعي الإنساني من خلال تدريب صارم لحواسه الداخلية من أجل مساعدته على اكتساب المعرفة السليمة بالله والتحلّي بفهم أفضل لصحائف كتاب الطبيعة (آيات الله) كما هو مبين بوضوح في القرآن الكريم.

ولا يمكن للإنسان أن يقوم بواجبه كخليفة لله في الكون إلا عن طريق معرفة صحيحة بالله ومخلوقاته. وتعني المعرفة الصحيحة معرفة اليقين الذي يتمكن الإنسان عن طريقه من التعرف على المكان الصحيح للأشياء في نظام المخلوقات. بما في ذلك الإنسان نفسه. ويعتبر الجهل أو العجز عن معرفة المكان الصحيح للأشياء في نظام المخلوقات، السبب الأهم في إخفاق الإنسان في إقامة العدالة الاجتماعية وإدامتها في مجتمع إنساني يمكن للناس أن يعيشوا فيه بسلام وأمن ووثام، وهي أمور تعدّ عناصر أساسية في النمو الاجتماعي الاقتصادي والتنمية المستدامة. أمّا فصم روابط الإنسان مع خالقه فيعني تحويله إلى مخلوق مطواع لاحول له ولا طول.

العولمة عملاً وفلسفة

ينبغي أن يكون هناك تمييز واضح بين العولمة بمعنى العمل على عولمة الناس أو الأشياء Globalization والعولمة كمبدأ وفلسفة Globalism. بينما تعني الأخيرة تطابقاً مع الفلسفة العالمية أو الشمولية Universalism التي تميّز الإسلام فإنّ الأولى تمثل فلسفة مادية تُسَمِّم بها المادّية العلمانيّة الغربيّة. وكما بيّن علي المزروعى مصيباً في مقالته التي سبق الحديث عنها، فقد تجلّت عالميّة الإسلام في عدد من طقوسه أو أركانه مثل صيام شهر رمضان وأداء الصلاة مع التوجّه إلى جهة واحدة هي الكعبة. وفي الحج حيث التجمّع في مكان واحد وتبليغ الدعوة دون إكراه. والحقيقة أنّ النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم)، وقد أرسله الله رحمة للعالمين كافة، هو أفضل تجلّيات الطابع العالمي للإسلام. ولذا فإنّ من الواجب عدم الخلط بين العولمة كفلسفة Globalism والعولمة بمعنى إكساب الطابع العالمي للآخرين Globalization، وهي فعاليّة تنطوي على

عمليات صارمة من التغيير الاجتماعي والتحول الثقافي بهدف إعادة بناء المجتمع الإنساني ليتخذ شكلاً جديداً خالياً من القيم والممارسات الأخلاقية والتقليدية والدينية. وبوصفها فعالية أو نشاطاً فإنّ العولمة تتجه إلى غرس تعاليم في العقول وإملاء تغييرات في الخصائص الأساسية للأمم النامية.

ومن هنا تأتي جهود الدول الكبرى متضافرة لإرغام البلدان الأصغر على تغيير القوانين، وتحرير القوانين المحلية وتعديلها لتتلاءم مع فلسفة الغرب المتعلقة بالعولمة.

ويمكن أن نشاهد ذلك في عدد من قرارات الأمم المتحدة أو الهيئات الدولية القائمة التابعة للأمم المتحدة، مثل لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ولجنة الأمم المتحدة لحقوق المرأة والطفل وغيرها. وهذه الهيئات الدولية مفوضة للعمل ككلاب حراسة تراقب سلوك الدول تجاه شعوبها بالذات؛ فتستطيع إصدار التوصيات بفرض العقوبات وتطبيقها على أية أمة أو أي قطر لا يتواءم والمعايير الغربية للسلوك في هذه الناحية.

وكما سبق تبيانه فإنّ أحد المبادئ التي تقوم عليها العولمة الثقافية يتمثل في حرية النشاطات والفعاليات البشرية: مثل حرية الكلام وحرية التعبير وحرية المعتقدات وحرية الاجتماع وحرية الحركة وحرية التملك وحرية الصحافة والحرية في الإلحاد والحرية في التغيير دون حدود. وطبقاً لهذه الفلسفة فإنّ التغيير يعني التقدم والتطور. أما الإسلام ونظرة الإسلام للعالم فلا يتعارضان مع التغيير من أجل بلوغ وضع أفضل، بيد أنّ هذا التغيير يجب أن يلبي شروطاً معينة أهمها هو التوافق مع مبدأ التوحيد، وحرية الاختيار، وحرية الاختيار في الإسلام أمر أساسي حيث جاء في القرآن الكريم أنّ لا إكراه في الدين (سورة البقرة آية / ٢٥٦). غير أنّ حرية الاختيار خاضعة بدورها لمبدأين أساسيين: (أ) القدرة على

ممارسة الحرية في الاختيار، و(ب) التمتع بالمعرفة الصحيحة للمواقع الصحيحة للأشياء في ترتيب الخليقة. ومعنى ذلك التمتع بمعرفة كيفية الاختيار والتحرر من الضغط والإكراه والتهديد والتلاعب. ويتطلب ذلك هداية خيرة تأتي من التعليم بالتأديب الذي يعني التعليم الخير.

والتعليم في الإسلام إجباري. إذ يروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». وقال في حديث آخر ما معناه: «اطلبوا العلم ولو في الصين». بيد أنه لا بد من الإشارة إلى أن الغرض من التعليم في الإسلام يتمثل في المقام الأول بغرس الخير وحسن العدالة في الناس أي تدريب الناس وتعويدهم على اكتساب المعرفة السليمة وبالتالي القدرة على معرفة المواقع المناسبة في منظومة المخلوقات. وكما سبق بيانه أيضاً فإن المعرفة هي توصل الروح الفكر إلى المقصود بلهدف من المعرفة. أما السبيل أو المصادر التي يمكن للمرء من خلالها التوصل إلى هذه المعاني فهي:

(١) الإدراك بلحواس المعروفة بلحواس الخارجية.

(٢) العقل السليم.

(٣) الخبر الصادق أي المرجع الثقة. أما المقصود بالمعنى الذي هو حجارة البناء في صرح المعرفة فيتألف من التصورات والإدراكات الحسية والفكر. وتتوقف الوظيفة الحقة لعناصر المعرفة هذه على الهداية (الإلهية) والتوفيق (فضل الله). وجاء في القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى: (من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً). ومن ثم فإنه لا مناص من أن يقوم الدين الإسلامي بأداء دور حاسم في تنمية ثقافة صحيحة سليمة وفي توجيه التغير الاجتماعي في هذا العالم الموعغل في جنونه حيث يخفق الإنسان العلماني الحديث في الاعتراف بالله على أنه خالق الكون ورازقه^(٣٢).

أما التطبيق السليم للمعرفة الصحيحة فهو أدب الحكمة وهي موهبة منحها الله (أنظر سورة البقرة - رقم ٢ - الآية ٢٦٩). ويعني الأدب هنا أيضاً الخلق. ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) كما حدّد أبو حامد الغزالي أربعة عناصر يتكوّن منها الخلق الحسن ودعاها أهمها الفضائل وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة^(٣٣). وبالتحلي بالخلق الحسن يستطيع المرء أن يكون عادلاً مع نفسه، وتجاه الله خالقه، وإزاء محيطه بمن فيه أمثاله من المخلوقات وكذلك التعاطي مع المجتمع ككل. وهذا هو ما يعنيه الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه ما معناه أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك. ويؤدي العدل بدوره إلى التناغم الاجتماعي حيث يسود السلام والأمن المؤديان إلى حالة من الاستقرار الاجتماعي الذي تصبح فيه التنمية الاجتماعية الاقتصادية أو التطور الاقتصادي من الأمور الممكنة. وتمكّن العدالة الحقّة الناس من احترام بعضهم بعضاً. والعدل هو معرفة المواقع الصحيحة للأشياء في نظام الخليقة. أما الإخفاق في ممارسة ذلك فهو الظلم الذي يقود بدوره إلى الاضطراب المدني والصراع الاجتماعي وفقدان الأمن وهي أمور تسم (أو إن شئت تصم) المجتمع الإنساني هذه الأيام^(٣٤).

ومما لاشكّ فيه أنّ الإسلام لا يمكنه قبول هذه الفلسفة المادّة العلمانيّة الضالّة التي فرضت بالقوّة على الأمم الضعيفة ولاسيما المسلمين الذين سبق أن طوّروا بنجاح تقاليد ثقافيّة ونظماً اجتماعيّة تقوم على مبدأ التوحيد والأخوة بين جميع بني الإنسان وذلك قبل زمن طويل من مجيء الحضارة الغربيّة. ولا يمكن للمسلمين كما أنه لا يحلّ لهم تأييد العولمة الثقافيّة، ونظرة إلى العالم تتغاضى عن إساءة استخدام السلوك الجنسيّ مثل الشذوذ الجنسيّ وممارسة الجنس قبل الزواج والتعصّب القوميّ الثقافيّ العدوانيّ والتمييز العنصريّ والتطهير العرقيّ

والاستغلال الاقتصادي. وتشكل هذه كلها خطراً جسيماً يهدد البقاء الإنساني برمته.

قد تعدّ العولمة ملايين الناس في شتى بقاع المعمورة بالأمن، لكنها لن تحلّ أبداً المعضلة المتمثلة فيما دعه المهاتما غاندي بالخطايا السبع القاتلة في عالم هذه الأيام وهي:

(١) الثروة بدون عمل.

(٢) الاستمتاع المفتقر إلى وازع من ضمير.

(٣) المعرفة المجردة من الأخلاق.

(٤) الأعمال من غير قواعد أخلاقية.

(٥) العلم دون تناسق.

(٦) الدين بلا تضحية.

(٧) السياسة العارية عن المبادئ.

خاتمة

في هذه الورقة محاولة لمناقشة تأثير العولمة في المجتمع الإنساني بعمامة والعالم الإسلامي بخاصة. وقد ذكرنا بوضوح أنّ تأثير العولمة في العالم مازال ينتظر التقويم الصحيح. وتمثّل هذه الورقة محاولة متواضعة لإبراز بعض نواحي هذه الهيمنة الفكرية العالمية الجديدة التي حظيت بتكريس على نطاق واسع على الصعيد العالمي من خلال تكنولوجيا المعلومات. ورد أكثر من مرّة في هذا البحث أنّ العولمة والاستعمار وجهان لعملة واحدة. أمّا الشيء الجدي في العولمة فهو الاستخدام القوي والمتطور لتكنولوجيا المعلومات من أجل السيطرة على عقول الشعوب وتغيير إحساسها بالقيم وتدعيم ثقافتها وتحويل حياتها الاجتماعية

الاقتصادية إلى نزعة مادية علمانية من خلال أشد الوسائل الدعائية والتأثير الدعائي التي شهدها العالم على الإطلاق. ويتمّ هذا الشكل عن غسل الأدمغة من خلال وسائل الإعلام والتلفزيون والسينما والموسيقى الشعبية الصاخبة وعالم الأزياء. ونتيجة لاستخدام هذه الوسائل القويّة، ومن خلال هذا الاستخدام فقد خلقت العولمة أزمة هويّة وفجوة بين الأجيال لاسيما بين شباب المسلمين في عدد كبير من البلدان الإسلاميّة. وبعبارة أخرى فإنّ العمليات العالميّة الجديدة أحدثت تأثيراً في عقول الشباب وحرفت مسارات هذه العقول مرغمة أصحابها على الافتتان بتلك الثقافة الغربيّة الفاسقة وكيل المديح لها والمشاركة فيها.

توصيات لمواجهة تحدي العولمة

- ١- تعزيز الوعي الجماهيري بالاتجاهات العالميّة الجديدة وتأثيرها المحتمل على المجتمع ويمكن تحقيق ذلك عن طريق استخدام وسائل الإعلام والندوات والمؤتمرات والمدارس.
- ٢- لا يمكن إيقاف نمو تكنولوجيا المعلومات وقوّتها ولذا لا مفرّ لنا من القيام بأمرين لحماية الإسلام من أضرار إساءة استعمالها وهما:
 - أ. أن نخلق داخل العقل الإسلامي نظرة للعالم تقاوم الآثار الضارة المحتملة في العولمة بوصفها (شبكة من الإمبراليّة الثقافيّة).
 - ب. من واجب المسلمين أنفسهم أن يتعلموا الاستخدام الفعّال لتكنولوجيا المعلومات لضمان عدم الاستخدام الخاطى لها.
- ٣- يجب إدخال النظرة الإسلاميّة للعالم كموضوع أساسي في المناهج المدرسيّة في إرجاء العالم الإسلامي كافة. وفي السعي نحو تعزيز هذه النظرة للعالم لا معدى

عن إظهار اهتمام خاص باللغة العربية وهي اللغة التي يمكن من خلالها نشر هذه النظرة للعالم بصورة أكثر فعالية.

٤- يتحتم تعليم حُسن الخلق النبوي على الحيلة العملية للنبي (صلى الله عليه وسلم) في مدارسنا ومؤسسات التعليم العالي عندنا.

٥- يتعين بذل جهد جماعي من جانب الأمة الإسلامية لتطوير قنوات المجتمع الإسلامي.

٦- ينبغي القيام بحملات نشطة من جانب الأمة ضد (المهيمنة الفكرية العالمية) التي تسم الطابع الحقيقي للعولمة و(أجندتها) الخفية. ويمكن تنفيذ هذه الحملات في الصحف والإذاعة ومحطات التلفزيون المحلية وكذلك عن طريق شبكة الإنترنت.

المراجع

- ١- العطاس، سيد محمد النقيب: مفهوم التربية في الإسلام، إطار لفلسفة تربوية إسلامية، كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية (ISTAC)، ١٩٩١م.
- ٢- العطاس، تعليق حول حجة الصديق لنور الدين الرانيري، وهو عرض للمعالم الرئيسية في التمييز بين اللاهوتيين والفلاسفة و.. وما يتعلق بذلك من مسائل، كوالالمبور، وزارة الثقافة، ١٩٨٦م.
- ٣- العطاس، الإسلام: مفهوم الدين وأساس علم الأخلاق والدروس الأخلاقية، كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية، ١٩٩٢م.
- ٤- العطاس، الإسلام والعلمانية، كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية، ١٩٩٣م.
- ٥- العطاس، الإسلام وفلسفة العلم، كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية، ١٩٨٩م والحضارة الإسلامية، ١٩٩٥م.
- ٦- البقلاني، كتاب التمهيد للقاهرة، ١٩٨٤م.
- ٧- كونغ، هانز، مبدأ أخلاقي للسياسة والاقتصاد العالميين، نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٨م.
- ٨- ماغنولو، ولتر، العولمة والحضارة ونقل اللغة والثقافة إلى مكان جديد، جامعة ديوك، ١٩٩٨م.
- ٩- مكغرو، (العولمة: التصور المفاهيمي للهدف وتحريكه) في: فهم العولمة: الدولة القومية والديموقراطية والسياسة الاقتصادية في الحقبة الجديدة، السويد، وزارة الخارجية السويدية، ١٩٨٩م.
- ١٠- مهدي، محمد (نظرية الوجود الموحدة) في مخطوط غير منشور عن مفهوم التطور الارتقائي.
- ١١- مجيد أبو ماجد في: الأحيانية الإسلامية ونقدها، لندن، شركة جورج السن، وأنوين المحدودة، دار رسكن، ١٩٥٨م.
- ١٢- المزروعى، علي، (الإسلام ونهاية التاريخ)، بحث في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية، شتاء ١٩٩٣م.
- ١٣- الربيعي عامر، العولمة وإدارة الدولة القومية أو الدولة الأمة، مجلة الإدارة INTAN، مجلد ٥، عدد ١، ٢٠٠٠م.
- ١٤- الربيعي عامر، (عصر العولمة: تطبيق على التغير المجتمعي في المجتمعات الإسلامية)، في مجلة Al-Shjara، مجلد ١، ١٩٩٨م.

- ١٥- الربيعي عامر، العولمة والعالم الإسلامي، كوالالمبور، ماليزيا، ٢٠٠٢.
- ١٦- برنامج الأمم المتحدة للإتماء، تقرير التنمية البشرية، ١٩٩٩م.
- ١٧- اليونسكو: تنوعنا الخلاق، نشرة اليونسكو، ١٩٩٨م، ١٩٩٥م.
- ١٨- وان، محمد نوروان دارود، الفلسفة التربوية والعملية لسيد محمد نقيب العتّاس، كوالالمبور، ISTAC ١٩٩٨م.

الهوامش

- ١- هانز كونغ، مبدأ أخلاقي للسياسة والاقتصاد العالمين (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٨م)، ص ١٦٠، (بالإنجليزية)
- ٢- في مقالة بعنوان العولمة والحضارة ونقل اللغة والثقافة إلى مكان جديد، تحرير فريدريك جيمسن ومايوسني، جامعة ديوك، ص ٣٢ - ٥٢، يذكر وليد د. مغنوليو ذلك على الصورة التالية تطورت العولمة السياسية التي بدأت في القرن الخامس عشر في المراحل التالية: (أ) حملات التنصير الإسبانية/ البرتغالية (ب) البعثات أو الإرساليات التحضيرية البريطانية والفرنسية والبلجيكية والهولندية لتحضير ما يسمى بأكلمة لحوم البشر لامتوحشين (ج) الحملات التي تشن برعاية أمريكية لعلمة العالم القديم غير الأوروبي وتحضيره. وجاءت هذه المرحلة الأخيرة للحلول محل بعثات التنصير الإسبانية بالإنجليزية/ البرتغالية وحملات الاستعمار البريطانية والفرنسية والهولندية.
- ٣- سيد محمد النقيب العطاس، اللقاء الإسلامي مع الحضارة الغربية الحديثة: العولمة وأزمة الهوية. ورقة غير منشورة قدمت للمؤتمر العلمي العاشر للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن، تموز (يوليو) ١٩٩٥م، ص ٣٣.
- ٤- أنظر القرآن الكريم، سورة يونس، آية ٣٣. أنظر كذلك سيد محمد نقيب العطاس في كتابه: مقدم قالى ميتافيزيقيا الإسلام. عرض للعناصر الأساسية لنظرة الإسلام للعالم، كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية ISTAC ١٩٩٥م، ص ٧٨ (بالإنجليزية).
- ٥- سيد محمد النقيب العطاس، مقدمة إلى ميتافيزيقا الإسلام: عرض للعناصر الأساسية لنظرة الإسلام للعالم، ص ٧٨.
- ٦- سيد محمد نقيب العطاس: تعليق حول حجة الصديق لنور الدين الرانيري: وهو عرض للمعالم الرئيسية في التمييز بين رجل الدين والفلاسفة وما يتعلق بذلك من مسائل كوالالمبور ١٩٨٦م، ص ٤٦١ (بالإنجليزية).
- ٧- انظر سورة المائدة، آخر الآية ٣. كذلك العطاس (مقدمة لما ورائيات الإسلام) نفس المصدر.
- ٨- سورة الحجرات/ الآية ١٣ .
- ٩- علي المزروعى: الإسلام ونهاية التاريخ، بحث في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية شتاء ١٩٩٣م، ص ٥٣٣ (بالإنجليزية).
- ١٠- سورة الذاريات، آية ٥٦ .
- ١١- سيد محمد نقيب العطاس: مفهوم التربية في الإسلام، (كوالالمبور ISTAC ١٩٩٤م) (بالإنجليزية).

- ١٢- العطاس: تعليق، مصدر سابق.
- ١٣- انظر العطاس الذي يؤكد أن اختيار ما ليس فيه خير للإنسان يعني إما الجهل أو فقدان الحرية في الاختيار. وفي كلا الحالتين لا تتوفر للإنسان المعرفة الصحيحة بالأشياء ولذلك فإنه لا يعرف مكانها الملائم في نظام المخلوقات. العطاس: الإسلام والعملانية، (كوالالمبور ISTAC ١٩٩٣)، ص ١٠٥ (بالإنجليزية).
- ١٤- العطاس: تعليق، نفس المصدر.
- ١٥- سورة يونس/ آية ٣٦.
- ١٦- سورة البقرة/ آية ١٦٤.
- ١٧- العطاس، الإسلام والعلمانية، نفس المصدر.
- ١٨- برنامج الأمم المتحدة للإتصال: تقرير التنمية البشرية ١٩٩١، (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد)، ص ١١ (بالإنجليزية).
- ١٩- منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، تنوعنا الخلاق، (باريس للنشر، اليونسكو ١٩٩٥)، ص ٢٥ (بالإنجليزية).
- ٢٠- عامر الربيعي: العولمة وإثارة الدولة القومية (الدولة الأمة)، مجلة INTAN للإدارة، مجلد ٥، عدد ١، ٢٠٠٠. انظر أيضاً أنتوني ج. مكغرو: العولمة: التصور المفاهيمي للهدف وتحريكه في: فهم العولمة: الدولة القومية والديموقراطية والسياسة الاقتصادية (السويد: وزارة الخارجية السويدية ١٩٩٨)، ص ٢٧ (بالإنجليزية).
- ٢١- انظر ص ٧ - ٨ أعلاه.
- ٢٢- العطاس، المصدر نفسه.
- ٢٣- ترى الفلسفة الأرسطوطالية أن الله هو المحرك الأول الذي لا يمكن أن ينخرط في الحركة ذاتها، بل هو في معزل عنها ولا يتأمل إلا ذاته.
- ٢٤- الياتلاني، كتاب التمهيد، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٤٤ - ٤٥؛ ماجد فخري أو مجيد فخري الأحيانية الإسلامية وانتقاداتها، الناشر جورج ألن المجدونة، رسكن هاوس، شارع المتحف، لندن (١٩٥٨)، ص ٢٢ - ٤٣، العطاس، مقدمة.
- ٢٥- البقرة/ ٢٦٩.
- ٢٦- آل عمران/ ١٩.
- ٢٧- البقرة/ ٢٥٦.
- ٢٨- المائدة/ ٣.
- ٢٩- الربيعي، نفس المصدر.
- ٣٠- عامر الربيعي، ملاحظة ٢٠.
- ٣١- العطاس، الإسلام والعلمانية، نفس المصدر.

- ٣٢- انظر أ.د. سيد محمد نقيب العطفاس، مفهوم التربية في الإسلام، مصدر سابق، ص ١٣.
وانظر أيضاً أ.د. وان محمد نور وان داود: الفلسفة التربوية والعملية لسيد محمد نقيب
العطفاس (كرالالمبور ISTAC ١٩٩٨)، ص ١٣٦. وكذلك وان داود، نفس المصدر، ص ١١٥.
انظر أيضاً محمد مهدي: نظرية الوجود الموحدة، مجلد ١، مخطوط غير منشور حول مفهوم
التطور الارتقائي.
- ٣٣- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مجلد ٣، ص ٤٧ .
- ٣٤- محمد مهدي، نفس المصدر.

الإسلام وتحديات العولمة

سعد المنصوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطيبين
الطاهرين المعصومين.

المقدمة

العولمة من المصطلحات حديثة التداول والاستعمال في علمنا المعاصر، تقترن
في الاذهان غالباً بالجانب الاقتصادي، وسوّقت بغلاف التقدم، والرقي، والرفه
الاجتماعي، وألقيت باعتبارها القدر والحتمية في طبيعة العلاقات الدولية،
والاجتماعية، في ظل التطورات التقنية، وتكنولوجيا الإنتاج.

وهي لا تقتصر على الجانب الإقتصادي في فعاليتها ونشاطاتها وأهدافها وان
كان العنصر الرئيسي في نظرية العولمة، إلا أنها تتعداه لتشمل الجوانب الأخرى
من الحياة الانسانية الثقافية والسياسية والاجتماعية. والجوانب الاخيرة يأخذ
بعضها موقع المقدمة لتحقيق المنافع الإقتصادية، وأخرى نتائج ساهمت الاخيرة في
ايجادها.

وشغل موضوع العولمة إهتمام المفكرين والسياسيين والاقتصاديين ومراكز
الدراسات واحتل مساحة كبيرة من عناية المحافل العلمية.

وللاهمية التي يحظى بها، وللآثار والنتائج التي يتعرض لها نظام الحياة اليومية
المباشرة لإنسان اليوم من تحولات ولعوامل أخرى إنقسم الباحثون بين مؤيد
ومناصر للعولمة، ومشكك بمصداقيتها ورافض.

فللناصر يعتبرها اعلى مراحل التقدم الذي أنتجه الفكر الإنساني ونهاية التاريخ، والحل الوحيد للمشاكل المعاصرة في العالم، وآخر مؤيد من نوع آخر، ويعتبرها كالقانون الطبيعي الذي لا يمكن التحكّم به ولا خيار قياله إلاّ الاستسلام.

والمشككون ينظرون الى الشعارات، والواقع، والقائمين على الدعوة، والقائدين للتجربة، فيشككون في مصداقيتهم، وحسن نواياهم، لأنهم صنعوا الاضطرابات ومستثمريها، وناشروا الفقر ومروجي الفساد وناهبوا خيرات وثروات العالم، فمتى أصبحوا يتحركون بهذا المستوى من المسؤولية إتجاه العالم؟، ومصائب العالم جعلت نتيجة عدم التزام الدول صاحبة القدرة داخل حدودها الوطنيّة. فمتى ما استقرت جيوشها يتحقق الأمن والمصالح لأخرى.

والرافض للعولمة، لقراءته لها بأنها مفردة الخطاب الإستعماري الجديد وصياغة القوى الاستكبارية التي تتحرك بإتجاه الهيمنة، وفرض قدرتها على العالم بنزعتها الاستبدادية، وشعاراتها التغيريّة، محاولة لإيجاد تحولات في نمط الحياة الإنسانيّة، في السياقات التي تساهم في تحقيق أهدافها.

فركّزت نشاطات فعاليتها بإتجاه الانسان لإفراغه من محتواه وانتمائه الحضاري، ونحو الوطن، لإفراغه من استقلال، وسيادته، وثرواته، والحيلة، من أهدافها الصحيحة.

وكان للشعوب والمجتمعات الانسانية وعي متقدم، وإحساس جلي، بخطورة الانسحاق خلف شعار العولمة، وادراك لما تؤدي اليه من شقاء وبؤس وانقسام، وساهم الوعي العالمي لأهداف العولمة بإثارة اعتراضات شملت شوارع العواصم الكبرى، أدت الى صدمات سقط خلالها جرحى وقتلى، ولم تقم منظمة التجارة

العالية اجتماعا على أي مستوى إلا وهو صرف للمتظاهرين والمعارضين واصبح هذا المنظر مألوفا في وسائل الاعلام.

والمجتمع الاسلامي، باعتباره الهدف في الاستثمار والاستغلال والهيمنة الاستكبارية لما يمتلك من مواقع جغرافية متميزة وحساسة للارتباطات البرية والمائية، والثروات الطبيعية الوفيرة، وحاجة الغرب لها لإدامة تطوره، وتقدمه وحياته اليومية، ولما تمتلكه من حضارة ونظرية متكاملة فاعلة، كل ذلك جعلنا اكثر الشعوب تعرضا للمؤامرات على جميع المستويات.

وهذا يملي علينا مسؤوليات إضافية، أحدها بإتجاه مقابلة العولمة، والثاني إتجاه البناء الداخلي للأمة على اساس مبادئها، والثالث نحو مواكبة العلوم العصرية للحصول عليها لامتلاك مقومات القدرة التي تدعم الحضارة الاسلامية المتقدمة، بالاعتماد على القدرات والطاقات الذاتية، لتفعيلها على نسق واحد بإتجاه النهوض والتحرر والعمل لإحتلال الموقع الطبيعي للأمة الاسلامية الذي يتناسب مع موقعها الحضاري وطاقاتها المعنوية وثرواتها الطبيعية، واستعداداتها الانسانية.

التمهيد

احتفظ العالم بنوع من التوازن في القوى، وحكمت فيه معادلات لإدارة الصراع السياسي والتنافس وتقسيم المنافع، وكان هذا النمط من الإستقرار النسبي سائدا على المجتمع الدولي في فترة ماتسمى بالحرب الباردة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

فلما كانت أحداث غزو الكويت من قبل النظام العراقي اقترنت بمرحلتين غاية في الاهمية والتأثير في التحولات العالمية:

الأولى : التطور التكنولوجي

شهد العالم تطوراً تكنولوجياً سريعاً وواسعاً، وسيطرت الآلة على معظم مراحل عملية الإنتاج، فكانت نتيجة ذلك، الاستغناء عن الإنسان في مراحل كثيرة من الإنتاج، وساهم ذلك في مضاعفة البطالة وحلوس الآلة محل الأيدي العاملة وانفجرت هذه الأوضاع في ظروف تشكوا فيها أكثر دول العالم من الكثافة السكانية وزيادة نسبة النمو السكاني، وضعف الموارد الاقتصادية وشيوع المشاكل العالمية التي تشمل أكثر من دولة، كالجفاف، وازدياد معدلات التأخر، والمخدرات، وتلوث البيئة، والحروب الداخلية وغيرها، فنتج عن تقسيم للعالم بين الشمال الأقلية التي تمتلك أعلى معدلات النمو الاقتصادي ووفرة الثروة وقلة السكان، وقدرة الإستثمار، وبين الجنوب الذي يمتاز بفقدان التكنولوجيا المتطورة، وانخفاض معدلات النمو الاقتصادي وضمور الثروة، وازدياد معدلات نمو السكان. ففي الشمال كانت تكنولوجيا الإنتاج قد ارتقت القمة في التطور، وأحيطت بنظام محافظ، وحظر من التسرب والتصدير، واحتكار الدول الصناعية لها، فأصبح الغرب مركز الإنتاج والتحكم والتوظيف للتكنولوجيا، وأمريكا مركز الغرب استغلت هذه الأجواء واغتنتم الفرصة للتحكم بالعالم على أساس أيديولوجي وقومي يعبر عن الأحلام الأمريكية، والغربية للسيطرة على العالم.

فعلى أساس تفاوت القدرة في الحصول على تكنولوجيا الإنتاج انقسم العالم، وقام النظام العالمي الجديد في تحديد العلاقة وكيفيةها بين دول العالم بتحكم المركز الغربي بقيادة أمريكا، فالنظام الجديد يمثل إرادة الأغنياء، ولم يقتصر النظام الجديد على الاقتصاد وإنما تمدد إلى أكثر من ذلك فطلت الثقافة والسياسة وطريقة الحياة وطبيعة العلاقات.

الثانية : انهيار الاتحاد السوفيتي

وصول غرباتشوف لأعلى سلطة في الدولة والحزب في الاتحاد السوفيتي السابق، وابتداع النظرية الإصلاحية «البروسترويكا» التي استهدفت إعادة تنظيم هيكلية الإتحاد السوفيتي - الذي تآكل من الداخل - ولم تتمكن من تحقيق أهدافها، لافتقادها للآلية المنسجمة مع الأوضاع الداخلية والعالمية في حركتها بالإتجاه الذي أريدها، وعجز غرباتشوف من إحكام قبضته عليها وتوجيهها نحو الغايات المبتغاة منها وذلك لعوامل متعددة منها الضغوط الغربية، والأوضاع الداخلية التي تعاني من تدهور على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والأوهام التي ملئت ذهن القيادة السوفيتية التي اتخذت تلك الطريقة وذلك المنهج من الإصلاحات في ظروف عالمية خطيرة وحساسة ومصرية، إنتهت بتفتت الإتحاد السوفيتي وغيابه عن ساحة الصراع الدولي، وتشخصي حلف «وارشو» والمعسكر الشرقي وأذن الواقع الجديد بظهور نظام جديد يقوم على هيمة القطب الواحد بعد ان زال التنافس القطبي الثنائي لصالح امريكا.

وفي غمرة هذه الاحداث والظروف إحتل النظام العراقي دولة الكويت، واستطاعت أمريكا من تعبئة العالم بهذا الإتجاه وتحالف أهم الدول معها في حرب تحرير الكويت، وقادت التحالف وكسبت الشرعية الدولية لقيادة عملية عسكرية وسياسية وتواجد في أكثر مناطق العالم أهمية وثروة وحساسية وتأثيراً على الاحداث والتغيرات العالمية.

فساهمت التفاعلات في العالم الجديد، والأزمات المتعاقبة والظهور والانهيار لبعض القوى المؤثرة على الساحة الدولية الى بروز ظاهرة جديدة أعطت لنفسها القيمومة والاشراف على حياة المجتمع الانساني وتعتبر نفسها نهاية التاريخ، حينئذ كانت الفرصة مواتية والأجواء مساعلة لتعبر القوة المنتصرة عن وجودها

وتقدم مشروعها العالمي. فإقترن الإعلان عن النظام العالمي الجديد بنهاية النظام العالمي القديم الذي جاء على انقاض الحرب العالمية الثانية بقيادة دول التحالف التي جعلت لنفسها امتيازات خاصة شأنها كأي منتصر في إتمام شروطه وتحقيق مصالحه، واستمر هذا النظام يحكم قبضته بمعادلة توازن القوى ذات القطبية الثنائية، الشرق والغرب، انتهى بطروف مشابهة لمرحلة النشوء في حرب الخليج الفارسي الثانية عندما أخرجت قوات التحالف الجيش العراقي من الكويت وانهيار الاتحاد السوفيتي.

وفي غياب قطبية منافسة بدأ العقل الأمريكي يطرح نظريتين.

الاولى: نهاية التاريخ

وهي فكرة ترى ان العالم يسير وفق سنة يمر من خلالها بمراحل متعددة من التطور على الصعيد الثقافي، والفكري والاقتصادي والاجتماعي والحضاري يصل العالم فيها الى نقطة النهاية يعيش العالم نمطاً واحداً من العلاقات والثقافة والمعيشة مقتدياً بالنمط الغربي والامريكي، والترويج لهذه النظرية محاولة لإضعاف الروح المعنوية للشعوب الاسلامية ووضعهم أمام أمر محتوم لا خيار لهم فيه إلا التسليم والانقياد له، وهذا جزء من برنامج الهجوم الثقافي على العالم الاسلامي.

الثانية: الصراع الحضاري

قادة الغرب وأمريكا بحاجة الى حفظ حالة التوتر والتعبئة والاستعداد للمواجهة في مجتمعاتهم، وهذا الأمر بحاجة الى إثارات من شأنها خلق العداء، والاحساس بالخطر، فعمدوا الى إثارة الصراع الحضاري بين الثقافة الشرقية الاسلامية، والثقافة الغربية المسيحية في مختلف مجالاتها، وصوّروا لهم ان الخطر

الحقيقي يكمن في الاسلام، وعلى هذا بدأت وسائل الاعلام تروج لذلك وبعض القادة صرحوا كالرئيس الامريكى جورج بوش الابن، بأنها حرب صليبية وقل رئيس اركان قوات حلف شمال الاطلسي عام ١٩٩١م: «لقد كسبنا الحرب الباردة بعد ٧٠ عاماً، ونعود مرة أخرى الى الصراع الرئيس منذ ١٣٠٠ عام إنها المواجهة مع الاسلام وليس ٧٠ عاماً ولا بد ان يكون هذا الصراع خطيراً»^(١).

ومثل هذا الطرح يوظف لتبرير مواقفهم اللإنسانية واعتداءاتهم وجرائمهم الوحشية، وتجاوزهم لمبادئهم الفكرية والايديولوجية في مايتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها من الحريات المختلفة، وتبرر المواقف المنحازة بتجاه اسرائيل والدعم الغربي للأنظمة الدكتاتورية.

فالنظريتان أعدتا لخدمة الغرب وتهديد للعالم الاسلامي، وتضعه في موقع الخاسر على الاحتمالين في ذوبانه في الحضارة الغربية أو في حالة الاصطدام. وفي المقابل تزرع الامل في نفوس مجتمعاتها وتطمئنهم بانتصار حضارتهم وسيادتها في العالم، بشرط الاستعداد للمواجهة مع الحضارة الاسلامية.

العولمة، مضمون وأهداف

العولمة: تعني فرض نهج معين ومصالح وقيم ثقافية بذاتها، وكل ماتراه القوة ذات الهيمنة أمراً نافعاً وضرورياً لمصلحتها. فالعولمة منهج عملي لاتباعه طريقة، وانما يتحرك بمرونة باتجاه المصالح التي خلقتها إرادات الدول الصناعية الكبرى، ومولتها وروّجت لها بالسلح والنار، من أجل مصالحها التي تكمن في انشاء نظام اقتصادي ودولي هرمي يتكون من قلب ومركز غني من الاقتصادات المتقدمة والمستغلة، تحيط بها حافة فقيرة، وان العولمة ستؤدي الى تركيز شديد في قوة الشركات في نطلق وعبر الحدود القومية، وان التجارة الدولية ونواحي نشاط الشركات متعددة الجنسيات ستسفر عن زيادة عدم المساواة دولياً.

فالعولمة لا تعني تعاون الجهود العالمية على مستوى الندية وإنما تعني الأحادية والسيطرة من قبل أمريكا والغرب على مصادر الثروة وفتح أسواق لمنتجاتها فالقضية المركزية للاقتصاد، ولا يتوصل إليها الا من خلال تغييرات أساسية، ولهذا إتخذت في تطبيقاتها طريقة غزو الثقافات الأخرى، ومحاولة محوها وجودا وتأثيرا وابقائها على المستوى الفلكلوري، لا تؤثر على الواقع ولا يتأثر بها أو يتفاعل معها، ثم سيطرة القوى الكبرى الغنية.

والعولمة الأمريكية التي يراد لها الهيمنة والسيادة على العالم، لا تعني تحديا حضاريا، وغلبة الحضارة الأقوى كما يحاول تصويرها الأمريكان وإنما غزوا لبلدان الثروة والمواد الخام تمارسه بلدا نالتكنولوجيا الصناعية، فهو مشروع هيمنة واستثمار على الواقع السياسي والاقتصادي من جهة تتقدمة القدرات الاعلامية الهائلة والمعقدة، وخبراتها التضليلية التي اكتسبتها خلال فترات زمنية طويلة ودراسات تخصصية، لم يكن لهذه القوى الاعلامية يمثل على مستوى الكم والكيف، وقدرة على تسخير المؤسسات الدولية وتوظيفها لإعطاء تحركها صفة الشروعية والقانونية تتطابق مع الموازين الدولية فالعولمة تسمية بديلة للاستعمار والهيمنة الشاملة على العالم.

عناصر النظام العالمي الجديد

نقصد بالعناصر، البنية أو القاعدة التي يقف عليها النظم العالمي، الذي يحمل الصفة والعنوان الدولي، وهي تعني دول الشمال التي تمثل ٢٠% من سكان العالم وتسيطر على ٨٠% من الثروة العالمية فهو استخدام في غير محله، واعطي صفة العموم تعسفا، او عدم اعترافهم بغيرهم في الوجود.

فالدول الاستكبارية تجد ان مصالحها تملئ عليها ان تتمدد الى مساحات واسعة من العالم لتوفير المواد الأولية والاسواق، فتتكلم بالصفة الدولية لتبرير توسعها،

وعليه فإن المفردات الدولية كهيئة الامم ومجلس الأمن وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والمنظمات التجارية، مؤسسات أنشأت لضمان مصالح المؤسسين والنظام العالمي لما كان أحد إبداعات تلك الدول، فهو يقوم على تلك القواعد والمؤسسات الدولية التي تمنحه الشرعية وتعاقب المتخلفين أو المعترضين باعتبارهم خرجوا على الشرعية الدولية (إضافة الدول الإستكبارية الغنية) فأصبحت المؤسسات وسائل هيمنة الاستكبار والمدافع عنه ومن أهم العناصر المؤثرة في النظام العالمي الجديد:

أ- البنك الدولي

وهو ابرز قلاع العولمة، والمساهمين الرئيسيين في رأس مال البنك هم: الولايات المتحدة، بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، اليابان. أنشأ البنك التمويل المشاريع في الدول ذات الحاجة الى التمويل المالي. لإنجاز مشاريعها العمرانية والتنموية. لكن التعامل والشروط وطريقة اعطاء القروض للدول المحتاجة لا تتناسب مع شرائط تلك الدول، اشتراط الخبراء مثلا لذلك: عندما يقدم البنك قرضا لتمويل مشروع يشترط الاستعانة بخبراء للاشراف على المشروع ومتابعة أعماله حتى النهاية، وهم غالبا من اوربا او من أمريكا، والحد الوسطي لراتب كل مستشار (٧٢٥٠) دولار وزاد بعضهم (١٣٠٠٠) دولار شهريا، ويسود الخبير بمنزل ذي مواصفات لا ترقى بالسكن، بدل مواصلات، ومكاتب، ونفقات اخرى، يصل متوسطها الشهري (٩٥٠٠) دولار، وسائق وخدمة أو اكثر وطباخ وبستاني وكلهم تصرف عليهم الدولة المقرضة^(١).

تسترد باليسار ما تدفعه باليمين

يقول مسؤول البنك الدولي «ان معظم اموالنا لا تذهب الى الجنوب (الفقير) إنما تذهب مباشرة من واشنطن الى بتسلفانيا حيث تصنع التوربينات، أو إلى فرانكفورت حيث تنتج آلات الحفر»^(٣٧).

ويذكر ان القروض التي حصلت عليها الدول الخمس كالتالي «وقد حصلت تلك الدول حتى الآن على نصف المبالغ التي انفقها البنك على مشاريعه، اما الولايات المتحدة الامريكية بالذات فقد حصلت شركاتها على ٢٤ مليار دولار من عقود عمل مع البنك، وهو المبلغ نفسه الذي ساهمت به الحكومة سواء في البنك او في وكالة التنمية الدولية.

اما بريطانيا فقد كانت أحسن حالا فقد دفعت مبلغ ٧ مليارات دولار وحصلت بالمقابل على عقود بمبلغ ١٢ مليار دولار يقوم البنك بتمويلها»^(٣٨).

اي ان هذه الدول الاكثر مساهمة، هي ذاتها التي تحصل شركاتها على أكبر عقود ممكنة من مشاريع البنك، وهي مشاريع بالاساس تهدف الى تنمية العالم الثالث ومساعدة فقراءه، ولكن عندما تسترد الدول المساهمة والغنية مادفعته مع الفوائد، وعندما يلتهم خبراءها كتلة نقدية خيالية من كل مشروع، لا ينتظر الجنوب من الشمال إلا استيراد البؤس والفقر والحرمان.

ب- المنظمات الدولية

اتخذت القوى الاستكبارية ذات النفوذ والهيمنة المنظمات الدولية واجهة شرعية لتدخلاتها في المسائل المختلفة في العالم، ووظفتها غطاء لحركتها وتنفيذ إرادتها من دون إعطائها الصفة الاستكبارية لتلبس فعاليتها الشرعية الدولية والاهداف العلية.

وتمكنت تلك الدول من تسخيرها لأنها هي التي انشأتها وفرضت إرادتها في القوانين الدولية والنظام الداخلي للمنظمات.. في أسلوب تتمكن من تحريكها بإتجاه مصالحها ويساهم في الحد من نشاطات اعداءها.

ونلاحظ النظام الدولي المعاصر يتحرك بإرادة القوى القوية في العالم ويهتم بالمسائل التي تثيرها ويحكم لصالحها ولا يتجرأ بإدانتها. والمنظمات الدولية، تشمل الحكومية وغير الحكومية، كمنظمة الأمم المتحدة وما يتفرع عنها من منظمات إقتصادية وتربوية، وانسانية. وتختلف هذه المنظمات باختلاف الهدف الذي تأسست لأجله وبطبيعة الاعضاء المتعين لها.

وتعتبر منظمة التجارة العالمية أهم مؤسسة في الترويج للنظام العالمي الجديد والتي تلاحقها الجماهير في كل الدول بالتظاهرات اينما عقدت إجتماع وعلى اي مستوى.

ج- الشركات متعددة الجنسيات

تمثل أساسا آخر مهم وفعال في هيكل النظام العالمي الجديد - العولمة الاقتصادية - تتحرك بدعم وحماية قرارات ومعاهدات ومنظمات دولية، واسناد دول الشمل سياسيا وعكسريا، وهذا يجعلها تتحرك بفاعلية مضاعفة ويمنحها قدرة النفوذ وإلغاء المنافس.

وهذه الشركات تعتمد مبدأ الربح والمنافسة الاقتصادية، وهدفها الرئيسي الفعاليات والنشاطات في المشاريع الإنتاجية والتجارية، وقد تكون لها أهداف ثانوية اخرى، ثقافية او دينية او سياسية او أمنية وتمثل بعضها واجهات لنفوذ اقتصادي وسياسي لقوى وحضارات ودول كبرى في شؤون بعض البلدان التي تتواجد فيها تلك الشركات ولهذا الشركات موقع مركزي رئيسي وفروع منتشرة

في أنحاء العالم وتتمتع بقدرة على التأثير أو الضغط على بعض الانظمة تصل احيانا الى اسقاطها، ومن هذه الشركات شركات النفط.

د- الشخصيات العلمية

يمكن اعتبار الشخصيات العلمية أو السياسية أو الدينية أو الفنية لها أثر خارج حدود بلدها، ومساهمات في إحداث تغييرات في الاوضاع والمجريات العالمية، لأن المعرفة سلطة واداة هيمنة ومن يمتلكها وادوات توزيعها وتوظيفها يمتلك قدرة وسلطة التحكم في العقول التابعة والمتأثرة به.

ولهذا يتمثل رجال العلم والسياسة الملتزمة لهذه النظرية الجديدة في طريقة الاستعمار او المتأثرة بالغرب أو المنهزمة في المواجهة للتحديات، أحد الواجهات الإعلامية للعولمة والترويج لها.

وقد استغل هؤلاء ثقة الجماهير فعمدوا الى صياغة أفكارهم واطروحاتهم الايديولوجية ومشاريعهم بشكل قادر على تحقيق التأثير في المجتمع ووظفوا قدرتهم الاقناعية لتساهم في تيسير مرور آرائهم وخلق حالة تفاعل معها عند بعض المثقفين ثم عامة المجتمع.

فالشخصيات العلمية ذات الانجلى الغربي أحد الواجهات الاعلامية في نهية الارضية لاستقبال العولمة، والمروجين لاستيرادها والسماح لممارسة نشاطاتها داخل المجتمعات الاسلامية والعالم الثالث.

ماهية العولمة أو الأمركة

العولمة لا تمثل مفهوما مجردا، وإنما هي واقع معاش، والفهم الصحيح لها من خلال واقعها الخارجي، وحركتها، وكيفية أداءها وتطبيقاتها، لأن الشعارات والتبريرات لا يمكن ان تكون دليلا على صدق المحتوى، والواقع الخارجي يكذبها.

الاسم لاتعيش مع الشعارات ولا تتفاعل معها، وانما تعيش مع الواقع الذي تراه، وتنظر الى نتائج وأثر الاقوال على حياتها.
ففهم العولمة نفتش عنه في الواقع الرسمي الأمريكي الذي يعتبر نفسه منظرا وقائدا وموجها لها.

١- الولايات المتحدة الضامن للنظام العالمي

لقد أبرزت وثيقتان للبيتاغون هذا التوجه بوضوح نذكر هذا المقطع منهما:
«الولايات المتحدة هي الضامن للنظام العالمي، لذلك يجب ان نتصرف باستقلالية في حال وقوع كارثة تتطلب رد فعل سريعا، أو عندما يصعب تجميع موقف عالمي موحد»^(٥).

٢- قلب نظمه الحكم لإرجاعها للحضيرة الأمريكية

أحد وسائل الحفاظ على النظام العالمي الانقلابات العسكرية وسيطرة عقلية الشكنة على المجتمع ليتحقق النظام العالمي «المصلحة الأمريكية» كما ذكر هذا مكتب الاستخبارات الأمريكية: «كما رأيت الولايات المتحدة أنه في الدول التي يصعب فيها التحكم في الشرطة والعسكريين بطريقة مباشرة، يجب قلب نظام الحكم، وأن يصل الى الحكم فيها نظام اكثر توددا للولايات المتحدة، وأن يوضع على رأس القمة والحكم «جيش دائم التواجد في السلطة، على طريقة «الحرس الوطني» أعوان سوموزا الذي ظل طول سنوات حكمه من المقربين للولايات المتحدة»^(٦). وهذه أحد وسائل إرجاع الدول الى الحضيرة الأمريكية.

٢- العالم الثالث عدو أمريكا

لا تفكر أمريكا كما يدعي مؤيدي العولمة، ان تكامل الاقتصادات الأقل نموا في الاقتصاد العالمي سيحقق زيادة كبيرة في معدلات نموها الاقتصادي وفي مستويات

انتاجيتها، وان المعدلات السريعة للنمو الاقتصادي سيفيد كافة السكان عندما يحى الوقت».

الأمريكان يعتبرون العالم الثالث العدو الأقوى لهم لأنه يقف أمام مصالحهم ولذلك يجوزون لأنفسهم قتلهم كما يقول ويليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي السابق: «الصراعات المحتملة قد تستوجب حرباً «متوسطة الكثافة» مع العدو الأقوى في العالم الثالث، مما يجتسم إهتماماً خاصاً، وبالأخص إذا اعتبرنا القوة احتياجاً حيوياً لفرض السيطرة على أقاليم ومناطق جديدة للحفاظ على الامكانية المفتوحة للوصول إلى الأسواق والمواد الأولية البعيدة»^(٧).

٤- القوة والامن الأمريكيين قائمان على النهب

لقد ذكر ذلك ريتشارد إجيرمان بقوله: «القوة والامن الأمريكيين يعتمدان بشكل أساسي على الحصول على المواد الأولية من العامل وبالتدخل في أسواقه الداخلية، وبالأخص في دول العالم الثالث التي يجب أن تبقى الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة»^(٨).

ولهذا دأبت الحكومات الغربية منذ عدة قرون على فتح الأسواق لمنتجاتها وتوفير المواد الخام لمصانعها، في كل أنحاء العالم، وذلك بكل وبأي وسيلة تقدر عليها، من غزو عسكري أو مكائد سياسية ومالية، ثم نسعها اليوم تعلن وبكل وقاحة ووجه مكشوف، أن على الحكومات ان ترفع يدها عن الاقتصاد

٥- السيطرة على الدول النامية

أعطت أمريكا لنفسها الحق في منع الدول من استخدام مواردها لخدمة شعوبها وقد فعلت ذلك مع رئيس الوزراء الإيراني عام ١٩٥٤ الدكتور مصلىق، واعتبر الانقلاب الذي أعاد الشاه وقضى على مصلىق فتحاً عظيماً للإدارة

الامريكية كتبت نيويورك تايمز في افتتاحيتها ١٩٥٤/٧/٦م: «على البلدان النامية الساعية للتطور، والتي تملك موارد طبيعية لا بأس بها، ان تتعظ من هذا المشل الذي تم ضربه، فإذا اتبعت من يهذي بقومية مجنونة، فان هذا سيكلفها دون شك الكثير.

ان التجربة الايرانية تبدو مقنعة لأي مصدق آخر، وتظهر له أن عليه أن يخلع نفسه من السلطة، كما أن التجربة ذاتها تحدد وتوضح لباقي القادة وتضيء لهم التصور المحدد لأولوياتنا.

امبراطورية بلا حدود

الاحلام والاطماع الامريكية في الهيمنة على العالم لا تنتهي الى نقطة معينة من خارطة الكرة الارضية، ولم يكن هذا الشره من معطيات الاحداث والتفاعلات الاخيرة من القرن العشرين، وإنما كانت قائمة منذ أن أحست بقدرتها وتأثيرها على المسار الاقتصادي والسياسي والعسكري على الساحة العالمية، وشعورها بالحاجة الى سوق بلا حدود ومنابع بلا ثمن.

وهذه الطموحات والاطماع لا تحدها سيادة الدول ومصالح الشعوب وكرامة الامم وحرقاتها، لهذا تكون حدود الامبراطورية الامريكية كل سوق، ومصدر طاقة ومعدن، ولا يأمن منها أي شعب، وبهذا تتحقق الفوضى العالمية الجديدة التي كان بعض المفكرين يحدرون منها في بداية ظهور أمريكا على الساحة الدولية كما كتبت سيمون في^(١٥). «إننا نعلم تماما ان أمركة أوروبا بعد الحرب ستصبح خطرا عظيما، ونعلم أيضا مدى ما سنخسره لو تم ذلك؛ لأن أمركة أوروبا سوف تمهد دون شك لأمركة العالم بأسره.. وحينئذ سوف تفقد الانسانية جمعاء ماضيها»^(١٦).

وتحققت نبؤة سيمون في بعد اكثر من نصف قرن وبدأت أمريكا بإظهار أهدافها ومشاريعها بعد أن أصبحت بمستوى لا تخشى الدول المنافسة، لهذا قل

ويلسون وهو يشرح الدور الذي تقوم به سلطة الدولة في تحقيق الهيمنة الأمريكية: «بما ان التجارة لا تعرف حدودا قومية، وبما أن المنتج يحتاج الى العالم ليصبح بأجمعه سوقه التجاري، فلا بد إذن من ان يسبقه علم بلاده حتى يوفر له فرصة اختراق كل الابواب المغلقة، ولا بد أن يحمي رجال الدولة الإمتيازات التي يحصل عليها رجال المال حتى ولو أدى ذلك الى تدمير سيادة الأمم التي تحاول التصدي لذلك يجب إقامة المستعمرات أو ضمها حتى لا نترك أي ركن في العالم»^(١١).

وقد طبق عقيدته هذه عندما أصبح رئيسا، فغزا المكسيك وهاييتي الدومنيكان وأعمل جنوده الذبح والقتل والدمار ليهيؤ الاجواء ويفتحوا الأسواق لرجال الاعمال الامريكيين.

أهداف العولمة

الهدف الأساسي للعولمة إقتصادي بحت، إلا أن الآثار التي أوجدتها هذه الظاهرة جعلت تفاعلاتها تتجاوز هذه الدائرة لتساهم في تغيرات جذرية على الأبعاد الأخرى غير الاقتصادية كالثقافية والسياسية والاعلامية والاخلاقية، لتجعل منها أهداف توصيلية.

وهذه الأهداف وان لم تكن الغايات النهائية إلا أنها وسيلة وطريق للهدف الاقتصادي، الذي لا يتحقق منفردا من غير تحولات على المستويات الأخرى، ولذلك جند رعاة العولمة كافة الوسائل من أجل جعل العالم ذو ملكية خاصة، جاعلا من السياسة والثقافة والاخلاق جزء من هذه الإنجاز:

العولمة السياسية

وهو المخطط الذي تطرحه الولايات المتحدة، والذي يهدف الى جعل العالم واحة سياسية تحت القيادة الأمريكية، مع وضع هامشي للأمم المتحدة.

فلهذا تتحرك أمريكا في قيادة العالم بإتجاه منافعها وعلى طريقته الخاصة في تحقيقها، وهو الني يحكيه الواقع المعاصر في طريقته الانتقائية، في تفعيل الاحداث والتعامل معها، فهي تغض النظر عن دكتاتورية واستبداد وانتهاك لحقوق الانسان هنا إذا كان النظام موالياً للنظام الدولي «أمريكا»، وتعاقب وتتسدد وتعمى كل قواها ضد نظام آخر لم ينخرط في السيلقى المرغوب، وتبرز هذه الانتقائية في مسألة التعامل مع ملف حقوق الانسان، حيث لم تصدر إدانة واحدة من المنظمات الدولية «للدولة» اللقيطة والمدللّسه عند الغرب مثل اسرائيل الغاصبة، في الوقت الذي تصدر فيه كل عام قوائم أسماء بعض الدول الاسلامية ذات الحكومات الوطنية ضمن الدول التي تنتهك حقوق الانسان.

٢- العولمة الثقافية

جعل العالم على نمط واحد في السلوك والعادات والعلاقات من دول أي اعتبار أو تقدير لثقافة الشعوب وخصوصياتها.

وعمدت أمريكا للترويج والتبليغ لثقافتها وطريقة حياتها باعتبارها النموذج الأرقى والأفضل، وتريد من العالم ان يعيش الحية الامريكية ويكون الامريكي القدوة في الحية في ملبسه ومأكله وعلاقاته الاجتماعية. وترويج هذه النظرية وتصديرها الى العالم الاسلامي يقصد منها سلب المحتوى الثقافي والهوية الاسلامية ثم سلب الارادة للتمكن من امتصاص ثروات الشعوب، لأن هيمنة القيم الثقافية الوافدة تسهم في تسويق منتجاتهم.

والمجتمع النموذجي وطريقة الحية الامريكية النموذجية، وذبوع أوهاهما، لا واقع لها فهي لم تكن الا أحد الأسباب الرئيسية لانهايار القيم الاخلاقية في عالم اليوم. الثقافة الامريكية قائمة على طريقة تكوين وبناء الولايات المتحدة الامريكية ذاتها، التي لم تعرف شيئاً من القيم الإنسانية، ولا تمتلك وحدة بناء

وتكوين سليمة كالمجتمعات الإنسانية العريقة. فهي خليط من اجناس وجنسيات مختلفة، إشتراك في عملية الاستيلاء والنهب، والقتل لسكان تلك الأرض، ثم استولت على بلادهم وأرضهم وكونوا أمريكا الحالية.

فلم تجمعهم هوية ثقافية موحدة ولا جنس موحد، ولا يوجد أثر للثقافة في تكوين المجتمع.

فدعوة المجتمعات الانسانية لتقليد النموذج الامريكى، دعوة للانسلاخ من الانسانية ونهاية انسانية الانسان و«تعض التاريخ» كما يقول روجيه غارودي.

٢- العولمة الاقتصادية

التوسع خارج الحدود الوطنية في العمليات الاقتصادية، وانتقال الرأسمالية في عملية زحف سريعة لفرض هيمنتها على المواد الخام والايدي العاملة الرخيصة والأسواق الحالية من المنافس.

وهي، استجابة لوسائل الإنتاج لوفرة انتاجها وحاجتها للأسواق ولحاجتها للمواد الخام.

واستجابة للاطماع والاهواء غير المحدودة لاصحاب رؤوس الاموال لتحقيق طموحاتهم.

وهذا الاتجاه ظهر على الساحة مع ميلاد الشركات المتعددة الجنسيات قبل عقود، لتتكامل اليوم وتصل الى نظام التجارة الحرة الذي اعترف به دولياً، «وقرر التعبير عنه مؤسسياً ضمن قوانين موضوعها: رؤوس الأموال والتجارة، والحواجز الجمركية والقاطرات المالية، وهذه القوانين يلغي مفعولها مفعول القوانين المرعية في الدول الوطنية بتحطيم الحواجز الجمركية لصالح حرية انتقال السلعة ورؤوس الاموال فيها، وذلك باشراف منظمة دولية تحمل اسم «الغات» وهي اختصار

العالمية للتجارة هي: تحرير التجارة الدولية وإزالة الحواجز الجمركية وفتح الاسواق الدولية أمام المنافسة بنحو اللبرالية الاقتصادية، وكل دولة خرجت عن إطارها ورفضت الانخراط فيها كان جزاؤها العزلة الاقتصادية، وهي أخطر انواع العقوبات التي لا تتحمل عادة.

٤- العولمة الاخلاقية

الاخلاق انعكاس عن المبادئ التي يعتقد بها الانسان والنشاطات والسلوك الانساني استجابة لمحتواه الفكري والعقائدي.

والعولمة تعتمد على العامل الاقتصادي والمنفعة، وتعتبرها المحور في حركة العلاقات الاجتماعية والدولية، وحوّلت جميع القيم الانسانية الى قيم تجارية، بما فيها الفكر والفن والوجدان.

فالذي يحدد اتجاه حركة الحيلة ويعين هدفها وطريقة التعامل في هذا الاتجاه ونحو ذلك المقصود العقل النفعي وقيم الربح والمنفعة.

فالذ انساق الإنسان مع هذه الدعوة فستقوده العولمة بناء على مبدأ البراغماتية الى التجرد من القيم الاخلاقية القائمة على اساس الحق والعدل والتكبر لإنسانيته ووجدانه وعواطفه ومبادئه ومصيره ثم ينتهي الأمر الى نهاية الروابط الاجتماعية وهبوط الانسان الى المستوى الحيواني لا يفكر إلا بالغرائز الحيوانية والاهداف النفعية الشخصية.

ولقد كان الجيل الاول للمجتمع الامريكي مثلاً لذلك عندما تحرك باستجابة للدوافع النفعية، فأباد السكان الاصليين - الهنود الحمر - للسيطرة على بلادهم فقلص عددهم من ١٠ ملايين الى ٢٠٠ ألف.

والعولمة تريد الانسان ان يقتني بالمواطن الامريكي السابق واللاحق.

العولمة والعائرية

العولمة تحوّل عالمي في رؤية كثير من المرتكزات في مجال القيم الاخلاقية والسياسة والثقافة والاقتصاد، التي كانت سائدة على المستويات الوطنية والاقليمية والدولية بين البشر، وترتكز على تحقيق أهداف ومقاصد مادية، تتعلق بسيطرة الانسان على الطبيعة لتحسين حالة العيش، وتقوم على اصالة الفرد، باعتباره محور الوجود والعمل والنشاطات، ولذلك تدعوا لإعطاء الفرد أوسع الحريات في المجالات المختلفة، واعتماد تقييم الاشياء على مبدأ المنفعة «البراغماتية»، وعلى المادية المحضة، فهي لا تعني بالغيب او القيم الاخلاقية التي لا تولد أرباح، وهذه النظرة الفردية المادية الجامدة اذا استحكمت على مجتمع فإنها تنتج الفرد الغربي المعاصر المتحلل من كل التزام، الذي خلق أغلب الحروب على الارض والامر الذي تريده القوى المهيمنة والراعية للعولمة هو: فرض نهج وطريقة معينة، وقيم ثقافية بذاتها تراها نافعة وضرورية في ضمان مصالحها وتحقيق ارادتها.

العولمة: اجتياح للثقافات الانسانية ومحاولة لمسحها من صفحة الوجود لصالح الثقافة الامريكية المنتصرة، وهذا يمثل صراع الحضارات، ومحاولة الغناء الآخر وسيادة الفوضى الامريكية التي تسميها أمريكا حضارة وتريد فرضها على العالم وتفتخر بأنها انتصرت على الثقافات الأخرى، يقول الرئيس الامريكي جورج بوش بعد حرب الخليج الفارسي الثانية: «ان مبادئنا هي التي انتصرت، واتجاهها في العالم هو الذي انتصر، وانها تريد ان تحل مشاكل العالم»^(١١).

واطلق سيلفيوبر لوسكوني في حرب الكلمات الرصاصة الاولى اذ قل: يجب ان نعي تفوق حضارتنا التي تتألف من نظام قيم منح الإنسان الازدهار في البلدان التي اعتنفته، وضمن احترام الإنسان وحقوقه السياسية والدينية، هذا الاحترام

لا يوجد بالتأكيد في البلدان الاسلامية» وأكد «ان الغرب سيستمر في التغلب على الشعوب كما فعل من قبل مع العالم الشيوعي»^(١٣).

أما العالمية، فهي تعبير عن أفق أوسع وأبعد من دائرة السياسة والاقتصاد والمنافع، تعبير عن التعدد والتنوع الثقافي الانساني، والاعتراف ببعضهم مع الاحتفاظ بتنوعاته، فهو لا يعني فرض رأي أو نوع ثقافي ولا إلغاء للآخر، وإنما الاعتراف بالتباين والادوار واحترام خصوصيات المجتمعات التي تميزها عن غيرها وهو الذي يطلق عليه حوار الحضارات والثقافات.

فالعالمية لا تعني، الاستعمار الاقتصادي والإستبداد الثقافي وعدم الاعتراف بالآخرين، وإنما تعني الإنفتاح على الثقافات والتعرف عليها وإضافة عناصر قوة من التجارب الانسانية الى تجاربنا. والعالمية في حركتها ونشاطها وفعاليتها الثقافية والاقتصادية الطبيعية لا تتعارض مع التنوع والتمايز والتنافس والتكامل، ولا تنافس بحركة طبيعية معتدلة لا تحمل روح التآمر وحب الظلم للآخرين.

والمعرفة العلمية نشاط إبداعي تمكن الغرب فيه في عصرنا من احتلال القمة، وعالية المعرفة لا تنفي المركزية وتبعية الاطراف، وهي علاقة قابلة للتحويل والتغير والتنقل بين الامم شريطة العمل الجاد وبذل الجهد المركز وفق برامج تنموية ومشاريع تثير الاستعدادات الذاتية للأمة وتفعيلها بإتجاه التكامل لتحويل الطاقات المجمدة الى قوى انتاجية وابداعية، توأكب الامم في حركتها الحضارية المتقدمة.

فما وصلت النية الإنسانية من مستوى متقدم في المجال العلمي، يمثل حركة وابداع وجهود الانسانية على طول التاريخ وتراكم لتجربتها فجميع الامم لها

مساهمة في بناء الصرح العلمي، أدت بعض الظروف المشؤومة الى الاستيلاء عليها واحتكارها وتسخيرها للتحكم بمصائر المجتمعات الأخرى. فالعولمة تختلف وتفترق عن العالمية في رؤيتها وتطبيقها وأهدافها

النظام العالمي الجديد غربي المولد والنشأة والاهداف

للغرب رؤية غير واقعية عن العالم الاسلامي، حيث تميّزة نظرتهم الرسمية بالتعالي، والعنصرية والعدائية التعسفية، ورسموا هذه الصورة على الواقع الخارجي في مرحلة الإستعمار، ولازال نهجهم بهذا المستوى وعلى هذا المنحى. وتحمل الذاكرة الاسلامية صور من القساوة والوحشية والظلم مالا يحصى او ينسى، وهذه الصور ماثلة في أذهان المسلمين من الحروب الصليبية حتى فلسطين والبوسنة وافغانستان والعراق.

فالغرب ينظر الى علنا بتعالي وكبرياء واستصغار ودونية من الناحية السلوكية واعداء باعتبارنا أمة لها رسالة واهداف وحضارة مستقلة قادرة على القيام يوماً ما لإمتلاكها عناصر القوة الذاتية، تنافسهم وتزاحم وجودهم.

ولم يطرأ تغيراً على الموقف الغربي ازاء الاسلام والمسلمين، ولا يعتبر جديداً القول بدكتاتورية الغرب واستخفافهم واحتقارهم لحقوقنا وسيادتنا لأنهم يفعلون جرائمهم على مرأى وسمع من العالم يومياً، ومازالوا يرددون مقالات اسلافهم من الصليبيين ومابعدهم في عصر الاستعمار المباشر وهامهم يشيرون الحروب ويقتلون المسلمين ويدعمون النظام الغاصب في فلسطين لكسب أكثر امتيازات ومنافع وسيطرة على مصادر الثروة في العالم الاسلامي.

فالعالم الغربي الرأسمالي بكل خلفياته الاستعمارية، واهدافه النفعية المعلنة وقيمة البراغماتية التعسفية، يسوق النظام العالمي الجديد، ويكون من نفسه

المرجعية الفكرية والسياسية والاقتصادية للعالم، ويقدم ذلك بديلاً عن القوانين الإقليمية والثقافة الوطنية للشعوب.

فتمركز النظام الجديد في الغرب وانطلاقه من عالم التنافس الذي لا يهتم إلا بالربح والخسارة، وموقفهم من المسلمين بصورة عامة، وموقف المسلمين الذي يقوم على ركام من عدم الثقة والعداء أولاً. ولأن مشاريعهم مستلهمة من مكوناتهم الثقافية ورؤيتهم العقائدية وقيمهم في الحياة التي لا تلتقي معنا في شيء ثانياً. وفي هذه الظروف يكون من السذاجة استجداء المشاريع الأجنبية والاطمئنان لقدرتها على حل مشاكلنا، لأن الحلول لا تُصنع في معامل الأعداء، ولا تنسجم إنتاجاتهم الفكرية مع عمقنا الحضاري وتركيبتنا الاجتماعية.

فالنظام العالمي الجديد، مشروع حملت به الرأسمالية الامبرالية، ووليد بعد ان انزوت الاشتراكية، فاحتل من مساحتها الكثير وورث ملكات الأم، فهو صورة لتلك الام القبيحة أجري عليها التوش في الاستديوهات فلم تزيدا الا قبْحاً. فهو لم يكن جديداً وانما القديم بصورة جديدة، أكثر تعسفاً وجشعاً وسلباً لحقوق المجتمعات الفقيرة، وأكثر قسوة وايلاماً من السابق، لأن الداء في الدواء، ولأن المشاريع التنموية والاصلاحية جعلت جزء من هذا النظام، واريده ان يكون حقيقة عالمية لا يمكن الخروج منها بلئى شكل.

الاعتماد على الذات

النظام العالمي الجديد بكل تحدياته، وتفاعلاته، والضجة الاعلامية لصالحه، وسعة هيمنته، يبقى ضيع المعامل الامبرالية التي لم تفكر يوماً بمصير الانسانية، ومبادئ الحق والعدل، ولا تنتج معاملها الفكرية الا القوالب المشيرة للحروب والفقير لتستثمرها بطريقتها الخاصة.

وهي التي جعلت من شعوبنا مختبرات لتجربة اسلحتها وتأثيرها على الانسان والحيوان والنبات.

فتأسياً على هذه الرؤية لا يمكن ان نقبل منها مشروع تدّعي انه يحقق أحلام الانسانية ويقرب الفوارق الفاحشة بين الطبقات ويجعل العالم كالقربة المصغرة. والانسانية أجمل أحلامها ان تستقر أمريكا وأمثالها داخل حدودها، لأنها تتحرك على الساحة الدولية من غير حدود لأجل المصالح الاقليمية الضيقة، فهي تردي العالم لأمريكا، ولا تعني بأبسط الحقوق الانسانية.

واحتكار التكنولوجيا المتقدمة، ومنع تصديرها، ومهاجمة الدول التي تريد الاستفادة من مصادر الطاقة الحديثة، كلها محاولة للبقاء على تفوقها التقني. فمثل هذه الحقائق لا تسمح للمرء أن يصدق ان عدوه اعدله مشروع الخلاص والتقدم والمستقبل المنشود، وهو يرى ان العائق أمام نهضة الشعوب هي المراكز الامبريالية واذنابها.

ان الامر الذي يمكن تصدقه وقبوله من هؤلاء، هو أنهم يصدرون الينا المشاريع التي تمكنهم من ثرواتها وطاقاتها وتنتهي لخدمتهم واستعبادنا فيحكم التجربة الطويلة للأمة مع المخططات الاجنبية، أصبحت الحقائق الاستعمارية واضحة، وان المشاريع التي تقدمت بها لشعوبنا ماهي الا فتات حضارتهم، وتجارب إنسانية فاشلة، فهي لا تعلجننا وإنما تزرقتنا بسموم حقدتها المعهود.

فالرهان على بناء الاوطان اعتماداً على استيراد المشاريع الاجنبية لا يحقق شيئاً، وإنما الامر الوحيد في تحقيق مستقبل متطور افضل بالاعتماد على المكونات الذاتية للأمة بالتفاعل مع القدرات والامكانيات الوطنية، وصهرها لتكوّن قالب واحد، وتحريكها باتجاه التنمية الشاملة بآليات عملية موضوعية وبطاقات محلية مستلهمة نشاطها من المقومات الذاتية للشخصية المتجسدة في الاسلام.

أما الإنصهار أو التفرج على التحولات الهائلة والعظيمة التي تطرأ على العالم وتزداد تعقيداً يوماً بعد آخر، فإنها ستنتهي بحذفنا وسحقنا. بعكس الحركة على اساس منهج ونظام يتناسب مع مكوناتنا الذاتية وقدراتنا الطبيعية وامتناننا الحضاري ننطلق منها الى عالم جديد يحمل ثوابتنا ومبادئنا وثقافتنا مصادر طاقة فاعلة، والتعاطي مع ما أنتجه الفكر والتجربة الانسانية لنضيفها الى مصادر قوتنا.

مواجهة تحديات العولمة

النظام العالمي الجديد حقيقة تحاول فرض نفسها بالقوة على الواقع العالمي، الاقتصادي، السياسي، الثقافي، وتحرك بسرعة هائلة لفرض هيمنتها بتفعيل القضايا العالمية واغلبية باتجاه أهدافها، وبدعم المؤسسات الدولية التي أصبح أكثرها واجهة شرعية لحركة الشمال، واصدار احكام جائزة ضد الجنوب، وتسيء الرأي العام العالمي لمواجهة الاخير تحت غطاء الارهاب، وحقوق الانسان والاصولية، والتطرف، وأسلحة الدمار الشامل.

فهذا الواقع المر، والازمات، وتداعي وانهيار النظام الدولي، وتجاوز القانون، وانفراط معادلة توازن القوى، وضياع الحقوق، لايمكن الاكتفاء في مواجهتها بالاستنكار والتظاهرات الجماهيرية، والخطابات وبيان آثارها التخريبية على العالم.

فهو لم يكن حدثاً طبيعياً لتتم معالجته بالوسائل والآليات الطبيعية لسياقات السياسة الدولية وأدائها المعهودة، وإنما هو مشروع السيطرة على العالم تتقدمه أمريكا بكل قواها وتعقيدها وسياقاتها واطماعها موظفة الأحداث العالمية وتداعياتها، وضعف المنافس وغياب المزاحم على ساحة الصراع، وانفرادها بالقرارات الدولية.

ويوماً بعد آخر تظهر الحقائق والآثار التي تركتها العولمة على العالم بالأرقام والوثائق، وقد صدرت تقارير عن البنك الدولي ومنظمة التنمية العالمية تشير إلى إنهيار في معدلات النمو، وتكسر الثروة عند الاغنياء، وافتقار الفقراء.

وساهمت هذه النتائج بالتشكيك بمصداقيتها، ولذلك يقولون ان «البنك الدولي هو أحد رموز العولمة في العصر الراهن، والدول الرئيسية المساهمة في البنك تسترد باليسار ماتدفعه باليمين»^(١٤).

وماهية العولمة عند قادة النظام العالمي الجديد تساوي كما يقول ريتشارد إيميرمان ان «القوة والامن الأمريكيتين يعتمدان بشكل أساسي على الحصول على المواد الأولية من العالم بالتدخل في أسواقه الداخلية، وبالأخص في دول العالم الثالث، التي يجب ان تبقىها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة»^(١٥).

وهذه الاهداف تتحقق بقيادة أمريكا للعالم لأن «الولايات المتحدة هي الضمان للنظام العالمي، ولذلك يجب ان نتصرف باستقلالية في حال وقوع كارثة تتطلب رد فعل سريعاً، او عندما يصعب تجميع موقف عالمي موحد» و«اقناع جميع المنافسين المحتملين بعدم ضرورة التطفل للعب دور عالمي أكبر من الذي يلعبونه الآن بالفعل»^(١٦).

فالنظام العالمي الجديد في الرؤية الاميركية، الوحلة السياسية تحت قيادة أمريكا، منفردة في العالم، وجعل المؤسسات الدولية على الهامش، والتعامل معها بشكل روتيني، وشارك بعض المتحدين بالحدود التي لا تؤهلهم للوصول الى مستوى المنافسة، لكسب مشروعية في العمل وعالمية في التوجه.

ففي سياقات هذا الفهم القائم على الممارسة الاميركية في دعوتها وقيادتها للنظام العالمي الجديد ابتداء من الاقصاد، وآلية تحقق المنافع، وانتهاء بانعكاساته على جوانب الحياة الأخرى، يصبح الحديث عن العولمة بشكلها النظري، الذي

يمثل الحل السحري للمشاكل العالمية، لا موقع له على ساحة الواقع الخارجي، وحديث انتقال المعلومات والتبادل الثقافي والمهني والتكنولوجي لا واقعية ولا معنى له حينما يكون التنافس قائم للحصول على أكثر أرباح وأوسع مساحة للسيطرة على الأسواق فهي تنتج بالضرورة الطرف الخاسر من الجنوب لعدم تكافؤ الفرص والوسائل للمنافسة، لاحتكار الشمال لها، فإذا كان ممنوع من وسائل المعرفة والانتاج، مستعبد ومنهوب الثروات، ومسلوب السيادة، خاوياً عاطلاً لا يمتلك الأثر الثقافي ووسائل لا تؤهله لدخول حلبة المنافسة، فلا يفكر بالمنافسة فضلاً عن كسبها لصالحه.

لأن التفاعل يساهم باستيعاب الأقوى، وعو الأضعف، ولذلك تنتفي حركة الانتقال والتطور الى الامام من أول الطريق باستيعاب واحتواء الأقوى للضعيف ليتحرك بإرادته وهي انتفاء المنافسة والابقاء عليه مستهلكاً وسوقاً لتصريف البضائع التي ينتجها الأقوى، وللحفاظ على هذه المواقع وينفس المدييات عمد الغرب بصورة عامة وأمريكا خاصة على المنهج التالي:

- ١- احتكار التكنولوجيا الحديثة ومنع تصديرها أو تعليمها.
- ٢- محاصرة الدولة التي تحاول الحصول على التكنولوجيا اعتماداً على القوى الداخلية، وإيجاد مضايقات كثيرة لمنعها، وتهمتها بالسعي لانتاج اسلحة الدمار الشامل.
- ٣- تفرغ بلدان العالم الثالث من القدرات المبدعة وكسب العقول التي يمكن ان تكون مؤثرة في الحصول على تكنولوجيا متطورة ببذل جهود علمية ومختبرية.
- ٤- إثارة الإضطرابات الداخلية وعدم الاستقرار التي من شأنها تعطيل وتجميد القوى المبدعة.

٥- اشغل بعض الدول بشراء الاسلحة نتيجة للايحاء بمخاطر محيطة بتلك الدولة فتؤدي الى خلق أزمة في منطقة من العالم، وعدم ثقة بين دول جارة، ثم تنتهي الى حركة سوق السلاح لتكون المنطقة موقعا لتصرف ما تنتجه معامل السلاح التقليدي، وهنا تأمن الدول الاستكبارية من أي اتحاد او تحالف اقتصادي او عسكري او أممي من شأنه التأثير على تواجد ومنافع القوى الاجنبية. ففي هذه الاجواء، والاشكال المتعددة من التحديات المصرية لمستقبل الأمة الإسلامية، وسياقات الأداء الرسمي، والإنسيق خلف شعارات التجديد، يجدر بالأمة قادة ومقودين ان تكون لهم مشاريع يحجم المخاطر والتهديدات التي يتعرضون لها.

ولا يتناسب الموقف اللامسؤول من الحكومات والشعوب، لأن الغفلة واللامبالاة، أو النظرة القصيرة للاحداث والاهتمام بالمصالح القريبة - تساهم في سحق الجميع، ولا تنتهي إلا باستعباد الشعوب ونهب خيراتها، والعيش على هامش الحياة، وآخر القافلة الإنسانية.

ولنح نمتلك عقيدة ومبدأ يريدنا ان نتصدر القافلة لهدايتها الى الهدى والخير والصلاح والسعادة، وهذا الهدف العظيم لا يأتي بالتواكل والأمانى، وإنما بنشاط المجتمع نشاطاً منتجاً بمستوى المنافسة العصرية، منطلق من أصالة الإنتماء والحضارة العريقة للأمة والقيم الحاكمة في تحديد طبيعة وكيفية العلاقات.

فلا يتناسب الانزواء الإجتماعي أو العيش غريباً عن الزمن ولا العيش في احضان الوافد الغريب، وإنما العمل بناءً على فهم الواقع وتحديد التحديات ونوع الأخطار، وضعف المواقع، وقبول التخلف، وتعبئة القوى، وتركيز الجهود، وتحدي التخلف الموروث، والانطلاق نحو المستقبل من قاعلة المباحث، باستيعاب قوة الحاضر ومواكبته، وتوفير شروط الانتماء اليه.

ولهذا فان التعاطي الصحيح ازاء العولمة، وتفاعلاتها وتهديداتها من جهة، ووضعنا المتدني عند الخافة، وغيب الشمروع المنافس، والتبعية المتفاقمة للدولة الضعيفة والنامية من جهة أخرى، يمليان علينا وظيفة شرعية ووطنية وتاريخية بإيجاد مشروع لدعم الاستقلال والحرية في البلاد الاسلامية يبعدها عن الاستسلام الى مسلخ العولمة ويشير فينا روح المقاومة والحفاظ على الهوية الدينية والوطنية وتوفير الوسائل التي تؤهلنا في الدخول في اطار المنافسة العصرية.

مشروع مواجهة العولمة

الجوانب المركزية في العولمة هي:

١- السياسي.

٢- الثقافي.

٣- الاقتصادي.

١- الجانب السياسي ومواجهته

وهو يشمل محورين وأنواع من الروابط التي تكون الحكومة مركزاً فيها:

أ- الروابط بين الحكومات والشعوب.

ب- روابط بين الحكومات الاسلامية والجار.

وجميع هذه الروابط وبعض العلاقات الأخرى لم يتركها الاستعمار نقطة قوة والتحام بين الشعوب والحكومات الاسلامية، وإنما عمد الى لغم كل المنطقة بمسائل يختار إثارتها في الاوقات التي يريد ما هو، كما هي موجودة بين الدول كذلك هي داخل الدولة الواحدة، أمثل الطائفية والقومية ومسألة الأقليات والاكثريات لذلك يكون مشروع المواجهة السياسية يعمل على الاتجاهات الثلاثة آنفة الذكر.

الحكومات والشعوب

العلاقة بين السلطة والشعب تتحول من مرحلة التصادم الى التفاهم. لما كانت العودة لا تعترف بالحدود الوطنية، وتضعف الحكومات، ولها القدرة على قلب وتغير الحكومات، فالسلطات تحت ضغط العودة.

ومن جانب آخر الأمة مهتدة ثقافياً وحضارياً، وهي تحس بخطور المواجهة وكثافة المؤامرات عليها، وهي بحاجة الى مقدار من الامن والحرية لصيانة نفسها من الانصهار مع الموجة الغربية. فكلا الفريقين الحكومة والامة مضطرة لإيجاد آلية للإنسجام والتعايش فيما بينهم وإلا سيتعرض كل منهما الى هزيمة أمام التحديات الخارجية، ويتحقق هذا الامر بالاجراءات التالية:

اولاً: تعيد الحكومات النظر في طريقة تعاملها مع شعوبها، والسعي لكسب ثقتهم وولائهم ويتحقق هذا الامر:

١- تفعيل القرارات المؤسساتية: وتجنب الإنفراد في الحكم على كافة المستويات، حكومة الحزب الواحد، العائلة الواحدة، المدينة الواحدة، الطائفة الواحدة..

٢- تقديم الخدمات الاضافية والسهر على مصالح المجتمع بشكل مؤثر يشعر به ابناء الأمة.

٣- اعطاء الحريات. لأنها اساس الابداع.

٤- تجنب الآراء الفردية والإرتجالية واستماع الآراء المخالفة والمختلفة واعتماد مجالس ممثلة للشعب تحتوي جميع الاطياف، واحياء ودعم المؤسسات المدنية.

- ٥- قطع السبيل التي تؤدي الى الدكتاتورية أو نموها على جميع المستويات وذلك بتشجيع الانضباط القانوني، والسلوك الملتزم، والتخطيط الدقيق للنظام الاداري وتطبيقاته، والسيطرة على الثغرات القانونية وتعدد اشكال الرقابة.
- ٦- تقريب الرؤى بين القيادات والمجتمع عن طريق العمل المشترك والتواصل الدائم.
- ٧- الاعتماد على الشعوب وقدراتها الذاتية، وتجنب الدعم الخارجي.
- ٨- تسوية الخلافات الداخلية باعتماد قانون أساسي تتعين فيه الحقوق والواجبات والاهداف، يصوب عليه المجتمع، وتكون اليه المرجعية في المسائل الخلافية.
- ٩- تقوية وتنشيط مؤسسات المجتمع المدني.
- ١٠- نشر الوعي على المستوى الاجتماعي بحقيقة التحديات مهما غلقها البعض بعبارات مثل العولمة، والشرق اوسطية، والتنمية، وان يكشف التمايز بين علمية الفكر والعلم، وعالمية التحولات والانجازات، وعالمية الهيمنة والادارة لمصلحة القوى الاستكبارية الغنية.

الحكومات الاسلامية

- ١- تصفية الخلافات القائمة بين البلدان الاسلامية كالمسائل الحدودية التي تعتبر من بؤر التوتر التي جعلها الاستعمار عند تقسيمه للبلاد الاسلامية.
- ٢- ان يكون للبلدان الاسلامية برنامج حيوي لنشر مبدأ الاخوة بين المسلمين في الشعوب الإسلامية، كقاعدة للتعايش السلمي.
- ٣- إيجاد تكتل سياسي مؤثر فلي المنظمات الدولية للدفاع عن منافع المسلمين.

- ٤- احياء مفهوم الأمة الاسلامية والعمل بلوازمه كقاعدة للدفاع المشترك.
٥- تطوير منظمة المؤتمر الاسلامي وتفعيل مؤسساتها والتزام الاعضاء بقراراتها وجعلها إلزامية.

٢- الجانب الثقافي ومواجهته

- أ- البناء العقائدي الديني بشكل علمي ونشره على مساحات واسعة من المجتمع ليغطيها.
ب- إغناء الساحة العلمية. بالبحوث ذات العلاقة بالمعاناة الانسانية المعاصرة.
ج- تطوير المناهج المدرسية لترقى الى مستوى التحديات والمواجهة والثقة بالنفس.
د- تفعيل ودعم المؤسسات الثقافية كالمدارس الدينية والمنتديات والمكتبات.
هـ- اقامة المهرجان الثقافية ودعوة الشخصيات العلمية لإلقاء المحاضرات والموضوعات الحساسة.
و- توظيف وسائل الاعلام المسموعة والمرئية لخدمة الوعي وتأکید الهوية الاسلامية والاعتماد على الذات.
ز- تقديم الدراسات الفكرية المقارنة بين الاسلام والآراء المعاصرة ذات الاتجاه المخالف للرؤى الدينية.
ح- تعبئة الجماهير الفاعلة لحمل راية النهضة الفكرية ومقاومة الافكار الواردة ذات الآثار التخريبية.
ط- توظيف الفن في العملية النوعية والتصدي لمقابلة الفن غير الهادف والمبتذل.

٢- الجانب الاقتصادي ومواجهته

- أ- تظافر الجهود العلمية لإمتلاك تكنولوجيا الانتاج لمواجهة الاحتكارات العلمية لإنتاج وتوزيع المعرفة، وتوظيفها لتنهض بمستوى المؤسسات العلمية المعاصرة.
- ب - تكثيف حالة التكتلات والتحالفات الاقتصادية، وإيجاد بؤر اقتصادية تضعف وتخفف من النفوذ الغربي وتأثيراته داخل البلدان الاسلامية.
- ج - إيجاد أسواق مشتركة بين الدول الاسلامية.
- د - منع تسرب الثروة ورؤس الاموال خارج البلدان الاسلامية وتشجيع الاستثمارات لها داخلياً، ومنع وصولها الى الغرب لتستخدم عوامل ضغط ضد البلدان الاسلامية، وانعاش الاقتصادات الضعيفة والفقيرة.
- هـ - تغيير السياسات الاقتصادية الاستهلاكية.
- و- الاستخدام الامثل للموارد الطبيعية.

الهوامش

- ١- صحيفة جمهوري اسلامي (الفارسية) بتاريخ ١٣٦٩٦/٢٥هـ ش.
- ٢- مجلة العربي، العدد: ٤٨١، ديسمبر ١٩٩٨م، ص ١٤٤.
- ٣- المصدر السابق.
- ٤- المصدر نفسه، ص ١٤١.
- ٥- لوموند ديبلوماتيك الفرنسية، ابريل ١٩٩٢ كتبها بول ماري دي لاجورس.
- ٦- مجلة ocl العدد ١٨٠٣: ٦٥ مكتب الاستخبارات الامريكية للمعلومات المتداولة ١٣ مايو.
- ٧- جريدة الامة، الاول من يونيو عام ١٩٩٠ مايكل كلير، القوات الامريكية تواجه الجنوب.
- ٨- أيجيرمان (Diplomatic History) صيف عام ١٩٩٠.
- ٩- كاتبة ومفكرة فرنسية (١٩٠٩ - ١٩٤٣).
- ١٠- امريكا طليعة الانحطاط، روجيه غاروتي، ٢١، دار الشرف / تعريب عمرو زهير.
- ١١- المصدر السابق، ص ٥٣.
- ١٢- خطاب الرئيس الامريكي جورج بوش امام الكونغرس، نقلاً عن (قراءات سياسية) العدد ٣ - ٢، ص ٣٣، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٣- اسناد العلاقات الدولية ودراسات الشرق الاوسط في جامعي كولومبيا وساره لورانس في نيويورك.
- ١٤- مجلة العربي، العدد ٤٨١، ص ١٤٠ ديسمبر ١٩٩٨م.
- ١٥- ريتشارد، صيف عام ١٩٩٠، عن امريكا طليعة الانحطاط، روجيه غاروتي: ٨٢.
- ١٦- كتبها بول ماري دي لاجورس، مدير مجلة (الدفاع القومي) في (لوموند ديبلوماتيك) الفرنسية عام ١٩٩٢م.

العالية في القرآن والسنة

أ . سعيد العذاري

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الإسلامية رسالة علمية في جميع مقوماتها: الفكرية والاجتماعية والسياسية، وهي لا تختص بشعب دون شعب ولا بطبقة دون أخرى، ولا بإقليم دون آخر، بل هي رسالة شاملة تخاطب كل الأمم وكل الشعوب وكل الطبقات، وشاملة لجميع الأجيال وفي كل البقع الجغرافية، وبها ختمت الرسائل فلا رسالة بعدها.

والرسالة الإسلامية رسالة علمية منذ انطلاقتها الأولى في مكة المكرمة، وهذا ما نلاحظه في الآيات القرآنية المباركة التي نزلت في مكة حيث تشير إلى بعثة رسول الله (ص) إلى العالم أجمع وإن كانت حركته منطلقاً من داخل مكة وموجهة إلى قريش ثم سائر القبائل، فهي علمية في نظريتها وعلمية في التطبيق العملي، ولم تتدرج في علميتها إلا من الناحية الواقعية حيث بدأت بمكة ثم بالمدينة ثم توجهت نحو ملوك فارس والروم؛ إلا أنها كانت علمية في مفاهيمها وقيمتها وفي مبادئها الفكرية والعقائدية والتشريعية.

والإيمان بالعلمية يتطلب من جميع المسلمين الانطلاق مع الأفق الأرحب للروابط والعلاقات والتعالي على الأطر الضيقة والفواصل الجزئية؛ لتكون الوحدة همماً دائماً وأملاً واحداً يسعون إلى تحقيقه في الواقع العملي ابتداءً بوحدة الموقف تجاه التحديات الاستكبارية والصهيونية، والحذر من العدو المشترك الذي

وحد صفوفه لمحاصرة الإسلام عقيدة ووجوداً وقيادة؛ لا يفرق في هذه المحاصرة بين مذهب وآخر وبين طائفة وأخرى.

والإيمان بالعلمية يتطلب الانطلاق من المحاور المشتركة الواحدة وهي وحدة العقيدة ووحدة المصالح ووحدة المصير.

وفي بحثنا هذا نسلط الأضواء على التعريف بعلمية الإسلام ومبانيها من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية.

عالمية الإسلام من منظور القرآن الكريم

علمية الإسلام حقيقة واضحة المعالم من خلال النظرة الواعية للآيات القرآنية المباركة، فهي علمية في مضمونها العقائدي والتشريعي وفي جميع مجالاتها، وهي لا تختص بجماعة أو منطقة أو شعب بل توجهت إلى جميع الجماعات وجميع البلدان وجميع الشعوب.

والرسالة الإسلامية بعلميتها حولت الشعب المختار إلى الأمة المختارة التي تضم جميع الشعوب التي تبنت الإسلام ديناً ومنهجاً في الحياة.
قال سبحانه وتعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).^(١)

والعلمية واضحة المعالم في القرآن الكريم منذ الانطلاقات الأولى لنزوله، ففي العهد المكي كانت التوجهات العلمية واضحة المعالم في السور القرآنية المباركة.
قال سبحانه وتعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً).^(٢)

أمر الله سبحانه نبينا أن يخاطب جميع الخلق من العرب والعجم، فقال: أَدْعُوكُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَاتَّبَاعِي فِيمَا أَوْدِيهِ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ (جَمِيعاً) لِلتَّأْكِيدِ وَلِيَعْلَمَ إِنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى الْكَافَّةِ.^(٣)

وفي تفسير آخر: ان عنده كمال الدين الذي به حيلة الناس الطيبة، وفي أي مكان فرضوا وفي أي زمان قدر وجودهم ... أمر نبيهم (ص) أن يعلن بنبوته الناس جميعاً من غير أن تختص بقوم دون قوم.^(٤)

وهي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، جاءت كاملة في اصولها قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً لأنه ليست هناك رسالات بعدها للأقوام والأجيل في كل مكان، وجاءت وفق الفطرة الانسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً.

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله (ص) ان يواجه برسالته الناس جميعاً، وهي آية مكية في سورة مكية، وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب الذين يزعمون ان محمداً (ص) لم يكن يدور في خلده وهو في مكة ان يمد بصره برسالته الى غير أهلها، وانه انما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب الى دعوة اهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية الى ما وراءها، كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته اليه الظروف.^(٥)

ومن الآيات المكية الدالة على عالمية الرسالة الإسلامية، قول الله سبحانه وتعالى: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً).^(٦)

وهذا النص المكّي له دلالاته على اثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى ... فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل انسانية كاملة، وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد الى عهد ومن نهج الى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فهي عالمية للعالمين والرسول يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود.^(٧)

ومن الآيات المباركة قوله سبحانه وتعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).^(٨)

ويبطل بهذا قول من قال: انه كان رسولاً الى البعض دون البعض.^(٩)

ونحو ذلك قوله سبحانه وتعالى: (ان هو إلا ذكر للعالمين).^(١٠)

أي القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس ومختلف الشعوب والأمم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم.^(١١) وتجلت العالمية بالانطلاق من المحور المشترك وهو بيت الله لتكون الهداية للجميع هداية عالمية.

وقد ورد في التفسير أنه: يهدي عالم المسلمين الى سعادتهم الدنيوية التي هي وحدة الكلمة وائتلاف الأمة وشهادة منافعهم ويهدي عالم غيرهم بايقاظهم وتنبههم الى ثمرات هذه الوحدة وائتلاف القوى المختلفة المتشعبة... انه هدى للعالمين لا لعالم وجماعة مخصوصة كآل ابراهيم او العرب او المسلمين، وذلك لما فيه من سعة الهداية.^(١٢)

وقد فسّر الإمام الخميني (رض) هذه الآية قائلاً: ان الله تبارك وتعالى دعا العالم أجمع الى الإسلام، ووضع هذا البيت للبشرية جمعاء منذ زمن البعثة والى أن يرث الله الأرض.

إنه بيت الناس، فلا يوجد شخص او فئة او طائفة أولى بالبيت من بقية الناس، وإنّ الناس قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها مكلفون باعتناق الإسلام والاجتماع في هذا البيت الذي وضع للناس وزيارته.^(١٣)

العالمية في الروابط والعلاقات الانسانية

تتجلى العالمية في أعماق صورها في الروابط والعلاقات الانسانية التي يتساوى فيها الناس جميعاً، مما يدل دلالة واضحة على أن العالمية تنسجم مع فطرة الإنسان وكيونته، وقد تطرق القرآن الكريم الى ذلك، وفيما يلي نستعرضها تباعداً.

أولاً: المساواة في غريزة التدين

الناس متساوون في غريزة التدين والتوجه نحو المطلق، وهم مجبولون بفطرتهم على الايمان بالخالق تعالى، وهم متساوون في الانتساب الى الله تعالى فهو خالقهم وخالق جميع ما في الكون.

قال سبحانه وتعالى: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله).^(١٤)
والخالق الذي يتساوون في الانتساب اليه واحد غير متعدد.
قال سبحانه وتعالى: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).^(١٥)

ثانياً: المساواة في الخصائص الانسانية

تتجلى العالمية في تساوي الناس في خصائصهم، فقد خلق الله تعالى الناس من مصدر واحد، لا فرق بينهم ولا تمييز من حيث النشأة والابتداء، حيث انهم خلقوا من سلالة من طين، وهم خلقوا من ذكر وانثى، فلا فرق بين عنصر وآخر وسلالة واخرى، فلا تمييز بين جنس وجنس، او لون ولون، قال سبحانه وتعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).^(١٦)

والناس متساوون في الضعف والمحدودية وفي كثير من الصفات والخصائص التي يشير اليها القرآن الكريم.

(يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً).^(١٧)

(وكان الانسان عجولاً).^(١٨)

(إن الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً).^(١٩)

(يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد).^(٢٠)

وعالمية الإسلام كعقيدة وشريعة ومنهج حياة تنسجم مع جميع أصناف الناس لتساويهم في الخصائص الانسانية، ولهذا كانت عالمية في جميع مقوماتها.

ثالثاً: المساواة في الحرية

الناس متساوون في الحرية، فالإنسان خلق حراً، فلا عبودية ولا استعباد ولا رق. قل سبحانه وتعالى: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله)^(٣١).

وهذه المساواة بين الإنسان وإخيه الإنسان وإن كان متميزاً عليه بالنبوة إلا أنعم جميعاً متساوون في الحرية، ومتساوون في العبودية لله، ومن هنا تتجلى عالمية الإسلام بتحريره لجميع الناس دون تمييز بين سلالة وأخرى وطبقة وأخرى.

رابعاً: المساواة في التكريم

التكريم من قبل الله تعالى للإنسان صفة ذاتية له منسجمة مع عالمية الإسلام المتعالية على جميع الأطر والأوصار الضيقة، ومن يتبع الآيات القرآنية الكريمة يجدها تحمل قيم العالمية في نظرتها للإنسان، فقد أكدت على أنه مكرم من قبل الله تعالى في جميع مجالات التكريم ومنها:

١- التقويم الحسن

(ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)^(٣٢).

٢- الاستخلاف

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(٣٣).

٣- تسخير الكون

(وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً)^(٣٤).

٤- حمل الأمانة

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن

وحملها الإنسان)^(٣٥).

خامساً: المساواة في التكليف والجزاء

المساواة في التكليف والجزاء مظهر جلي من مظاهر عالمية الرسالة الإسلامية، فالناس جميعاً متساوون في التكليف الإلهي في الحياة الدنيا ومتساوون في الجزاء من ثواب وعقاب في الدار الآخرة.

وتتجسد العالمية في تساوي الناس في التكليف حسب طاقتهم المحدودة.

قل سبحانه وتعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).^(٣١)

وقل سبحانه وتعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج).^(٣٢)

وقد جعل القرآن الكريم الحياة الدنيا قنطرة للحياة، والناس متساوون في ذلك بلا تمييز ولا فرق.

قل سبحانه وتعالى: (يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه).^(٣٣)

سادساً: المساواة في الإرادة والاختيار

خلق الله تعالى الناس وهم أحرار في إرادتهم واختيارهم، فهو تعالى منحهم العقول والغرائز ليتوصلوا من خلال الآيات والبينات إلى اتخاذ المنهج الإلهي في الحياة.

قل سبحانه وتعالى: (... إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً).^(٣٤)

والناس متساوون في هدايتهم لنجد الخير ونجد الشر، (وهديناه النجدين).

وهذه المساواة شاملة لجميع بني الإنسان، وجميع مراحل حياتهم، ومن هنا تتضح العالمية الحقيقية الممتدة في اغوار النفس الإنسانية.

سابعاً: المساواة أمام السنن الإلهية

جعل الله تعالى للحياة الإنسانية سنناً ثابتة لا تبدل ولا تتغير ولا تختلف، فجعل النتائج تستتبع المقدمات، وجعلها حاکمة على حركة الناس وهم متساوون أمامها دون فرق أو تمييز.

ومن هذه السنن سنة التغيير كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).^(٣٠)

ومن السنن التمتع بالبركات والحرمان منها (ولو أن أهل القرى آمنوا وأنفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون).^(٣١)

ومن مصاديق العالمية ان الله تعالى يتلي الناس دون تمييز أمة عن أمة وقوم عن قوم، وانهم جميعاً متساوون أمام العقوبة الإلهية ان غيروا حركة التاريخ المتوجهة نحو الكمال والسمو.

وعلى ضوء ما تقدم فإن العالمية المتجسدة بالمساواة في الخصائص الانسانية تتجسد ايضا بوحدة العقيدة والتي تنطلق منها:

- ١- وحدة العبادات.
- ٢- وحدة التشريعات.
- ٣- وحدة القيادة والحكومة.

ومن خلال ذلك تتوجه الانظار الى الأفق الأرحب الذي يحطم كل الحواجز والفواصل الفردية والاجتماعية، والفواصل النفسية بين جميع الاصناف والألوان وجميع الطبقات وجميع الوجودات لتنتقل معا في اطار الجامع المشترك وهو الدعوة العالمية والامة العالمية التي تتمتع بمواصفات الأمة الواحدة في جميع مقوماتها: الفكرية والعاطفية والسلوكية، ولهذا يبقى التفاوت بين جميع الوجودات او بتعبير آخر يبقى التقديم والتقييم قائما على أسس معينة يمكن ادخالها في مفهوم العالمية ومن هذه الأسس:

- ١- العمل الايجابي البناء.
- ٢- التقوى.
- ٣- والأهم من ذلك درجة الإيمان بالله وبالمفاهيم والقيم الصالحة.

العالمية في السنة النبوية

لم تبدأ الرسالة الإسلامية كرسالة محلية قبلية أو قومية ثم تطورت لتصبح رسالة عالمية لكل الأقوام والشعوب، بل كانت عالمية منذ انطلاقتها الأولى، فهي عالمية في مجالها التصوري والنظري، وعالية في مجالها التطبيقي، وقد كان رسول الله (ص) منذ انطلاقة الأولى يوجه الأنظار والعقول والقلوب باتجاه العالمية وإن كان يتحرك في ميدان محدود في مكة وعلى مستوى القبيلة أو العشيرة، وهذا أمر واضح ولموس من خلال متابعة السيرة المطهرة.

عن عفيف (أخو الأشعث بن قيس لأمه): كنت امرأة تلجأ فقدت منى أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرأة تلجأ فأتته ابتاع منه وأبيعه، فبينما نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي، وخرج غلام فقام يصلي معه.

فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما ندري ما هو؟

فقل: هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله وإن كنوز كسرى وقیصر ستفتح له، وهله امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمنه به.

قل عفيف: فليتنى كنت آمنت به يومئذ فكنت أكون ثانياً تابعه.^(٣٣)

ولما أتى لرسول الله (ص) بعد ذلك ثلاث سنين أنزل الله عليه: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)، فخرج رسول الله (ص) وقام على الحجر وقال: (يا معشر قريش ويا معشر العرب أدعوكم إلى عبادة الله وخلع الأنداد والأصنام، وأدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين بها لكم العجم).^(٣٤)

وفي غزوة الخندق كان رسول الله (ص) والمسلمون محاصرين من كل جانب، وفي هذه الظروف كانت الدعوة العالمية واضحة المعالم، ففي أثناء الحفر لعت تحت

المعول بركة، فسأل سلمان رسول الله (ص) فقال: أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق. (٣٢)

وفي تلك الظروف اشتد الخوف ولجم النفاق حتى قل أحد المنافقين: كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط. (٣٣)

وكان (ص) في أغلب المواضيع والمواقف يعلن عن العلية لتتجذر في العقول والقلوب، ومن ذلك قوله (ص): (وبعثت الى كل أحر وأسود). (٣٤)
وعن أبي بن كعب قل: أن رسول الله (ص) قل: (بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض). (٣٥)

وتتجلى العلية في مجالها التطبيقي الأوسع والأمثل في عهد ظهور الامام المهدي (عج) وكما جاء في بشرى رسول الله (ص) من تملكه الأرض وتحكيم المنهج الإلهي فيها.

قل رسول الله (ص): (ملك الأرض اربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران نمورد وبخت نصر وسيملكها خامس من أهل بيتي). (٣٦)

وقال (ص): (والذي بعثني بلحق بشيراً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لظول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهدي ... ويبلغ سلطان المشرق والمغرب). (٣٧)

وقال (ص): (يباع له الناس عند الركن والمقام يرد الله به الدين ويفتح له الفتوح، فلا يبقى على وجه الأرض إلا من يقول: لا إله إلا الله). (٣٨)

وكانت العلية هدفاً لحركة رسول الله (ص) ولحركة الدولة الإسلامية منذ تأسيسها في بداية الهجرة، وتمثلت بمجموعة من الممارسات والمواقف ومنها:

- ١- اعلان ميثاق المدينة.
 - ٢- اعلان المواخلة بين المهلجرين والأنصار.
 - ٣- معركة مؤتة خارج حدود الدولة.
 - ٤- معركة تبوك خارج حدود الدولة.
 - ٥- رسائل رسول الله (ص) الى الملوك.
 - ٦- بعث أسامة.
- وهناك ممارسات تربوية وتوجيهية لتجذير مفهوم العالمية في العقول والقلوب، وتوجيه الأنظار نحو الأفق الأرحب للعلاقات ومنها:
- ١- احياء مفهوم الاخوة والوحدة الإسلامية القائمة على اساس الحب في الله والبغض في الله.
 - ٢- احياء مفهوم الاهتمام بأمور المسلمين.
 - ٣- نبذ العنصرية والتعصب.
 - ٤- النهي عن الممارسات المؤدية الى التلحر والتقاطع.
 - ٥- تحقيق الوحدة الثقافية والاجتماعية.
 - ٦- تحقيق الوحدة في قرار السلم والحرب.
 - ٧- توجيه الانظار نحو الالتقاء حول المحاور المشتركة، وهي:
 - وحدة العقيدة.
 - وحدة العبادة.
 - وحدة الشريعة.
 - وحدة المصالح.
 - وحدة المصير.
- وجعل رسول الله (ص) التقوى أساساً للتقديم والتقييم دون أي خصوصية اخرى.

قال رسول الله (ص): (يا أيها الناس ألا أن ربكم واحد ألا أن أبائكم واحد، ألا لأفضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمري، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ان أكرمكم عند الله أتقاكم).^(١١)

وفي الختام تستعرض بعض أقوال الإمام الخميني (رض) حول عالمية الإسلام.
* نهضة الانبياء لا تقتصر على منطقة دون أخرى، الرسول الأكرم كان من أبناء الحجاز، إلا أن دعوته لم تقتصر على الحجاز، ولا على الجزيرة العربية، بل هل للعالم أجمع.

* إن الهدف هو إحياء أحكام الإسلام العالمية وتطبيقها والسعي لأن يكون الجميع في رفاه ينعمون بالحرية والاستقلال.

* على دول العالم أن تفهم أن الإسلام منتصر لا محاولة وأن التعاليم الإسلامية ينبغي أن تسود في جميع الأقطار، وأن يكون الدين لله.
* يجب أن نمضي قدماً بعزم وقوة على طريق تطبيق أحكام الإسلام في بلادنا، بل في المنطقة والعالم.

* يجب أن تعلموا أن الحل الأساسي الناجع يتمثل في وحدة المسلمين وجماعهم على قطع يد القوى الكبرى من البلدان الإسلامية.

* كلنا أمل في أن نتمكن - ان شاء الله - من مواصلة هذه الجهود التي بدأناها حتى النهاية، وأن نوفق بوحدة الكلمة وبالانكسار على الله تبارك وتعالى في جعل راية الإسلام ترفرف في كل مكان.

الهوامش

- (١) آل عمران / ١١٠.
- (٢) الأعراف / ١٥٨.
- (٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ص ٤٠٦، ١٤١٧هـ.
- (٤) الطباطبائي، محمد حسين الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص ٢٨٣.
- (٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص ٦٥٠.
- (٦) الفرقان / ١.
- (٧) في ظلال القرآن، ج٦، ص ١٣٨.
- (٨) الأنبياء / ١٠٧.
- (٩) الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج٢٤، ص ٤٥.
- (١٠) م. ن. ص ٨٧.
- (١١) الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص ٣٥٢.
- (١٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص ٣٥٢.
- (١٣) حديث الإمام الحميني في جمع من الحجج الباكستانيين ١٧٧/١٩٨٠.
- (١٤) لقمان / ٢٥.
- (١٥) الشورى / ١٩.
- (١٦) الحجرات / ١٣.
- (١٧) النساء / ٢٨.
- (١٨) الأسراء / ١١.
- (١٩) الماعزج / ١٩.
- (٢٠) فاطر / ١٥.
- (٢١) آل عمران / ٧٩.
- (٢٢) التين / ٤.
- (٢٣) البقرة / ٣٠.
- (٢٤) الجاثية / ١٣.
- (٢٥) الأحزاب / ٧٢.
- (٢٦) البقرة / ٢٨٦.
- (٢٧) الحج / ٧٨.
- (٢٨) الانشقاق / ١٨٥.

- (٢٩) الانسان / ٣.
- (٣٠) الانفال / ٥٣.
- (٣١) الاعراف / ٩٦.
- (٣٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٤٢٩؛ إعلام الوري، ص ٤٩.
- (٣٣) إعلام الوري، ص ٤٩.
- (٣٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٣٣٠.
- (٣٥) المصنر السابق، ج ٣، ص ٣٣٣.
- (٣٦) صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٧٠.
- (٣٧) إعلام الوري، ص ٤١.
- (٣٨) عقد الدرر، ص ٤٠.
- (٣٩) فرائد السمطين، ج ٢، ص ٣٦٢.
- (٤٠) فرائد فوائد الفكر، ص ١٠١.
- (٤١) الدر المنتور، ج ٧، ص ٥٧٩.

آفاق أخرى

في رسالة الوحدة الإسلامية

الدكتور محمد حبش

مدير مركز الدراسات الإسلامية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد الأمة وباني الوحدة وهادي الناس الى صراط الله المستقيم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه أجمعين. لا أظن أننا بحاجة للتذكير حول أهمية لقاءنا هنا، فهي الغاية التي نأتي بها رجل الإصلاح كافة عبر التاريخ الإسلامي، استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء، فالق بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)، وهي الأوامر الإلهية التي تكررت في مواضع كثيرة: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون).

وعبر التاريخ الإسلامي فإن جهود الوحدة والجماعة لم تتوقف أبداً، وظل صداها يتردد في رغبة واضحة لإحياء هدف الوحدة والجماعة، ويمكن أن نشير هنا الى أول رائد للوحدة الإسلامية وهو الإمام الجليل الحسن بن علي عليه رضوان الله الذي قاد أول عمل وحدوي في إطار الجماعة المسلمة ورسم ملامح مدرسة خالدة تحقيقاً لقول النبي الكريم (ص) إن ولدي هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وعلى هدى سبط رسول الله (ص) تتابعت جهود الوحدة الإسلامية في مراحل التاريخ، ويمكننا أن نذكر من أعلام الوحدة والجماعة الإمام جعفر الصادق والإمام أباحنيفة والإمام ابن جرير الطبري، والإمام الشاطبي وغيرهم من أعلام الفكر

الإسلامي الذين كانوا يبحثون عما يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يمزق، تحت ظلال قوله تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون).

وفي التاريخ الحديث للأمة بدأت جهود الوحدة والجماعة التي تطالب الأمة بنبذ الخلاف والتأكيد على الجوانب التي تجمع الكلمة ولا تفرق الصف، وتصدى لقيادة حركة الوحدة والجماعة أئمة كبار من أبرزهم جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، الشيخ البروجردي، محمد إقبال، العلامة القمي، مالك بن نبي، محمود شلتوت وغيرهم من رواد الوحدة والجماعة، وكانوا على اختلاف أوطانهم وثقافتهم تجمعهم رغبة عارمة في الدعوة إلى الكلمة السواء، وأدركوا أن تحقيق الوحدة والجماعة يتطلب إرادة نقية وصافية، ولا يشترط له التخلي عن التراث الفقهي، وذوبان المذهب في المذهب، وكانت الفكرة الجامعة لجهد هؤلاء الأئمة هي أن بإمكاننا أن نحقق الوحدة الإسلامية في الإطار التربوي والفقهي عن طريق القاعدة الذهبية: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

وهكذا يمكننا رسم ملامح إسلاميين للوحدة:

الأول: ثوري شمولي يطالب بإلغاء الآخر، ودعوة الأقلية ليدوبوا في الأكثرية ويتخلوا عن فقه أئمتهم استجابة للوحدة الإسلامية.

والثاني: تساهلي إصلاحى يقر بحق الاختلاف، ويرى أن الوحدة لا تشترط التطابق في الفكر والرأي، بل يمكن تحقيقها عن طريق التسامح والاعذار.

ولاشك أننا نختار الإسلوب الثاني ولولاه لما اجتمعنا هنا في هذا المؤتمر، فالمنطق الذي يطالب بإلغاء الآخر منهج استبدادي لا يؤمن بحرية الإنسان، ولن يتم تحقيقه إلا بعنف غير قليل، ناهيك عما يتطلبه من ضياع تراث الأمة وتاريخها

وفقه رجالها، في حين أن منطق الإعذار تتحقق به رعاية الفقه الإسلامي والإفادة منه وحسن التخير للحاضر والمستقبل.

وخلال التاريخ الإسلامي تحرك رجال التنوير في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية على أساس إقرار حق الاختلاف، واحترام المخالف، وعشنا على سبيل المثال في إطار المذاهب الأربعة تقول الشافعية: الرأي عندنا كذا وعند السادة المالكية بخلافه، وكان الحنفي يقول الرأي عندنا كذا وعند السادة الشافعية بخلافه، ونقول اليوم الرأي عندنا كذا وعند السادة الجعفرية أو السادة الزيدية بخلافه، ونحن نتطلع إلى أحياء هذا الأدب الحضاري في الاختلاف فيما جد من مدارس فكرية، وأتمنى أن نستخدم عبارة السادة السلفية والسادة الإباضية والسادة الظاهرية والسادة الصوفية والسادة المؤولة، بدلاً من العبارات الشائعة والتي لا تخدم مبدأ الوحدة الإسلامية.

وفي استعراض سريع لنشاط التقريب في الفقه الإسلامي نلاحظ أنه قد ظهرت أعمال جليلة تهتم بالفقه المقارن، فمن الآراء المتعددة في المذهب الواحد إلى الآراء في الطائفة الواحدة إلى آراء الطوائف الإسلامية المتعددة، وهكذا تطورت ثقافة الوحدة والجماعة ونقرأ من كبار أعلامها ابن قدامة وابن رشد والشاطبي والشعراني، وهما نحن بحمد الله في القرن الخامس عشر نتحدث في المجمع العلمية، والموسوعات الفقهية عن ثمانية مذاهب إسلامية هي: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والجعفرية والزيدية والظاهرية والإباضية، وهي مذاهب تعيش متجاورة في العالم الإسلامي يتلاقى علماءها على الخير والمحبة ويتبادلون النصح والمشورة في الخيرات والمعروف.

وهكذا يمكن قراءة المشهد الوحدوي على الصعيد الفقهي في هذه المنظومة من المذاهب الثمانية وهي تحظى بلحترام المستنيرين من أئمة الفقه الإسلامي،

ونتمنى أن تدخل هذه الوحدة النظرية الموسوعية الى الأعمال العملية التطبيقية كمجامع الفقه الإسلامي وكليات الشريعة في مختلف البلاد الإسلامية بحيث تتناوب على قاعات الدرس عمائم سود وعمائم بيض، وينتهي فيها بالفلاح وخير العمل، ويترضى فيها عن الراشدين والأئمة الاثني عشر، وهو طريق يتطلب مزيداً من الحكمة والأناة والصبر.

أيها الأخوة

منذ بدأت فكرة التقريب في رحاب الأزهر الشريف قبل نحو مائة عام يتجه الحديث عادة الى التقريب بين السنة والشيعة، على أساس أنهما الطائفتان الأعظم بين المسلمين، وقد تحقق قدر غير قليل من إنجاز ذلك التقارب او قل إن المسألة صارت أكثر وضوحاً وتمائزاً فمن اختار التقريب وهم الكثرة الغالبة من أبناء الأمة بحمد الله، يدركون أدبه ومقاصده، ومن رفض التقريب وهم القلة القليلة أصبحوا اليوم أكثر عزلة وأخفض صوتاً، وأدرك المسلمون أنه لا خيار لهم إلا في الوحدة والجماعة.

وهكذا فإن مسألة التقريب بين السنة والشيعة نضجت واكتملت، وأصبح المطلوب ان نتحدث عن مرحلة ما بعد التقريب من العمل الجماعي، والمشاريع المتكاملة، والموسوعات العلمية المشتركة.

واعتقد أن المرحلة اليوم تتطلب موقفاً أكثر وعياً بمجالات التقريب وشروطه، فثمة تيارات أخرى في العالم الإسلامي اليوم تنتظر منا دعوة التقريب، وإن من الحكمة أن مؤتمراً هذا لم يختار عنوان: مؤتمر التقريب بين السنة والشيعة، وإنما اختار عنوان التقريب بين المذاهب الإسلامية وهو عنوان يتسع لكافة ألوان الطيف في هذا العالم الإسلامي، وهو ما نحن مطالبون اليوم بإدراك غاياته ومرامييه.

أيها السادة:

إن تصنيف العالم الإسلامي اليوم إلى سنة وشيعة لم يعد تصنيفاً دقيقاً، والمطلوب الآن إدراك المدارس الفكرية الأخرى التي نشأت في المجتمع الإسلامي، وربما تم تكفيرها أو تفسيقها في مرحلة من المراحل، ولكنها اليوم طورت مفاهيمها وتداركت نقصها وأصبحت أكثر جهوزية للدخول في جنة الجماعة التي أسسها الرواد الأوائل لمثل هذا اللقاء العظيم.

إنني سعيد بأن أطرح على مؤتمرنا الكريم توفير آلية حقيقية لفتح حوار جاد مع التيارات العلمانية في العالم الإسلامي، وتمييز التيارات العلمانية التي طورت نفسها وتمسكت بإيمانها من تلك التيارات التي وقفت موقفاً عدائياً من الفقه الإسلامي.

علينا أن نتجاوز التفكير الذي كان سائداً في الستينات والسبعينات من القرن الماضي والتي كان يصيغ علاقات التيارات السياسية في العالم الإسلامي بالحدود الدموية، حين كانت كلمة علماني ترادف كلمة كافر، وفي المقابل كان العلمانيون يستخدمون تعبير الظلاميين والرجعيين على أولئك الذين يريدون أن يبعثوا الفقه الإسلامي في الحياة كمعلم هدى ونور وبر وخير.

إن العلمانية تعلي من توصيف حاسم لخيارها الأيديولوجي، ولكن قراءة سريعة للمشهد الثقافي والسياسي في العالم الإسلامي يجعلك تدرك إلى أي مدى يمكن أن يكون التقارب واقعياً مع تيارات كثيرة لا يمكن التعبير عنها بأنها سنة ولا شيعة، ثمه أحزاب كبرى في العالم الإسلامي تنهج نهجاً علمانياً في الحياة ولكنها شديدة الشوق والتوق إلى السمو الروحي والهدى الرباني الذي جاء به الإسلام، حزب نهضة العلماء في أندونيسيا يزيد أعضاؤه عن ثلاثين مليون مسلم، وحزب عوامي في باكستان، والرفاه والتنمية والعدالة في تركيا، والأمة في

السودان، جميعها أحزاب ذات ميول علمانية بدرجات متفاوتة، وهي موجرة ونشيطة في العالم الإسلامي وتقدم خدمات غير قليلة للأمة الإسلامية، ولكن حركة التقريب تعاملها عادة بأسلوب واحد ولم تُخط حتى الآن بالتجمل فتح حوار حقيقي وبناء معها.

ومن الضروري هنا أن نسجل هذا التحفظ الضروري فمن يختار إنكار الخلق، والتشكيك بالنبوات لا يمكن أن يكون مسلماً، سواء كان أصله سنية أو شيعية أو علمانية أو كان من أبناء الانبياء!

ولكن هل يسوغ القول بأن العلمانيين اليوم في العالم الإسلامي يحملون هذه الرؤية الكافرة عن ثوابت الشريعة؟

إن كثيراً من التيارات العلمانية في العالم الإسلامي اختارت أن تتجاوز الفقه الإسلامي وتكتسب تشريعات وضعية، ليس بسبب سوء رأيها في الرسول والرسالة، وإنما بسبب عدم المعرفة بغنى الفقه الإسلامي، وقدرته على مسايرة الأحداث وأعتقد لو أننا قمنا بفتح منجم الفقه الإسلامي على مصراعيه، وأضأنا جوانبه المختلفة التي تراكم عليها الجمود، لوجد المخلصون من كافة الاتجاهات حاجتهم وغايتهم داخل الفقه الإسلامي ولم يتورطوا في استدباره والتنكر له.

إن الأمة الإسلامية في فترة صعودها الحضاري قامت بلحتواء تيارات كثيرة نشأت في الفكر الإسلامي، ولدينا تصانيف هامة في تفسير القرآن كتبها أعلام محترمون كالزنجشيري ومجاهد والرازي الجصاص وابن رشد والفخر الرازي وأبو العلاء المعري وابن أبي الحديد مع أنهم لم يكونوا يخفون ميولهم الاعتزالية والقدرية والتأويلية، ولكنهم كانوا يجدون في الوعي الحضاري للأمة ما يوفر لهم منابر الفكر والقلم، ولم يكن العالم الإسلامي يشعر بالفضاضة من رواية علم هؤلاء والانتفاع بهم، ولعل الموقف الوحيد المظلم كان يوم سيطر التعصب على

القرار السياسي سواء كان سنياً أو شيعياً أو اعتزالياً، وأوضح الأمثلة على ذلك ما صنعه المعتزلة يوم سيطروا على قرار الخلفاء العباسيين فعرضوا رقاب الناس على السيف ليقولوا بخلق القرآن، وسالت دماء طاهرة زكية رفضت العنف والقهر والإكراه ودافعت عن حرية الاختيار الى أن قضى الله أمراً كان مفعولاً وقمعت تلك الفتنة المشؤومة.

إنني أتوجه الى مؤتمركم الكريم بالدعوة الى تشكيل لجنة خاصة تتولى الحوار مع الاتجاهات العلمانية في العالم الاسلامي وتقدم الأدلة الواضحة على غنى الفقه الإسلامي، وغزارة مناجمه، لإحياء جذوة الإيمان في هذا الشطر من الأمة، والمحافظة على الرصيد الروحي الذي تحتزنه الفطرة، وتجتهد في رسم العلاقات بين أبناء الأمة الواحدة على أساس تعزيز المشترك، والإعذار في المختلف، وفق القاعدة الذهبية التي وضعها النبي الكريم (ص): للمجتهد إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر واحد.

إنني أعتقد أن المؤيدات الشرعية لهذا الاتجاه موفورة وصریحة، نقرأ في التنزيل العزيز قول الله سبحانه: (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون)، وكذلك ينص القرآن الكريم صراحة على القول: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً).

وفي هدي النبي (ص) قوله: اقرؤوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا.

وفي موقف لافت لدلالات الوحدة والجماعة لم يشأ (ص) أن يرغم الناس على قراءة واحدة حتى في نص القرآن الكريم وإنما أذن للناس أن يقرؤوه بالحروف التي اعتادوها واللهجات التي عرفوها، وقل: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرؤوا منه ما استطعتم.

ولقد قدمت الأحداث الأخيرة في العراق أوضح الأدلة على أن الاستكبار المادي الإلحادي، الذي يحرك المطامع الأميركية الهانئة، لا يفرق بين اتجاه واتجاهه، وقد يكون من المعاني التي افرزها هذا البغي الأميركي إنما هو تحقيق صلح بين الاتجاه الاسلامي والاتجاه القومي، ودعوة الأمة الى إدراك ما يجمعها ويوحدها في مواجهة أعداء الأمة.

إنني سعيد بأن أقدم لمؤتمركم الكريم تجرئتنا المتواضعة في مركز الدراسات الإسلامية بدمشق لفتح حوار إسلامي علماني عبر وسائل الاعلام والدراسات والبحوث والندوات العلمية والنشاط البرلماني، وبعد نشاط عشر سنوات فإنه يمكن القول إن المشترك أكثر مما نعتقد، وأن مظلة الإسلام الجامعة قادرة على استيعاب المزيد من أبناء الأمة في ظلال عبادة الله سبحانه والسمو الى الملأ الأعلى، وإني أقول بمرارة إن الأفق الوحيد الذي يستعصي على الحوار والوحدة إنما هو التعصب الذي عبّر عنه رسول الله (ص) بقوله: إعجاب كل ذي رأي برأيه. سواء كان ذلك التعصب في إطار سني أو شيعي أو قومي أو علماني.

السلام العالمي مظهر

لعالمية الإسلام

شهاب الدين الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

اصالة السلام واستثنائية القتال

الإسلام دين الرحمة والمسامحة والعفو، دين التآلف والوثام والتعاون، دين السلام والأمان، وهي الاسس الثابتة التي يتعامل بها مع غيره من العقائد والوجودات، فالاصل هو السلام، وأما القتل فهو أمر طارىء فرضته الظروف والتحديات لذا فان الإسلام ينتهز اقرب الفرص للعودة إلى الأصل.

قل الله تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...)^(١).

والإسلام لم يرغب في القتل ولم يشجع عليه لذاته، ولهذا كان رسول الله(صلى الله عليه وآله)ينهى عن تمحي لقاء العدو، فيقول: (لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموه فاصبروا)^(٢).

والإسلام لم يشرع القتال رغبة فيه، ولم يشرعه للسيطرة على الاراضي والسكان ولا طلباً للغنيمة، ولم يكن قتل المسلمين من أجل مجد شخصي أو قومي أو طبقي، وإنما لإعلاء كلمة الله تعالى ودفاعاً عن المفاهيم والقيم النبيلة والتي يحاول اعداؤه تعطيلها والغائها، وردعاً للعدوان الواقعي أو المحتمل الوقوع.

ولو نظرنا إلى الواقع نظرة واقعية وجدنا ان جميع معارك الإسلام كانت معارك دفاعية لرد عدوان واقعي أو محتمل الوقوع وخصوصاً في صدر الإسلام، وفيما يلي نستعرض دوافع القتال واهدافه القريبة والبعيلة كما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أولاً. دفع العدوان

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم)^(٣٧).

وفي تفسير ذلك قال العلامة الطباطبائي: (القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، وكونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين وإعلاء كلمة الوحيد، فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس وأعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الإنسانية المشروعة عند الفطرة السليمة، فإن الدفاع محدود بالذات، والتعدي خروج عن الحد... والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصلق عليه أنه اعتداء كالقتل قبل ان يدعى إلى الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء والصبيان، وعدم الانتهاء إلى العدو...)^(٣٨).

وفي تفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي: (يا ايها المؤمنون اني اذنت لكم في قتالهم إعزاز لدين الله وإعلاء لكلمته، لا لهوى النفس وشهواتها ولا حباً في سفك الدماء... ولا تعتدوا بالقتال فتبدوهم به، ولا في القتل فتقتلوا من لا يقاتل من النساء والصبيان والشيوخ والمرضى، ولا من ألقى اليكم السلم وكف عن حربكم، ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتهريب وقطع الأشجار.

(واقتلوهم حيث ثقتموهم) أي إذا نشب القتال بينكم وبينهم فاقتلوهم أينما أدركتموهم...)^(٣٩).

وفي آية أخرى قال تعالى: (اذن للذين يقاتلون بالهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...)^(٤٠).

ثانياً: الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين

(ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً)^(٧).

(... والذين امنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير)^(٨).

دعا القرآن الكريم إلى الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين الذين يعيشون في أرض الشرك، وقيد النصرة بعدم الاخلال في العهود والمواثيق. وقد ورد في التفسير: (انّ المؤمنين المقيمين في أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم... لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لاجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم، فعليكم ان تساعدهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لاعهد بينكم وبينهم، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم ولا تباع خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق... وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سراً وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر)^(٩).

وعلى العموم فإنّ الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين أمر مشروع تبيحه جميع الديانات الهية كانت أم وضعية، بل يرفع كشعار من قبل الجميع لحيوبيته ومرغوبيته.

ثالثاً: قتال ناكثي العهد

(الا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بساخراج الرّسول وهم بدءوكم أول مرة...)^(١٠).

الآية تحريض للمؤمنين وتهيب لهم على قتل المشركين ببيان ما أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة، وعدّ خطاياهم وطغيانهم من نكت الإيمان والمهمّ بخراج الرسول والبدء بالقتل اول مرة^(١١١).

وفي تفسير اكثر تفصيلاً: أي قاتلوا هؤلاء المشركين لأسباب ثلاثة:

١ - انهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقده مع النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه على ترك القتل عشر سنين يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها احراراً في دينهم، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي (صلى الله عليه وآله)... وكان هذا من أفظع أنواع الغدر.

٢ - إنهم هموا بخراج الرسول (صلى الله عليه وآله) من وطنه أو حبه حتى لا يبلغ رسالته، أو قتله بأيدي عصابة من بطون قريش ليتفرق دمه في القبائل.

٣ - إنهم بدءوا بقتل المؤمنين في بدر حين قالوا: بعد العلم بنجاة غيرهم: لانصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر وتعزف على رؤوسنا القيان، وكذا في أحد والختلق وغيرهما^(١١٢).

رابعاً: حماية العقيدة ورد العدوان المحتمل الوقوع

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)^(١١٣).

أي: وقاتلوهم حتى لا تكون لهم قوة يفتنوكم بها في دينكم، ويؤذونكم في سبيله، ويمنعونكم من إظهاره والدعوة اليه... ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن بصله عنه ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج فيه إلى مداهنة ومعالجة، أو استخفاء ومداراة^(١١٤).

والآية خاصة بالمشركين غير شاملة لأهل الكتاب، فالمراد بكون الدين لله سبحانه وتعالى هو أن لا يعبد الاصنام ويقر بالتوحيد، وأهل الكتاب مقرّون به^(١٥).

ودعا القرآن الكريم إلى رد العدوان المحتمل الوقوع، لكي لا يعتدى على المسلمين بغتة، ومن ثم تهديد كياناتهم بالفناء.

قال الله تعالى: (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين)^(١٦).

وتفسير الآية: انه يجب ابلاغهم بالغاء العهد ولا يجوز قتالهم قبل الابلاغ لأن ذلك خيانة، أما إذا لم يحتتمل الخيانة فلا يجوز نقض العهد معهم^(١٧).

وفي تفسير آخر: وان توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكشاً للعهد بوجود امارات ظاهرة وقرائن تنذر بها، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بان تنبذ اليهم عهدهم وتنذرهم بأنك غير مقيد به ولا سهتم بأمرهم، بطريق واضح لاخداع فيه ولا استخفاء، والحكمة في هذا ان الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقاً^(١٨).

وعلى ضوء ذلك يمكن القول: ان ما اصطلح عليه الفقهاء بالجهاد الابتدائي هو في الواقع يحمل روح الجهاد الدفاعي لرد عدوان محتمل الوقوع، لأن أعداء الإسلام عموماً لا يبرق لهم تقرير مفاهيمه وقيمه في واقع الحياة ولهذا فانهم يسعون للقضاء عليه وتحجيم دوره ومنع الشعوب من تبنيه عقيلة وفكراً في الواقع.

وفي جميع الظروف والاحوال فإنّ القتال موقف استثنائي لم يشرع إلا لحماية الإسلام فكرة وعقيدة ووجوداً، ولذا فهو يدعو للتعامل بالبر والعدل مع غير المقاتلين (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين)^(١٩).

والإسلام يدعو للعودة إلى الأصل في التعامل والعلاقات وهو أصل السلام وانتهاء القتال في اقرب فرصة (... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً)^(٢٠).

شبهات وردود

في كتاب الجهاد^(٢١) تطرق الامام السيد محمد محمد صادق الصدر إلى عدة مفاهيم وقيم وأسس وموازين وزعها على ثلاثين فقرة، ومن ضمنها بعض الشبهات وقد أجاب عليها بما ينسجم مع متبنيات الإسلام الفكرية والسياسية والاجتماعية، فوجدنا أهمية ذكرها هنا لتعميم الفائدة.

الفقرة ٢٢

يوجد على فكرة الجهاد المقدس في الإسلام اشكل معتد به نسيباً قلما يلتفت اليه الناس. اود ان اواجهه بقوة قلب وثقة بالرب. بان تذكره وناقشه. وحاصله متكون من مقدمتين:

المقدمة الاولى: انه يجب قتل المشرك مهما كان دينه ومذهبه. ولا يمكن اقراره على دينه وطقوسه بحال من الاحوال. ولعل هذا من واضحات الفقه، واجماع علماء المسلمين عليه.

وهذا من النقاط الاساسية التي يختلف فيها المشرك عن الكتابي؛ فبينما نرى أن التعاليم الدينية في الإسلام، تحفظ للكتابي حياته وامواله وعائلته، وتقره على تعاليم دينه، وتعتبره (ذمياً) يعني في ذمتها المحافظة عليه؛ فان كل ذلك غير موجود بالنسبة إلى المشرك، ولا يمكن أن يكون (ذمياً) بحال.

المقدمة الثانية: ان عدد المشركين على وجه الكرة الارضية، الان وفي اكثر الاجيال المنظورة في الماضي وفي المستقبل، عدد كبير جداً، بل لعله يمثل اكثر من نصف البشرية، أو الاكثرية فيها.

اذن، نعلم من هاتين المقدمتين، انّ الدين الإسلامى اجاز قتل اكثرية البشرية ولم يحفظ لهم حقوقهم في الحياة والعيش الرغيد، وان ذلك يؤدي حتماً إلى وجوب قتل الملايين وابادة شعوب بكاملها ماداموا مشركين. وجواب ذلك، يكون في عدة نقاط:

النقطة الاولى: انه لم يرد في الدين وجوب المبادرة إلى قتل المشركين او قتلهم، بل ذلك غير جائز حتى تعرض عليهم تعاليم الإسلام وهداه ومخاسنه، وينبغي ان ينتظر فيهم مدة كافية حول ذلك، فان اهدوا واسلموا فهو المطلوب. وإلا كانوا معاندين يستحقون القتل.

النقطة الثانية: انه لم يرد في الدين وجوب المبادرة إلى قتل المشركين أو قتلهم مالم يبدأوا هم بالقتل، فان بدأوا كانوا محاربين فعلاً، وكان مقتضى ذلك وجوب الدفاع حتى وان لزم من ذلك ابادتهم جميعاً.

وهذا لا يعنى ان الشعوب الامنة والبلدان الهادئة للمشركين، يجب المبادرة اليها وقتل اهلها جملة وتفصيلاً، فان هذا لم يحدث فيما سبق ولم يقره تشريع ديني. النقطة الثالثة: ان الحكم الاصلى في الشريعة قابل للتخصيص أو التقييد بمقتضى الولاية العامة في كل عصر للفقهاء أو للقائد، فهو يرى مقتضى المصلحة من جميع الجهات، قبل ان ينفذ الحكم المشار اليه في السؤال. مع العلم انه فلما تقتضى المصلحة ذلك في المستقبل المنظور.

النقطة الرابعة: ان الفقهاء قسموا الجاهل إلى قاصر ومقصر، فالمقصر هو النبي يستطيع ان يتعلم ولم يتعلم، والقاصر هو العاجز عن التعلم، والقاصر معذور فيما يجمله، بخلاف المقصر فانه غير معذور ويستحق عقوبة الدنيا والاخرة. وبالتأكيد فان كثيراً من هؤلاء الذين نعدهم مشركين، قاصرون عن التوصل إلى الحق والايان به، فيكونون من هذه الجهة معذورين، وإذا كانوا معذورين لم يستحقوا القتل إلا بعد الايضاح والتنبية والتعليم.

وهذه الصفة لاشك عامة لكثير من عمال المعامل ومزارعي الريف، والموجودة مدنهم وقراهم في مناطق نائية يصعب الوصول اليها، ولحو ذلك. لا يختلف في ذلك وجود امثال هذه الطبقات في الصين أو الهند أو استراليا أو غيرها.

وعلى أي حال، فلا يحتمل ان يحكم الدين المقدس العادل، بوجوب قتل امثال هؤلاء، ماداموا على قصورهم وقلة ثقافتهم وتدني تفكيرهم.

اذن، فما قاله السائل من ان الحكم الفعلي في الدين هو قتل الملايين، مما لا اساس له من الصحة.

نعم، لو تم تنبيه المشرك أو المشركين إلى الإسلام وتعليمه لكنه استمر على غيه وعناقه، فانه يعتبر جرثومة سيئة في المجتمع، لا يمكن استتباب العسل فيه ولا استقرار الامور به، إلا بالتخلص من هذه الجرثومة وقطع شأفتها، والتخلص من شرها؛ ومن هنا كان الحكم بوجوب القتل صحيحاً وعادلاً تماماً.

الفقرة (٢٣)

انه قد يحظر في البال في الجهاد بانه يقتضي الاكراه والاضطرار للدخول في الإسلام بالنسبة إلى الشعوب المشركة الذين لا يقرون على اديانهم، بل يدور امرهم بين الدخول في الإسلام أو القتل والابادة، وليس حالهم حل أهل الكتاب

الذين يمكن في الدين أقرارهم على دينهم واقامة شعائره في الجملة، وعدم الزامهم بالدخول في الإسلام.

ومن الواضح ان المسألة امام المشركين ستكون: اما الإسلام أو القتل وليس هناك اكراه عرفي أو عقلائي اشد من القتل. فإذا قيل لشخص اعطني الف دينار أو اقتلك فانه يدفع الالف لينجي نفسه، فكذلك الحال في الدين، ومن المعلوم ان الدخول في الدين بالاكراه لا اثر له لاشرعاً ولا عقلائياً، ولا ينتج الهداية ولا العدل ولا التكامل، فما الفائدة من ذلك.

ويمكن ان يجب ذلك على عدة مستويات:

المستوى الأول: ان الفقهاء عموماً قالوا، وقلنا ايضاً فيما سبق، بضرورة عرض الإسلام عليهم قبل مناجرتهم القتل، وهذا لا يصلق الا بأمرين: اولهما: ان الإسلام يعرض بجميع تشريعاته المهمة، اي بحاسنه وعدله ولطفه، بحيث يكون كل ذلك مما يفهمه اكثر الناس هناك ثانيهما: ان يمضي زمان كاف لاجل امكان تحصيل هذه النتيجة، ولا يجوز تضيق الوقت عليهم وتهديدهم بمناجزة القتل في وقت سريع.

ومن المعلوم ان اكثر الشعوب الان وفي المستقبل المنظور هم جاهلون بمفاهيم الإسلام وعدله ولطفه، وانما هم مقلدون لابائهم في تعصبهم لعبادة الاصنام وغيرها، فإذا اتضح لهم ذلك، فالظنون جداً انهم سيميلون إلى الإسلام ميلاً واحدة ويدخلون فيه افواجاً. وكفى الله المؤمنين القتلى.

المستوى الثاني: اننا بعد ان نعلم انه لا اثر للدخول بالجبر والاضطرار إلى الدين. وهذا ما أدركه الإسلام حين قال: (لا اكراه في الدين). اذن فهذا مما لا يطلب منهم، بل يقال لهم بصراحة ادخلوا في الدين الإسلامي عن رغبة وقناعة. ويشرح ذلك عن طريق الايضاح والدليل. اذن ستكون النتيجة هي نفس المطلوب شرعاً.

المستوى الثالث: لا يبعد القول في هذا المورد ان اي مشرك دخل في الإسلام قبل إسلامه. لانسأله عندئذ هل انت مجبور على إسلامك أو راغب به. بل لحمله على الصحة ونعامه معاملة المسلمين، حتى لو كان في باطن نفسه مجبوراً. وهذا المعنى كما يعم الواحد، يعم المجتمع ككل.

والدين حينما خير المشركين بين الإسلام والقتل، كان يعلم ذلك. ومعناه ان المشرك إذا اظهر الإسلام كفى في حرمة قتله وصون نفسه وماله وعرضه. وانما يفرق ذلك، اعني جهة الجبر والاختيار في آخرته، فان كان عن قناعة واختيار فاز في الاخرة بالثواب.

وان كان عن جبر واكراه سقط ثوابه. ومن المعلوم ان الفقهاء في الفقه يحسبون حل نظام الدنيا في امثال هذه المسائل، بغض النظر عن الاخرة.

المستوى الرابع: ان المجتمع ان كان قد دخل في الإسلام بالاكراه، أو آمن به في اقل الجزئي، لو صح التعبير فيقبل منه مجرد اظهار اصول الدين ولا يكلف عملياً بفروعه، اعني الصلاة والصوم ونحوها، يعني ان ذلك ليس له دخل في الجهاد، بحيث انهم إذا لم يصلوا أو يصوموا وجب قتالهم، كلا بل يحرم ذلك ماداموا قد دخلوا في الإسلام والتزموا باصول الدين. كل ما في الامر انهم سيكونوا مسلمين فسقة. وهذا امر له علاج آخر غير القتل.

المستوى الخامس: ان المجتمع وان كان قد دخل في الإسلام بالاكراه، ونحوه إلا انه لن يبقى على هذا الحال طويلاً، بعد ان تستمر الهداية والتعليم، وسيبدأ افراد المجتمع بالتدرج بالافتناع بذلك والتحمس له. بعد زيادة الوضوح والتفصيل.

المستوى السادس: ان الهدف الإسلامي من الجهاد المقدس لبلاد المشركين

امران:

أحدهما: هداية المجتمع، وهو هدف أساسي وأصيل لا محالة. وثانيهما: بسط العدل الإسلامي والحكم الإسلامي على أكبر منطقة ممكنة في البشرية أو قل على ذلك المجتمع الذي ذهب إليه المسلمون أيا كان.

ومن المعلوم أنه على تقدير انتصار المسلمين، فإن الهداية محتملة الحصول، إلا أن بسط العدل أكيد الحصول سواء دخلوا في الإسلام عن قناعة أو دخلوا عن إكراه أو لم يدخلوا فيه إطلاقاً، وسينسط العدل عليهم بمقدار ما يناسب حالهم من الأحكام الشرعية، وهذا هو الهدف الأهم الاستراتيجي بطبيعة الحال.

أخلاقيات القتال وإنسانية التعامل

الإسلام دين الرحمة والرفقة والسلمة؛ يهدف إلى هداية الناس أجمعين وانقاذهم من جميع ألوان الاضطهاد والعبودية ومن الانحراف والانحطاط، ويهدف إلى إقامة الحق والعدل، ولهذا فلا يقاتل حقداً أو عدواناً حتى على المعتدين، وهذا واضح من خلال التأكيد على اشاعة قيم العفو والرحمة في ميادين القتال، وتتجسد أخلاقيات القتال في المظاهر التالية:

١. حرمة القتال قبل لقاء الحجة

مهما كانت دوافع وأسباب القتال فهو محرم قبل إلقاء الحجة على أعداء الإسلام، فقد أوصى رسول الله (ص) بذلك قائلاً: (يا علي لا تقاتل أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام وأيم الله لأن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت).^(٣٣)

وحرمة القتال قبل الدعوة موضع اتفاق بين فقهاء المسلمين شيعة وسنة، نكتفي بذكر فتاوى بعض منهم.

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): (ولا يجوز قتل أحد من الكفار إلا بعد دعائهم الى الإسلام).^(٣٣)

وأفتى ابو الصلاح الحلبي (ت ٤٧٧ هـ) بعدم البدء بالقتل حتى بعد الفاء الحجة حتى يكون الأعداء هم الذين يبدؤون).^(٣٤)

وقال علي المرغيناني الحنفي (ت ٥٩٣ هـ): (ولا يجوز أن يقاتل من لم تبلغه الدعوة الى الإسلام إلا أن يدعوه).^(٣٥)

وقال بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣ هـ): (ولا يقاتل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية حتى يدعوهم الى الإسلام قبل القتل).^(٣٦)

٢. النهي عن قتل المستضعفين

نهى رسول الله (ص) عن قتل المستضعفين وكانت تعاليمه في القتل: (... ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة...).^(٣٧)

وفي رواية: (فلا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً لا يطبق قتالكم).^(٣٨)

وقال (ص): (لا تقتلوا أهل الصوامع).^(٣٩)

وهذا الحكم محل اتفاق فقهاء المسلمين.

قال جعفر بن أحمد بن أبي يحيى (ت ٥٣٧ هـ): (ولا يقتل الصبي منهم، ولا المرأة ولا الشيخ الهرم ولا الراهب المتخلي إلا أن يقاتل أحد منهم).^(٤٠)

وقال عبدالرحمن المقدسي الحنبلي (ت ٦٢٤ هـ): (ولا يقتل منهم صبي ولا مجنون ولا امرأة ولا راهب ولا شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ولا من لا رأي لهم إلا أن يقاتلوا).^(٤١)

وقال محمد بن مكّي الشهيد الأول (ت ٧٨٦ هـ): (ولا يجوز قتل المجانين والصبيان والنساء وان عاون إلا من الضرورة).^(٤٢)

وقال محمد حسن النجفي (ت ١٣٦٦ هـ): (ولا يجوز قتل المجانين ولا الصبيان ولا النساء منهم ولو عاوتتهم إلا مع الاضطرار، بلا خلاف أجده في شيء من ذلك).^(٣٣)

فالإسلام لا يرغب في القتل إلا اضطراراً ولا يستهدف إلا الهداية والاصلاح، ولذا حرم قتل المستضعفين وإن كانوا من الأعداء.

٢. حرمة القاء السم في بلاد المشركين

لم يكن هدف الإسلام من تشريع القتل الانتقام وإنما الهداية أولاً ورد العدوان ثانياً لذا حرم استخدام اسلحة الدمار الشامل ومنها القاء السم. عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال: (نهى رسول الله (ص) أن يلقى السم في بلاد المشركين).^(٣٤)

ويرى السيد محمد الصدر (ت ١٤١٩ هـ): (إن النهي دال على التحريم، مالم تحصل مصلحة عظيمة لا تكون الا نادراً، والرواية وان كانت دالة على خصوص السم، إلا أنها شاملة لكل المبيدات العامة، بحيث يذهب البريء بذنب المجرم والاعزل بذنب المسلح، حتى لو كان سلاحاً كالذري او غيره، وذلك بالتجريد عن الخصوصية فقهاً).^(٣٥)

٤. حرمة الغدر والقلول والمثلبة والتخريب الاقتصادي

حرم الإسلام استخدام الوسائل الوضيعة حتى في قتل المعتدين لأنه جاء رحمة للعلمين وليس انتقاماً، فمن وصايا رسول الله (ص) لامراء جيشه: (سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (ص) لا تغلروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا اليها...)^(٣٦).

وقال ابو الصلاح الحلبي: (... ولا يجوز حرق الزرع ولا قطع شجرة التمر ولا قتل البهائم ولا خراب المنازل ولا التهتك بالقتل).^(٣٧)

وقل الشهيد الأول: (ولا يجوز التمثيل ولا الغدر ولا الغلول).^(٣٧)
 وتحت عنوان (حرمة اتلاف النبات والحيوان) ذكر السيد محمد الصدر عدة روايات ومنها: معتبرة مسعدة بن صدقة عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) قال: (أن النبي (ص) كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في نفسه خاصة ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: اغز باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا متبتلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل ولا تعرقوه بلله ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرون لعلكم تحتاجون اليه، ولا تعقروا من البهائم ما يؤكل لحمه، إلا ما لا بد لكم من أكله ...).^(٣٨)

وهذه الروايات واضحة في ما قلناه في العنوان؛ مضافاً الى التبذير والاسراف الخرمين شرعاً، نعم مع الضرورة أو توقف مصلحة الجيش على ذلك ترتفع الحرمة.

وهي تحتوي الى جنب ذلك بعض النصائح الانسانية العالية، أود أن أشير له فيما يلي مختصراً:

أولاً: حرمة الغلول، وهو السرقة من الغنيمة أو الاجحاف في سهم أحد الأفراد أو الأكثر.

ثانياً: حرمة المثلة، فإن المثلة محرمة نصاً واجماعاً.

ثالثاً: حرمة قتل المنعزل لأمره... وبعده التجريد عن الخصوصية يمكن التعميم الى كل فرد غير حامل السلاح.^(٣٩)

د. وجوب الاستجابة للاستجارة وطلب الأمان

من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية حقن الدماء، ولهذا فقد أوجب الإسلام جميع الوسائل والمقدمات المؤدية الى حقن الدماء، ومنها الاستجابة للاستجارة إن استجار المعتدي بالمسلم وطلب الأمان منه.

قال الله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه).^(١١)

ومن وصايا رسول الله (ص) لامراء جيشه: (... وإيما رجل من أدنى المسلمين وأفضلهم نظر الى أحد من المشركين فهو جار يسمع كلام الله، فإذا سمع كلام الله عز وجل فإن تبعكم فلتخوكم في دينكم وإن أبى فاستعينوا بالله عليه وأبلغوه مأمنه).^(١٢)

ولا فرق بين المجير حراً كان أم عبداً، فحكمه نافذ على الجميع في حل اجارته لأحد من المشركين أو الأعداء.

ففي رواية: (... وإيما رجل من أقصاكم أو أدناكم من أحراركم أو عبيدكم أعطى رجلاً منهم أماناً أو أشار اليه بيده، فأقبل اليه اشارته فله الأمان حتى يسمع كلام الله أي كتاب الله، فإن قبل فلتخوكم في دينكم، وإن أبى فردوه الى مأمنه، واستعينوا بالله عليه، لا تعظوا القوم ذمتي ولا ذمة الله فلتخفر ذمة الله لاق الله، وهو عليه سخط أعطوهم ذمتكم، وذمت أباؤكم وفواهم فإن أحدكم لان يخفر ذمته وذمة أبيه خير له من أن يخفر ذمة الله وذمة رسوله).^(١٣)

والأمان هو الغاية في التعامل، وإن رفض المسلمون طلب الأمان لضرورة معينة وظن الأعداء انهم استجابوا لهم كان ذلك الظن أماناً لهم؛ لأن هدف الإسلام هو حقن الدماء في جميع الأحوال.

قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (لو أن قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا: لا، فظنوا انهم قالوا: نعم، فنزلوا اليهم، كانوا آمنين).^(١٤)

وهذا محل اتفاق الفقهاء من جميع المذاهب الإسلامية ولم نجد احداً مخالفاً لهذا الرأي.^(١٥)

ومن اجل استثناء الأمان واشاعته فإنه لا يتوقف على أوامر قادة الجيش او كبار الشخصيات فكل من استجاب للأمان تكون استجابته نافذة على جميع المسلمين، سواء كان المؤمن رجلاً أو امرأة أو عبداً مملوكاً؛ فلا يجوز للمسلمين قتل من أعطي الأمان.^(٤٧)

ويسري هذا الحكم ليشمل إمام المسلمين، وفي هذا قال يحيى بن الحسين الزيدي: (أهل الإسلام يجوز أمان الواحد منهم على كلهم، لو أن رجلاً أمن عسكرياً من عساكر اهل الشرك او قربه من قراهم ثم علم بذلك الإمام لم يجوز له استباحتهم حتى يخرجوا من ذمة الأمان الذي أمنهم المسلم).^(٤٨)

٦. الوفاء بالعهد

أوجب الإسلام الوفاء بالعهد، فلا يجوز نقضه ما دام العدو ملتزماً به، وقد جسد الإسلام بهذا الواجب السماحة والسلام وحقن الدماء، واثبت للبشرية جمعاً أنه لا يقاتل إلا دفاعاً عن المقدسات وعن النفس ردعاً للعدوان.

قال رسول الله (ص): (حسن العهد من الإيمان).^(٤٩)

وقال الإمام علي (ع): (إن وقعت بينك وبين عدوك قصة عقدت بها صلحاً والبسته بها ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة بينك وبين ما اعطيت من عهدك).^(٥٠)

وقال (ع): (ما يقن بالله من لم يرع عهوده وذمته).^(٥١)

وشدد رسول الله (ص) على حرمة قتل المعاهد، فقال: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة).^(٥٢)

وحرّم (ص) ظلم المعاهد او تكليفه فوق طاقته، فقال: (من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه).^(٥٣)

وحرم (ص) جميع مظاهر الأذى للمعاهدين: (من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة).^(٥٣)

وتترتب على عدم الوفاء بالعهد آثار عملية يوم القيامة، قال الإمام محمد الباقر (ع): (من آمن رجلاً على ذمة ثم قتله إلا جاء يوم القيامة يحمل لواء الغدر).^(٥٤)

وقال الإمام الشافعي: (وان عقدت الهدنة على ما يجوز الى ملة وجب الوفاء بها الى ان تنقضي الملة ما أقاموا على العهد).^(٥٥)

وكانت سيرة المسلمين قائمة على الوفاء بالعهد، فلم ينكثوا العهد بعد اتمامه، ولم يحدثنا التاريخ أنهم نقضوا العهد مع المعاهدين، فقد أوصى احد الخلفاء في أيامه الأخيرة قائلاً: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل النمة خيراً أن لا يكلفوا فوق طاقتهم).^(٥٦)

وإذا نقض بعض المعاهدين العهد فلا يجوز تعميم النقض على الآخرين، فحينما نقض بعض المعاهدين من جبل لبنان عهدهم، واجلاهم الوالي كتب اليه الاوزاعي: (... فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة؟ فيخرجون من ديارهم وأموالهم).^(٥٧)

ويجب الوفاء بالعهد وان تضرر منه أحد المسلمين، فحينما عاهد رسول الله (ص) المشركين بتسليم من جاءه من قريش مسلماً، وفي بذلك وسلم اثنين من المسلمين اليهم وفاء منه بالعهد.^(٥٨)

والوفاء بالعهد محل اجماع الفقهاء كما صرح به صاحب الجواهر.^(٥٩)

٧. حسن المعاملة مع الأسرى

أمر الإسلام بحسن المعاملة مع الأسرى وان كانوا معتدين قبل الأسر انسجماً مع غاياته وأهدافه في هداية الناس واعادتهم الى الرشد، فلا يبيح الأذى وسوء

المعاملة، فحول أسرى معركة بدر أمر رسول الله (ص) بحسن المعاملة، وقل: (استوصوا بالأسارى خيراً).^(١١)

وحينما طلب أحد الصحابة من رسول الله (ص) أن يدلح لسان أحد المشركين الذين هجوا رسول الله (ص) في مواضع عديدة: أجاب رسول الله (ص): (لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً).^(١٢)

وحسن المعاملة ثابت في جميع الظروف والأحوال، فلا يباح قتل الأسير من قبل أي مسلم باستثناء بعض الحالات التي يستحق بها القتل، وهذا الأمر مرجعه إلى إمام المسلمين وليس لأحد المسلمين واجتهاداتهم الشخصية التي قد لا تصيب الواقع في أغلب الظروف.

قال الإمام علي بن الحسين (ع): (إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي وليس معك محمل فأرسله ولا تقتله، فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه).^(١٣)

ويجب اشباع حاجات الأسير من طعام وشراب وإن كان حكمه القتل لضرورة خاصة.

قال الإمام جعفر الصادق (ع): (اطعم الأسير حق على من أسره، وإن كان يراد من الغد قتله، فإنه ينبغي أن يطعم ويسقى ويرفق به كافرأ كان أو غيره).^(١٤)

وذكر السيد محمد الصدر هذا الموضوع بشيء من التفصيل، فقال: لا يجوز قتل الأسير بعد الحرب وإن كان مشركاً، وعن طلحة بن زيد قل: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (كان أبي يقول: إن للحرب حكماً: إذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها ولم يتخن أهلها ... والحكم الآخر إذا وضعت الحرب أوزارها واتخن أهلها فكل أسير أخذ على تلك الحال فكان في أيديهم، فالإمام فيه بالخيار إن شاء من عليهم فأرسلهم وإن شاء فآذاهم أنفسهم وإن شاء استعبدهم وصاروا عبيداً).^(١٥)

وهذا هو المشهور جداً بين علمائنا لم يخالف فيه إلا النادر، وتوضيحه ان الامام، وهو المسؤول الأعلى في المجتمع او من يوكله الى شخص او جماعة معينة فيكون غيراً بين ثلاثة امور حسب المصلحة العامة، وليس احدها القتل:

اولاً: المن: وهو الاطلاق بدون فداء.

ثانياً: الفداء: وهو الاطلاق بزاء مال او مالي.

ثالثاً: الاسترقاق: وهو ان ينوي عليهم التملك فيصيرون عبيداً، وهو المنشأ الوحيد للاستعباد في الشريعة غير الولاة.

وقد اشار القرآن الكريم الى اثنين منها بقوله: (حتى إذا اتختموهم فشدوا الوثاق، فأما منا بعد، وأما فداء حتى تضع الحرب اوزارها).

والحكم هو حكم الأسير بعد الحرب: أما ان يؤسر بعدها واما ان يؤسر قبلها ويبقى حياً الى انتهائها، والآية الكريم واضحة في ذلك لقوله تعالى: (حتى إذا اتختموهم) وقوله: (بعد) واما قوله: (حتى تضع الحرب اوزارها) فيكون ما سبقه قرينة متصلة على فهمه فيحمل على أحد أمرين:

١- أن يكون معنى حتى: حين.

٢- أن يكون المعنى الانتهاء من الحرب وكل تبعاتها ونتائجها.

فإن بقي أسير عندئذ وجب اطلاقه بدون فداء، وانما التخيير المشار اليه ثابت قبل ذلك.

واما حذف الاسترقاق من الآية، فالآية ليست نافية له، بل هي قابلة للتقييد به، كما عليه الاجماع والسنة الشريفة.

ويقول ايضاً: ان الواجب ليس هو اطعام الأسير فقط، بل الرفق به والاحسان اليه، واطعام الأسير بعد تعميم فهمه يشمل الطعام والشراب واللباس وكل الحاجات الضرورية ... وليس هذا خاصاً بما إذا اريد قتله من الغد، بل نصت

الروايات على ذلك لأنه أسوأ التقادير، بل يشمل بطبيعة الحال ما إذا أريد إطلاقه أو فداؤه.

كما ينبغي ان نلاحظ ان اطلاقه مجاناً او بالفداء لا ينبغي ان يصيره الى ضرر، بل يجب أن يضمن له الأمان في الطريق الى أن يصل الى مأمنه.^(٦٥)

مبررات الاسترقاق

يقول الشيخ محمد قطب: (كان العرف السائد يومئذ هو استرقاق امري الحرب او قتلهم ... وجاء الإسلام والناس على هذا الحال، ووقعت بينه وبين اعدائه الحروب، فكان الأسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الإسلام، فتسلب حرياتهم، ويعامل الرجل منهم بالعسف والظلم الذي كان يجري يومئذ على الرقيق، وتنتهك اعراض النساء لكل طالب.

عندئذ لم يكن في وسع الإسلام أن يطلق سراح من يقع في يده من أسرى الاعداء، فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك باطلاق أسراه، بينما أهلك وعشيرتك واتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الاعداء، والمعاملة بالمثل هنا هي أعدل قانون تستطيع استخدامه، أو هي القانون الوحيد. وإذن فقد كانت ضرورة لا فكك للإسلام منها، مادام العدو مصراً على استرقاق الاسرى، والإسلام لا سلطان له عليه، ضرورة تظل قائمة حتى يتفق العالم على مبدأ آخر في معاملة هؤلاء الأسرى غير مبدأ الاسترقاق.

وظل الإسلام مضطراً الى عدم الغاء الرق حتى يتفق العالم كله على تخفيف هذا المنبع الوحيد الذي يعترف به الإسلام مبرراً للرق، وفي اللحظة التي يحدث فيها هذا الاتفاق يرجع الإسلام الى قاعدته العظمى التي قررها بصراحة كاملة لا موارد فيها وهي الحرية للجميع والمساواة للجميع.^(٦٦)

والرق والاسترقاق بدأ يتضاءل في العقد الأخير من القرن الأخير لتغير الظروف والاحوال السياسية والاجتماعية والعسكرية، وقد أدت التحولات المدنية والحضارية الى تضييقه وحسره في نطاق محدود، وهو تحول يبشر ببحر لتنظيم العلاقات بين الدول والأمم لتقوم على أساس السلمة والمودة والعدل، كما ان التطور التقني والفكري لا يساعد على عودة الرق بعد وضع قوانين جديدة لمعاملة الأسرى اتفقت عليها جميع دول العالم بما فيها الدول الإسلامية، وغاية ما توصلت اليه الدول من قوانين ومقررات لا يتعدى الأسس الثابتة التي وضعها الإسلام في التعامل بين الأمم وبين الدول، وفي الموقف من المقاتلين ومن الأسرى؛ حيث يوضع الأسرى في أماكن خاصة لحين انتهاء الحرب او اتفاق الدولتين المتحاربتين على تسوية الخلافات العالقة، اضافة الى ذلك فإن أغلب أماكن تواجد الأسرى موضوعة تحت اشراف الأمم المتحدة.

ومع كل ذلك فإن الأسير يبقى ضيفاً كريماً عزيزاً في ظل الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

الهوامش

- ١- الانفال / ٦١.
- ٢- كنز العمل، ج٤، ص٣٩١.
- ٣- البقرة / ١٩٠ - ١٩٢.
- ٤- الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٦١.
- ٥- تفسير المراغي، ج٢، ص٨٩.
- ٦- الحج / ٣٩، ٤٠.
- ٧- النساء / ٧٥.
- ٨- الانفال / ٧٢.
- ٩- تفسير المراغي، ج١٠، ص٤٣.
- ١٠- التوبة / ١٣.
- ١١- الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص١٥٩.
- ١٢- تفسير المراغي، ج١٠، ص٦٧.
- ١٣- البقرة / ١٩٣.
- ١٤- تفسير المراغي، ج٢، ص٩٠ - ٩١.
- ١٥- الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٦٢.
- ١٦- الانفال / ٥٨.
- ١٧- الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص١١٤.
- ١٨- تفسير المراغي، ج١٠، ص٢٢.
- ١٩- المنتحنة / ٨.
- ٢٠- النساء / ٩٠.
- ٢١- فقه الاخلاق، ج٢، صص ١٩٩٤ - ١٩٧.
- ٢٢ - الكافي، ج٥، ص٣٦.
- ٢٣ - النهاية، ص٢٩٢.
- ٢٤ - الكافي في الفقه، ص٢٥٦.
- ٢٥ - الهداية، ج٢، ص١٣٦.
- ٢٦ - تحرير الاحكام، ص١٧٢.
- ٢٧ - الكافي، ج٥، ص٢٨؛ مجمع الزوائد، ج٥، ص٣٦٦.
- ٢٨ - مسند الإمام زيد، ص٣١٣.

- ٢٩ - شرح نكت العبادات، ص ٣٩٨.
- ٣٠ - شرح نكت العبادات، ص ٣٩٧.
- ٣١ - العلة شرح العملة، ص ٦٥٥.
- ٣٢ - غاية المراد ج ١، ص ٤٨٢.
- ٣٣ - جواهر الكلام، ج ٢١، ص ٧٣.
- ٣٤ - الكافي، ج ٥، ص ٢٨.
- ٣٥ - ما وراء الفقه، ج ٢، ص ٢٧٢.
- ٣٦ - الكافي، ج ٥، ص ٣٠، وينجوه في: مجمع الزوائد، ج ٥، ص ٣٦٦.
- ٣٧ - الكافي في الفقه، ص ٢٥٦.
- ٣٨ - غاية المراد ج ١، ص ٤٨٢.
- ٣٩ - الكافي، ج ٥، ص ٢٩.
- ٤٠ - ما وراء الفقه ج ٢ قسم ٢: ٢٨٣، ٢٨٤.
- ٤١ - التوبة / ٦.
- ٤٢ - الكافي، ج ٥، ص ٣٠.
- ٤٣ - مسند الإمام زيد، ص ٣٦٤.
- ٤٤ - وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٦٨.
- ٤٥ - النهاية، ص ٢٩٨؛ غاية المراد ج ١، ص ٤٨٢؛ العلة شرح العملة، ص ٦٧٣.
- ٤٦ - الهداية، ج ٢، ص ١٣٩.
- ٤٧ - الاحكام، ج ٢، ص ٥١٠.
- ٤٨ - كنز العمل، ج ٤، ص ٢٦٥.
- ٤٩ - تصنيف غرر الحكم، ص ٢٥٢.
- ٥٠ - تصنيف غرر الحكم، ص ٢٥٣.
- ٥١ - صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٢٠.
- ٥٢ - سنن الأوزاعي، ص ٣٩٤.
- ٥٣ - الجامع الكبير، ج ١، ص ٨٥.
- ٥٤ - الكافي، ج ٥، ص ٣٦.
- ٥٥ - المهذب في فقه الإمام الشافعي، ج ٢، ص ٣٦٠.
- ٥٦ - السنن الكبرى، ج ٩، ص ٢٠٦.
- ٥٧ - سنن الأوزاعي، ص ٣٩٤.

- ٥٨ - صحيح البخاري، ج ٥، ص ٤٦٨، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٣٣.
٥٩ - جواهر الكلام، ج ٢٦، ص ٩٧.
٦٠ - السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٩٩.
٦١ - السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٠٤.
٦٢ - الكافي ج ٥، ص ٣٥.
٦٣ - الكافي ج ٥، ص ٣٥.
٦٤ - الكافي، ج ٥، ص ٣٣.
٦٥ - ما وراء الفقه، ج ٢، قسم ٢، ص ٢٧٥ - ٢٧٨.
٦٦ - شبهات حول الإسلام، ص ٥٠، ٥١، ٥٦.

الفهرس

ص	اسم المقال والكاتب
٥	المقدمة
٧	عالمية الإسلام / خالد سيف الله الرحماني
٤٣	عالمية الإسلام / الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان
٨٥	عالمية الإسلام / عبید الحق
٩٧	بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة / الأستاذ محمد المختار الملاي
١٢٦	العالمية والعولمة وموقف الأمة / الشيخ محمد علي التسخيري
١٥٧	أهمية الموقف الإسلامي الموحد ... / الشيخ الحاج عبدالهادي بن الحاج أوانج
٢٠٣	العدل .. والسلام العالمي / الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي
٢١٣	محورية التسامح في الإسلام / الشيخ أبو القاسم العلوي
٢٢٧	نحن والغرب والعولمة المضادة ... / الدكتور سمير سليمان
٢٥٣	العولمة الاستكبارية وسايكولوجية القسر والقهر / الشيخ فؤاد كاظم المقدادي
٢٦٥	العقلنة والواقعية / الشيخ نعيم قاسم

- ٣١٥ تحديثات العولمة وموقف الأمة / الدكتور مهدي مفتاح امبيرش
- ٣٢٧ رسالة المتكفين المسلمين ومفكري المذاهب ... / الدكتور عبدالرزاق قسّوم
- ٣٤٣ العولمة والأخلاق / الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي
- ٣٦١ أثر العولمة الثقافي على المجتمع الإسلامي / الدكتور عمر جاه
- ٣٩٩ الإسلام وتحديات العولمة / أ. سعد المنصوري
- ٣٣٥ العالمية في القرآن والسنة / أ. سعيد العذاري
- ٤٥١ أفاق أخرى في رسالة الوحدة الإسلامية / الدكتور محمد حبش
- ٤٦١ السلام العالمي مظهر لعالمية الاسلام / أ. شهاب الدين الحسيني